دعوة المسلمين للنصارى

في عصر الحروب الصليبية

تأليف الدكتور
سليمان بن عبد الله بن صالح الرومي
عضو هيئة التدريس في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

الجزء الأول

مكتبة الرشد
ناشرون

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

مكتبة الرشد - ناشرون
المملكة العربية السعودية - الرياض
شارع الأمير عبد الله بن عبد الرحمن (طريق الحجاز)
ص.ب.: ١٧٥٢٢ الرياض ١١٤٩٤ - هاتف: ٤٥٩٣٤٥١ - فاكس: ٤٥٧٣٣٨١
E-mail: alrushd@alrushdryh.com
Website: www.rushd.com

فروع المكتبة داخل المملكة

★ الريـــاض: فـرع طريـق المـلـك فهـد: هاتف: ٢٠٥١٥٠٠ - فاكس: ٢٠٥٢٣٠١
★ فـرع مكـة المكرمـة: شـــارع الطائــف: هاتف: ٥٥٨٥٤٠١ - فاكس: ٥٥٨٣٥٠٦
★ فرع المدينة المنورة: شـارع أبـي ذر الغـفـاري: هاتف: ٨٣٤٠٦٠٠ - فاكس: ٨٣٨٣٤٢٧
★ فـرع جـدة: ميـدان الطـائـرة: هاتف: ٦٧٧٦٣٣١ - فاكس: ٦٧٧٦٣٥٤
★ فـرع القصيـم: بـريـدة - طـريـق المدينـة: هاتف: ٣٢٤٢٢١٤ - فاكس: ٣٢٤١٣٥٨
★ فـرع أبـهـا: شـارع الملـك فـيصـل: تلفاكس: ٢٣١٧٣٠٧
★ فـرع الـدمـام: شـارع الخـزان: هاتف: ٨١٥٠٥٦٦ - فاكس: ٨٤١٨٤٧٣
★ فـرع حائـل: هـاتـف: ٥٣٢٢٢٤٦ - فـاكس: ٥٦٦٢٢٤٦

مكاتبـنا بالخـارج

★ القـاهـرة: مدينـة نصـر: هاتف: ٢٧٤٤٦٠٥ - موبايل: ٠١٠١٦٢٢٦٥٣
★ بـيروت: بئر حسن: هاتف: ٠١/٨٥٨٥٠١ - موبايل: ٠٣/٥٥٤٣٥٣ - فاكس: ٠١/٨٥٨٥٠٢

دعوة المسلمين للنصارى

في عصر الحروب الصليبية

تأليف الدكتور

سليمان بن عبد الله بن صالح الرومي

عضو هيئة التدريس في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

الجزء الأول

مكتبة الرشد

ناشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾[1].

وقال جلّ شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾[2].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾[3].

أما بعد:

فإن نبيّنا محمداً ﷺ بعث برسالة الإسلام إلى الناس كافةً كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[4] فبلغ الرسالة ونصح الأمة

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (١٠٢).

(٢) سورة النساء، الآية: (١).

(٣) سورة الأحزاب، الآية: (٧٠ ـ ٧١).

(٤) سورة سبأ، الآية: (٣٢).

وجاهد في الله حق جهاده، وقام بذلك من بعده صحابته الكرام رضوان الله عليهم وتابعهم سلف هذه الأمة بهدي من كتاب الله ومن سنة المصطفى ﷺ فكانت الدعوة إلى الإسلام هي رسالة هذه الأمة ومهمتها في هذه الأرض على مر العصور.

ولا شك إن دراسة أحوال الدعوة في تاريخ الأمة واستجلاء ما يتعلق بها من مناهج وأساليب ووسائل، وإيضاح عوامل نجاحها وسبل مواجهتها للمشكلات التي تعوق استمرارها يفيد في حاضر الأمة؛ إذ يوفر لها دروساً وتجارب تساعدها في الوقت الحاضر على النهوض بواجب الدعوة بنجاح بإذن الله.

لذلك جعلت بحثي في مرحلة الدكتوراة ـ بإذن الله ـ يتناول فترة تاريخية مهمة في التاريخ الدعوي للأمة، وهي فترة الحروب الصليبية وبالتحديد دعوة المسلمين للنصارى في هذه الفترة.

١ ـ التعريف بمفردات عنوان البحث.

أولاً: تعريف الدعوة:

أ ـ التعريف اللغوي للدعوة:

الدعوة في اللغة مصدر للفعل الثلاثي دَعَا يَدْعُو دَعْوَةً. وتطلق هذه الكلمة ويراد بها عدة معانٍ منها:

١ ـ الابتهال والدعاء، فهي المرة الواحدة من الدعاء، والدعاء واحد الأدعية[(١)]. وهو «الرغبة إلى الله تعالى»[(٢)]. و«دعوت الله أدعوه دعاءً ابتهلت إليه بالسؤال ورغبت فيما عنده من الخير»[(٣)]. ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ

---

(١) انظر: لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤ م، مادة / دعا، (١٤/٢٥٨).

(٢) القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م، مادة/ دعا، ص (١٦٥٥).

(٣) المصباح المنير، أحمد بن محمد الفيومي، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٧ م، ص (٧٤).

رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1].

٢ ـ النداء والطلب. يقال: دعا الرجل دعواً، ودعاه أي ناداه، والاسم الدعوة. ودعوت فلاناً أي صحت به واستدعيته[2]. و«دعا بالشيء دعواً ودعوةً ودعاءً ودعوى: أي طلب إحضاره»[3]. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾[4].

٣ ـ وتطلق الدعوة على ما دعوت إليه من طعام وشراب[5].

٤ ـ ويقصد بها الآذان. فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«من قال حين يسمع النداء: اللهمّ رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته. حلت له شفاعتي يوم القيامة»**[6].

٥ ـ وتأتي كلمة الدعوة بمعنى محاولة إمالة الناس إلى دين أو مذهب أو نحلةٍ. جاء في معجم مقاييس اللغة: «(دَعَوَ) الدال والعين والحرف المعتل أصل واحد هو أن تميل الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك. تقول: دعوت أدعو دعاءً»[7].

وجاء في اللسان: «الدعاة قوم يدعون إلى بيعة هدى أو ضلالة، واحدهم داعٍ ورجل داعية إذا كان يدعو الناس إلى بدعة أو دين. أدخلت الهاء فيه

---

(١) سورة غافر، الآية: (٦٠).

(٢) انظر: لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، مادة/ دعا (١٤/ ٢٥٨).

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية، (١/ ٢٨٦).

(٤) سورة القصص، الآية: (٢٥).

(٥) انظر: لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، مادة/ دعا (١٤/ ٢٦٠).

(٦) أخرجه البخاري، الصحيح، كتاب الأذان، باب الدعاء عند الأذان، رقم الحديث (٦١٤)، ص (١٣٤)، وكتاب التفسير، باب ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ سورة الإسراء، الآية: (٧٩). رقم الحديث: (٤٧١٩)، ص (٩٠٨).

(٧) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق د. عبد السلام هارون، دار الفكر، مادة: دعو (٢/ ٢٧٩).

للمبالغة. والنبيّ ﷺ داعي إلى الله تعالى، وكذلك المؤذن»[١]. و«دعاه إلى الدين والمذهب حثه على اعتقاده»[٢].

وتكون الدعوة إلى الحق كما تكون إلى الباطل.

فمن الدعوة إلى الحق، قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾[٣].

أي: «يدعوكم إلى داره وهي جناته التي أعدها لأوليائه»[٤]. وكتاب النبيّ ﷺ إلى هرقل[٥] الروم يدعوه فيه إلى الإسلام، وفيه: «... أدعوك بدعاية الإسلام...»[٦] أي إلى اعتناق الإسلام.

ومن الدعوة إلى الباطل حكاية القرآن عن يوسف عليه السلام قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾[٧] أي طاعة النسوة والوقوع في الإثم.

ومن خلال ما سبق يتضح أن المعنى اللغويّ للدعوة يدور حول الطلب والمناداة والدعاء والحث على فعل الشيء وقصده.

ب ـ التعريف الاصطلاحي للدعوة:

يمكن التمييز في تعريف الدعوة بين ثلاثة مصطلحات هي: دعوة الإسلام، والدعوة إلى الإسلام، وعلم الدعوة.

---

(١) لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، مادة/ دعا (١٤/ ٢٥٩).

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مادة/ دعا (١/ ٢٨٦).

(٣) سورة يونس، الآية: (٢٥).

(٤) جامع البيان، محمد بن جرير الطبري، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، ١٤٠٨ هـ، المجلد السابع، الجزء الحادي عشر، ص (١٠٣).

(٥) هِرْقِل. من ملوك الروم، أو هو ملك الروم ويقال: هِرَقْل. انظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة /هرقل، (١١/ ٦٩٤)، والهِرْقِل المنخُل وهِرَقَل اسم لملك الروم. انظر: المعجم الوسيط، إعداد: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (٢/ ٩٨٢).

(٦) أخرجه البخاري، الصحيح، كتاب بدء الوحي، باب حديث جبريل عند هرقل، رقم الحديث (٧)، ص (٢٤). وكتاب الجهاد والسير، باب دعوة اليهود والنصارى، رقم الحديث (٢٩٤١)، ص (٥٦٥).

(٧) سورة يوسف، الآية: (٣٣).

فدعوة الإسلام تعني الدين الإسلامي بعمومه.

وبهذا المعنى عرفها بعضهم بقوله: «هي دين الله الذي بعث به الأنبياء جميعاً تجدد على يد محمد ﷺ خاتم النبيّين كاملاً وافياً لصلاح الدنيا والآخرة...»[١].

وقيل: «هي الدين الذي ارتضاه الله للعالمين وأنزل تعاليمه وحياً على رسول الله ﷺ وحفظها في القرآن الكريم وبينتها السنة»[٢].

والدعوة إلى الإسلام بمعنى النشر والتبليغ عرفها شيخ الإسلام ابن تيمية[٣] بقوله: «هي الدعوة إلى الإيمان بالله وبما جاءت به رسله بتصديقهم فيما أخبروا به وطاعتهم فيما أمروا وذلك يتضمن الدعوة إلى الشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت والدعوة إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والإيمان بالقدر خيره وشره والدعوة إلى أن يعبد الله ربه كأنه يراه»[٤].

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ

---

(١) الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، محمد الراوي، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤١١ هـ، ص (٣٩).

(٢) الدعوة إلى الله، توفيق الواعي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ، ص (١٨ ـ ١٩).

(٣) هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبدالله بن تيمية الحراني الدمشقي، ولد في حران بالشام سنة ٦٦١ هـ، ومات في دمشق سنة ٧٢٨ هـ. آية في التفسير والأصول والعقيدة، والفقه وكثير من الفنون الأخرى، أفتى ودرس وهو دون العشرين، جاهد بنفسه وقلمه في قمع البدعة والدعوة إلى منهج السلف في العقيدة، وتصدى للمبتدعة في زمنه.

انظر: البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م، (١٤/١٤١ ـ ١٤٦)، والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، محمد بن علي الشوكاني، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، (١/٦٣)، وما بعدها.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد، طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة (١٥/١٥٨).

اتَّبَعَنِي﴾[1]. قال الشوكاني[2]: «أي الدعاء إلى الإيمان به وتوحيده والعمل بما شرعه لعباده»[3].

وقال ابن سعدي[4]: «أدعو إلى الله أي أحث الخلق والعباد على الوصول إلى ربهم وأرغبهم في ذلك، وأرهبهم مما يبعدهم عنه»[5].

وقيل: «هي إبلاغ الناس دعوة الإسلام في كل زمان ومكان بالأساليب والوسائل التي تتناسب مع أحوال المدعوين»[6].

---

(١) سورة يوسف، الآية: (١٠٨).

(٢) هو محمد بن علي بن محمد بن عبدالله الشوكاني، ولد بقرية شوكان في اليمن، سنة ١١٧٣ هـ ومات سنة ١٢٥٠ هـ. عالم جليل كثير المؤلفات في الحديث والتفسير والفقه، من كتبه: نيل الأوطار في الحديث، وفتح القدير في التفسير، وإرشاد الثقات وغيرها.
(انظر: معجم المفسرين من صدر الإسلام إلى العصر الحاضر، عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، الطبعة الأولى، ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م، ص (٥٩٣)، ومقدمة سعيد محمد لحام في تحقيقه لكتاب فتح القدير، المكتبة التجارية، مكة المكرمة (١/ ٩).

(٣) فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، تعليق سعيد بن محمد اللحام، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، الطبعة الثانية ١٤١٣ هـ، (٣/ ٨٥).

(٤) هو عبد الرحمن بن ناصر بن عبدالله آل سعدي التميمي، ولد في عنيزة عام ١٣٠٧ هـ ومات فيها سنة ١٣٧٦ هـ. عالم جليل برع في التفسير والفقه. من أبرز مؤلفاته في التفسير كتابه تيسير الكريم الرحمن، ومن كتبه: القواعد الحسان لتفسير القرآن، والحق الواضح المبين في شرح توحيد المرسلين، والقول السديد في مقاصد التوحيد وغيرها.
انظر: الشيخ عبد الرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة للدكتور عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ، ١٩٩٠ م، والأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثامنة، ١٩٨٩ م، (٣/ ٣٤٠)، وترجمته بقلم أحد تلاميذه في تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، طبع مركز صالح بن صالح الثقافي، عنيزة، الطبعة الثانية، ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢ م، (١/ ٥ ـ ٩).

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي، (٤/ ٦٣).

(٦) مستلزمات الدعوة في العصر الحاضر، علي صالح المرشد، مكتبة لينة، دمنهور، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م، ص (٢١).

ومن خلال التعريفات السابقة وغيرها يمكن أن تعرف الدعوة بمعنى النشر بأنها تبليغ الإسلام للناس وترغيبهم فيه بالوسائل والأساليب المشروعة ابتغاء مرضاة الله والفوز بسعادة الدارين.

حيث يُنَص في هذا التعريف على عملية تبليغ الإسلام والترغيب فيه، وأن يكون ذلك بوسائل وأساليب منضبطة بالضابط الشرعي احترازاً مما سواها، مع بيان الغاية والمقصد من عملية التبليغ وذلك إخراجاً لما قد يكون من استغلال في كثير من الجهود الدعوية في تحقيق مقاصد أخرى.

أما الدعوة بوصفها علم قائم بذاته فقيل: «فن يبحث في الكيفيات المناسبة التي نجذب بها الآخرين إلى الإسلام أو يُحافظ على دينهم بواسطتها»(١).

وقيل: «العلم الذي به تعرف كافة المحاولات الفنية المتعددة الرامية إلى تبليغ الناس الإسلام بما حوى من عقيدة وشريعة وأخلاق»(٢).

وقد جاء معنى الدعوة في هذا البحث بمعنى النشر والتبليغ.

فالمقصود بالعنوان: ـ دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية ـ الجهود المختلفة التي بذلها المسلمون في فترة الحروب الصليبية تجاه النصارى إعلاءً لكلمة الله بطلب هدايتهم إلى الإسلام، أو رغبة في إظهار محاسنه لهم، أو إبطال شبهاتهم حوله، أو رد كيدهم عنه. سواء كانت هذه الجهود مباشرةً أو غير مباشرة، أو أنهم تأثروا بها أو لم يتأثروا.

ثانياً: تعريف المسلمين:

أ ـ التعريف اللغوي للمسلمين:

«المسلمون» لغةً جمع «مسلم»، اسم الفاعل من الفعل الرباعي «أسلم»

---

(١) الدعوة والإنسان، د. عبدالله الشاذلي، المكتبة القومية الحديثة، طنطا، الطبعة الأولى، ص (٣٩).

(٢) الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها، أحمد غلوش، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٧م، ص (١٠).

بمعنى: انقاد وصار مسلماً[١]، و«الإسلام والاستسلام: الانقياد»[٢].

فالمسلم هو المستسلم لأمر الله، المخلص له العبادة، من قولهم سَلَّمَ له الشيء أي أخلص له[٣].

فعلى المعنى اللغوي للإسلام، كل ما في السموات والأرض منقاد خاضع لأمر الله تحت مشيئته وحكمه كما قال تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾[٤].

أي: «استسلم وانقاد وخضع وذل، وكل مخلوق فهو مستسلم؛ لأنه مجبول على ما لا يقدر أن يخرج عنه»[٥].

وإذا كان المسلم هو المستسلم لأمر الله المخلص العبادة له، فأتباع الأنبياء جميعاً المخلصون العبادة لله يطلق عليهم مسلمون.

حيث قال سبحانه وتعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾[٦] أي: «أَخْلِص لي العبادة واخضع لي بالطاعة»[٧]. معنى قوله: «أسلمت لرب العالمين» أي «أخلصت العبادة لمالك جميع الخلائق ومدبرها دون غيره»[٨].

وبهذه الكلمة وهي قوله: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: «إخلاص العبادة

---

(١) القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مادة/ سَلَمَ، ص (١٤٤٨).

(٢) لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، مادة/ سَلَمَ (١٢/ ٢٩٣).

(٣) انظر: المصدر السابق، مادة/ سَلَم (١٢/ ٢٩٣).

(٤) سورة آل عمران، الآية: (٨٣).

(٥) الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤١٧ هـ، ١٩٩٦ م، المجلد الثامن، الجزء الرابع، ص (٨٢).

(٦) سورة البقرة، الآية: (١٣١).

(٧) جامع البيان، محمد بن جرير الطبري، المجلد الأول، الجزء الأول، ص (٥٦٠).

(٨) المصدر السابق، المجلد الأول، الجزء الأول، ص (٥٦٠).

والتوحيد لله وخضوع القلب والجوارح لله»[1]، بهذه الكلمة وصى إبراهيم بنيه وكذلك يعقوب عليه السلام[2]. قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾[3].

وعن يوسف عليه السلام يقول سبحانه وتعالى: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[4]. أي: «توفني على طاعتك»[5].

وعن الحواريين أتباع عيسى عليه السلام قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾[6]. أي: «واشهد علينا بأننا خاضعون لك بالذلة سامعون مطيعون لأمرك»[7].

وعلى ذلك فالمسلمون لغة هم المنقادون المستسلمون لأمر الله المخلصون العبادة له سبحانه سواء كانوا من أتباع محمد ﷺ أو من أتباع الأنبياء السابقين.

ب ـ التعريف الاصطلاحي للمسلمين:

المسلمون اصطلاحاً نسبة إلى دين الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ.

وعلى هذا المعنى جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[8] أي: «ما أنت عليه يا محمد من التوحيد والتصديق بالرسل»[9].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[10] أي: من

---

(١) جامع البيان، محمد بن جرير الطبري، المجلد الأول، الجزء الأول، ص (٥٦٠).

(٢) انظر: المصدر السابق، المجلد الأول، الجزء الأول، ص (٥٦٠).

(٣) سورة البقرة، الآية: (١٣٢).

(٤) سورة يوسف، الآية: (١٠١).

(٥) جامع البيان، محمد بن جرير الطبري، المجلد الثامن، الجزء الثالث عشر، ص (٧٤).

(٦) سورة المائدة، الآية: (١١١).

(٧) جامع البيان، محمد بن جرير الطبري، المجلد الخامس، الجزء السابع، ص (١٢٨).

(٨) سورة آل عمران، الآية: (١٩).

(٩) جامع البيان، محمد بن جرير الطبري، المجلد الثالث، الجزء الثالث، ص (٢١٢).

(١٠) سورة آل عمران، الآية: (٨٥).

يبتغ غير ما جاء به محمدﷺ. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1]. قال القرطبي: «والإسلام في هذه الآية هو الذي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ وهو الذي يفسر في سؤال جبريل للنبيّﷺ، وهو الإيمان والأعمال والشعب»[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فالإسلام الخاص هو الذي بعث به محمدﷺ. والإسلام المتضمن لشريعة القرآن، ليس عليه إلا أمة محمدﷺ. والإسلام اليوم عند الإطلاق يتناول هذا...»[3].

إذن فكلمة الإسلام عند الإطلاق تعني شريعة محمدﷺ.

وعلى ذلك فالمسلمون اصطلاحاً هم المتبعون لمحمدﷺ المؤمنون برسالته سواء كانوا ملتزمين بذلك أو مفرطين.

حيث إن هؤلاء الذين أثبت لهم القرآن والسنّة الإسلام دون الإيمان اختلف العلماء فيهم، هل هم مسلمون أم منافقون، ورأي الجمهور من السلف والخلف بأن معهم بعض الإسلام المقبول[4].

فالمسلم يبقى في دائرة الإسلام ومنتسباً إليه وإن كان مفرطاً ما لم يأت بما يخرجه من الملة.

---

(١) سورة المائدة، الآية: (٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، المجلد الثالث، الجزء السادس، ص (٤٣).

(٣) التدمرية، أحمد بن تيمية، تحقيق محمد بن عودة السعوي، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م، ص (١٧٣).

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد (٧/ ٤٧٥ - ٤٧٦).

ثالثاً: تعريف النصارى:

أ ـ التعريف اللغوي للنصارى:

النصارى جمع نصراني، وهم المنسوبون إلى نصرى وناصرة ونصورية[١] قرية بالشام[٢].

وقال في القاموس: «نصرانة، ويقال لها: ناصرة ونصورية ينسب إليها النصارى»[٣].

قال ابن جرير الطبري[٤]: «النصارى جمع، واحدهم نصران، كما واحد سكارى سكران... إلا أن المستفيض من كلام العرب في واحد النصارى نصراني...»[٥].

---

(١) الناصرة: مدينة تقع في شمال فلسطين في الوقت الحاضر جنوب مدينة الجليل وفيها كان مولد المسيح عليه السلام.

انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، تحقيق فريد الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ م، (٥/ ٢٩١)، وأطلس تاريخ العالم، د. حسين مؤنس، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م، ص (٤١٦) وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، مكتبة لبنان، بيروت، ص (٤٧).

(٢) انظر: لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، مادة/ نصر (٥/ ٢١١).

(٣) القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مادة /نصر، ص (٦٢٢).

(٤) هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري، مولده في آمل في طبرستان سنة ٢٢٤ هـ، ومات في بغداد سنة ٣١٠ هـ، كان مجتهداً في أحكام الدين نبغ في التفسير والتاريخ، من أشهر كتبه: جامع البيان في التفسير، وأخبار الرسل والملوك في التاريخ، وله كتاب اختلاف الفقهاء، والقراءات وغيرها.

انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الحادية عشرة، ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦ م، (١٤/ ٢٦٧)، ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أحمد بن محمد بن خلكان، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م، (٤/ ١٩١).

(٥) جامع البيان، محمد بن جرير الطبري، المجلد الأول، الجزء الأول، ص (٣١٨).

وقولهم: إن النصارى جمع نصراني ونصرانة إنما ذلك على الأصل، والمستعمل في الكلام نصراني ونصرانية[1].

وسبب تسميتهم (النصارى)، قيل: لتناصرهم فيما بينهم، وقيل: لقول عيسى عليه السلام: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[2]. وقيل: نسبة إلى قرية عيسى عليه السلام واسمها ناصرة، وكان أصحابه يسمون بالناصريين، وكان يقال لعيسى: الناصري[3].

ب ـ التعريف الاصطلاحي للنصارى:

وبما أن كلمة ـ النصارى ـ في التعريف اللغوي نسبة إلى قرية الناصرة قرية عيسى عليه السلام، أو نسبة إلى نصرته؛ فإن كل من أعلن انتماءه لديانة عيسى عليه السلام فهو نصراني سواء كان متمسكاً بدينه أو مفرطاً فيه[4].

لذلك يمكن أن يقال في التعريف الاصطلاحي للنصارى:

هم أتباع ديانة المسيح[5] عيسى ابن مريم عليه السلام سواء كانوا متمسكين بديانتهم أو مفرطين.

---

(١) انظر: لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، مادة/ نصر (٥/ ٢١٢).

(٢) سورة الصف، الآية: (١٤).

(٣) انظر: جامع البيان، محمد بن جرير الطبري، المجلد الأول، الجزء الأول، ص (٣١٨). والجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، المجلد الأول، الجزء الأول، ص (٢٩٤)، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، محمد بن محمد العمادي، «أبو السعود»، دار إحياء التراث، بيروت، المجلد الأول، الجزء الأول، ص (١٠٨).

(٤) قد عدّ ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ اليهودي والنصراني من أهل الكتاب سواء كان متمسكاً بدينه أو مفرطاً فيه. انظر: أحكام أهل الذمة، ابن القيم، ص (٦٥).

(٥) سمي عيسى ابن مريم عليه السلام بالمسيح، قيل: لأن الله مسحه فطهره من الذنوب، وقيل: مُسح بالبركة، انظر: جامع البيان، محمد بن جرير الطبري، المجلد الثالث، الجزء الثالث ص (٢٧٠). وقيل: لأنه كان لا يمسح ذا عاهةٍ إلا برىء، أو لأنه مسح الأرض أي ذهب فيها فلم يستكن بكن. انظر: الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، المجلد الثاني، الجزء الرابع، ص (٥٧).

وقد أُطلق على أتباع عيسى عليه السلام في القرآن والسنّة ـ النصارى ـ فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾[1]، وقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾[2] إلى غير ذلك من الآيات.

وفي السنّة قوله ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه، وينصرانه أو يمجسانه...**»[3]، فينصرانه نسبة إلى النصرانية، والمنتسبون إليها يسمون نصارى.

والنصارى يسمون أنفسهم بالمسيحيين نسبة إلى المسيح عليه السلام. ويسمون ديانتهم بالمسيحية، ولم ترد هذه التسمية في القرآن ولا في السنّة.

وأول إطلاق هذه التسمية عليهم قيل: في القرن الثالث الميلادي[4]، وقيل: قبل ذلك في عام ٤٢ م في أنطاكية[5]. ويرى البعض أن ذلك كان من باب الشتم لهم[6].

ولذلك إنهم فرقة مخالفة للمجتمع الذي ظهر فيه عيسى عليه السلام وأتباعه، حيث

---

(١) سورة البقرة، الآية: (٦٢).

(٢) سورة البقرة، الآية: (١١٣).

(٣) أخرجه البخاري، الصحيح، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، حديث رقم (١٣٨٥)، ص (٢٦٨)، وفي صحيح مسلم بنحوه، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، حديث رقم (٢٦٥٨)، ص (١٠٦٦).

(٤) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، إشراف: د. مانع الجهني، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة، ١٤١٨ هـ (٢/ ١١٥٦).

(٥) مدينة تاريخية تقع حالياً في الشمال الغربي لسوريا قرب الحدود التركية (انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، تحقيق فريد الجندي، (١/ ٣١٦)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون ص (٤١)، والمنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت، الطبعة الحادية والعشرون، ص (٧٦ ـ ٧٧).

(٦) انظر: قاموس الكتاب المقدس، نخبة من علماء اللاهوت النصارى، دار الثقافة المسيحية، الطبعة الثانية، ص (٨٨٩).

سيطرة الرومان الوثنيين وعداء اليهود الشديد لعيسى عليه السلام وأتباعه، وسعيهم لدى الرومان في قتله.

ولذلك فالأولى أن يسموا بما سماهم القرآن ـ النصارى ـ قال سماحة الشيخ ابن باز[1] ـ رحمه الله تعالى ـ «... فالأولى أن يقال لهم: نصارى كما سماهم الله سبحانه وتعالى»[2].

رابعاً: تعريف الحروب الصليبية:

يتفق المؤرخون على إطلاق مصطلح ـ الحروب الصليبية ـ على تلك الحروب التي انبعثت من غرب أوربا باتجاه الشرق الإسلامي خلال فترة العصور الوسطى[3]. ويختلفون في تحديد مدتها.

---

(١) هو عبد العزيز بن عبدالله بن عبد الرحمن بن محمد آل باز، ولد في الرياض سنة ١٣٣٠ هـ، وتوفي في مكة ودفن بها سنة ١٤٢٠ هـ. عالم زاهد متبحر في الحديث والفقه، قضى حياته في التعليم والإفتاء والدعوة، عمل في القضاء والتدريس، ثم عين رئيساً للجامعة الإسلامية ثم تولى رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء حيث تغير مسمى هذه الوظيفة إلى مفتي عام المملكة. إلى جانب ذلك كله فقد كان ـ رحمه الله تعالى ـ عضواً في كثير من مجالس الهيئات والمؤسسات الإسلامية.

انظر: الشيخ عبد العزيز بن باز نموذج من الرعيل الأول، عبد المحسن بن حمد العباد البدر، دار ابن القيم، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠٠ م. وأمة في رجل، ملحق خاص عن سماحة الشيخ ابن باز في جريدة المدينة بتاريخ الرابع من شهر صفر عام ١٤٢٠ هـ، الموافق التاسع عشر من شهر مايو لعام ١٩٩٩ م.

(٢) مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، لسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، جمع وإشراف: محمد بن سعد الشويعر، طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض ١٤١٢ هـ (٥/٤١٦).

(٣) انظر: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، د. فايد حماد عاشور، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م، ص (٧٧). والوحدة وحركات اليقظة العربية إبان العدوان الصليبي، د. جوزيف نسيم، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١ م، ص (٧)، والحركة الصليبية، د. سعيد عاشور، مكتبة الإنجلو مصرية، القاهرة، الطبعة السادسة، ١٩٩٤ م، ص (٢٦)، والدعوة إلى الإسلام، توماس آرنولد، ترجمة د. حسن

فبينما ذهب الأغلبية إلى أن فترة هذه الحروب كانت لقرنين من الزمان ـ السادس والسابع الهجريين، الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين[1] ـ يذهب آخرون إلى أنها امتدت إلى القرن الخامس عشر الميلادي[2].

وجعل بعض الباحثين كل حرب بين المسلمين والنصارى حروباً صليبيةً، فأدخل كل الحروب التي وقعت بين الطرفين إلى الوقت الحاضر تحت هذا المصطلح[3].

وعد البعض الحروب الصليبية بأنها الحروب التي ترعاها البابوية غير مرتبطة بزمن معين أو مكان محدد[4].

ثم اختلف الباحثون في تفسير هذه الحروب بالنظر إلى أسبابها هل هي دينية أم سياسية أم اجتماعية واقتصادية.

فالمؤرخون المسلمون والأوروبيون المعاصرون لها أو بعدها بفترة زمنية قصيرة يرون أنها حرب دينية قام بها النصارى لاستخلاص بيت المقدس من المسلمين[5].

إبراهيم حسن وآخرين مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٧٠ م، ص (١٠٨)، والحروب الصليبية، آرنست باركر، ترجمة د. السيد الباز العريني، دار النهضة، بيروت، الطبعة الرابعة، ص (٩).

(١) انظر: تاريخ الحروب الصليبية، د. محمود سعيد عمران، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٨ م، ص (١٧)، وأثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوربي خلال الحروب الصليبية، د. عبدالله بن عبد الرحمن الربيعي، الرياض، ١٤١٥ هـ، ١٩٩٤ م، (ص ٢٢).

(٢) انظر: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، د. فايد حماد عاشور، ص (٧٧).

(٣) انظر: الغزو الصليبي والعالم الإسلامي، د. علي عبد الحميد محمود، شركة عكاظ للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة الثانية، ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م، ص (١٣)، والحروب الصليبية في المشرق والمغرب، محمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٢ م، ص (١٤٠). والحرب الصليبية الأولى، د. حسن حبشي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٤٧ م، ص (١٧ ـ ١٨).

(٤) انظر: العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، د. جوزيف نسيم، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١ م.

(٥) سيأتي تفصيل ذلك في المبحث الرابع في الفصل التمهيدي.

أما المؤرخون المعاصرون فرأى البعض منهم أنها نابعة من حركة الإحياء الديني في أوربا التي بلغت أوجها خلال القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي مما أدى إلى تقوية مركز البابوية وإثارة الحماس الديني في نفوس الناس[1]. فاستغلت البابوية هذا الحماس في الدعوة إلى شنّ حروب دينية شعارها الصليب ضد المسلمين في الشرق بدعوى تحرير قبر المسيح، ونجدة النصارى في الشرق، ورد الخطر الإسلامي المحدق بالقسطنطينية[2].

ويؤيد هذا الرأي موقف البابوية في أوربا من هذه الحروب. فقد دعا البابا سلفستر الثاني[3] في عام ٣٩١ هـ ـ ١٠٠١ م إلى مثل هذه الحروب وذلك من أجل إنقاذ بيت المقدس[4][5]. أي قبل بداية هذه الحروب الفعلية بأربع وتسعين سنة تقريباً.

---

(١) انظر: الحروب الصليبية، آرنست باركر، ترجمة: السيد الباز العريني، ص (٩).

(٢) القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية، تقع على مضيق البسفور، أسسها قسطنطين الأول سنة ٣٣٠ م، وفتحها العثمانيون سنة ٨٥٧ هـ على يد السلطان محمد الفاتح الذي جعلها عاصمة للدولة العثمانية وسماها ـ إسلام بول ـ أي مدينة الإسلام.

انظر: بدائع الزهور في وقائع الدهور، محمد بن أحمد الحنفي، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية، ١٤٠٣ هـ (٢/ ٣١٦)، وتاريخ الدولة العثمانية، أور نايلماز، ترجمة عدنان محمود سليمان وزميله، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، إستانبول ص (١٤٠)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس، ص (٥٤٣)، وص (٣٥٨).

(٣) سلفستر الثاني تولى البابوية من عام ٣٨٩ هـ ـ ٩٩٩ م إلى ٣٩٣ هـ ـ ١٠٠٣ م، كان من علماء عصره وقد شجع ترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية.

انظر: شمس العرب تسطع على الغرب، زيغريد هونكه، ترجمة فاروق بيضون وزميله، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثامنة، ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣ م، ص (٨٠)، والمنجد في اللغة والأعلام، ص (٣٠٥).

(٤) انظر: قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة محمد بدران، طبع الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية الجزء الرابع من المجلد الرابع، ص (١٤).

(٥) القدس أو بيت المقدس هي أورشليم القديمة أي مدينة السلام ـ بالعبرية ـ تقع في وسط فلسطين تقريباً، سماها الرومان إيليا، وأطلق عليها المسلمون بيت المقدس أو القدس، وكان فتحها في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة ١٦ هـ.

ثم ثورة البابوية لما قام الحاكم بأمر الله العبيدي[1] سنة٣٩٨ هـ (١٠٠٧ م) بهدم كنيسة القيامة في القدس[2].

ثم تحريض البابا بنيدكت[3] الثامن على استيلاء البيازنة[4] على سردينية[5] الجزيرة الإسلامية عام ٤٠٦ هـ ـ ١٠١٦ م ومباركة الكنيسة لذلك.

ثم تزعم البابا إسكندر الثاني[6] حرب الاستيلاء على صقلية[7] المسلمة عام

انظر: فتوح البلدان، أحمد بن يحيى البلاذري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨ هـ، ص (١٤٤ ـ ١٤٥)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس، ص (٤١٥)، ووثيقة القدس، منظمة المؤتمر الإسلامي، لجنة القدس، ١٩٨٤ م، ص (٢٩)، وما بعدها.

(١) هو منصور بن العزيز نزار بن المعز معد بن المنصور إسماعيل العبيدي الزنديق صاحب مصر، كان مولده سنة ٣٧٥ هـ، كان شيطاناً مريداً عنيداً عظيم المكر كثير التلون ولي أمر مصر بعد وفاة أبيه وله إحدى عشرة سنة، اغتيل واختفى أثره سنة إحدى عشرة وأربعمائة.
انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي، (١٥/ ١٧٣)، وما بعدها، والكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م، (٧/ ٦٥٨) وما بعدها.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (١٥/ ١٧٤)، وتاريخ الحروب الصليبية، د. محمود سعيد عمران، ص (٢١).

(٣) بنيدكت الثامن تولى البابوية من سنة ٤٠٢ هـ ـ ١٠١٢ م إلى سنة ٤١٤ هـ ـ ١٠٢٤ م.
انظر: الحروب الصليبية، آرنست باركر، ص (١٨)، وأوربا العصور الوسطى، د. سعيد عبد الفتاح عاشور (١/ ٦٦١).

(٤) نسبة إلى مدينة بيزا في شمال إيطاليا، وكان لهذه المدينة في فترة الحروب الصليبية نشاط تجاري واسع.
انظر: أوربا العصور الوسطى، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، مكتبة الإنجلو مصرية، القاهرة، الطبعة العاشرة، ١٩٨٦ م (١/ ٤٤١)، والمنجد في اللغة والأعلام، ص (١٥٩).

(٥) هي جزيرة تقع مقابل الساحل الغربي لإيطاليا وتتبع لها سياسياً في الوقت الحاضر.
انظر: أطلس العالم، د. محمد سيد نصر وآخرون، ص (٧٩)، والمنجد في اللغة والأعلام، ص (٢٩٩).

(٦) إسكندر الثاني، تولى البابوية من سنة ٤٥٢ هـ ـ ١٠٦١ م إلى سنة ٤٦٥ هـ ـ ١٠٧٣ م.
انظر: أوربا العصور الوسطى، د. سعيد عبد الفتاح عاشور (١/ ٦٦١).

(٧) جزيرة تقع جنوب إيطاليا في البحر المتوسط. انظر: أطلس العالم، محمد سيد نصر

٤٨٢ هـ ـ ١٠٩٠ م. أي قبل بداية الحروب الصليبية بخمس سنوات تقريباً.

وأخيراً فزع الكنيسة في روما[(١)] من سيطرة السلاجقة[(٢)] المسلمين على آسيا الصغرى[(٣)] وتهديدهم المباشر للقسطنطينية مما جعل البابا جريجوري السابع[(٤)] يدعو الغرب إلى إرسال حملة كبيرة لاسترداد آسيا الصغرى من السلاجقة

وآخرون، ص (٧٩)، والمنجد في اللغة والأعلام، ص (٣٤٦)، فتحها المسلمون سنة ٢١٢ هـ وزال نفوذهم منها سنة ١٠٥٢ م.

(١) تقع في وسط إيطاليا، وهي عاصمتها بل وعاصمة النصرانية حيث تضم الفاتيكان مقر البابوية.
انظر: أطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٧٩)، والمنجد في اللغة والأعلام، ص (٢٧٠).

(٢) السلاجقة: أسرة تركية الأصل من بلاد ما وراء النهر، تنسب إلى جدها الأول سلجوق، وكان مبدأ ظهورهم سنة ٤٢٩ هـ على يد طغرل بك الذي عظم سلطانه واستولى على بلاد فارس والعراق، وكان دخوله بغداد سنة ٤٤٧ هـ نجدة للخليفة العباسي ضد سلاطين بني بويه حيث تولى السلطنة وأزال البويهيين وأحسن للخليفة وأعاد هيبة الخلافة ومكن للسنة، وتتابع بعد ذلك السلاطين من السلاجقة في بغداد حتى زال سلطانهم منها عام ٥٤٧ هـ وورثهم في أطراف الخلافة ما يعرف بدول الأتابكة.
انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٨/ ٥، و١٥٥)، والبداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين (١٢/ ٤٦ و٧٠). وسير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي، (١٨/ ١٠٧).

(٣) شبه جزيرة تقع في غرب آسيا تشمل حالياً معظم الأراضي التركية.
انظر: أطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون ص (٦٨)، والمنجد في اللغة والأعلام، ص (٥٠).

(٤) البابا جريجوري السابع تولى البابوية من عام ٤٦٥ هـ ـ ١٠٧٣ م، إلى ٤٧٧ هـ ـ ١٠٨٥ م، وكان له جهود كبيرة فيما يعرف بإصلاح الكنيسة، ومعالجة مشاكلها في العصور الوسطى والمتمثلة بزواج القسيس، وبيع المناصب الدينية، والتقليد العلماني.
انظر: أوربا العصور الوسطى، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، (١/ ٣٤٦) وما بعدها. والمنجد في اللغة والأعلام، ص (٣٩٠).

المسلمين، حيث نجح في تجهيز هذا الجيش غير أن النزاع بينه وبين الإمبراطور الألماني حال دون إرسال هذا الجيش. وكان ذلك في عام ٤٦٦ هـ - ١٠٧٤م[١].

هذه كلها تعد مقدمات للحروب الصليبية يتبين منها مدى الشعور الديني السائد في أوربا قبيل قيام هذه الحروب، والذي كان له الأثر الكبير في حدوثها.

حيث جاء البابا أوربان الثاني[٢] في عام ٤٨٧ هـ - ١٠٩٥ م، وأعلن في عدة مجامع في أوربا الدعوة إلى هذه الحروب. خصوصاً في مجمع كليرمونت[٣] والذي ألقى فيها خطابه المشهور المتضمن إيضاح ما أسماه بالخطر الإسلامي المحدق بأوربا من جهة القسطنطينية ووجوب إيقافه، وبيان معاناة النصارى في الشرق من ظلم المسلمين، وما تتعرض له الأديرة والكنائس هناك من إهانة ووجوب الانتقام لذلك وانتزاع الأراضي المقدسة من أيدي الأعداء[٤].

لذلك بعد هذا المجمع بفترة قصيرة بدأت تتجمع أعداد كبيرة من العامة ليشرعوا بالزحف إلى الشرق[٥]. حاملين صلبانهم على أكتافهم[٦]. وذلك في عام

---

(١) انظر: الحروب الصليبية، آرنست باركر، ترجمة، السيد الباز العريني، ص (١٨ - ١٩).

(٢) أوربان الثاني: ولد في فرنسا عام ١٠٤٢ م، وعين بابا في روما عام ٤٨٠ هـ - ١٠٨٨ م واسمه أودو. من أشد المتحمسين للحروب الصليبية حيث دعا إليها في مجمع كليرمونت عام ٤٨٧ هـ - ١٠٩٥ م. مات سنة ٤٩٢ هـ - ١٠٩٩ م.

انظر: الموسوعة العربية الميسرة، إشراف محمد شفيق غربال، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥ م، ص (١١٠)، والوجود الصليبي في الشرق العربي، فوشيه شارتر، ترجمة د. قاسم عبده قاسم، ذات السلاسل، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م، ص (٨٧).

(٣) مدينة في وسط فرنسا قاعدة محافظة بوي دودوم: انظر: المنجد في اللغة والأعلام، ص (٤٦٦).

(٤) انظر نص الخطاب في: الوجود الصليبي في الشرق العربي، فوشيه شارتر، ترجمة د. قاسم عبده قاسم، ص (٩٢ - ٩٤).

(٥) انظر: الحركة الصليبية، د. سعيد عاشور (١/ ١٣٢).

(٦) انظر: الحروب الصليبية، وليم الصوري، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩١ م (١/ ١٠٨ - ١١١).

٤٨٨ هـ ـ ١٠٩٦ م. وهذا ما دعا البعض إلى القول بأن الحملات الصليبية كانت استمراراً لحملات الحج الكبرى من أوربا إلى بيت المقدس[١].

ثم كانت الحملة الشعبية والتي حدد وقت سيرها البابا أوربان الثاني في عام ٤٨٨ هـ ـ ١٠٩٦ م والمتجهة إلى القسطنطينية، ثم تلتها الحملة المنظمة في عام ٤٨٩ هـ ـ ١٠٩٧ م[٢]. وذلك يمثل الحملة الصليبية الأولى.

ويرى فريق آخر أن الحروب الصليبية حلقة من حلقات الصراع بين الشرق والغرب الذي يثور أحياناً ويهدأ أحياناً أخرى غير مرتبط بأي عامل ديني، فكان في فترة سابقة بين الفرس واليونان ثم بين الفرس والروم ثم جاءت فترة العصور الوسطى فتمثل هذا الصراع بالحروب الصليبية[٣].

ويرى آخرون أن الحروب الصليبية آخر الهجرات الكبرى من أوربا بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية[٤]. وهي الإمبراطورية التي أسسها شارلمان[٥] معاصر هارون الرشيد[٦] واستمرت من بعده متنقلة من عائلة إلى

---

(١) انظر: المصدر السابق (١/ ٧٩)، والحركة الصليبية، د. سعيد عاشور (١/ ٢٤ ـ ٢٥).

(٢) انظر: تاريخ الحروب الصليبية، د. محمود سعيد عمران، ص (٢٦).

(٣) يرى ذلك المؤرخ الفرنسي جورسيه ود. عزيز سوريان في كتابه نقد مؤلفات جورسيه عن الحروب الصليبية، انظر: العرب والروم واللاتين، د. جوزيف نسيم يوسف، ص (٤٠).

(٤) ممن يرى ذلك المؤرخ الأوربي كنج، انظر: تاريخ الحروب الصليبية، د. محمود سعيد عمران ص (١٣).

(٥) شارلمان الذي عاصر هارون الرشيد هو ملك فرنسا أعظم ملوك أوربا في تلك الفترة. حيث سيطر على فرنسا، وضم إليه ألمانيا. وقد أعلن إمبراطوراً في عام ١٨٣ هـ ـ ٨٠٠ م على الإمبراطورية الغربية في أوربا مقابل الإمبراطور الشرقية في بيزنطة. كان مولده سنة ١٢٤ هـ ـ ٧٤٢ م ووفاته سنة ١٩٨ هـ ـ ٨١٤ م. انظر: قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة محمد بدران، المجلد الرابع، الجزء الثالث، ص (٢٢٦)، وما بعدها، وأوربا العصور الوسطى، د. سعيد عبد الفتاح عاشور (١/ ٢٠٤)، وما بعدها.

(٦) هو هارون بن محمد بن عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس، أشهر خلفاء بني العباس، كان مولده في الري سنة ١٤٩ هـ، وتولى الخلافة سنة ١٧٠ هـ، وكانت وفاته في طوس سنة ١٩٣ هـ، كان كريماً، باذلاً، يحج عاماً، ويغزو عاماً، ازدهرت الدولة في عهده ازدهاراً كبيراً.

أخرى ومن قطر إلى آخر في أوربا[١].

ويرى البعض أن الحروب الصليبية ظاهرة سياسية فهي بالدرجة الأولى نتيجة مباشرة للأحداث السياسية الكبرى في العالم الإسلامي والمتمثل في زحف السلاجقة المسلمين واكتساحهم لآسيا الصغرى واقترابهم من القسطنطينية، الأمر الذي دفع الأوربيين للنجدة، متمثلاً ذلك بالحروب الصليبية[٢].

وكذلك للأوضاع السياسية والاقتصادية في داخل أوربا من تنافس الملوك والإقطاعيين على مناطق النفوذ مما دفع إلى الحروب الصليبية وجعلها ذريعة لتحقيق أطماع هؤلاء. فهي مظهر من مظاهر التوسع الاقتصادي والاستعماري في العصور الوسطى[٣].

هذا الاختلاف في تفسير الحروب الصليبية جعل غالب المؤرخين العرب في العصر الحديث يعدون الحروب الصليبية حركة استعمارية[٤] ولدت في غرب أوربا واتخذت شكل هجوم مسلح على البلاد الإسلامية بتأثير من الأوضاع الدينية

انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٥/ ٢٧٣ و٣٨٧)، وما بعدها، وسير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (٩/ ٢٨٦)، وما بعدها.

(١) انظر: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، محمد العروسي المطوي، ص (٣٣).

(٢) انظر: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، محمد العروسي المطوي، ص (٣٠)، والحروب الصليبية، آرنست باركر، ترجمة د. السيد الباز العريني، ص (١٨ ـ ١٩).

(٣) ممن يرى ذلك المؤرخ الفرنسي المعاصر لفترة الحروب الصليبية فوشيه دي شارتر، انظر: الإسلام والمسيحية، د. جوزيف نسيم، ص (١٨٧)، وانظر: تاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رنسيمان ـ ترجمة د. السيد العريني (١/ ١٨٠ ـ ١٨١).

(٤) وهذه نظرة بعض الكتاب الأوربيين مثل: برنارد لويس في كتابه: العرب في التاريخ، حيث ذهب إلى أن الحروب الصليبية كانت أول محاولة مبكرة للتوسع الاستعماري للغرب تحركها اعتبارات مادية دنيوية. كذلك الكاتب الإنجليزي جورج تريفليان فقد وضح في كتابه ـ تاريخ إنجلترا ـ أن الحركة الصليبية هي حركة اتساع خارجي قامت بها أوربا المسيحية الإقطاعية ضد العرب. انظر: العرب والروم واللاتين، د. جوزيف نسيم يوسف، ص (١٠٤).

والاجتماعية والاقتصادية والسياسية السائدة في أوربا في القرن الحادي عشر الميلادي متخذة هذه الحركة الدين ستاراً لها[1].

وفيما يتعلق بتحديد القرن الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين السادس والسابع الهجريين فترة للحروب الصليبية فإن هذه الفترة تعد الدور النشط لهذه الحروب[2].

وذلك من تاريخ وصول أول حملة صليبية إلى أنطاكية عام ٤٩٢ هـ ـ ١٠٩٨م ثم دخول الصليبين القدس في ٢٢ شعبان عام ٤٩٢ هـ ٢٢ يوليو عام ١٠٩٩م. إلى رحيل الصليبيين من الشرق الإسلامي وطردهم من آخر معاقلهم عكا[3] في عام ٤٩١ هـ ـ ١٢٩١م.

علماً أن مصطلح الحروب الصليبية والصليبيين لم يظهرا في كتابات المؤرخين المسلمين المعاصرين لهذه الحروب كابن واصل وابن شداد وأبي شامة وغيرهم؛ إذ كانوا يطلقون على الصليبيين ـ الإفرنج ـ أو ـ النصارى ـ أما في المصادر الغربية فلم تظهر هذه التسمية إلا بعد خطاب أوربان الثاني في كليرمونت في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي حيث حمل المحتشدون الصليب واتجهوا إلى الشرق. ومن هنا سميت بالحروب الصليبية[4].

ولا ينفي ذلك اعتبار كل الحروب التي قامت بها أوربا ضد البلاد الإسلامية بدافع ديني وبرعاية من الباباوات حروباً صليبيةً، كتلك التي كانت ضد

---

(١) انظر: الحركة الصليبية، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، ص (٢٢)، وتاريخ الحروب الصليبية، د. محمود سعيد عمران، ص (١٥).

(٢) انظر: الحركة الصليبية، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، ص (٢٢).

(٣) تقع في شمال فلسطين على ساحل البحر المتوسط قرب الحدود اللبنانية، وكانت آخر القلاع الصليبية في الشام التي طردوا منها.
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي (٤/ ١٦٢)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس، ص (٤١٥).

(٤) انظر: العرب والروم واللاتين، د. جوزيف نسيم يوسف، ص (٤٧).

المسلمين في صقلية أو الأندلس[1] أو غيرهما.

وبناءً على ما سبق يمكن تعريف الحروب الصليبية بأنها حركة كبرى انبعثت من الغرب الأوربي ضد الشرق الإسلامي بقصد الاستيلاء عليه خلال القرنين السادس والسابع الهجريين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين بدافع ديني بحت، حيث جعلت هذه الحركة الصليب شعاراً لها، مع وجود دوافع أخرى ساعدت على ذلك سياسية واقتصادية واجتماعية.

وعلى ذلك فاعتبار التحديد الزمني لهذه الحروب في هذه الدراسة بهذين القرنين؛ لإجماع الباحثين على تسمية الحروب التي جرت فيهما بالحروب الصليبية واختلافهم في إطلاق هذا الاسم على ما جرى من حروب فيما سواهما.

ولكون هذان القرنان يمثلان الدور النشط للحروب الصليبية، فما جرى قبلهما يعد مقدمات لهذه الحروب وما صار بعدهما فهو من تبعاتها وآثارها[2].

أما التحديد الدقيق لتاريخ بدء هذه الحروب ونهايتها في هذه الدراسة فهو على ما جرى العرف عليه في كتب التاريخ من اعتبارها عام ٤٩٢ هـ ـ ١٠٩٨م تاريخاً لبدئها والذي يمثل تاريخ وصول الصليبيين إلى أنطاكيا ثم دخولهم بيت المقدس بعد ذلك. وعام٦٩١ هـ ـ ١٢٩١م تاريخاً لنهايتها والذي يمثل تاريخ رحيل الصليبيين من آخر معاقلهم في الشام ومصر وهو مدينة عكا.

أما عن المجال المكاني لهذه الدراسة فهو ما امتدت إليه آثار هذه الحروب فهو غير مرتبط بمنطقة معينة. فيشمل البلاد التي جرت عليها أحداث هذه الحروب ـ وهي مصر والشام وشمال إفريقيا ـ ويشمل غيرها من البلاد. وذلك

---

(١) الاسم الذي أطلق المسلمون على إسبانيا والبرتغال في جنوب غرب أوربا، وقد كانت بداية الفتح الإسلامي للأندلس في رمضان سنة ٩٢ هـ على يد طارق بن زياد.
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، (١/ ٣١١)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون ص (٧٧)، وأطلس تأريخ الإسلام، د. حسين مؤنس، ص (١٧١).

(٢) انظر: أوربا العصور الوسطى، د. سعيد عبد الفتاح عاشور (١/ ٤٣٧).

لإظهار جهود المسلمين بشكل متكامل في دعوة النصارى في هذه الفترة، يضاف إلى ذلك وجود حروب أخرى في الفترة نفسها في مناطق أخرى من العالم الإسلامي رعتها الكنيسة وشجعت عليها مما جعل بعض الباحثين بعدها حروباً صليبيةً كتلك التي جرت في الأندلس(١).

(٢) أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

«دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية»، لعل أهمية هذا الموضوع وأسباب اختياره تظهر من خلال النقاط التالية:

أ ـ ما يختص به عصر الحروب الصليبية الممتد من سنة **٤٩٢ هـ إلى ٦٩١ هـ** من أهمية كبيرة في التاريخ الأمة اكتسبها نتيجة لما صار فيه من أحداث عظيمة بُليت فيها الأمة بتسلط النصارى على البلاد الإسلامية وانتشار الفرق الفكرية المنحرفة التي ساعدت على تفرق الأمة ومن ثم ضعفها في البداية عن مقاومة العدوان الصليبي، ثم الجهود الدعوية المباركة الموجهة إلى النصارى الغازين للبلاد الإسلامية سواء كانت هذه الجهود بشكل مباشر أو غير مباشر، والتي أدت إلى وحدة الأمة وتحقيقها للنصر على الصليبيين وطردهم من البلاد الإسلامية، بل وإسلام بعضهم وتغيير نظرتهم الأولى للإسلام والمسلمين، ولا شك أن ذلك كله علامات دعوية بارزة في التاريخ الدعوي للأمة تستحق البحث والدراسة.

ب ـ عدم وجود بحوث أو دراسات دعوية تناولت عصر الحروب الصليبية بشكل مباشر، على الرغم من هذه الأهمية الكبيرة له في تاريخ الأمة.

---

(١) انظر: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، محمد العروسي المطوي، ص (١٨٥)، وما بعدها، حيث تحدث عن الحروب التي قام بها النصارى الإسبان في فترة الحروب الصليبية ضد المسلمين بالأندلس باعتبارها حروباً دينية صليبيةً تشجع عليها البابوية وترعاها. وانظر: أثر العامل الديني في توجيه الحركة الصليبية، د. محمد صالح منصور، جامعة قارنيوس، بنغازي، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، ص (٢٣٩) وما بعدها.

جـ - تجاهل كثير من المستشرقين، وإغفال كثير من الباحثين المسلمين لتأثير المسلمين على النصارى بل وعلى أوربا بشكل عام في فترة الحروب الصليبية، والتركيز فقط على دراسة الناحية العسكرية.

د - ما قد يعتقده البعض من توقف الجهد الدعوي في هذه الفترة بسبب الحروب بين المسلمين والنصارى.

هـ - أهمية إبراز الجهود الدعوية في الحفاظ على منهج السلف في هذه الفترة التي أصبحت فيها التيارات الفكرية المنحرفة عقبة أمام استمرارية الدعوة، بل وتكالبت مع العدوان الصليبي ضد المسلمين.

و - وهذا البحث يعد حلقة في سلسلة التاريخ الدعوي للأمة فهو متمم لدراسات دعوية سابقة تناولت صدر الإسلام والخلافة الراشدة، والدولة الأموية، والدولة العباسية بعصريها الأول والثاني، ومساعد لجهود لاحقة في مجال دراسة التاريخ الدعوي للأمة الإسلامية.

(٣) التراكمات النظرية السابقة:

لا توجد كتابات مستقلة تناولت فترة الحروب الصليبية تناولاً مباشراً من الناحية الدعوية، ولا سيما دعوة المسلمين للنصارى، وكل ما كتب حول موضوع الدراسة فهو على جانبين:

الجانب الأول:

جانب تاريخي عني بسرد الأحداث لهذه الفترة أو بعض منها. وهذا الجانب على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: كتب معاصرة لفترة الحروب الصليبية أو لجزء منها، ومن أهم هذه الكتب:

أ - كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير المتوفّى سنة ٦٣٠ هـ[١]، والذي بدأه

---

(١) هو علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، الجزري، ولد في جزيرة ابن عمر في أقصى جنوب شرق تركيا على الحدود السورية سنة ٥٥٥ هـ، وتوفي بالموصل

من أول الزمان إلى آخر سنة ثمان وعشرين وستمائة، حيث عاصر المؤرخ فترة طويلة من الصراع بين المسلمين والصليبيين سجل كثيراً من أحداثها في كتابه الكامل.

ب ـ كذلك كتاب الروضتين[(١)]، والذيل على الروضتين[(٢)] لأبي شامة المتوفّى سنة ٦٦٥ هـ[(٣)]، حيث يشتمل كتاب الروضتين على تفاصيل واسعة عن الحروب الصليبية وسيرة كل من نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي.

جـ ـ كتاب النوادر السلطانية[(٤)] لابن شداد المتوفّى سنة ٦٣٢ هـ، من المؤرخين المعاصرين لهذه الفترة، والذي تولى عدة مناصب لصلاح الدين الأيوبي بين سفارة وقضاء وتدريس، وقد سجل في كتابه النوادر السلطانية كثيراً من الأحداث التي عاصرها.

سنة ٦٣٠ هـ، من العلماء بالنسب، والأدب، والتاريخ، من كتبه: الكامل في التاريخ، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، وتاريخ الدولة الأتابكية وغيرها.
انظر: البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين (١٣/ ١٤٩ ـ ١٥٠) ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أحمد بن محمد بن خلكان (٣/ ٣٤٨ ـ ٣٥٠).

(١) الروضتين في أخبار الدولتين، عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي «أبو شامة»، دار الجيل، بيروت.

(٢) الذيل على الروضتين، عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٤م.

(٣) هو عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي، أبو شامة، لشامة كبيرة فوق حاجبه الأيسر، أصله من القدس، ومولده في دمشق سنة ٥٩٩ هـ ووفاته بها سنة ٦٦٥ هـ. عالم بالحديث والفقه والتاريخ. من كتبه مختصر تاريخ دمشق وشرح الشاطبية والباعث على إنكار البدع والحوادث وغيرها.
انظر: البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين (١٣/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥). وطبقات الشافعية الكبرى، عبد الوهاب بن علي السبكي، تحقيق عبد الفتاح الحلو وزميله، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، (٨/ ١٦٥ ـ ١٦٨).

(٤) النوادر السلطانية، يوسف بن رافع بن شداد، تحقيق د. جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٤م.

د - كتاب زبدة الحلب في تاريخ حلب[1] لابن العديم المتوفّى سنة ٦٦٠ هـ[2].

هـ - كتاب مفرج الكروب[3] لابن واصل المتوفّى سنة ٦٩٧ هـ[4]، والذي تولى القضاء للظاهر بيبرس وكذلك السفارة إلى صاحب صقلية.

ومن الكتب الإفرنجية المهمة والمعاصرة لفترة الحروب الصليبية أو لبعض منها:

أ - كتاب أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس[5] لمؤلف مجهول صحب الحملة الصليبية الأولى[6].

---

(١) زبدة الحلب في تاريخ حلب، عمر بن أحمد العقيلي «ابن العديم» تحقيق سامي الدهان، دمشق، ١٩٦٨م.

(٢) هو عمر بن أحمد بن هبة الله العقيلي، مؤرخ ومحدث، ولد بحلب سنة ٥٨٨ هـ وكانت وفاته بالقاهرة سنة ٦٦٠ هـ، من كتبه: بغية الطلب في تاريخ حلب، والتذكرة ووصف الطيب وغير ذلك. (انظر: البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين (١٣/ ٢٤٩)، والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، يوسف بن تغري بردي الأتابكي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر، القاهرة (٧/ ٢٠٨).

(٣) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، محمد بن سالم بن واصل، تحقيق د. جمال الدين الشيال، دار العلم، القاهرة.

(٤) هو محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم بن واصل التميمي الحموي، مولده في حماة بسوريا سنة ٦٠٤ هـ ووفاته بها سنة ٦٩٧ هـ. مؤرخ عالم بالمنطق من فقهاء الشافعية، اتصل بالملك الظاهر بيبرس وأرسله بسفارة إلى ملك صقلية، ومن مؤلفاته: نخبة الفكر في المنطق، والتاريخ الصالحي وتجريد الأغاني وكتب أخرى في المنطق.
انظر: الوافي بالوفيات، خليل بن أيبك الصفدي، إصدار جمعية المستشرقين الألمانية بعناية جماعة من العرب والمستشرقين، بيروت، ١٩٦٢م - ١٩٨٣م (٣/ ٨٥).

(٥) أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، المؤلف المجهول، ترجمة حسن حبشي، دار الهناء للطباعة، القاهرة، ١٩٥٨م.

(٦) المؤلف المجهول: نورماني الأصل، من جنوب إيطاليا، توجه مع الحملة الصليبية الأولى مع بوهمند - أول حاكم صليبي لأنطاكية بعد احتلالها - واشترك في القتال ضد المسلمين. وكتب تاريخ هذه الحملة من بدايتها إلى نهايتها كشاهد عيان.

ب ـ كتاب لويس التاسع[1] وحملته على مصر والشام[2].

جـ ـ كتاب الوجود الصليبي في الشرق العربي[3].

د ـ كتاب الحروب الصليبية لوليم الصوري[4] الصليبي الذي ولد في القدس بعد أن صارت مملكة صليبية.

القسم الثاني: كتب جاءت في فترة لاحقة لفترة الحروب الصليبية وتعرضت لتاريخ هذه الفترة ومن هذه الكتب:

انظر: الحروب الصليبية، آرنست باركر، ترجمة: د. السيد الباز العريني، ص (١٨٨).

(١) لويس التاسع: من ملوك فرنسا بين عام (٦١٠ هـ ـ ١٢١٤م ـ ٦٦٨ هـ ـ ١٢٧٠ م) قاد الحملتين الصليبيتين السابعة والثامنة، أسره المسلمون في معركة المنصورة وفدى نفسه، وتوفي في مرض الطاعون في تونس خلال حملته عليها سنة ٦٦٩ هـ، وكان يطلق عليه لشدة تدينه: القديس لويس، وكان قيامه بحملاته الصليبية ـ كما يقول ـ شكراً لله على مرض شفي منه في أوربا.
انظر: أطلس التاريخ الإسلامي، د. حسين مؤنس، ص (٢٧٠ ـ ٢٧١م)، والحروب الصليبية، آرنست باركر، ترجمة: د. السيد الباز العريني، ص (١٢١)، والمنجد في اللغة والأعلام، ص (٥٠١)، والعدوان الصليبي على مصر، د. جوزيف نسيم، دار النهضة العربية، بيورت، ١٩٨١م، ص (٢٩)، وما بعدها.

(٢) لويس التاسع وحملته على مصر والشام، جان دي جوا نفيل، ترجمة حسن حبشي، القاهرة.

(٣) تأليف فوشيه شارتر، ترجمة د. قاسم عبده قاسم، ذات السلاسل، الكويت، ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣م.

(٤) وليم الصوري أحد أشهر مؤرخي الحروب الصليبية، ولد في القدس سنة ٥٢٤ هـ ـ ١١٣٠ م، ودرس فيها ورحل إلى فرنسا وإيطاليا طلباً للدراسات الدينية ثم عاد وتولى ديوان الرسائل في مملكة بيت المقدس الصليبية. ثم رئيس أساقفة صور. وأصبح مستشاراً للملك عموري الصليبي، له العديد من المؤلفات حول تأريخ الحملات الصليبية المتقدمة.
انظر: مقدمة د. حسن حبشي في ترجمته لكتاب: الحروب الصليبية، لوليم الصوري ص (٩) وما بعدها.

أ ـ كتاب البداية والنهاية لابن كثير المتوفّى سنة ٧٧٤ هـ[١].

ب ـ كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر[٢]... لابن خلدون المتوفّى سنة ٨٠٨هـ[٣].

جـ ـ كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي المتوفّى سنة ٨٧٤ هـ[٤]، إلى غير ذلك.

القسم الثالث: كتب حديثة ألفها متخصصون بتاريخ العصور الوسطى بعامة والحروب الصليبية بخاصة ومن هذه الكتب:

---

(١) هو إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضو القرشي الدمشقي، ولد قرب بُصرى الشام سنة ٧٠١ هـ وتوفي بدمشق سنة ٧٧٤ هـ. صاحب التصانيف الكثيرة في التفسير والحديث والتاريخ، من كتبه تفسير القرآن، والاجتهاد في طلب الجهاد، واختصار علوم الحديث وغيرها.

انظر: البدر الطالع بمحاسن ما بعد القرن السابع، محمد بن علي الشوكاني، (١/ ١٥٣)، والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، أحمد بن علي العسقلاني، حيدرآباد، ١٩٤٥م (١/ ٣٧٣).

(٢) العبر وديوان المبتدأ والخبر، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ٣٩١ هـ ـ ١٩٧١م.

(٣) هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون الحضرمي الإشبيلي، أصله من إشبيلية، ومولده ونشأته في تونس واستقر بالقاهرة، ولد سنة ٧٣٢ هـ وتوفي بالقاهرة سنة ٨٠٨ هـ. كان فيلسوفاً مؤرخاً عالماً بالاجتماع، من أشهر كتبه: العبر ومقدمته في علم الاجتماع، والتي ترجمت إلى عدة لغات.

انظر: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، محمد بن عبد الرحمن السخاوي، القاهرة، ١٣٥٣ هـ ـ ١٣٥٥ هـ (٤/ ١٤٥)، والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، محمد بن علي الشوكاني (١/ ٣٣٧ ـ ٣٣٩).

(٤) هو يوسف بن تغري بردي بن عبدالله الظاهري الحنفي، ولد سنة ٨١٣ هـ بالقاهرة، ووفاته فيها سنة ٨٧٤ هـ، مؤرخ بحاثة كان والده من مماليك الظاهر برقوق، ومن كتبه: النجوم الزاهرة ومورد الطاقة فيمن ولي السلطنة والخلافة، ونزهة الرأي في التأريخ، وحوادث الدهور في مدى الأيام والشهور وغيرها.

انظر: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، محمد بن عبد الرحمن السخاوي (١٠/ ٣٠٥ ـ ٣٠٨).

أ ـ كتاب أضواء جديدة على الحروب الصليبية[1].

ب ـ كتاب الحركة الصليبية[2].

جـ ـ كتاب العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى[3].

د ـ كتاب العدوان الصليبي على مصر[4].

هـ ـ كتاب الإسلام والمسيحية وصراع القوى بينهما في العصور الوسطى[5].

و ـ كتاب العدوان الصليبي على بلاد الشام[6].

وهناك كتب إفرنجية حديثة عن تاريخ الحروب الصليبية ومترجمة إلى العربية ومن هذه الكتب:

أ ـ كتاب تاريخ الحروب الصليبية[7].

ب ـ كتاب الحروب الصليبية[8].

الجانب الثاني:

كتابات تناولت جوانب الحضارة الإسلامية وتعرضت فيما تعرضت له للحضارة الإسلامية في فترة الحروب الصليبية. ومن هذه الكتب:

أ ـ كتاب الإسلام والحضارة الغربية[9].

---

(١) لسعيد عبد الفتاح عاشور، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٤م.

(٢) لسعيد عبد الفتاح عاشور، مكتبة الإنجلو مصرية، القاهرة، ط السادسة، ١٩٩٤م.

(٣) لجوزيف نسيم يوسف، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨١م.

(٤) لجوزيف نسيم يوسف، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م.

(٥) لجوزيف نسيم يوسف، دار الفكر الجامعي، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.

(٦) لجوزيف نسيم يوسف، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م.

(٧) لستيفن رانسيمان، ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨م.

(٨) آرنست باركر، ترجمة السيد الباز العريني، دار النهضة، بيروت، الطبعة الرابعة.

(٩) لمحمد كرد علي، القاهرة.

ب ـ كتاب الحضارة العربية الإسلامية[1].

ومن الكتب التي تناولت الجوانب الحضارية في فترة الحروب الصليبية بشكل خاص:

أ ـ كتاب الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر[2].

ب ـ كتاب المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية[3].

وهناك كتب أبرزت أثر الحضارة الإسلامية على أوربا. ومن هذه الكتب:

أ ـ كتاب أثر العرب في الحضارة الأوربية[4].

ب ـ كتاب أثر العرب في الحضارة الأوربية[5]. وغير ذلك.

ومن الكتب المترجمة التي أبرزت أثر الإسلام على الحضارة الأوربية وفي ثناياها تعرضت لفترة الحروب الصليبية:

أ ـ كتاب الدعوة إلى الإسلام[6].

ب ـ كتاب شمس العرب تسطع على الغرب[7].

جـ ـ كتاب حضارة العرب[8].

---

(١) لعلي حسن الخربوطلي، القاهرة، ١٩٦٣م.

(٢) لمحمود محمد علي الحويري، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩م.

(٣) لأحمد رمضان محمد، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٧م.

(٤) لجلال مظهر، أثر العرب في الحضارة الأوربية، دار الرائد، بيروت، ١٩٦٧م.

(٥) لعباس محمود العقاد، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٣م.

(٦) لتوماس آرنولد، ترجمة د. حسن إبراهيم حسن وآخرين.

(٧) لزيغريد هونكه، ترجمة فاروق بيضون وكمال الدسوقي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨١م.

(٨) لغوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٤٥م.

د ـ كتاب فضل الإسلام على الحضارة الغربية[1]. وغير ذلك.

إلا أن هذه الكتب ركزت على الجانب المادي المتمثل في الفنون المعمارية والفنون العسكرية وما إلى ذلك وإذا تعرضت للجانب الفكري فبشكل مختصر وبتركيز على الأثر العلمي والطبي والأدبي.

ويمكن أن يستقرأ من كتب التراجم[2] والرحلات[3] والسير الشخصية الخاصة[4] والتي ظهرت في فترة الحروب الصليبية جوانب دعوية لها أثرها على النصارى في هذه الفترة.

لذلك يلاحظ أن الكتابات السابقة لم تتعرض بشكل مباشر لدعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية. وعليه فتأتي هذه الدراسة تحت هذا العنوان «دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية» مستفيدة من الكتابات السابقة لتلقي الضوء على جهود المسلمين الدعوية الموجهة إلى النصارى في هذه الفترة مبرزة هذه الجهود بموضوعاتها المختلفة وأثرها على النصارى، ومبينة أبرز أساليب المسلمين ووسائلهم في ذلك، وموضحة أوجه الاستفادة من دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية في وقتنا الحاضر.

(٤) مشكلة الدراسة وتساؤلاتها:

يسعى الباحث من خلال هذه الدراسة إلى الكشف عن جهود المسلمين الدعوية بموضوعاتها المختلفة الموجهة للنصارى. واستجلاء ما يتعلق بها من أساليب ووسائل، وأيضاً عوامل نجاحها وكيف كانت مواجهتها للمشكلات التي

---

(١) لمونتجمري وات، ترجمة حسين أحمد أمين، دار الشروق، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦م.

(٢) كسير أعلام النبلاء في المجلدات ٢١، ٢٢، ٢٣.

(٣) كرحلة ابن جبير الذي زار الشام في فترة الغزو الصليبي وسجل فيها كثيراً من مشاهداته.

(٤) ككتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ والذي ذكر فيه سيرته الخاصة ورحلاته وصداقاته ومشاهداته في الشام ومصر إبان فترة الغزو الصليبي.

اعترضتها وكيفية الاستفادة من ذلك في العصر الحاضر، ولذلك فإن هذه الدراسة تهدف إلى الإجابة على التساؤلات التالية:

١ - من القائمون بدعوة النصارى في عصر الحروب الصليبية؟ وما جهودهم في هذا المجال؟.

٢ - ما أبرز موضوعات دعوة المسلمين للنصارى في ذلك العصر؟.

٣ - ما أبرز وسائل المسلمين وأساليبهم في دعوة النصارى في ذلك العصر؟.

٤ - ما معوقات دعوة المسلمين للنصارى في ذلك العصر؟ وكيف كانت سبل مواجهتها؟.

٥ - ما آثار دعوة المسلمين للنصارى في ذلك العصر سواء في البلاد الإسلامية أو في أوربا؟.

٦ - ما أوجه الاستفادة من دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية في عصرنا الحاضر؟.

(٥) حدود الدراسة:

النطاق الزمني لفترة الدراسة هو فترة الحروب الصليبية الممتدة من سنة ٤٩٢ هـ إلى سنة ٦٩١ هـ. والمجال المكاني لها هو ما امتدت إليه آثار هذه الحروب سواء في البلاد الإسلامية أو في أوربا.

وسوف تقتصر هذه الدراسة على دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية وما يتصل بها بشكل مباشر أو غير مباشر.

ولن تتعرض للجانب التاريخي أو الاجتماعي أو غيرهما إلا بما يخدم موضوع الدراسة.

(٦) منهج البحث:

لن تكون هذه الدراسة تاريخية وصفية فحسب، بل سوف تعتمد المنهج التاريخي في توفير البيانات والمعلومات اللازمة لمشروع البحث، ومن ثم تحليل

هذه المعلومات والبيانات ـ أي فحصها واستقراء دلالاتها[1] ـ للوصول إلى الإجابة على الأسئلة الواردة في تحديد مجال البحث.

إذ إن المنهج التاريخي ليس سرداً فحسب بل إنه يعتمد على دراسة الأحداث الماضية للإفادة منها في فهم الحاضر والتخطيط للمستقبل[2].

وسوف يعني الباحث بالنقاط التالية:

١ ـ عزو الآيات إلى مواضعها في المصحف، وتخريج الأحاديث من مصادرها الأصلية، ونقل ما ذكره العلماء في الحكم عليها إذا لم تكن في الصحيحين.

٢ ـ توثيق النصوص والشواهد من مصادرها المعتمدة.

٣ ـ النصوص المقتبسة من غير الكتاب والسنّة تعزى إلى مصادرها في الحاشية، وإذا كان فيها اختصار أو تصرف يكتب أمام المصدر أو المرجع كلمة: «انظر».

٤ ـ نصوص التوراة والإنجيل التي أوردها علماء هذه الفترة وثقتها من النسخة العربية الحالية للكتاب المقدس، وذلك لعدم إمكانية الوقوف على النسخ التي اعتمد عليها هؤلاء العلماء.

٥ ـ الترجمة للأعلام باستثناء الأنبياء عليهم السلام وكبار الصحابة ممن استفاضت شهرته.

٦ ـ التعريف بإيجاز بالأماكن والبلدان الواردة في ثنايا البحث.

٧ ـ شرح الألفاظ الغريبة أو المصطلحات التي ترد في ثنايا البحث بشكل موجز.

---

(١) مناهج البحث في التربية وعلم النفس، ديوبولدب فان دالين، ترجمة د. محمد نبيل نوفل وآخرون، مكتبة الإنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م، ص (٣٢٥).

(٢) انظر: البحث العلمي مفهومه، أدواته، أساليبه، د. ذوقان عبيدات وآخرين، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان ١٩٨٩م، ص (١٧٣).

٨ ـ في مبحث الردود على شبه النصارى سوف يُقتصر على ما أورده علماء هذه الفترة في ردودهم على الرغم من أن هناك الكثير مما يمكن قوله في ذلك. وإن رأيت الحاجة ماسة إلى إضافة شيء فإني أضعه في الهامش.

٩ ـ لن يكون هناك حصر شامل لجميع الجهود الدعوية المبذولة من المسلمين تجاه النصارى في هذه الفترة، وإنما هي نماذج مختارة روعي فيها التوزيع المكاني على امتداد رقعة البلاد الإسلامية، وكذلك الفترة الممتدة لمائتي سنة. بحيث يعطي ذلك صورة واضحة شاملة للجانب الدعوي تجاه النصارى في فترة الحروب الصليبية.

(٧) تقسيم الدراسة:

المقدمة:

وتشمل:

١ ـ مدخل.

٢ ـ التعريف بمفردات عنوان البحث.

٣ ـ أهمية الموضوع وأسباب اختياره.

٤ ـ التراكمات النظرية السابقة.

٥ ـ مشكلة الدراسة وتساؤلاتها.

٦ ـ حدود الدراسة.

٧ ـ منهج البحث.

٨ ـ تقسيم الدراسة.

الفصل التمهيدي:

المبحث الأول: عالمية الدعوة الإسلامية وأهمية دعوة النصارى إلى الإسلام.

المبحث الثاني: حال البلاد الإسلامية قبيل الحروب الصليبية.

المبحث الثالث: حال النصارى قبيل الحروب الصليبية.

المبحث الرابع: أسباب الحروب الصليبية.

الفصل الأول: موضوعات دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية.

المبحث الأول: الدعوة إلى العقيدة الإسلامية.

المبحث الثاني: مناقشة عقائد النصارى.

المبحث الثالث: الردود على شبه النصارى.

الفصل الثاني: القائمون بدعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية.

المبحث الأول: القائمون بدعوة المسلمين للنصارى من الولاة والقادة.

المبحث الثاني: القائمون بدعوة المسلمين للنصارى من العلماء.

المبحث الثالث: قيام العامة بدعوة النصارى.

الفصل الثالث: أساليب دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية ووسائلها.

المبحث الأول: أساليب دعوة المسلمين للنصارى.

المبحث الثاني: وسائل دعوة المسلمين للنصارى.

الفصل الرابع: معوقات دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية وكيف كانت مواجهاتها.

المبحث الأول: معوقات دعوة المسلمين للنصارى.

المبحث الثاني: الجهود المبذولة للتغلب على هذه المعوقات.

الفصل الخامس: آثار دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب

الصليبية وأوجه الاستفادة منها في الوقت الحاضر.

المبحث الأول: آثار دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية.

المبحث الثاني: أوجه الاستفادة من دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية في الوقت الحاضر.

الخاتمة.

وتشمل خلاصة البحث وأهم النتائج والتوصيات.

الفهارس.

هذا وختاماً الشكر لله أولاً وآخراً على ما يسره لي من إتمام هذه الرسالة، ثم الشكر الجزيل والدعاء الصادق لوالدي الكريمين «وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا»، والشكر والدعاء لفضيلة الأستاذ الدكتور عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر المشرف على هذه الرسالة الذي لم يبخل عليّ بوقته وعلمه وتوجيهاته السديدة. كما لا يفوتني أن أشكر قسم الدعوة والاحتساب بكلية الدعوة والإعلام بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية إذ أتاح لي فرصة مواصلة الدراسة بمرحلة الدكتوراة. كما لا أنسى أن أدعو لكل من تعاون معي في إعداد هذه الرسالة سواء بتوجيه أو تقديم معلومة أو إعارة كتاب. فلجميع مني الدعاء الصادق والشكر الجزيل. والله أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه، وأن يجعلنا هداة مهتدين غير ضالين ولا مضلين إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله وسلم على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفصل التمهيدي

المبحث الأول

عالمية الدعوة الإسلامية
وأهمية دعوة النصارى

المطلب الأول

عالمية الدعوة الإسلامية

العالمية لغـةً:

العالمية لغةً نسبة إلى ـ العالَم ـ والتاء للتأنيث حيث يقال: عالميٌ للمذكر وعالمية للمؤنث.

والعالم جمع لا واحد له من لفظه، وهو الخلق كله، وقيل: ما حواه بطن الفلك[1].

وجمع الجمع عالمون، ولا يجمع شيء على وزن فاعل بالواو والنون إلا هذا[2]. فهو من جملة الألفاظ الملحقة بجمع المذكر السالم[3].

العالمية في الاصطلاح:

لكون العالمية في اللغة نسبةً إلى كلمة ـ عالم ـ فقد وردت عدة تعاريف لهذه الكلمة:

١ ـ إن العالم كل موجود سوى الله سبحانه.

---

(١) انظر: لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، مادة عَلِمَ (١٢/ ٤٢٠).

(٢) انظر: المصدر السابق مادة عَلِمَ (١٢/ ٤٢٠).

(٣) انظر: جامع الدروس العربية، مصطفى الغلاييني، راجعه عبد المنعم خفاجه، المكتبة العصرية، صيدا وبيروت، الطبعة الحادي والعشرون، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٧م (٢/ ١٨).

قال قتادة[1]: «العالمون جمع عالم وهو كل موجود سوى الله[2]».

وقال الطبري: «والعالم اسم لأصناف الأمم، وكل صنف منها عالم، وأهل كل قرن من كل صنف منها عالم» فالإنس عالم، والجن عالم، وكذلك سائر أجناس الخلق[3].

قال الزجاج[4]: «العالم كل ما خلقه الله في الدنيا والآخرة»[5].

٢ ـ قيل: إن العالم: الإنس والجن والملائكة والشياطين: أي خُصصت بمن يعقل.

٣ ـ وقيل: إن المراد بالعالم: الإنس والجن فقط.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ الإنس والجن»[6]. «ودليله قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[7]»[8].

---

(١) هو قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز البصري، حافظ العصر وقدوة المفسرين. قال عنه الذهبي: كان من أوعية العلم، وممن يضرب به المثل في قوة الحفظ. كان ميلاده سنة ٦١ هـ ووفاته سنة ١١٨ هـ.

انظر: الطبقات الكبرى، محمد بن سعد، دار صادر، بيروت، (٧/ ٢٢٩)، وسير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (٥/ ٢٦٩) وما بعدها.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، المجلد الأول، الجزء الأول، ص (٩٧).

(٣) انظر: جامع البيان، محمد بن جرير الطبري، المجلد الأول، الجزء الأول (٦٢ ـ ٦٣).

(٤) هو إبراهيم بن محمد بن السري بن سهل الزجاج، نسبةً إلى عمله في خرط الزجاج في بداية حياته، ولد في بغداد سنة ٢٤١ هـ ومات بها سنة ٣١١ هـ. عالم باللغة وصاحب المصنفات الكثيرة، منها: معاني القرآن، وإعراب القرآن والاشتقاق وغيره.

انظر: طبقات النحويين واللغويين، محمد بن الحسن الزبيدي، القاهرة، ١٩٥٤م، ص (١١١ ـ ١١٢)، وسير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (١٤/ ٣٦٠).

(٥) الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، المجلد الأول، الجزء الأول، ص (٩٧).

(٦) جامع البيان، محمد بن جرير الطبري، المجلد الأول، الجزء الأول، ص (٦٣).

(٧) سورة الفرقان، الآية: (١).

(٨) الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، المجلد الأول، الجزء الأول، ص (٩٧).

وعلى ضوء ما تقدم يمكن أن يقال: إن لفظ العالمين كل موجود سوى الله سبحانه وتعالى لقوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾[1].

وبما أن المكلفين من العالمين هم الإنس والجن فعالمية الدعوة الإسلامية تعني إن رسالة محمدﷺ عامة لهما. وأن الدعوة إلى هذه الرسالة متوجهة إليهما.

الأدلة على عالمية الدعوة الإسلامية:

أولاً: من الكتاب: حيث وردت آيات كثيرة تدل على عالمية الدعوة الإسلامية، فمن ذلك.

أ ـ بعض الآيات التي ورد فيها لفظ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾[2]. أي: «وما أرسلناك يا محمد بالشرائع والأحكام إلا رحمة لجميع الناس»[3].

وقال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾[4].

قال الطبري: «. . . أي ليكون محمد لجميع الجن والإنس»[5].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾[6].

وقال: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾[7] إلى غير ذلك من الآيات.

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان: (٢٣، ٢٤).

(٢) سورة الأنبياء، الآية: (١٠٧).

(٣) فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني (٣/ ٦١٦).

(٤) سورة الفرقان، الآية: (١).

(٥) جامع البيان، محمد بن جرير الطبري، المجلد الأول، الجزء الثامن عشر، ص (١٧٩).

(٦) سورة الأنعام، الآية: (٩٠).

(٧) سورة التكوير، الآية: (٢٦ ـ ٢٧).

ووجه الاستدلال بهذه الآيات ظاهر من جهة كون الإنس والجن هم المكلفون من العالمين، فالدعوة إذن متوجهة إليهما.

ب - بعض الآيات التي ورد فيها لفظ ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[1]. قال الطبري: أي: «قل يا محمد للناس كلهم ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ لا إلى بعضكم دون بعض كما كان من قبلي من الرسل»[2].

وقال أبو السعود[3]: «لما حكي ما في الكتابين من نعوت رسول الله ﷺ وشرف من يتبعه من أهلها ونيلهم لسعادة الدارين، أمر عليه الصلاة والسلام ببيان أن تلك السعادة غير مختصة بهم بل شاملة لكل من يتبعه كائناً من كان ببيان عموم رسالته للثقلين»[4].

ومن الآيات أيضاً: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[5]. وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾[6]. وقوله: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾[7]. إلى غير ذلك.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: (١٥٨).

(٢) جامع البيان، محمد بن جرير الطبري، المجلد الأول، الجزء التاسع، ص (٨٦).

(٣) هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، مفسر، وشاعر، من علماء الترك المستعربين، ولد قرب إستانبول سنة ٨٩٨ هـ ووفاته فيها سنة ٩٨٢ هـ، من كتبه: إرشاد العقل السليم في التفسير ورسالة في المسح على الخفين ورسالة في الأوقاف وغير ذلك.
انظر: طبقات المفسرين، أحمد بن محمد الأدنه وي، تحقيق د. سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م، ص (٣٩٨ - ٣٩٩)، والأعلام، خير الدين الزركلي (٧/ ٥٩).

(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، المجلد الثاني، الجزء الثالث، ص (٢٨٠).

(٥) سورة النساء، الآية: (١٧٤).

(٦) سورة يونس، الآية: (١٠٨).

(٧) سورة إبراهيم، الآية: (٥٢).

ووجه الاستدلال بهذه الآيات هو توجه الخطاب إلى عموم الناس.

والناس جمع لا واحد له من لفظه، وإنما واحده إنسان، وواحدته إنسانة[1].

«والإنسان من الناس اسم جنس يقع على الذكر والأنثى الواحد والجمع»[2].

ولا يدخل في عموم الناس هنا الإنس فقط، بل تشمل الإنس والجن. «فإن قال قائل: فالجن ناس. فيقال: الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس. قيل: قد سماهم الله في هذا الموضع ناساً كما سماهم في موضع آخر رجالاً... فجعل الجن رجالاً وكذلك جعل منهم ناساً»[3].

وقد ذكر عن بعض العرب أنه قال وهو يحدث إذ جاءه قوم من الجن فوقفوا، فقيل: من أنتم؟ فقالوا: ناس من الجن، فجعل منهم ناساً[4].

ومن أدلة شمول دعوته ﷺ للجن قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾[5]. قال الطبري: «يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل هؤلاء النفر من الجن ﴿يَٰقَوْمَنَآ﴾ من الجن ﴿أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ قالوا: أجيبوا رسول الله محمداً إلى ما يدعوكم إليه من طاعة الله»[6].

ولا أدل على إرسال النبيّ ﷺ إلى الجن أيضاً من إيمانهم بالقرآن كما ورد

---

(١) انظر: جامع البيان، محمد بن جرير الطبري، المجلد الأول، الجزء الأول، ص (١١٦).

(٢) المصباح المنير، أحمد بن محمد الفيومي، ص (١٠).

(٣) جامع البيان، محمد بن جرير الطبري، المجلد الخامس عشر، الجزء الثلاثون، ص (٣٥٦).

(٤) انظر: المصدر السابق، المجلد الخامس عشر، الجزء الثلاثون، ص (٣٥٦).

(٥) سورة الأحقاف، الآية: (٣١).

(٦) جامع البيان، محمد بن جرير الطبري، المجلد الثالث عشر، الجزء السادس والعشرون، ص (٣٤).

في سورة الجن: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ۝٢﴾[1]. فإيمانهم بالقرآن دليل على أنهم مخاطبون به، وأن من جاء به وهو محمد ﷺ مرسل إليهم أيضاً.

جـ ـ الآيات التي ورد فيها لفظ ﴿كَآفَّةٗ﴾ أو ﴿جَمِيعًا﴾:

ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾[2]. ومعنى ﴿كَآفَّةٗ﴾ عامة[3] وعامةً من الألفاظ الدالة على الشمول[4].

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾[5]. فكلمة ﴿جَمِيعًا﴾ من ألفاظ التوكيد التي ترفع توهم عدم إرادة الشمول[6].

د ـ أخذ الميثاق على النبيين بالإيمان بنبوة محمد ﷺ ورسالته:

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٨١﴾[7].

قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «لم يبعث الله عزّ وجلّ نبيّاً، آدم فمن بعده، إلا أخذ عليه العهد في محمد: لئن بُعث وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، ويأمره فيأخذ العهد على قومه»[8].

---

(١) سورة الجن، الآيتان: (١ ـ ٢).

(٢) سورة سبأ، الآية: (٢٨).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، المجلد السابع، الجزء الرابع عشر، ص (١٩٢).

(٤) انظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، عبدالله بن عقيل العقيلي، المكتبة العصرية، صيدا وبيروت، ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٨م، (٢/ ١٩٣).

(٥) سورة الأعراف، الآية: (١٥٨).

(٦) انظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، عبدالله بن عقيل العقيلي (٢/ ١٩٢).

(٧) سورة آل عمران، الآية: (٨١).

(٨) جامع البيان، محمد بن جرير الطبري، المجلد الثالث، الجزء الثالث، ص (٣٣٢).

وقال ابن عباس: «... ثم ذكر ما أخذ عليهم يعني أهل الكتاب، وعلى أنبيائهم من الميثاق بتصديقه، يعني بتصديق محمدﷺ إذا جاءهم وإقرارهم على أنفسهم»[1].

هـ - أن القرآن حجة على من بلغه كائناً من كان:

قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[2]، فليس الإنذار بهذا القرآن مقتصراً على قوم النبيّ ﷺ، بل يشملهم ويشمل كل من بلغه القرآن.

قال ابن عباس: ﴿لِأُنذِرَكُم﴾ يعني أهل مكة ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾ يعني من بلغه القرآن فهو النذير له»[3]. وقال الطبري: «أي لأنذركم بالقرآن أيها المشركون، وأنذر من بلغه القرآن من الناس كلهم»[4].

ثانياً: من السنّة: حيث ورد الكثير من الأحاديث التي تدل على عالمية الدعوة الإسلامية منها:

حديث جابر بن عبداللهﷺ قال: قال رسول اللهﷺ: «**... وكان النبيّ يبعث إلى قومه خاصةً وبعثت إلى الناس كافةً...**»[5].

وحديث أبي هريرةﷺ أن رسول اللهﷺ: «**... وأرسلت إلى الخلق كافةً، وختم بي النبيّون**»[6].

---

(١) المصدر السابق، المجلد الثالث، الجزء الثالث، ص (٣٣٢).

(٢) سورة الأنعام، الآية: (١٩).

(٣) جامع البيان، محمد بن جرير الطبري، المجلد الخامس، الجزء السابع، ص (١٦٣).

(٤) المصدر السابق، المجلد الخامس، الجزء السابع، ص (١٦٣).

(٥) أخرجه البخاري، الصحيح، كتاب التيمم، الباب الأول، حديث رقم ٣٣٥، ص (٨٦)، ومسلم، الصحيح، ولفظه «وبعثت إلى كل أحمر وأسود»، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم ٥٢١، ص (٢١١).

(٦) أخرجه مسلم، الصحيح، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم ٥٢٣، ص (٢١١ - ٢١٢).

وأيضاً حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**»(١).

ودلت السنّة كذلك على شمول دعوته ﷺ للجن. فمن ذلك ما ورد في الحديث عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: «خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا. فقال: «**لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردوداً منكم، كنت كلما أتيت على قوله:** ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ **قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد**»(٢).

فهذا الحديث يدل على مخاطبة رسول الله ﷺ الجن، وقراءته القرآن عليهم، وإنصاتهم له، وإيمانهم بنعم الله سبحانه وتعالى عليهم والتي من أعظمها الإسلام.

وفعله ﷺ كذلك يدل على عالمية الدعوة، فبعد دعوته عليه الصلاة والسلام لقومه وعشيرته الأقربين أخذ يعرض نفسه على القبائل في أسواق العرب وفي المواسم. فعن رجل من بني مالك بن كنانة قال: رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز يتخللها يقول: «**أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا...**»(٣).

ثم إرساله الكتب والرسائل إلى الملوك والأمراء. فعن أنس بن مالك رضي الله عنه «أن النبيّ ﷺ كتب إلى كسرى، وإلى قيصر، وإلى النجاشي وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى...»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته، حديث رقم ١٥٣، ص (٨٥).

(٢) أخرجه الترمذي، سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، تفسير سورة الرحمن، (٧٣ ـ ٧٤)، قال الألباني: حسن، صحيح سنن الترمذي (٣/ ٣٤٢).

(٣) أخرجه الإمام أحمد، المسند، حديث رقم ١٦٠٢٣، (٢٥/ ٤٠٤ ـ ٤٠٥)، قال محققوه: صحيح لغيره.

(٤) أخرجه مسلم، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب كُتُب النبيّ ﷺ إلى ملوك الكفار، حديث رقم ١٧٧٤، ص (٧٣٧).

ثالثاً: فعل الصحابة رضي الله عنهم بعده ﷺ:

فبعد وفاته ﷺ واستلام أبي بكر رضي الله عنه الخلافة وبعد قضائه على فتنة الردة في السنة الحادية عشرة من الهجرة بدأ بالفتوحات الإسلامية نشراً للدعوة. حيث أرسل الجيوش إلى العراق ضد الدولة الفارسية، وإلى الشام ضد الروم(١). ثم متابعة ذلك من قبل عمر بن الخطاب رضي الله عنه(٢)، ومن بعده عثمان بن عفان رضي الله عنه(٣)، حيث امتدت الدولة الإسلامية من حدود الصين(٤) إلى طرابلس الغرب(٥) شرقاً وغرباً، ومن أرمينية(٦) إلى اليمن شمالاً وجنوباً(٧).

ولما ارتضى سبحانه وتعالى دين الإسلام للثقلين الإنس والجن، وكانت

---

(١) انظر نبذةً عن الفتوحات في عهد الصديق في: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٢/ ٢٣٤ ـ ٢٦١).

(٢) انظر نبذةً عن الفتوحات في عهد الفاروق في: المصدر السابق (٢/ ٢٦٨) وما بعدها.

(٣) انظر نبذة عن الفتوحات في عهد عثمان في: المصدر السابق (٢/ ٤٥٧) وما بعدها.

(٤) بلاد الصين تشغل مساحة واسعة في وسط آسيا وتحد شمالاً بروسيا ومنغوليا، وجنوباً ببحر الصين وفيتنام وبورما ونيبال والهند وتمتد من المحيط الهادي شرقاً إلى كشمير وطاجكستان وقرقيزيا وقازقستان من الناحية الغربية والتي امتدت إلى مناطق منها الفتوحات الإسلامية في آخر خلافة عثمان رضي الله عنه.
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٣/ ٥٠٠) وما بعدها، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس، ص (١١٦ ـ ٢١٩)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٦٧).

(٥) طرابلس الغرب عاصمة ليبيا حالياً تقع في شمالها على ساحل البحر المتوسط. (انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٤/ ٢٨)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس، ص (٣٠ ـ ٣١). وأطلس العالم، محمد سيد نصر، ص (٥٨).

(٦) منطقة جبلية بين هضبة الأناضول في تركيا ومرتفعات إيران، تقع على أجزاء منها حالياً دولة أرمينية. (انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (١/ ١٩٠)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس ص (١٤٦ ـ ١٤٧)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٦٧).

(٧) انظر: خريطة الفتوحات الإسلامية في عهد الخلافة الراشدة في: أطلس التاريخ الإسلامي، د. حسين مؤنس، ص (١٤٦).

الدعوة الإسلامية إليه متوجهة إليهما كما سبق إيضاحه؛ لذلك ميّز جلّ وعلا هذا الدين لكي يصلح لهذه العالمية بمميزات أهمها:

١ ـ سلامته من التحريف بحفظ الكتاب والسنّة:

فالإسلام دين محفوظ بحفظ الله سبحانه وتعالى، فلم تدخله تحريفات البشر، ولم يخالطه شيء من آرائهم. فالقرآن بحمد الله قد نقل إلينا بالتواتر واعتنت الأمة بكتابته ودراسته وحفظه، فلم تختلف لفظة من ألفاظه منذ نزل على محمد ﷺ. قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩﴾[1].

قال يحيى بن أكثم[2]: «إنه كان للمأمون[3] مجلس نظر، فدخل في جملة الناس رجل يهودي حسن الثوب طيب الرائحة، فتكلم فأحسن الكلام والعبارة، فلما أن تقوض المجلس دعاه المأمون فقال له: إسرائيلي؟ قال: نعم، قال له: أسلم حتى أفعل بك وأصنع ووعده. فقال ديني ودين آبائي وانصرف. فلما كان بعد سنة جاءنا مسلماً، فتكلم على الفقه فأحسن الكلام فلما تقوض المجلس دعاه

---

(١) سورة الحجر، الآية: (٩).

(٢) هو يحيى بن أكثم بن محمد بن قطن التميمي يتصل نسبه بأكثم بن صيفي حكيم العرب. كان مولده بمرو سنة ١٥٩ هـ وتوفي في الربذة في طريق عودته من الحج سنة ٢٤٢ هـ. اتصل بالمأمون فولاه قضاء البصرة ثم بغداد، وبلغ عنده منزلة عالية، حتى كان وزراء الدولة لا يبتون بشيء إلا بعد عرضه عليه.
انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (١٢/ ٥)، وما بعدها، والنجوم الزاهرة يوسف بن تغري بردي (٢/ ٢١٦)، وما بعدها.

(٣) هو عبدالله بن هارون بن محمد بن أبي جعفر المنصور، سابع خلفاء بني العباس، ولد سنة ١٧٠ هـ ومات في بذندون قرية قرب طرسوس سنة ٢١٨ هـ حيث حمل إليها ودفن بها، تولى الخلافة بعد خلع أخيه الأمين سنة ١٩٨ هـ وازدهرت الدولة في عهده ازدهاراً كبيراً، كان عالماً حليماً مهتماً بالعلم والعلماء وفي عهده شجع على ترجمة كتب الفلسفة والحكمة وامتحن الناس بخلق القرآن.
وانظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري، (٥/ ٥٧٩) وما بعدها، وسير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (١٠/ ٢٧٧) وما بعدها.

المأمون وقال: ألست صاحبنا بالأمس؟ قال له: بلى قال: فما كان سبب إسلامك؟ قال: انصرفت من حضرتك فأحببت أن أمتحن هذه الأديان، وأنت مع ما تراني حسن الخط، فعمدت إلى التوراة فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت، وأدخلتها البيع فاشتريت مني، وعمدت إلى الإنجيل فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت وأدخلتها البيع فاشتريت مني، وعمدت إلى القرآن فعمدت ثلاث نسخ وزدت فيها ونقصت، وأدخلتها الوراقين فتصفحوها، فلما أن وجدوا فيها الزيادة والنقصان رموا بها ولم يشتروها، فعلمت أن هذا الكتاب محفوظ فكان هذا سبب إسلامي. قال يحيى بن أكثم: فحججت تلك السنّة فلقيت سفيان بن عيينة[1] فذكرت له الخبر فقال لي: مصداق هذا في كتاب الله عزّ وجلّ، قال: قلت في أي موضع؟ قال: في قوله تعالى في التوراة والإنجيل: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ﴾[2] فجعل حفظه إليهم فضاع، وقال عزّ وجلّ؛ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾[3]. فحفظه الله عزّ وجلّ علينا فلم يضع»[4].

والسنّة النبويّة نقلها الصحابة عن الرسول ﷺ، وتلقاها عنهم التابعون حتى حفظت بمصادرها بالسند إلى رسول الله ﷺ في القرن الثالث الهجري تقريباً، حيث اهتم العلماء بجمعها ودراسة سند كل رواية منها ومتنها، فتميز المقبول من المردود، واطمأنت الأمة على هذا المصدر لدينها أن سلم من عبث العابثين.

---

(١) هو سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي، ولد بالكوفة سنة ١٠٧ هـ وتوفي بمكة سنة ١٩٨ هـ، محدث الحرم المكي، كان حافظاً ثقةً واسع العلم كبير القدر، قال عنه الشافعي: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز، ألف الجامع في الحديث، وله كتاب في التفسير.
انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (٨/ ٤٥٤)، وما بعدها. والصفات الكبرى، محمد بن سعد (٥/ ٤٩٧).

(٢) سورة المائدة، الآية: (٤٤).

(٣) سورة الحجر، الآية: (٩).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، المجلد العاشر، الجزء العاشر، ص (٦).

٢ ـ شموله الموضوعي والزماني والمكاني:

والمقصود بالشمول الموضوعي أي وفاؤه بجميع حاجات الإنسان الاعتقادية والعملية. قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١]. وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[٢] قال الشافعي[٣] عن هذه الآية: «فليست تنزل بأحدٍ من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها»[٤]. وقال القرطبي: «والدلالة مبينة مشروحة، وإما مجملة يتلقى بيانها من الرسول عليه الصلاة والسلام، أو من الإجماع، أو من القياس الذي ثبت بنص الكتاب»[٥]. بعكس المذاهب والقوانين الوضعية، فلا تتميز بخاصية الشمول الموضوعي إذ تهتم بجوانب وتهمل أخرى. فيركز البعض على الجانب الروحي مثلاً، والبعض على الجانب الاقتصادي، والبعض على الجانب السياسي، والآخر على الجانب الاجتماعي، إلى غير ذلك. فهي متأثرة بفكر واضعيها وظروفهم الآنية.

أما الشمول الزماني فيقصد به استمرارية صلاحية الدين الإسلامي للبشرية

---

(١) سورة المائدة، الآية: (٣).

(٢) سورة النحل، الآية: (٨٩).

(٣) هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي المطلبي، أحد الأئمة الأربعة الفقيه المحدث الأصولي، صاحب المصنفات، ولد في غزة سنة ١٥٠ هـ، وتوفي بمصر سنة ١٩٩ هـ. من مؤلفاته الأم في الفقه، والرسالة في الأصول، والمسند في الحديث وغير ذلك. قال عنه الإمام أحمد: إن الله قيضه للناس في رأس المائتين.

انظر: مناقب الشافعي، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة. وسير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (١٠/ ٥) وما بعدها.

(٤) الرسالة، محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، المكتبة العلمية، بيروت، ص (٢٠).

(٥) الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، المجلد الثالث، الجزء السادس، ص (٢٧٠).

إلى قيام الساعة. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[1]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾[2].

والشمول المكاني يعني عدم تحديد انتشاره بإقليم معين أو بلد مخصوص، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾[3]، وقال: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[4].

والشمول المكاني والزماني ليس من خصائص دعوات الرسل السابقين لمحمدﷺ؛ إذ أن دعواتهم كانت لأقوام مخصوصين، وفي أقاليم محددة، وفي أزمنة معينة، كما ورد في حديث جابر بن عبداللهرضي الله عنهما قال: قال رسول اللهﷺ: «**... وكان النبيّ يبعث إلى قومه خاصةً وبعثت إلى الناس كافةً**»[5]. وكذا الشمول الزماني، فدعوات الرسل السابقين نسخت بشريعة الإسلام التي أصبحت بعد مبعث محمدﷺ الدين الذي يجب على كل من بلغه أن يدين به إلى قيام الساعة. قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[6].

٣ ـ الوسطية:

ومن خصائص الإسلام الوسطية في شرائعه المختلفة بين الإفراط والتفريط. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[7] والمتأمل في جميع شرائع الإسلام تظهر له هذه الوسطية ولا سيما عند المقارنة مع الأديان الأخرى.

ففي الاعتقاد قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «... والمسلمون وسط في التوحيد بين اليهود والنصارى، فاليهود تصف الرب بصفات النقص التي يختص

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (١٩).
(٢) سورة آل عمران، الآية: (٨٥).
(٣) سورة الأنبياء، الآية: (١٠٧).
(٤) سورة الأنعام، الآية: (١٩).
(٥) سبق تخريجه، ص ٤٦.
(٦) سورة آل عمران، الآية: (٨٥).
(٧) سورة البقرة، الآية: (١٤٣).

بها المخلوق كما قالوا: إنه بخيل، إنه فقير... والنصارى يصفون المخلوق بصفات الخالق التي يختص بها...»[1].

«... وكذلك في النبوات فاليهود تقتل بعض الأنبياء وتستكبر على أتباعهم... والنصارى يجعلون من ليس بنبيّ ولا رسولاً نبيّاً ورسولاً... فالنصارى تصدق بالباطل واليهود تكذب بالحق...»[2]. والمسلمون يؤمنون بالرسل جميعاً من غير غلو في أحد منهم ولا تكذيب.

ومن مظاهر هذه الوسطية في العبادات قال ـ رحمه الله تعالى ـ: «... فالنصارى يعبدونه ببدع ابتدعوها ما أنزل الله بها من سلطان، واليهود معرضون عن العبادات حتى في يوم السبت الذي أمرهم الله أن يتفرغوا فيه لعبادته...»[3]. أما أهل الاستقامة من هذه الأمة فلا يعبدوا الله إلا بما شرع ملتزمين بذلك ما ورد في الكتاب والسنّة معرضين عن البدع والمحدثات.

ووسطية الإسلام حتى في المأكولات، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «... إن النصارى لم تحرم ما حرم الله، ويستحلون النجاسات والخبائث الميتة والدم ولحم الخنزير، واليهود حرمت طيبات أحلت لهم...»[4]. والإسلام أحل الطيبات وحرم الخبائث.

وهكذا في كل شرائع الإسلام تظهر هذه الوسطية بين جانبي الإفراط والتفريط رحمةً من الله تعالى؛ لتتحقق بهذا الدين مصالح العباد الدينية والدنيوية.

٤ ـ أنه دين الفطرة:

والفطرة هي: «سلامة القلب وقبوله وإرادته للحق الذي هو الإسلام»[5].

---

(١) منهاج السنة، ابن تيمية، تحقيق د. محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ (٥/ ١٦٨).

(٢) المصدر السابق (٥/ ١٦٩).

(٣) المصدر السابق (٥/ ١٧١).

(٤) المصدر السابق (٥/ ١٧١).

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد (٤/ ٢٤٧).

فالإسلام بتعاليمه السمحة، متسق مع الفطرة السليمة، فكل إنسان يولد مستعداً لقبول الإسلام مهيأ له. قال ﷺ: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه...**»[1]. فتعاليم الإسلام لا تصطدم بغرائز الإنسان التي جبله الله عليها، بل تهذبها وتوجهها الوجهة التي تحقق الهدف من وجود الإنسان على هذه الأرض، مع تلبية حاجاته المختلفة وإشباع هذه الغرائز. وكذلك لا تقف غرائز الإنسان الجبلية عقبة في قبوله الإسلام، إذ إن تعاليمه متسقة مع الفطرة السليمة.

٥ ـ الوضـوح:

حيث فصلت النصوص الأمور الاعتقادية والعبادية فأصبحت واضحة لا مجال للضلال فيها لمن وقف عندها. فأراحت الإنسان بذلك من الحيرة في الفلسفات المختلفة، وحفظته من الانسياق فيما لا حد له من البدع والمحدثات.

٦ ـ الكمـال:

لكي يعالج أي تشريع كل الأمور المتعلقة بالإنسان فكرية أو عملية، فإنه يمكن أن يشمل جميع هذه الأمور، لكنه ولا شك بعد تطبيقه سيظهر فيه القصور في كثير من تشريعاته وعدم تحقيقها الأهداف التي وضعت لها. وهذه حال القوانين الوضعية الدائمة التغيير والتبديل. لكن الدين الإسلامي بشموله جميع حاجات الإنسان الفكرية والعملية، الدينية والدنيوية فإنه وفَّى كل هذه الحاجات بتشريعاته وبشكل كامل متوازن لا عيب فيه ولا نقص. كيف لا وهو من عند خالق الخلق سبحانه وتعالى والذي يعلم ما يصلح لهم. قال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾[2]، وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾[3].

---

(١) أخرجه البخاري، الصحيح، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، حديث رقم (١٣٥٨)، ص (٢٦٣)، ومسلم، الصحيح، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، حديث رقم (٢٦٥٨)، ص (١٠٦٦).

(٢) سورة فصلت، الآية: (٤٢).

(٣) سورة الكهف، الآية: (١).

وقد اتصفت الدعوة إلى هذا الدين العظيم أيضاً بالخصائص المميزة له. فانفردت بالشرعية لأنها منضبطة بالحكم الشرعي، فلا يجوز أن تخالف بوسائلها وأساليبها ومناهجها وأهدافها النصوص الشرعية. وتميزت بالعالمية وتوجهها إلى الناس كافةً، واتصفت بالشمول، كشمول الإسلام نفسه، فكما أن الدعوة تكون للعقائد فهي للعبادات والأخلاق والمعاملات وجميع شرائع الإسلام، وهي تتوجه إلى كافة الأعمار والأجناس، وإلى مختلف المستويات العلمية والعملية، وتمتد إلى كافة البلدان، وتستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وتتميز بالوضوح الذي هو من سمات الدين الإسلامي، فلا غموض بأهدافها ولا تعقيد بوسائلها وأساليبها.

المطلب الثاني

أهمية دعوة النصارى إلى الإسلام

لا شك في أهمية دعوة جميع الخلائق إلى الإسلام بغض النظر عن دياناتهم وأجناسهم، وبلدانهم، حيث إن رسالة الإسلام عامة للثقلين الإنس والجن كما سبق إيضاحه.

لكن يمكن أن تبرز أهمية دعوة النصارى خاصةً من خلال النقاط التالية:

١ ـ دخول النصارى في عموم الدعوة:

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾[١]، وقال: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾[٢].

وقوله ﷺ: «... **وكان النبيّ يبعث إلى قومه خاصةً وبعثت إلى الناس عامةً**»[٣]. والأدلة في ذلك كثيرة جداً[٤].

ولا شك أن النصارى لا يخرجون عن كونهم من العالم، كما أنهم لا يخرجون عن مدلول لفظ الناس.

٢ ـ توجيه الخطاب في القرآن في كثير من الآيات لأهل الكتاب

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: (١٠٧).

(٢) سورة الأعراف، الآية: (١٥٨).

(٣) سبق تخريجه، ص ٤٦.

(٤) انظر: ما سبق بيانه في عالمية الدعوة الإسلامية.

وتخصيصهم في ذلك أمراً لهم بالتوحيد، أو الإيمان بمحمد ﷺ، أو بياناً لتحريفهم الكلام عن مواضعه، أو رداً على شبههم، أو غير ذلك.

ومن هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾[2]، وقوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾[3]، وقوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ﴾[4]، وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[5] إلى غير ذلك.

ولا شك أن النصارى من أهل الكتاب.

٣ ـ حث القرآن على مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن. كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[6]. أي: «إلا بالجميل من القول وهو الدعاء إلى الله بآياته، والتنبيه على حججه»[7] وذلك تقديراً لما عندهم من بقية أثر الرسل.

٤ ـ تخصيص القرآن للنصارى وتوجيه الخطاب لهم وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾[8]، قيل: «هذا أمر للنصارى الآن بالإيمان بمحمد ﷺ»[9].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (٦٤).
(٢) سورة آل عمران، الآية: (٧٠).
(٣) سورة آل عمران، الآية: (٧١).
(٤) سورة المائدة، الآية: (١٩).
(٥) سورة آل عمران، الآية: (٩٩).
(٦) سورة العنكبوت، الآية: (٤٦).
(٧) جامع البيان، محمد بن جرير الطبري، المجلد الحادي عشر، الجزء الحادي والعشرون، ص (١).
(٨) سورة المائدة، الآية: (٤٧).
(٩) الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، المجلد الثالث، الجزء السادس، ص (١٣٦).

٥ ـ تخصيص النبيّ ﷺ أهل الكتاب في كثير من الأحاديث دعوة لهم. ومن ذلك قوله ﷺ: **«والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»**(١). وقوله: **«ثلاثة لهم أجران رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ...»**(٢).

٦ ـ تمييز النبيّ ﷺ لأسلوب دعوة أهل الكتاب بمراعاة التدرج حسب الأهمية وذلك في وصيته لمعاذ بن جبل حينما أرسله إلى اليمن، حيث قال له ﷺ: **«إنك ستأتي قوماً أهل كتاب فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد افترض عليهم صدقةً تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»**(٣).

والشاهد من هذا الحديث هو أسلوب عرض الدعوة عليهم، وأن سبب اتباع هذا الأسلوب معهم هو كونهم أهل كتاب.

٧ ـ تخصيص النبيّ ﷺ للنصارى في الدعوة كما في قصة وفد نصارى نجران(٤).

---

(١) سبق تخريجه، ص (٤٦).

(٢) أخرجه البخاري، الصحيح، كتاب العلم، باب تعليم الرجل أمته وأهله، حديث رقم (٩٧)، ص (٤٤)، ومسلم بنحوه، الصحيح، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبيّنا محمد ﷺ إلى جميع الناس، حديث رقم (٢٤١)، ص (٨٥).

(٣) أخرجه البخاري، الصحيح، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء، حديث رقم (١٤٩٦)، ص (٢٩١)، ومسلم بنحوه، الصحيح، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، حديث رقم (٢٩)، ص (٤٢).

(٤) تقع في جنوب غرب الجزيرة العربية قرب الحدود السعودية اليمنية، (انظر أطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون ص (١٧). وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس، ص (٧٨)، وكانت نجران من المناطق النصرانية في الجزيرة العربية حتى دخلها الإسلام في

فعن حذيفة رضي الله عنه قال: «جاء العاقب والسيد[1] صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ، يريدا أن يلاعناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبيّاً فلاعناه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، قال: إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلا أميناً، فقال: لأبعثن معكم رجلاً أميناً، حق أمين، فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ، فقال: قم يا أبا عبيدة بن الجراح، فلما قام قال رسول الله ﷺ: هذا أمين هذه الأمة»[2].

٨ ـ عناية الإسلام بمعاملة أهل الذمة. ومصطلح أهل الذمة يشمل اليهود والنصارى.

ومن نماذج عناية الإسلام بأهل الذمة: حرمة ذمة المعاهد، ووجوب الوفاء له، لقوله ﷺ: «**من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً**»[3]، وحرم الإسلام ظلم المعاهد أو تكليفه فوق طاقته أو أخذ شيء من ماله بغير طيب نفس؛ لقوله ﷺ: «**ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسٍ فأنا حجيجه يوم القيامة**»[4].

آخر عهد النبيّ ﷺ.

(١) العاقب واسمه الأيهم، وقيل: شرحبيل، وكان صاحب رحالهم ومجتمعهم ورئيسهم والسيد واسمه عبد المسيح وكانا صاحبا مشورتهم. (انظر: سيرة ابن هشام، عبد الملك بن هشام الحميري، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ (٣/ ١١٢). وفتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن حجر العسقلاني، دار الريان، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٦م، (٧/ ٦٩٦).

(٢) أخرجه البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران، حديث رقم (٤٣٨٠)، ص (٨٢٨)، ومسلم مختصراً، الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي عبيدة بن الجراح، حديث رقم (٢٤٢٠)، ص (٩٨٥).

(٣) أخرجه البخاري، الصحيح، كتاب الجزية والموادعة، باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم، حديث رقم (٣١٦٦)، ص (٦٠٧).

(٤) أخرجه أبو داود، سنن أبي داود، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات، حديث رقم (٣٠٥٢)، (٣/ ٤٣٧)، قال الألباني: صحيح، صحيح سنن أبي داود، (٢/ ٢٦١).

٩ ـ أن دين النصارى دين عالمي ـ بمعنى أنه يعده أتباعه ديناً للبشرية جمعاء[١] ـ ولذلك ينشطون في الدعوة إليه، بعكس كثير من الديانات والمذاهب الأخرى التي يراها أتباعها ديناً لهم وحدهم ولذلك لا يسعون لنشرها. كاليهودية والهندوسية، وعلى ذلك ففي دعوة النصارى واهتداء البعض منهم حد لانتشار النصرانية في مجتمعات غير نصرانية، ومن ثم إتاحة الفرصة لنشر الإسلام في مثل هذه المجتمعات.

١٠ ـ كون النصارى ذوي قوة وكثرة وانتشار في الوقت الحاضر. وكثير من المجتمعات غير النصرانية تسعى لتقليدهم ومتابعتهم منخدعة بما بلغوه من حضارة مادية وقوة عسكرية، وبهداية هؤلاء النصارى أو البعض منهم وهم بهذا النفوذ بالنسبة للعالم سوف يكون في ذلك صلاح أقوام كثيرين كانوا يرونهم المثال لهم.

١١ ـ أن أكثر الشبه التي تثار حول الإسلام خصوصاً في الوقت الحاضر إنما هي من قِبَلهم. وباهتداء البعض منهم فيه رد على مثل هذه الشبه.

١٢ ـ أن اهتداء بعض النصارى يساعد كثيراً في فضح باطل إخوانهم السابقين في الديانة، لخبرتهم فيها، وما في ذلك من مساعدة للدعاة ودعم لجهودهم.

١٣ ـ أن حروب المسلمين في أغلب فترات التاريخ الإسلامي كانت مع النصارى: كحروب المسلمين في الأندلس، وصقلية، والحروب الصليبية في الشام ومصر. بل لا تزال هذه الحروب مستمرة في بعض الجهات من العالم. وباهتداء بعض النصارى يساعد ذلك في كشف عدوان إخوانهم السابقين في الديانة وربما يساعد في إزالة ذلك العدوان.

---

(١) والصحيح أن عيسى عليه السلام بعث إلى بني إسرائيل خاصةً لحديث النبيّ ﷺ: «**وكان النبيّ يبعث إلى قومه خاصةً وبعثت إلى الناس كافةً**» سبق تخريجه في ص ٤٦، وقد دل الإنجيل أيضاً على هذه الخصوصية بقول المسيح عليه السلام للحواريين: «إلى طريق أمم لا تمضوا، إلى مدينة السامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحري إلى خراف بيت إسرائيل الضالة». إنجيل متى (١٠/ ٥ ـ ٦).

١٤ ـ وبالإضافة إلى ما سبق فإن النصارى أهل ملة سماوية قبل أن يطرأ عليه النسخ والتحريف، وهي آخر الملل قبل رسالة الإسلام وفي كتبهم من البشارات بنبوّة محمدﷺ. فإذا تصدى المختصون لإبراز هذه البشارات وشرحها فربما يكون ذلك سبباً في إسلام الكثيرين منهم، بل ويكون هؤلاء أيضاً عوناً في دعوة بني ملتهم السابقة.

المبحث الثاني

حال البلاد الإسلامية
قبيل الحروب الصليبية

بدأت الحروب الصليبية في العقد الأخير من القرن الخامس الهجري، وفي هذه الفترة والعقود القليلة التي سبقتها شهد العالم الإسلامي في شرقه وغربه تفرقاً بين المسلمين، وصراعاً بين القوى الإسلامية، تجزأ على إثرها إلى دويلات اشتد الصراع فيما بينها حتى أدى في البعض منها إلى القتال، بل والاستنصار بالكفرة على المسلمين. فكان ذلك من العوامل المشجعة للنصارى على غزو البلاد الإسلامية.

والمطالب التالية عرض موجز لأحوال العالم الإسلامي في هذه الفترة.

المطلب الأول

الأحوال السياسية

انقسم العالم الإسلامي في القرن الخامس الهجري إلى عدة دول، تقسمت هذه الدول أيضاً إلى مجموعة من الدويلات المتصارعة.

فالخلافة العباسية في بغداد[1] تحت سيطرة الوزراء البويهيين[2] الشيعة الذين استبدوا بالأمر، وتسلطوا على العامة من السنة.

بل وقد بلغ الأمر أنه لم يبق للخليفة العباسي إلا اسم الخلافة فقط. والأمر كله بيد وزير الدولة البويهي[3]. وتمادى البويهيون الشيعة في تحكمهم بالخلافة العباسية حتى حاولوا إخراج الخلافة من العباسيين في بغداد وإعلانها للعبيديين؛

---

(١) تقع على نهر دجلة في العراق، بناها المنصور عاصمة للخلافة العباسية، وهي في الوقت الحاضر عاصمة لدولة العراق. (انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (١/ ٥٤١)، وما بعدها. وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٣٦).

(٢) البويهيون أسرة فارسية حكمت في بلاد فارس، وكان مبدأ ظهورها سنة ٣٢١ هـ، أسسها بويه بن فنا خسرو بن تمام بن كوهي ليتصل النسب بيزدجرد الملك الفارسي، كان دخولهم بغداد سنة ٣٣٤ هـ نجدة للخليفة العباسي ضد تسلط الأتراك، ناصروا الشيعة ومكنوا للتشيع حتى أزالهم السلاجقة سنة ٤٤٧ هـ. (انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٧/ ٥ و١٥٧)، والبداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين (١١/ ١٨٥ و٢٢٥).

(٣) انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٧/ ١٦٠).

مما جعل الخليفة العباسي يستنجد بالسلاجقة الذين دخلوا بغداد سنة ٤٤٧ هـ[١]. وأزالوا بذلك سلطة بني بويه، وكانت السلطة الفعلية للدولة العباسية في عهد البويهيين لم تتجاوز العراق وأجزاء من بلاد فارس[٢].

وبعد دخول السلاجقة الأتراك بغداد وإزالتهم للبويهيين أعادوا هيبة الخلافة، فامتد نفوذ الدولة العباسية من بلاد الصين إلى سواحل الشام شرقاً وغرباً، ومن بلاد القوقاز[٣] إلى اليمن شمالاً وجنوباً.

إلا أن هذه القوة التي أضافها السلاجقة للدولة العباسية في بغداد لم تدم طويلاً، إذ تفككت الدولة التي أعاد السلاجقة لملمة أجزائها إلى مجموعة من الدول.

فبعد مقتل الوزير السلجوقي نظام الملك[٤]، ثم وفاة السلطان السلجوقي ملكشاه[٥] سنة ٤٨٥ هـ تجزأت السلطنة السلجوقية فانحلت الدولة ووقع السيف[٦].

---

(١) انظر: المصدر السابق (٨/ ١٢٥).

(٢) تضم مجموعة أقاليم في غرب وجنوب غرب إيران في الوقت الحاضر. (انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٤/ ٢٥٦). وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون ص (٦٩)، والمنجد في اللغة والأعلام ص (٤٠٢).

(٣) اسم بلاد القوقاس أو القوقاز يطلق على جمهوريات أرمينية وجورجيا وأذربيجان في الوقت الحاضر. (انظر: المنجد في اللغة والأعلام ص (٤٤٤)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٦٦ ـ ٦٧).

(٤) نظام الملك: هو الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي، كان فيه خير وتقوى وميل إلى الصالحين، محب للعلم والعلماء، أنشأ المدرسة النظامية ببغداد وغيرها في الولايات العباسية، تولى الوزارة لسلاطين السلاجقة ألب أرسلان ثم لابنه ملكشاه نحواً من ثلاثين سنةً. كان مولده سنة ٤٠٨ هـ ومقتله على يد أحد الباطنية سنة ٤٨٥ هـ. (انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٨/ ٣٥٤)، وسير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (١٩/ ٩٤).

(٥) هو ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي التركي، تملك بعد أبيه وحسنت سيرته وأمنت الطرق في دولته، كان مولده سنة ٤٤٧ هـ ووفاته ٤٨٥ هـ. (انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٨/ ٣٥٩ ـ ٣٦١).

(٦) انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٨/ ٣٥٦).

وبعد طول صراع وتنافس بين أفراد البيت السلجوقي آلت بغداد وفارس إلى السلطان بركياروق[1] بن ملكشاه[2]، وخراسان[3] وبلاد ما وراء النهر[4] إلى سنجر[5] بن ملكشاه[6]، وسوريا[7]..............................

---

(١) هو بركياروق بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي التركي تولى السلطنة وعمره ثنتا عشرة سنة، ومكث بها ثلاث عشرة سنة حيث توفي مريضاً سنة ٤٩٨ هـ بعد أن عهد بالسلطنة لابنه ملكشاه. وقد كانت مدة سلطنته حافلة بالاختلاف والحروب فما استقام له الأمر إلا في آخرها. (انظر: المنتظم، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق محمد عبد القادر عطا وزميله، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥م (١٧/ ٩٠)، والكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٨/ ٥٠٢)، وسير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (١٩/ ١٩٥).

(٢) انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٨/ ٣٦٧)، و(٨/ ٣٧٦).

(٣) تضم الأجزاء الشمالية الشرقية من إيران في الوقت الحاضر، وأهم مدنها مشهد ومرو ونيسابور وغيرها. (انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، (٢/ ٤٠١)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس ص (١١٦ ـ ١١٧)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٦٩).

(٤) النهر يقصد به نهر جيحون (أمو داريا في الوقت الحاضر) والبلاد التي وراءه تضم حالياً أوزبكستان وطجكستان. (انظر: أطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس، ص (٢٢٢)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٧٠ ـ ٧١).

(٥) هو سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي التركي، تولى السلطنة بعد أخيه محمد فاستقام له الأمر وخطب له على أكثر منابر الإسلام بالسلطنة نحو أربعين سنة، كانت قاعدة سلطنته خراسان، كان مولده بسنجار سنة ٤٧٩ هـ ووفاته مريضاً سنة ٥٥٢ هـ بمرو. (انظر: المنتظم، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق محمد عبد القادر عطا وزميله (١٨/ ٢١)، والكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٩/ ٢٤٠). وسير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (٢٠/ ٣٦٢).

(٦) انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٨/ ٤٠٨).

(٧) قال ياقوت الحموي: (سوريا موضع بالشام بين خناصرة وسلمية) معجم البلدان (٣/ ٣١٨)، وخناصرة في شمال دولة سوريا في الوقت الحاضر، وسلمية في وسطها الغربي.

لتتش[1] بن ألب أرسلان ثم انقسمت بعد مقتله بين ولديه. فرضوان[2] بن تتش في حلب[3] وأخوه دقاق[4] في دمشق[5][6] حيث أدى هذا الوضع في النهاية إلى ظهور بعض البيوت الحاكمة بما يعرف بنظام الأتابكيات[7].

انظر: أطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٣٨ ـ ٣٩)، وغلب هذا الاسم على الأجزاء الوسطى والشمالية من بلاد الشام بشكل عام والتي تحويها دولة سوريا في الوقت الحاضر.

(١) تتش بن ألب أرسلان السلجوقي التركي، تملك دمشق وأعمالها سنة ٤٧١ هـ ثم تحارب مع السلطان بركيابروق ببلاد الري، فقتل سنة ٤٨٨ هـ فخلفه ابنه رضوان على حلب وأخوه دقاق على دمشق.

انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (١٩/ ٨٣)، والبداية والنهاية، إسماعيل ابن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين (١٢/ ١٥٩).

(٢) رضوان بن تتش بن ألب أرسلان السلجوقي التركي استقل بحلب بعد أبيه وأخذت منه الفرنج أنطاكية، قرب الباطنية وكان موالياً للعبيديين في مصر، كانت وفاته سنة ٥٠٧ هـ. (انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٨/ ٥٩٨)، وسير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (١٩/ ٣١٥).

(٣) مدينة في شمال دولة سوريا في الوقت الحاضر، تعرف بالشهباء وقد كانت عاصمة للحمدانيين في القرن الرابع الهجري. (انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٢/ ٣٢٤) وما بعدها، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٣٩).

(٤) هو دقاق بن تتش بن ألب أرسلان السلجوقي التركي، استقل بدمشق بعد وفاة أبيه ومكث بها عشر سنين، حتى وفاته مريضاً وقيل مسموماً سنة ٤٩٧ هـ.

انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٨/ ٤٩٨)، وسير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (١٩/ ٢١٠).

(٥) من أهم مدن الشام، تقع حالياً في جنوب غرب دولة سوريا، وهي عاصمتها، وكانت عاصمة للدولة الأموية.

انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٢/ ٥٢٧) وما بعدها، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس، ص (٤١٧).

(٦) انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٨/ ٣٩٠).

(٧) الأتابكيات: نسبة إلى كلمة «أتابك» وهي لفظة تركية مركبة من «أتا» وتعني الأب، و«بك»

أما مصر وساحل شمال إفريقية حتى تونس[(١)]، وبلاد الحجاز، فكانت خاضعة للدولة العبيدية الشيعية المستقلة عن الخلافة العباسية، بل أنشأت خلافة في القاهرة[(٢)] منافسة بذلك للخلافة العباسية في بغداد.

وكانت قد امتدت دولة العبيديين من شمال إفريقية والمغرب إلى مصر سنة ٣٥٨ هـ[(٣)]، وزالت في عام ٥٦٧ هـ بعد أن أعاد صلاح الدين الأيوبي الخطبة في مصر لبني العباس[(٤)].

وتعني الأمير. وكان الأتابك يكلف من قبل السلطان بالوصاية على أحد أبنائه الذين لم يبلغوا سن الرشد، فكان السلطان إذا أوصى بالولاية من بعده لابنه الصغير جعل عليه من يقوم على شؤونه ويدبر مملكته حتى يقوى على ذلك، فكان بعض هؤلاء الأوصياء يستقلون بالحكم والتدبير فنشأ عن ذلك ولايات استقلوا بها تعرف بالأتابكيات.

انظر: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، أحمد بن علي القلقشندي، دار الكتب، القاهرة (٤/ ١٨)، ووفيات الأعيان، أحمد بن محمد بن خلكان، تحقيق د. إحسان عباس (١/ ٣٦٥).

(١) مدينة تونس عاصمة دولة تونس في الوقت الحاضر تقع في شمالها على ساحل البحر المتوسط.
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٢/ ٧٠)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس، ص (٤١٩).

(٢) القاهرة، أو قاهرة المعز، عاصمة جمهورية مصر العربية، أول من بناها جوهر الصقلي غلام المعز العبيدي، سنة ٣٥٨ هـ حيث صارت بعد ذلك عاصمة للدولة العبيدية والدول التي تتابعت على مصر، وموقعها في الشمال الغربي من مصر.
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، (٤/ ٣٤١)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون ص (٥٢).

(٣) انظر: المنتظم، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق محمد عبد القادر عطا وزميله (١٨/ ١٩٧) والكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٧/ ٢٨٠).

(٤) انظر: النوادر السلطانية، يوسف بن رافع بن شداد، تحقيق د. جمال الدين الشيال، ص (٨٦)، والكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٩/ ٣٦٤).

وكانت أحوال هذه الدولة مضطربة أيضاً خلال العقود القليلة التي سبقت مجيء الصليبيين.

ففي بداية القرن الخامس الهجري كان على إفريقية باديس بن منصور الصنهاجي[١] الذي أرسل عمه حماد[٢] إلى بلاد المغرب لمحاربة قبائل زناتة وبسط نفوذه عليها.

حيث حارب حماد هذه القبائل واختط مدينة القلعة[٣] وجعلها مركزاً له[٤]، واستقل بذلك في المغرب عن دولة باديس.

ولما مات باديس وجاء ابنه المعز[٥] حارب حماد ولم يستطع القضاء عليه

---

(١) باديس بن منصور بن بلكين بن زيري الصنهاجي من ملوك الدولة الصنهاجية في القيروان التابعة للدولة العبيدية في مصر، كانت ولايته فترة اضطراب وفتن بينه وبين بعض أقربائه، كان مولده عام ٣٧٤ هـ ووفاته بالقيروان سنة ٤٠٦ هـ. (انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٧/ ٦٠٣).

(٢) هو حماد بن بلكين بن زيري الصنهاجي صاحب قلعة حماد حيث اختطها وصارت قاعدة له، كان من أبرز قواد دولة ابن أخيه باديس، ثم استقل عنه، توفي مريضاً سنة ٤١٧ هـ ودفن بالقلعة. (انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٧/ ٦٩٥).

(٣) مدينة القلعة وتسمى قلعة أبي طويل تقع بولاية سوسة في دولة تونس حالياً في الشمال الشرقي منها.

انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٤/ ٤٤٢)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٦١).

(٤) انظر: العبر، عبد الرحمن بن خلدون (٦/ ١٥٨)، وللتوسع في أخبار هذه الدولة انظر: العبر، عبد الرحمن بن خلدون (٦/ ١٧١).

(٥) هو المعز بن باديس بن منصور بن بلكين الصنهاجي، صاحب إفريقيا خلع طاعة العبيديين وخطب للعباسيين في القيروان، كان شجاعاً محباً للعلم كثير البذل، مولده في سنة ٣٩٨ هـ ووفاته بالمهدية سنة ٤٥٤ هـ.

انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (١٨/ ١٤٠)، والعبر، عبد الرحمن بن خلدون (٦/ ١٥٨ ـ ١٥٩).

فعاد أدراجه إلى إفريقية[١]. ومكن حماد بذلك استقلاله بالمغرب.

ثم لم يلبث المعز بن باديس أن استقل بإفريقية عن العبيديين عام ٤٤٠ هـ[٢]. مما دفع العبيديين إلى تشجيع قبائل الهلاليين[٣] على اكتساح إفريقية حيث انساحوا بها وخربوا الكثير من حواضرها كبرقة[٤] وأجدابيا[٥] وسرت[٦] وغيرها. فعاثوا في الأرض فساداً ونادوا بشعار العبيديين. ولم يبق للمعز إلا القيروان[٧].

وبعد وفاة المعز خلفه ابنه تميم[٨]..................

---

(١) انظر: العبر، عبد الرحمن بن خلدون (٦/ ١٥٨).

(٢) انظر: العبر، عبد الرحمن بن خلدون، (٦/ ١٥٩)، وللتوسع عن دولة المعز بن باديس انظر: العبر، عبد الرحمن بن خلدون (٦/ ١٥٧)، وما بعدها.

(٣) من بني هلال من مضر كانت منازلهم مما يلي الطائف، ظاهروا القرامطة ولما تغلب العبيديون على مصر والشام نقلوهم إلى صعيد مصر واستعملوهم ضد أعدائهم وكان ذلك في حدود المائة الرابعة.
انظر: العبر، عبد الرحمن بن خلدون (٦/ ١٣).

(٤) برقة منطقة واسعة في ليبيا شرقي خليج سرت على البحر المتوسط.
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (١/ ٤٦٢)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس ص (١٢٠ ـ ١٢١)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٥٨).

(٥) مدينة تقع في الشمال الشرقي من دولة ليبيا بالغرب من الساحل الشرقي لخليج سرت على البحر المتوسط.
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (١/ ١٢٥)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس ص (١٢٠ ـ ١٢١)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٥٨).

(٦) مرفأ بحري في شمال دولة ليبيا على خليج سرت في البحر المتوسط.
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٣/ ٢٣٢)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس ص (١٢٠ ـ ١٢١)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٥٨).

(٧) القيروان مدينة تقع حالياً في دولة تونس في الشمال الشرقي منها مقابل مدينة المهدية على البحر المتوسط حيث تبعد عنها حوالي ٣٠٠ كم.
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٤/ ٤٧٦ ـ ٤٧٧)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس ص (٤١٩)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون ص (٦١).

(٨) هو تميم بن المعز بن باديس بن المنصور الحميري الصنهاجي، ولد سنة ٤٢٢ هـ، تملك

سنة ٤٥٣ هـ[١] والذي كانت مدته مضطربة في إفريقية حيث ثارت عليه الكثير من المدن كإمارات مستقلة. مثل مدينة سوسة[٢]، وصفاقس[٣] وقابس[٤][٥].

ومن الدول ذات النزعة الاستقلالية في المغرب الأقصى دولتي برغواطة[٦]، وغمارة[٧] وما كان منهما من فتن وقلاقل[٨].

ثم كان ظهور المرابطين[٩] واكتساحهم لإفريقية وبلاد المغرب وذلك في

إفريقية بعد أبيه إلى وفاته سنة ٥٠١ هـ. كان كريماً شجاعاً مهيباً.

انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (١٩/ ٢٦٤)، والعبر، عبد الرحمن بن خلدون (٦/ ١٥٧ ـ ١٥٩)، والكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٨/ ٥٥٦).

(١) انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٨/ ٧٢).

(٢) سوسة: مدينة تقع في شمال شرق دولة تونس على خليج الحمّامات في البحر المتوسط شمال مدينة المهدية.

انظر: أطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس ص (٤١٩)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون ص (٦١)، والمنجد في اللغة والأعلام ص (٣١٥).

(٣) صفاقس: مدينة تقع حالياً في دولة تونس على خليج قابس في البحر المتوسط جنوب مدينة المهدية.

انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٣/ ٢٥٢)، وأطلس تاريخ الإسلام د. حسين مؤنس ص (٤١٩)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٦١).

(٤) مدينة ساحلية تونسية تقع على خليج قابس في البحر المتوسط.

انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٤/ ٣٢٨)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس ص (٤١٩)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٦١).

(٥) انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٨/ ١٧٢).

(٦) سيأتي نبذة عنها في المطلب الثاني من هذا المبحث.

(٧) سيأتي نبذة عنها في المطلب الثاني من هذا المبحث.

(٨) انظر: العبر، عبد الرحمن بن خلدون (٦/ ١٨٢ ـ ١٨٥).

(٩) إحدى قبائل لمتونة من صنهاجة البربرية. أسسوا لهم دولة سنية في شمال إفريقية

النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، حيث وحدوا إفريقية وبلاد المغرب تحت سيطرتهم بعد حروب طاحنة مع قبائل هذه المنطقة ودويلاتها[1].

أما الأندلس فكان خلال القرن الخامس الهجري وحتى قبيل قيام الحروب الصليبية يعيش في فترة ما يعرف بملوك الطوائف.

قال ابن الأثير عن هذه الفترة في الأندلس: «... ثم إن الأندلس اقتسمه أصحاب الأطراف والرؤساء، فتغلب كل إنسان على شيء منه، فصاروا مثل ملوك الطوائف. وكان ذلك أضر شيء على المسلمين، فطمع بسببه العدو الكافر»[2].

ومن أبرز هذه الدويلات أو الممالك في الأندلس: قرطبة[3]، وإشبيلية[4]،

والمغرب والأندلس، حكمت من سنة ٤٤٨ هـ ـ ٥٤١ هـ. نشرت الأمن والعدالة ومكنت للإسلام في هذه المناطق، وتسميتهم بالمرابطين لإقامتهم الرباطات للجهاد والعبادة، وأطلق عليهم الملثمون لالتزام رجالهم باللثام في سائر أحوالهم. (انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٨/ ١٣٤)، والعبر، عبد الرحمن بن خلدون (٦/ ١٨٢)، وما بعدها، والأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، علي بن عبدالله بن أبي زرع، دار المنصور، الرباط ١٩٧٢م، ص (١٢٤ ـ ١٢٥).

(١) انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٨/ ١٣٤).

(٢) انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٧/ ٦٢٨).

(٣) قرطبة: يطلق عليها حالياً ـ كوردوبه ـ تقع في جنوب إسبانيا على الوادي الكبير، وقد كانت عاصمة للدولة الأموية بالأندلس ثم عاصمة لدولة بني هود من ملوك الطوائف. (انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٤/ ٣٦٨)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس ص (١٧٢)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٧٨).

(٤) إشبيلية: يطلق عليها حالياً ـ سيفيليا ـ تقع في جنوب غرب إسبانيا على الوادي الكبير وقد كانت عاصمة لدولة بني عباد من ملوك الطوائف. (انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (١/ ٢٣٢)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس ص (١٧٢)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون ص (٧٨).

وطليطلة[1]، وسرقسطة[2]، وبلنسية[3]، ومرسية[4]، وغرناطة[5][6] وغيرها.

حيث كانت هذه الدويلات تتصارع فيما بينها، بل وتستعين في بعض الأحيان بالنصارى ضد بعضها، فظهر لذلك سلطان النصارى بالأندلس وهددوا وجود المسلمين فيها، فعبَّر عن ذلك أحد الشعراء الأندلسيين[7] بأبيات منها:

يا أهل أندلس حثوا مطيكم فما المقام بها إلا من الغلط

---

(١) طليطلة: يطلق عليها حالياً ـ توليدو ـ تقع في وسط إسبانيا جنوب العاصمة مدريد، كانت عاصمة لدولة بني ذنون من ملوك الطوائف.
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٤/ ٤٥). وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس ص (١٧٣). وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون ص (٧٨).

(٢) سرقسطة: وتسمى حالياً ـ سرغوسة ـ تقع في إسبانيا شمال شرق العاصمة مدريد، كانت عاصمة لبني نجيب من ملوك الطوائف.
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٣/ ٢٤٠)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس ص (١٧٢)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٧٨).

(٣) بلنسية: يطلق عليها حالياً ـ فلنسية ـ تقع في شرق إسبانيا على ساحل البحر المتوسط، كانت عاصمة لبني عامر من ملوك الطوائف.
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (١/ ٥٨١)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس ص (١٧٣)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٧٨).

(٤) مرسية: تقع في جنوب شرق إسبانيا قريباً من ساحل البحر المتوسط، سيطر عليها العامريون من ملوك الطوائف.
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٥/ ١٢٥)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس ص (١٧٣)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٧٨).

(٥) غرناطة: يطلق عليها حالياً ـ غراناده ـ تقع في جنوب إسبانيا، حكمها خلال دول الطوائف بنو زيري، وقامت بها مملكة بني الأحمر آخر المعاقل الإسلامية في الأندلس، حيث سقطت عام ٨٩٧ هـ.
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٤/ ٢٢١)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس ص (١٧٧)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٧٨).

(٦) انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٧/ ٦٢٨).

(٧) الأبيات للشاعر عبدالله اليحصبي المعروف بابن العسال.

الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا كيف الحياة مع الحيات في سفط[1]

وإزاء هذا الضعف استفحل أمر أحد ملوك الإفرنج في الأندلس وهو الإذفونش[2] وصار يستذل ملوك الطوائف ويرغمهم على دفع الجزية إليه. بل وأخذ يزحف على هذه الممالك واحدة بعد الأخرى ليضمها إليه[3]؛ مما جعل المعتمد بن عباد[4] يستنجد بالمرابطين الذين هبوا لنجدة إخوانهم المسلمين في الأندلس حيث انتصروا على الإذفونش في معركة الزلاقة عام ٤٧٩ هـ[5] ومن ثم بسطوا نفوذهم على الأندلس.

ومما زاد من ضعف المسلمين في هذه الفترة ـ إضافة إلى انقسام بلادهم

---

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقري، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر بيروت، ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨م (٦/ ٨٤).

(٢) وهو ألفونسو السادس بن فردلند أحد ملوك قشتالة النصرانية، يعرف بالمصادر الإسلامية بالإذفونش، زحف على ملوك الطوائف بالأندلس فاكتسح مناطقهم حتى هزمه المرابطون في معركة الزلاقة المشهورة وأوقفوا الزحف النصراني وذلك سنة ٤٧٩ هـ. وقد كانت وفاة ألفونسو سنة ٥٠٢ هـ. (انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٨/ ٣٠٧)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس، ص (١٨١).

(٣) انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٨/ ٢٩٨ ـ ٣٠٧).

(٤) هو محمد بن عباد بن محمد اللخمي، ثالث سلاطين بني عباد في إشبيلية وآخرهم. كان شهماً كريماً أديباً شاعراً، ولد سنة ٤٣١ هـ وتولى بعد أبيه سنة ٤٦١ هـ ولم يزل في صفاء ودعة حتى سنة ٤٧٨ هـ حينما استولى ملك الروم على طليطلة وزحف على إشبيلية مما دعا المعتمد أن يستنجد بالمرابطين الذين هبوا لمساعدته لكنهم قبضوا على المعتمد وسجنوه في أغمات بالمغرب حتى مات سنة ٤٨٨ هـ. (انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٨/ ٣٣٩ ـ ٣٤٤). وسير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (١٩/ ٥٨).

(٥) انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٨/ ٣٠٧).

إلى دويلات ـ ما يحدث من نزاع وحروب بين ولاة وسلاطين هذه الدويلات مما أدى إلى عجز المسلمين في البداية عن صد زحف النصارى على البلاد الإسلامية.

فعلى سبيل المثال في الشرق الإسلامي وبعد موت السلطان السلجوقي ألب أرسلان[١] سنة ٤٦٥ هـ والذي كان يغازي في جيحون[٢]، وسار أخوه قاروت بك[٣] من كرمان[٤] ليستولي على الري[٥] فوقعت الحرب بينه وبين ملكشاه بن ألب أرسلان الذي خلف والده في السلطنة وأجازه الخليفة العباسي بذلك[٦].

---

(١) هو محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق التركي. ولقبه ألب أرسلان أي أسد شجاع بالتركية. خطب له بالسلطنة على العراق وخراسان وفارس، كان رحيم القلب رفيقاً بالرعية محباً للجهاد، من أعظم سلاطين السلاجقة وأقواهم، له الوقائع المشهورة مع الروم، ومن أبرزها هزيمته لهم في موقعة ملاذكرت سنة ٤٦٣ هـ وأسر ملكهم. كان مولده عام ٤٢٤ هـ ووفاته سنة ٤٦٥ هـ حيث دفن في مرو. انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٨/ ٢٢٣ ـ ٢٣١)، وسير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (١٨/ ٤١٤).

(٢) جيحون: هو نهر أمور داريا في الوقت الحاضر، والذي يبلغ طوله ٦٦٢٠ كم تقريباً حيث ينبع من جبال بامير ويتجه شمالاً ليصب في بحيرة آورال ماراً بطجكستان وتركمانستان وأوزبكستان. (انظر: أطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس ص (٢٢٢ ـ ٢٢٣)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون ص (٧١)، والمنجد في اللغة والأعلام ص (٦٩).

(٣) هو قاروت وقيل: قارون أو قارود ـ بن داود بن ميكائيل بن سلجوق التركي، طلب السلطنة بعد وفاة أخيه ألب أرسلان ووقعت الحرب لذلك بينه وبين ملكشاه بن ألب أرسلان حيث قبض على قاروت وقتل سنة ٤٦٥ هـ. (انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٨/ ٢٣٥)، والمنتظم، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق محمد عبد القادر عطا وزميله (١٦/ ١٤٥ ـ ١٤٦).

(٤) كرمان إقليم واسع في جنوب شرق إيران على الحدود الباكستانية، قاعدته مدينة كرمان. (انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٤/ ٥١٥). وأطلس تاريخ الإسلام د. حسين مؤنس ص (١١٦ ـ ١١٧)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٦٩).

(٥) الري: مدينة تاريخية ازدهرت في عصر الخلافة العباسية، تقع حالياً في ضاحية مدينة طهران عاصمة إيران.

انظر: أطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس ص (١١٦ ـ ١١٧)، والمنجد في اللغة والأعلام ص (٢٧٢).

(٦) انظر: المنتظم، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق محمد عبد القادر عطا وزميله

وصاحب دمشق تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان يزحف على بغداد في سنة ٤٨٧ هـ طلباً للسلطنة حيث ضم إلى نفوذه حلب والجزيرة[١] وديار بكر[٢][٣]. حتى انتهى الأمر بقتله إثر حربه مع السلطان بركيارق سنة ٤٨٨ هـ[٤]. ثم تنقسم منطقة نفوذه بين ولديه رضوان بن تتش ومركزه في حلب ودقاق بن تتش ومركزه في دمشق وتقع الحرب بينهما على مناطق النفوذ سنة ٤٩٠ هـ[٥].

وهكذا ففي الوقت الذي كانت تتعين فيه الوحدة بين المسلمين وحشد جهودهم لمواجهة النصارى الذين بدأوا الزحف إلى البلاد الإسلامية وأعلنوا المسير للاستيلاء على بيت المقدس، نجد النزاع والقتال على أشده بين ملوك الشام.

ولا يخفى أثر النزاع المستمر بين الخلافة العباسية في بغداد وخلافة العبيديين في مصر في إضعاف المسلمين وصرف قواهم بين بعضهم، منشغلين بذلك عن العدو المتربص بهم[٦].

ولم يسلم الغرب الإسلامي من النزاع والقتال بين دويلاته. فكثيراً ما

(٦/ ١٤٤ ـ ١٤٦)، والكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٨/ ٢٣٥).

(١) الجزيرة: هضبة صحراوية تقع بين نهري دجلة والفرات لتضم شمال غرب العراق وشمال شرق سوريا وجنوب شرق تركيا. (انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٢/ ١٥٦)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس ص (١١٤ ـ ١١٥)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون ص (٦٨).

(٢) تقع في جنوب شرق تركيا حالياً وقاعدتها مدينة آمد التاريخية. (انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٢/ ٥٦١ ـ ٥٦٢)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون ص (٦٨)، والمنجد في اللغة والأعلام ص (٢٥٢)).

(٣) انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٨/ ٣٣٨).

(٤) انظر: المصدر السابق (٨/ ٣٩٠).

(٥) انظر: المصدر السابق (٨/ ٣٩١)، و(٨/ ٤١٢).

(٦) انظر أمثلة على هذا النزاع بين الخلافة العباسية في بغداد وخلافة العبيديين في مصر. في: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٨/ ١٥٣)، و(٨/ ٢٦٠)، و(٨/ ٣٥٢).

يصاحب الحركات الاستقلالية في إفريقية وبلاد المغرب الحروب الطاحنة.

فمن ذلك الحرب بين المعز بن باديس وعمه حماد إثر استقلاله بالمغرب. وثورة المعز بن باديس على العبيديين. وحروب المرابطين إثر بداية تكوين دولتهم في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري في إفريقية وبلاد المغرب مع القوى القبلية والاستقلالية حتى وحدوا هذه البلاد تحت سيطرتهم[1].

ومما يزيد الاضطراب وسوء الأحوال الداخلية في العقود القليلة التي سبقت قيام الحروب الصليبية انعدام الأمن وترويع الناس بكثرة سطو الأعراب وقطاع الطرق واللصوص على المدن والقوافل. وذلك نتيجة لضعف هيبة السلطة في ذلك الوقت. وانشغال هذه الدويلات بالحروب فيما بينها.

ففي شرق البلاد الإسلامية عاث ـ من يطلق عليهم ابن الجوزي «العيارون» فساداً في الأرض. إذ قال في أحداث سنة ٤١٦ هـ: «. . . إن العيارين انبسطوا انبساطاً أسرفوا فيه، وخرقوا هيبة السلطان، وواصلوا العملات، وأراقوا الدماء. . .»[2] ثم قال: «. . . وفي هذه السنة زاد أمر العيارين وكبسوا دور الناس نهاراً وفي الليل. . . وكانوا يدخلون على الرجل فيطالبونه بذخائره ويستخرجونها منه بالضرب. . .»[3].

وهكذا لا يغْفَل ابن الجوزي عن ذكر شغب هؤلاء طوال القرن الخامس الهجري وحتى مع بداية دخول النصارى بلاد المسلمين[4].

وفي إفريقية وبلاد المغرب ازدادت الأحوال الأمنية سوءاً بدخول الأعراب الهلاليين إليها وذلك بما أحدثوه من فوضى واضطراب.

فما وصلوا إلى مدينة إلا استباحوها، ولا مروا بشيء إلا أتوا عليه[5].

---

(١) انظر: العبر، عبد الرحمن بن خلدون (٦/ ١٨٢ ـ ١٨٥).

(٢) انظر: المنتظم، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق محمد عبد القادر عطا وزميله (١٥/ ١٧٠).

(٣) انظر: المصدر السابق (١٥/ ١٧١).

(٤) انظر أمثلة على ذلك: المصدر السابق (١٥/ ٢٠٤)، و(١٥/ ٢٢٢)، و(١٥/ ٢٣٩)، و(١٥/ ٢٤٥)، و(١٥/ ٢٥٦)، و(١٧/ ٥٤).

(٥) انظر: العبر، عبد الرحمن بن خلدون (٦/ ١٤).

المطلب الثاني

الأحوال الدينية

في الوقت الذي مزقت فيه الخلافات السياسية وحدة الأمة الإسلامية إلى دول متنازعة وذلك في العقود القليلة التي سبقت العدوان الصليبي، فإن الاختلافات الدينية والتيارات الباطلة قسمت أجزاء هذه الدولة أيضاً إلى تكتلات متنافرة يصل الحال ببعضها إلى القطيعة بل وإلى القتال فيما بينها في بعض الأحيان.

ففي العراق حاضرة الخلافة العباسية كان البويهيون الشيعة في آخر القرن الرابع الهجري وحتى منتصف القرن الخامس هم المسيطرون على مقاليد الحكم، بل ويسعون إلى نشر المذهب الشيعي مصادمين بذلك الخلفاء العباسيين وعامة الناس الذين كانوا على المذهب السني. حيث ذكر ابن الجوزي نماذج كثيرة من مظاهر تشجيع السلطة وتسامحها مع إظهار بدع التشيع. فمن ذلك ما كان يقوم به الشيعة من احتفالات في مناسباتهم بإقرار البويهيين.

ففي بداية توليهم ذكر ابن الجوزي: «... أنه عُمل ببغداد ما قد صار الرسم به جارياً في كل يوم عاشوراء من غلق الأسواق وتعطيل البيع والشراء وتعليق المسوح...»[1].

---

(١) انظر: المنتظم، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق محمد عبد القادر عطا وزميله، أحداث سنة ٣٦٠ هـ (١٤/ ٢١٠)، وانظر أمثلة على مظاهر دعم البويهيين لبدع التشيع في: المنتظم، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق محمد عبد القادر عطا وزميله (١٤/ ١٥٠، ١٧٤، ١٩٦).

وهكذا قرر ابن الجوزي المتوفّى سنة ٥٩٧ هـ أن ذلك أصبح عادة جارية طوال فترة البويهيين.

بل إنه لشدة انتصارهم للتشيع حاولوا إزالة الخلافة العباسية السنيّة من بغداد وإعلان التبعية للخلافة العبيدية الشيعية في مصر[١]. حتى كانت إزالتهم على يد السلاجقة السنّة.

وكثيراً ما كانت الفتن تنشب بين الشعة والسنّة نتيجة لإظهار الشيعة بدعهم ومجاهرتهم بها ومصادمتهم بذلك للسواد العام من أهل السنّة[٢].

ولم ينتهِ النزاع بين الطائفتين بزوال البويهيين، بل استمرت الفتن بينهما بسبب مشاغبات الشيعة المتكررة وإظهارهم لبدعهم. وإن خف ذلك بسبب سلطة السلاجقة ودعمهم لكيان أهل السنّة وفقد الشيعة السلطة المناصرة لهم والمتمثلة بالبويهيين[٣].

وللشيعة وجود في هذه الفترة بالشام. خصوصاً بين البقاع[٤] والبحر المتوسط، وفي حمص[٥] وحلب ودمشق وشمال لبنان[٦]. وهذا الوجود للشيعة

---

(١) انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٨/ ١٥٤).

(٢) انظر أمثلة على هذه الفتن في: المنتظم، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق محمد عبد القادر عطا وزميله (١٥/ ١٥٣، ٢٠٤، ٢٧٧، ٣٠٨، ٣٢٠، ٣٢٩، ٣٣٥).

(٣) انظر أمثلة على فتن الشيعة في العصر السلجوقي في: المصدر السابق (١٦/ ٣٢، ١٤٥، ٢٥٦، ٢٥٩، ٢٧٠).

(٤) البقاع: سهل مستطيل يمتد من الشمال إلى الجنوب بطول ١٢٠ كم تقريباً يقع بين سلسلتي جبال لبنان الشرقية والغربية. (انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (١/ ٥٥٦ - ٥٥٧)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون ص (٤٢ - ٤٣)، والمنجد في اللغة والأعلام، ص (١٣٢).

(٥) حمص: تقع في الوسط الغربي لدولة سوريا، في الوقت الحاضر على نهر العاصي بين دمشق وحماة. انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٢/ ٣٤٧)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس ص (١١١)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٣٩).

(٦) انظر: المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، د. أحمد رمضان أحمد ص (٦٦ - ٦٧).

في بلاد الشام في هذه الفترة جعل ابن جبير[1] الذي زار بلاد الشام في القرن السادس الهجري يقول: «... وهم أكثر من السنيين، وقد عموا البلاد بمذاهبهم، وهم فرق شتى...»[2].

وفي مصر كانت الخلافة العبيدية الشيعية القائمة على أساس هذه البدعة والتمكين لها. فكانت القوة الظاهرة في هذه الفترة للشيعة هناك. حتى أزال ذلك صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٧ هـ وأعاد شعار أهل السنّة[3].

وفي إفريقية كان للشيعة وجود بسبب تبعية دولة باديس بن منصور الصنهاجي للعبيديين حتى نبذ المعز ذلك ومكن للسنة سنة ٤٤٠ هـ[4].

وكان للفرق الباطنية[5] نشاط في نشر بدعها قبيل قيام الحروب الصليبية، مما كان له الأثر الأكبر في تفريق المسلمين وصرف الكثير من جهود القادة والعلماء في محاربتهم وفضح ضلالاتهم. وكان انتشار هذه الفرق الضالة من عوامل الضعف الرئيسة للأمة في هذه الفترة.

ومن هذه الفرق: الإسماعيلية: الذين ظهروا في بلاد فارس ثم امتد فسادهم إلى العراق والشام. فهؤلاء بالإضافة إلى سعيهم في نشر نحلتهم، اتخذوا القتل وسيلة للتخلص من أعدائهم. فكان من ضحاياهم عدد من القادة والعلماء الذين

---

(١) هو محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، ولد في بلنسية بالأندلس سنة ٥٣٩ هـ، وتعلم بها، وكان من علماء الأندلس في الفقه والحديث، وله مشاركة في التاريخ والأدب، وكانت وفاته بالإسكندرية سنة ٦١٤ هـ.
انظر: مقدمة كتابه: رحلة ابن جبير، محمد بن أحمد الكناني، بيروت، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م ص (٥)، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقري، تحقيق إحسان عباس، (١/ ٥١٥ - ٥٧٥).

(٢) رحلة ابن جبير، محمد بن أحمد الكناني، ص (٢٥٢).

(٣) انظر: النوادر السلطانية، يوسف بن رافع بن شداد، تحقيق د. جمال الدين الشيال ص (٨٦).

(٤) انظر ما سبق بيانه حول ذلك في بداية هذا المبحث.

(٥) سيأتي التعريف بالفرق الباطنية في فصل قادم.

لهم جهود كبيرة في مجال وحدة الأمة ودعم قوتها.

ومن أبرز أعمال هؤلاء في هذه الفترة: اغتيالهم للوزير السلجوقي نظام الملك سنة ٤٨٥ هـ[١]، والذي كان له جهود كبيرة في محاربة الشيعة ومناصرة السنّة.

وممن اغتاله الباطنية كذلك عبد الرحمن السميرمي[٢] وأرغش النظامي[٣] والأمير برسق[٤] وغيرهم.

وفي أحداث سنة ٤٩٢ هـ ذكر ابن الأثير أنه «توالى منهم ـ أي الباطنية ـ قتل الأمراء الأكابر من الدولة السلطانية...»[٥].

ومن الفرق الباطنية في بلاد الشام في هذه الفترة النصيرية، خصوصاً في جبال اللاذقية[٦]...............................

---

(١) انظر: المنتظم، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق محمد عبد القادر عطا وزميله (١٦/ ٢٩٩).

(٢) هو وزير أم السلطان السلجوقي بركياروق.
انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٨/ ٤١٣).

(٣) أرغش النظامي من كبراء دولة بركياروق وقد زوجه بنت عمه، قتلته الباطنية بالري.
انظر: تاريخ الإسلام، محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤م، حوادث سنة ٤٨١ ـ ٤٩٠، ص (٣٣٢).

(٤) برسق الأمير أول شحنة من قبل السلاجقة لبغداد ـ أي صاحب الشرطة ـ وهو من كبار قادة السلاجقة.
انظر: تاريخ الإسلام، محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، حوادث سنة ٤٨١ ـ ٤٩٠، ص (٣٣٢).

(٥) الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٨/ ٤٣٠).

(٦) مدينة كبيرة تقع في منتصف الساحل السوري على البحر المتوسط.
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٥/ ٦)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين

وطرابلس[١] وحماة[٢]، وحمص إلى ما وراء أنطاكية[٣].

وهذه الفرقة عاشت منبوذة من المسلمين لوضوح باطلها وشدة عدائها للإسلام، ولذلك كانت غالب مساكنهم في المناطق الجبلية.

يقول ابن تيمية: «... ومن المعلوم عندنا أن السواحل الشامية إنما استولى عليها النصارى من جهتهم...»[٤]. فهذا النص يوضح أن للنصيرية جهوداً في محاربة المسلمين قبل قيام الحروب الصليبية. وأن ذلك مستفيض لدى الناس في عصر ابن تيمية ـ أي بعد قرنين تقريباً من دخول النصارى بلاد المسلمين.

وهم مع كل عدو للمسلمين، ومن أعظم مصائبهم انتصار المسلمين، وفرحهم واستبشارهم باستيلاء النصارى على البلاد الإسلامية[٥].

وطائفة باطنية أخرى لها وجود في بلاد الشام في هذه الفترة، وهي طائفة الدروز خصوصاً قرب حلب وأجزاء من السهل الساحلي للبنان[٦].

وهذه الطائفة ـ كحال غيرها من الفرق الباطنية ـ معادية للإسلام

مؤنس، ص (١١١)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٣٩).

(١) سماها ياقوت الحموي طرابلس الشام، تقع حالياً في شمال لبنان على ساحل البحر المتوسط شمال مدينة بيروت.
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٤/ ٢٩)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس ص (١١٢)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٤٢ ـ ٤٣).

(٢) تقع حالياً في الوسط الشرقي لدولة سوريا بين حمص وحلب.
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٢/ ٣٤٤)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس ص (١١١)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٣٩).

(٣) انظر: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، د. محمود محمد الحويري (٢/ ٢٦٨).

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد (٣٥/ ١٥٠).

(٥) انظر: المصدر السابق (٣٥/ ١٥٠).

(٦) انظر: المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، أحمد رمضان أحمد ص (٧٩ ـ ٨١).

والمسلمين، ولها وقائع في ذلك في هذه الفترة.

فمن ذلك أنهم في سنة ٤٢٣ هـ اجتمعوا في جبل السُّمَّاق[١] وجاهروا بمذهبهم وخربوا ما كان هناك من المساجد[٢].

وكان للفكر الخارجي وجود في إفريقية وبلاد المغرب خصوصاً الإباضية الذين أقاموا لهم دولة في تاهرت[٣] في المغرب الأوسط.

وكانت لهم وقائع كثيرة مع دولة بني الأغلب[٤][٥]. حيث استمرت دولتهم مائة وخمسين سنة تقريباً. من منتصف القرن الثاني الهجري إلى نهاية القرن الثالث الهجري. ومع زوال هذه الدولة لم يُزل الفكر الخارجي بل ظلَّ موجوداً في هذه المناطق يقوى أحياناً ويخمد في أحيان أخرى.

وفي أقصى بلاد المغرب كانت دولتا برغواطة وغمارة، حيث اعتنقت هاتان الدولتان نحلتين ليستا من الإسلام في شيء.

---

(١) جبل السُّمَّاق: قرب مدينة حلب في سوريا.
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٢/ ١١٩).

(٢) انظر: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، سعيد بن بطريق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٥م، ص (٧٩).

(٣) مدينة تاريخية داخلية تقع في شمال الجزائر قرب مدينة تيارت الحالية.
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٢/ ٨)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس ص (١٥٧)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون ص (٦٢).

(٤) نسبة إلى أسرة الأغالبة التي حكمت إفريقية من سنة ١٨٤ هـ إلى سنة ٢٩٦ هـ، وكانت قاعدتهم القيروان، وقد أسس هذه الأسرة إبراهيم بن الأغلب التميمي عامل هارون الرشيد على إفريقية حيث استمرت هذه الأسرة في حكم إفريقية للعباسيين حتى أزالها أبو عبدالله الشيعي داعي العبيديين سنة ٢٩٦ هـ.
انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٦/ ٥٧٤).

(٥) انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٥/ ٤٣٥).

فالأولى ظهر فيها رجل في أول المائة الثانية يقال له طريف أبو صبيح ادعى النبوّة وشرع لقبيلته الشرائع ثم هلك فتولى ابنه صالح الذي ادعى النبوّة أيضاً وشرع لبرغواطة الديانة التي كانوا عليها بعد ذلك. فادعى نزول قرآن عليه فيه سورة الديك وسورة الحمر وسورة آدم وغيرها[١]. وقد وقعت بينهم وبين مجاوريهم الكثير من المعارك بسبب نحلتهم الضالة، حتى قضى عليهم المرابطون في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري[٢].

أما دولة غمارة في المغرب «... فمغرقون في الجاهلية بل الجهالة، والبعد عن الشرائع بالبداوة، والانتباذ عن مواطن الخير...»[٣]، وهؤلاء أيضاً تنبأ فيهم رجل يدعى حاميم بن من الله[٤] في بداية القرن الرابع قرب تطوان في بلاد المغرب، وتبعه قومه الذين شرع لهم عبادات وأحكام بقرآنه الذي يدعي نزوله عليه[٥]. وقد قضى على هذه الدولة ونحلتها المرابطون في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري.

وقد أشار ابن خلدون إلى انتشار السحر في هذه المناطق وللناس براعة فائقة فيه[٦].

---

(١) انظر: العبر، عبد الرحمن بن خلدون (٦/ ٢٠٧) وما بعدها.

(٢) انظر: المصدر السابق (٦/ ٢٠٩)، وللتوسع حول ديانة برغواطة انظر: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ألفرد بل، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٠ م، ص (١٧٣) وما بعدها.

(٣) العبر، عبد الرحمن بن خلدون (٦/ ٢١٦).

(٤) هو حاميم بن من الله بن جرير بن عمر بن زحفو بن محكة، تنبأ سنة ٣١٣ هـ بجبل حاميم قرب تطوان في المغرب الأقصى وادعى أنه نزل عليه قرآناً، كان يلقب بالمفتري، قتل في حروب قبائل مصمودة سنة ٣١٥ هـ في طنجة.
انظر: العبر، عبد الرحمن بن خلدون (٦/ ٢١٦).

(٥) انظر: المصدر السابق (٦/ ٢١٦)، وللتوسع حول ديانة غمارة انظر: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ألفرد بل، ترجمة عبد الرحمن بدوي، ص (١٨٠)، وما بعدها.

(٦) انظر: العبر، عبد الرحمن بن خلدون (٦/ ٢١٦).

وفي أجزاء من بلاد المغرب أيضاً امتد نفوذ دولة زناتة «. . . وهي دولة ردية مذمومة سيئة السيرة، لا سياسة ولا ديانة. . .» مما دعا المغاربة أن يستنجدوا بالمرابطين الذين زحفوا على المغرب وقضوا على هذه الدولة. وصلحت بذلك أحوال المغرب.

أما الحال في الصحراء الإفريقية وحتى بلاد المغرب فيعم الجهل بأحكام الإسلام وشرائعه، حيث وضح ذلك المؤسس لحركة المرابطين[١]. والذي مر بالقيروان إثر عودته من الحج سنة ٤٤٨ هـ وبعد أن استمع إلى درس من أحد فقهائها قال: «. . . ما عندنا في الصحراء من هذا شيء غير الشهادتين والصلاة في بعض الخاصة. . .»[٢].

ولذلك رافقه إلى قومه ـ قبيلة جدالة ـ الفقيه عبدالله بن ياسين الكزولي[٣] ليعلمهم الإسلام. حيث أجابوه إلى الصلاة والزكاة فقط، وأنكروا الحدود ورفضوا الأخذ بها[٤]. فرحل عنهم إلى غيرهم إذ تكونت بعد ذلك دولة المرابطين التي تحسنت بها الأحوال الدينية والسياسية في إفريقية والصحراء وبلاد المغرب

(١) ويقال له: الجوهر، انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٨/ ١٣٤).

(٢) الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٨/ ١٣٤).

(٣) هو عبدالله بن ياسين بن مكو الجزولي، المصمودي، الفقيه، المؤسس الفعلي لدولة المرابطين حيث أخضع قبائل صنهاجة في الصحراء الإفريقية، ثم مد نفوذه شمالاً وغرباً حتى أخضع شمال إفريقية وبلاد المغرب تحت راية دولة إسلامية سنية قوية، وقد مات رحمه الله إثر جروح أصابته في إحدى المعارك مع قبائل برغواطة في المغرب سنة ٤٥١هـ.
انظر: الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى، أحمد بن خالد الناصري السلاوي، تحقيق جعفر الناصري وزميله، مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٤م (٢/ ٧ ـ ١٨).
والعبر، عبد الرحمن بن خلدون (٦/ ١٨٢ ـ ١٨٣).

(٤) انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٨/ ١٣٤ ـ ١٣٥).

وذلك في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري.

وقد قال ابن الأثير عن مؤسس هذه الدولة وأتباعه: «... وكان أمير المسلمين وطائفته على نهج السنّة واتباع الشريعة...»[(١)].

وللبدع الكلامية[(٢)] وجود خلال العقود القليلة التي سبقت مجيء الصليبيين حيث طغت العقيدة الأشعرية على كثير من علماء هذه الفترة. ومن هؤلاء القاضي أبو بكر الباقلاني المتوفّى سنة ٤٠٣هـ[(٣)]، وأبو إسحاق الشيرازي المتوفّى سنة ٤٧٦هـ[(٤)] وأبو حامد الغزالي المتوفّى سنة ٥٠٥هـ[(٥)]، وأبو إسحاق الإسفراييني

---

(١) الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٨/ ١٣٧).

(٢) سوف يأتي التعريف بها في مبحث قادم.

(٣) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر «أبو بكر الباقلاني» من كبار علماء الكلام، انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة. ولد في البصرة سنة ٣٣٨ هـ، وسكن بغداد وتوفي بها سنة ٤٠٣ هـ. من كتبه: إعجاز القرآن، دقائق الكلام، هداية المرشدين، وغير ذلك.

انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (١٧/ ١٩٠) وما بعدها. والبداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين (١٣/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤).

(٤) هو إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزآبادي الشيرازي، العلامة المناظر ولد في فيروزآباد سنة ٣٩٣ هـ ومات ببغداد سنة ٤٧٦ هـ. اشتهر بقوة الحجة في المناظرة، من تصانيفه: اللمع في أصول الفقه، والتبصرة والمهذب وغيرها.

انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (١٨/ ٤٥٢)، وما بعدها. وطبقات الشافعية الكبرى، عبد الوهاب بن علي السبكي، تحقيق عبد الفتاح الحلو وزميله (٤/ ٢١٥) وما بعدها.

(٥) هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الغزالي، صاحب التصانيف والذكاء المفرط، ولد سنة ٤٥٠ هـ، ومات بطوس سنة ٥٠٥ هـ. درس بالنظامية في بغداد ورحل إلى دمشق، برع في الفقه ومهر في الكلام. من تصانيفه: إحياء علوم الدين، والتهافت في ذم الفلاسفة، والمستصفى في أصول الفقه وغير ذلك.

انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (١٩/ ٣٢٢)، وما بعدها. وطبقات

المتوفّى سنة ٤١٨ هـ[(١)]، وأبو المعالي الجويني المتوفّى سنة ٤٧٨ هـ[(٢)]، ومحمد بن عمر الرازي المتوفّى سنة ٦٠٦ هـ وغيرهم.

كذلك نشط المعتزلة في عصر سلاطين بني بويه في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري وحتى منتصف القرن الخامس الهجري.

ومن أشهر أئمتهم في القرن الخامس الهجري: القاضي عبد الجبار المتوفّى سنة ٤١٥ هـ[(٣)]، وأبو الحسين البصري المتوفّى سنة ٤٣٦ هـ[(٤)]، وابن زنجويه

الشافعية الكبرى، عبد الوهاب بن علي السبكي، تحقيق عبد الفتاح الحلو وزميله (٦/ ١٩١) وما بعدها.

(١) هو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران الإسفراييني أحد المجتهدين في عصره، متكلم أصولي، كانت وفاته في إسفرايين سنة ٤١٨ هـ. من تصانيفه: الجامع في أصول الدين، ورسالة في أصول الفقه وغير ذلك.
انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (١٧/ ٣٥٣) وما بعدها، وطبقات الشافعية الكبرى، عبد الوهاب بن علي السبكي، تحقيق عبد الفتاح الحلو وزميله (٤/ ٢٥٦ ـ ٢٦٢).

(٢) هو عبد الملك بن عبدالله بن يوسف بن عبدالله الجويني، نسبة إلى جوين من قرى نيسابور، يلقب بإمام الحرمين، مولده في جوين سنة ٤١٩ هـ، وكانت وفاته سنة ٤٧٨ هـ في نيسابور. من مصنفاته: الشامل في أصول الدين على مذهب الأشاعرة، العقيدة النظامية، الورقات، وغير ذلك.
انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (١٨/ ٤٦٨)، وما بعدها. وطبقات الشافعية الكبرى، عبد الوهاب بن علي السبكي، تحقيق عبد الفتاح الحلو وزميله (٥/ ١٦٥).

(٣) هو عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار، القاضي المتكلم، شيخ المعتزلة، من كبار فقهاء الشافعية، مات بالري سنة ٤١٥ هـ، من كتبه: شرح الأصول الخمسة، والمغني في أبواب التوحيد والعدل، والأمالي وغيرها.
انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (١٧/ ٢٤٤)، وطبقات الشافعية الكبرى، عبد الوهاب بن علي السبكي، تحقيق عبد الفتاح الحلو وزميله (٥/ ٩٧ ـ ٩٨).

(٤) هو محمد بن علي بن الخطيب البصري المتكلم، شيخ المعتزلة، والمنتصر لهم بتصانيفه الكثيرة التي منها: المعتمد في أصول الفقه، وكتاب تصفح الأدلة وغيرها. كانت وفاته ببغداد سنة ٤٣٦ هـ.

المعروف بالسمان المتوفّى سنة ٤٤٥ هـ[١]، وأبو علي بن الوليد شيخ المعتزلة في عصر المتوفّى سنة ٤٧٨ هـ[٢]، والزمخشري صاحب الكشاف المتوفّى سنة ٥٣٨هـ[٣] وغيرهم.

والتصوّف كان له وجود في هذه الفترة. ومن أشهر أعلامه: أبو عبد الرحمن السلمي المتوفّى سنة ٤١٢هـ[٤]، وأبو حامد الغزالي المتوفّى سنة ٥٠٥هـ وغيرهما.

وكذلك حديث شيخ الإسلام ابن تيمية عن الصوفية والتصوف في عصره

انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (١٧/ ٥٨٧ ـ ٥٨٨)، والبداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين (١٢/ ٥٧ ـ ٥٨).

(١) هو إسماعيل بن علي بن الحسين بن زنجويه، من شيوخ المعتزلة في عصره، من مؤلفاته: الموافقة بين أهل البيت والصحابة، وسفينة النجاة وغيرها. كانت وفاته بالري سنة ٤٤٧ هـ.

انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (١٨/ ٥٥ ـ ٦٠)، والبداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين (١٢/ ٦٩ ـ ٧٠).

(٢) هو محمد بن أحمد بن عبدالله بن أحمد بن الوليد المتكلم المعتزلي، من دعاة الاعتزال، كان مولده سنة ٣٩٦ هـ، ووفاته سنة ٤٧٨ هـ في بغداد.

انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (١٨/ ٤٨٩ ـ ٤٩٠)، والبداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين (١٢/ ١٣٧ ـ ١٣٨).

(٣) هو محمود بن عمر بن محمد بن عمر الزمخشري، كبير المعتزلة، كان مولده في زمخشر في خوارزم سنة ٤٦٧ هـ. ووفاته سنة ٥٣٨ هـ. من كتبه الكشاف في التفسير، والفائق في غريب الحديث، وأساس البلاغة، وغير ذلك.

انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (٢٠/ ١٥١)، وما بعدها والبداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين (١٢/ ٢٣٥) ووفيات الأعيان، أحمد بن محمد بن خلكان (٥/ ١٦٨ ـ ١٧٤).

(٤) هو محمد بن الحسين بن محمد بن موسى الأزدي السلمي، إمام محدث، شيخ خراسان، وكبير الصوفية، كان مولده في نيسابور سنة ٣٢٥ هـ ووفاته بها سنة ٤١٢ هـ، من تصانيفه: حقائق التفسير ـ على الطريقة الصوفية ـ، وطبقات الصوفية، ومناهج العارفين وغير ذلك.

ونقده لأحوالهم يستنتج منه وجود ذلك قبل عصر ابن تيمية بوقت طويل، يرجع إلى القرن الثالث الهجري مع أبي يزيد البسطامي المتوفّى سنة ٢٦٣هـ[١]، وذي النون المصري المتوفّى سنة ٢٤٥هـ[٢]، والحلاج المتوفّى سنة ٣٠٩هـ[٣][٤].

وهكذا عاشت الأمة الإسلامية في العقود القليلة التي سبقت قيام الحروب الصليبية انقسامات كثيرة جزأتها إلى دويلات متصارعة فيما بينها في بعض الأحيان. واختلافات دينية فرقتها إلى شيع وأحزاب متناحرة. حيث أدى ذلك إلى حالة من الضعف لم تستطع الأمة في البداية مواجهة النصارى وصدهم عن البلاد الإسلامية.

وعلى الرغم من وجود هذه الانقسامات السياسية والاختلافات الدينية فإن

انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (١٧/ ٢٤٧)، وما بعدها. والبداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين (١٢/ ١٤).

(١) هو طيفور بن عيسى البسطامي ـ أبو يزيد ـ زاهد مشهور، ولد في بسطام في جنوب عرب خراسان سنة ١٨٨ هـ، ووفاته بها سنة ٢٦١ هـ. له شطحات كبيرة تأولها فقهاء الصوفية وحملوها على محامل بعيدة.
انظر: طبقات الصوفية، محمد بن الحسين السلمي، تحقيق نور الدين شربيه، القاهرة، ص (٦٧ ـ ٧٤). وسير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (١٣/ ٨٦ ـ ٨٩).

(٢) هو ثوبان بن إبراهيم الإخميمي المصري، زاهد من العباد المشهورين، اتهمه المتوكل العباسي بالزندقة فاستحضره وسمع كلامه ثم أطلقه، توفي بالجيزة بمصر سنة ٢٤٥ هـ.
انظر: طبقات الصوفية، محمد بن الحسين السلمي، تحقيق نور الدين شربيه، ص (١٥)، وسير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (١١/ ٥٣٢ ـ ٥٣٦).

(٣) هو الحسين بن منصور الحلاج، فيلسوف ملحد يقول بالحلول، أصله من فارس ونشأ بالعراق، ودخل بغداد فقبض عليه المقتدر بالله العباسي وقتله سنة ٣٠٩ هـ. من كتبه علم البقاء والفناء، كيف كان وكيف يكون، واليقين وغيرها.
انظر: طبقات الصوفية، محمد بن الحسين السلمي، تحقيق نور الدين شربيه، ص (٣٠٧ ـ ٣١١)، وسير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (٤/ ٣١٣) وما بعدها.

(٤) انظر مثلاً حديث شيخ الإسلام ابن تيمية عن الصوفية وأحوالهم في مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد (١١/ ٤٤٥).

القطاع العريض من الأمة ملتف حول الكتاب والسنّة.

هذا القطاع بولاته وعلمائه ظل الحارس الأمين لكيان الأمة الإسلامية الفكري والسياسي على مر التاريخ. فكلما اعترى جسم الأمة ضعف لأي سبب من الأسباب وتخلفت لذلك عن مكانتها، هب هذا القطاع ليعيد للأمة وحدتها وقوتها.

المبحث الثالث

حال النصارى قبيل الحروب الصليبية

كان انطلاق الحروب الصليبية التي قام بها النصارى ضد المسلمين من أوربا. وكان أبرز أهدافهم نصرة إخوانهم في العقيدة الذين يعيشون تحت الحكم الإسلامي. فما حال النصارى في ذلك الوقت سواء في أوربا أو في البلاد الإسلامية؟.

المطلب الأول

النصارى في أوربا قبيل الحروب الصليبية

عاش النصارى في أوربا قبيل قيام الحروب الصليبية في المرحلة الثانية من فترة العصور الوسطى، التي أطلق عليها في أوربا: العصور المظلمة. وتمتد العصور الوسطى بالمصطلح التاريخي من القرن الرابع الميلادي إلى القرن الخامس عشر الميلادي(١).

ويقسمها بعض المؤرخين إلى ثلاث مراحل رئيسة، لكل مرحلة منها ما يميزها عن غيرها، فالمرحلة الأولى تبدأ من القرن الرابع الميلادي حتى القرن العاشر، والمرحلة الثانية من القرن الحادي عشر وتستمر حتى القرن الثالث عشر. والمرحلة الثالثة تنحصر بالقرن الرابع عشر(٢).

والذي يتعلق بهذه الدراسة المرحلة الثانية، حيث شهدت أوربا قيام الحروب الصليبية في نهاية القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي باتجاه البلاد الإسلامية. وفيما يلي عرض للأحوال السائدة في أوربا قبيل هذه الحروب:

---

(١) انظر: معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى، د. محمود سعيد عمران ص (٢٧)، وأوربا العصور الوسطى د. سعيد عاشور (١/٣) وما بعدها.

(٢) انظر: معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى، د. محمود سعيد عمران ص (٢٥ ـ ٢٦).

أولاً: الأحوال السياسية:

وتتمثل في سيطرة الإمبراطورية الرومانية على ألمانيا[١] وشمال إيطاليا[٢]. وكانت هذه الإمبراطورية ذات نفوذ كبير في غرب أوربا، حتى بلغت قوتها أن أصبح البابا ألعوبة في أيدي أباطرة روما. مما دفع دعاة الإصلاح من رجال الدين إلى العمل على وضع حد لهذه الفوضى وضعف مركز البابوية الأمر الذي أدى إلى صراع بين الأباطرة والباباوات[٣].

وإلى الغرب من الإمبراطورية الرومانية تقع فرنسا التي تعيش تحت حكم أسرة آل كابيه[٤]، حيث بلغ منها الضعف مبلغاً بسبب الحروب المستمرة مع الأمراء الإقطاعيين داخل فرنسا. بل ليس للملك فيها سلطة فعلية وإنما السلطة بيد أمراء الإقطاع[٥].

وفي جنوب إيطاليا وصقلية أقام النورمان لهم دولة قوية[٦]، حتى إن بعض المؤرخين أرجع تشجيع البابوية للنورمان على المشاركة في الحروب الصليبية إلى

---

(١) ألمانيا: وتضم حالياً معظم أراضي دولة ألمانيا في شمال غرب أوربا، وكانت في العصور الوسطى تسمى مملكة الفرنجة الشرقية في مقابل مملكة الفرنجة الغربية ـ فرنسا حالياً ـ.

انظر: أوربا العصور الوسطى، د. سعيد عاشور، (١/ ٢٨٨)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون ص (٧٧).

(٢) انظر: العصور الوسطى الأوربية، د. عبد القادر أحمد اليوسف، المكتبة العصرية، صيدا وبيروت، ١٩٦٧م، ص (١٣٩).

(٣) انظر: أوربا العصور الوسطى، د. سعيد عبد الفتاح عاشور (١/ ٣٢٣ ـ ٣٢٥).

(٤) أسرة آل كابيه: نسبة إلى مؤسسها هيو كابيه الذي أصبح ملكاً على فرنسا سنة ٣٧٦ هـ ـ ٩٨٧م.

انظر: أوربا العصور الوسطى، د. سعيد عبد الفتاح عاشور (١/ ٢٥٠).

(٥) انظر: العصور الوسطى الأوربية، د. عبد القادر اليوسف (١٩١).

(٦) انظر: الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، كلود كاهن، ترجمة أحمد شيخ، سينا للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م، ص (٥٧).

خوفهم من توسعهم على حساب أملاكها فأرادت إشغالهم بهذه الحروب.

وقد برزت في أواسط القرن (السادس الهجري، الحادي عشر الميلادي) في شمال إيطاليا ظاهرة استقلال المدن كجمهوريات مستقلة كالبندقية[١]، وجنوا[٢] وبيزا[٣] وغيرها، والتي كان لها دور في الحروب الصليبية[٤].

وفي شرق أوربا تقع مجموعة من الممالك منها: دولة كييف[٥] التي كانت خلال القرن الحادي عشر والثاني عشر مشغولة بتنافس أمرائها وحروبهم الأهلية فيما بينهم[٦]. وبولندا[٧]........................

---

(١) مدينة تجارية في عصر الحروب الصليبية تقع في شمال شرق إيطاليا على البحر الأدرياتي. (انظر: أطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون ص (٧٩)، والمنجد في اللغة والأعلام ص (١٣٨).

(٢) جنوا أو جنوة مدينة تجارية في عصر الحروب الصليبية تقع في شمال غرب إيطاليا على البحر التيراني. (انظر: أطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون ص (٧٩)، والمنجد في اللغة والأعلام، ص (٢٠٥).

(٣) بيزا من المدن التجارية في عصر الحروب الصليبية تقع في شمال غرب إيطاليا جنوب مدينة جنوه على ساحل البحر التيراني (انظر: أطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون ص (٧٩). والمنجد في اللغة والأعلام، ص (١٥٩).

(٤) انظر: أوربا العصور الوسطى، د. سعيد عبد الفتاح عاشور (١/ ٣٣٢ ـ ٣٣٣).

(٥) كييف: هي في الوقت الحاضر عاصمة لدولة أوكرانيا التي تقع بين أوربا وآسيا وتحد من الجنوب بالبحر الأسود ومن الشرق بروسيا ومن الشمال بروسيا وروسيا البيضاء ومن الغرب ببولندا والمجر ورومانيا. وقد أقامت بها بعض شعوب السلاف الشرقيين دولة لهم خلال فترة الحروب الصليبية. (انظر: أوربا العصور الوسطى، د. سعيد عبد الفتاح عاشور (١/ ٦١٤). وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٧٧).

(٦) انظر: العصور الوسطى الأوربية، د. عبد القادر اليوسف، ص (٣٢٥).

(٧) بولندا: إقليم واسع في الوسط الشرقي لأوربا. تسكنه شعوب من السلاف الغربيين وقد قامت لهم دولة على أجزاء منه في فترة الحروب الصليبية. وعلى هذه الأجزاء أيضاً قامت دولة بولندا في العصر الحاضر.

انظر: أوربا العصور الوسطى، د. سعيد عبد الفتاح عاشور (١/ ٦١١ ـ ٦١٤). وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون ص (٧٦ ـ ٧٧)، والمنجد في اللغة والأعلام ص (١٥٠).

التي لم تكن أحسن حالاً من كييف[1]. ومملكة بوهيميا[2] المتأثرة بأباطرة ألمانيا[3].

أما في شبه جزيرة إيبريا[4] ففي الشمال الغربي منها نشأت عدة ممالك نصرانية هي: ليون[5]، وقشتالة[6]، وأرغونه[7]، ....

---

(١) انظر: العصور الوسطى الأوربية، د. عبد القادر اليوسف ص (٣٢٥).

(٢) بوهيميا: إقليم واسع في وسط أوربا بين النمسا وبولندا وألمانيا وتشيكيا وقد نشأت في أجزاء منه دولة بوهيميا في عصر الحروب الصليبية.
انظر: أوربا العصور الوسطى، د. سعيد عبد الفتاح عاشور (١/ ٦١١ ـ ٦١٤). وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون ص (٧٦ ـ ٧٧)، والمنجد في اللغة والأعلام ص (١٥٤).

(٣) انظر: أوربا العصور الوسطى، د. سعيد عبد الفتاح عاشور (١/ ٦١٢).

(٤) شبه جزيرة إيبريا تقع في جنوب غرب قارة أوربا، وتضم حالياً دولتي إسبانيا والبرتغال. وحينما فتحها المسلمون أطلقوا عليها الأندلس.
انظر: أطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس، ص (١٧٤ ـ ١٧٥). وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون ص (٧٨). والمنجد في اللغة والأعلام ص (٩١).

(٥) إحدى الممالك النصرانية قاعدتها مدينة ليون في شمال غرب إسبانيا ـ الأندلس ـ امتدت هذه المملكة شمالاً حتى خليج بسكانية في المحيط الأطلسي وجنوباً حتى اتحدت مع مملكة قشتالة النصرانية.
انظر: أطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس ص (١٧٤). والمنجد في اللغة والأعلام ص (٥٠٧).

(٦) قشتالة: إحدى الممالك النصرانية في الأندلس، وتقع على خريطة إسبانيا في الوقت الحاضر في وسطها. اتحدت مع مملكة ليون إلى الشمال منها وذلك ضد المسلمين.
انظر: أطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس ص (١٧٤). والمنجد في اللغة والأعلام، ص (٤٣٩).

(٧) أرغونه أو أرجونه: من الممالك النصرانية في شمال شرق الأندلس ـ إسبانيا حالياً ـ على الحدود مع فرنسا، وقد اتحدت مع مملكة قطالونية ضد المسلمين.
انظر: أطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس ص (١٧٤ ـ ١٧٥)، ودولة الإسلام في الأندلس، محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١١ هـ ـ

ونافارة[1]، وقطلونية[2][3]. وكانت نواتها الأولى فلول النصارى المتقهقرة إلى الجبال أمام تقدم المسلمين إبان الفتح الإسلامي وانتشاره في الأندلس، حيث نمت هذه الممالك بسبب ضعف المسلمين إثر سقوط الخلافة الأموية بالأندلس عام (٤٢١ هـ ـ ١٠٣١م)، وتعدد الدويلات الإسلامية فيها إثر ذلك، حتى أصبح يطلق على ذلك العصر بعصر ملوك الطوائف، وهجرة كثير من أمراء الإقطاع في فرنسا لقتال المسلمين هناك[4].

وعلى الحدود الشمالية للدولة الإسلامية يمتد نفوذ الدولة البيزنطية النصرانية. والتي كانت تسيطر على أجزاء واسعة من جنوب شرق أوربا وآسيا الصغرى وأرمينية وبلاد الشام وشمال إفريقية.

حيث أدت الفتوحات الإسلامية إلى ضم بلاد الشام وشمال إفريقية إلى الدولة الإسلامية[5]. ثم بعد ذلك اجتاح السلاجقة المسلمون آسيا الصغرى حتى

١٩٩٠ م، ص (٦٠١).

(١) نافارة أو نبرة: من الممالك النصرانية في شمال الأندلس ـ إسبانيا حالياً ـ على خليج بسكاية في المحيط الأطلسي.

انظر: أطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس، ص (١٧٤ ـ ١٧٥). ودولة الإسلام في الأندلس، محمد عبدالله عنان، ص (٦٠٧). وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون ص (٧٨).

(٢) قطلونية: من الممالك النصرانية في شمال شرق الأندلس ـ إسبانيا حالياً ـ على البحر المتوسط بالقرب من الحدود مع فرنسا.

انظر: أطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس، ص (١٧٤ ـ ١٧٥). وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون ص (٧٨)، ودولة الإسلام في الأندلس، محمد عبدالله عنان، ص (٦٠١). .

(٣) انظر: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، محمد العروسي المطوي، ص (٢١٠).

(٤) انظر: المرجع السابق، ص (٢١٠)، وما بعدها. والعصور الوسطى الأوربية، د. عبد القادر الويسف ص (٣٣٤).

(٥) انظر: الشرق الإسلامي والدولة البيزنطية زمن الأيوبيين، د. زبيدة محمد عطا، دار الأمين، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤م، ص (٢٩).

سيطروا على أجزاء واسعة منها خصوصاً بعد معركة ملاذكرت[١] التي وقعت في عام (٤٦٣ هـ ـ ١٠٧١م) بل أشرفوا على القسطنطينية[٢]؛ لذلك تقلص نفوذ الدولة البيزنطية إلى أجزاء محدودة من آسيا الصغرى وجنوب شرق أوربا.

الأحوال الدينية:

امتدت حالة الفوضى التي تعيشها أوربا في فترة العصور الوسطى إلى الحياة الدينية وعمّ الفساد الجهاز الكنسي ورجال الدين. خصوصاً في القرنين (الثالث والرابع الهجريين، التاسع والعاشر الميلاديين). هذا الفساد الذي تمثل في ثلاثة أمراض عانت منها الكنسية، وهي:

١ ـ **السيمونية**: والتي تعني شراء المناصب الدينية بالمال، مما أدى إلى وصول كثير من رجال الدين النصارى غير الصالحين[٣] إلى مناصب في الكنيسة، وأساؤوا بتصرفاتهم المشينة إلى سمعة الكنيسة ورجال الدين[٤].

٢ ـ **زواج رجال الدين**[٥]: والذي انتشر بين رجال الدين مما أدى إلى توريث المناصب الدينية[٦].

٣ ـ **التقليد العلماني**: ويقصد به أن تعيين رجال الدين في الكنيسة كان من شأن رجال الدين وحدهم، واعتماد البابا هذا الاختيار. ثم تحول إلى أنه أصبح الحكام العلمانيون في أوربا ـ من أباطرة وملوك وأمراء ـ يقومون بهذه

---

(١) انظر عن هذه المعركة: المنتظم، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق د. محمد بن عبد القادر عطا وزميله، (١٦/ ١٢٣ ـ ١٢٨)، والكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٨/ ٢٢٣ ـ ٢٢٧).

(٢) انظر: الشرق الإسلامي والدولة البيزنطية زمن الأيوبيين، د. زبيدة محمد عطا، ص (٢٩).

(٣) هذا بطبيعة الحال من وجهة نظر الكنيسة.

(٤) انظر: العصور الوسطى الأوربية، د. عبد القادر اليوسف، ص (١٤٩ ـ ١٥٠).

(٥) منع رجال الدين من الزواج بطبيعة الحال من البدع التي استحدثها النصارى في ديانتهم.

(٦) انظر: العصور الوسطى الأوربية، د. عبد القادر اليوسف، ص (١٤٩).

المهمة ويقلدون رجال الدين مناصبهم الدينية في الكنائس. فأصبح لا يعين إلا من يخدم أغراضهم المختلفة؛ مما أدى إلى ضعف الكنيسة وتفككها وعدم ارتباطها تحت زعامة البابا. فانصرف بذلك رجال الدين عن مهامهم الدينية(١). بل وأصبحت هذه الأعمال متأثرة بالصراعات السياسية الداخلية بين الأباطرة والملوك والأمراء(٢).

وتعدى الأمر إلى أن أصبح البابا نفسه في روما تحت سيطرة الأباطرة العلمانيين(٣).

ولذلك حذر البابا أوربان الثاني في خطابه الذي دعا فيه إلى الحروب الصليبية وذلك في مجمع كليرمونت عام (٤٨٨ هـ - ١٠٩٥م) من سيطرة السلطة العلمانية على الكنيسة والمناصب الدينية. وذلك إشارة إلى انتشار هذه الظاهرة قبيل فترة الحروب الصليبية. «... واحفظوا الكنيسة بكل مستوياتها حرة تماماً من السلطة العلمانية...»(٤).

وقد أدت هذه الفوضى في الكنيسة في أوربا إلى ظهور ما يعرف بحركة الإصلاح الكلونية(٥) التي من ثمارها أن دعا الباب نيقولا الثاني(٦) إلى مجمع

---

(١) انظر: أوربا العصور الوسطى، د. سعيد عبد الفتاح عاشور (١/ ٣٤٣ - ٣٤٤).

(٢) انظر: أثر العامل الديني في توجيه الحركة الصليبية، د. محمد صالح منصور، ص (٤١).

(٣) انظر: أوربا العصور الوسطى، د. سعيد عبد الفتاح عاشور (١/ ٣٤٤).

(٤) الوجود الصليبي في الشرق العربي، فوشيه الشارتري، ترجمة د. قاسم عبده قاسم، ص (٩١).

(٥) نسبة إلى دير كلوني بالقرب من الحدود الفرنسية الألمانية والذي بدأت به الدعوة إلى ما يسمى بإصلاح الكنيسة وذلك سنة ٣٠٢ هـ - ٩١٤م ثم انتشرت في أوربا. (وانظر: أوربا العصور الوسطى، د. سعيد عبد الفتاح عاشور (١/ ٣٣٩)، وما بعدها. وأثر العالم الديني في توجيه الحركة الصليبية، د. محمد صالح منصور، ص (٧٧).

(٦) البابا نيقولا الثاني تولى البابوية من عام ٤٤٨ هـ - ١٠٥٧م إلى ٤٥٢ هـ - ١٠٦١م، وكان له جهود كبيرة في مجمع دينس الذي حصر اختيار البابا من قبل الكرادلة وحدهم وهم أساقفة روما وضواحيها.

دينسي في روما سنة (٤٥١ هـ ـ ١٠٥٩م) لتنظيم أوضاعها خاصة فيما يتعلق باختيار البابا وإنقاذ البابوية من سلطة الملوك والأباطرة[١]. ثم جاء البابا جريجوري السابع الذي عقد مجمعاً في روما سنة (٤٦٧ هـ ـ ١٠٧٤م) لمعالجة مشاكل الكنيسة التي من أهمها: السيمونية، وزواج رجال الدين، والتقليد العلماني، حيث أصدر هذا المجمع عدة قرارات لمعالجة هذه المشاكل[٢].

وإزاء موقف البابوية هذا خصوصاً البابا جريجوري السابع، والرامي إلى استعادة مكانة الكنيسة وهيبتها في المجتمع الأوروبي، ولا سيما ما يتعلق بمسألة التقليد العلماني إزاء هذا الموقف حدث النزاع بين الإمبراطورية والبابوية.

وقد بلغ هذا النزاع مداه حينما قام الإمبراطور الألماني هنري الرابع[٣] بعقد مجمعاً في ـ ورمز ـ عام (٤٦٩ هـ ـ ١٠٧٦م) قرر فيه بطلان انتخاب جريجوري السابع، ثم عزله من منصبه. حيث رد عليه البابا بعقد مجمع في الفاتيكان في السنة نفسها (٤٩٦ هـ ـ ١٠٧٦م) قرر فيه توقيع عقوبة الحرمان على هنري الرابع وعزله من منصبه وتحرير جميع أتباعه ورعاياه من أيمان الطاعة التي أقسموها له[٤].

لذلك تقلص سلطان الإمبراطور هنري الرابع بسبب خلع طاعته من قبل أعداد كبيرة من شعبه، بل إن كثيراً من ذوي المكانة من رجال الدين والأمراء ناصروا البابا في موقفه من الإمبراطور.

انظر: أوربا العصور الوسطى، د. سعيد عاشور (١/ ٣٤٥)، والمنجد في اللغة والأعلام ص (٥٨٣).

(١) انظر: تاريخ أوربا في العصور الوسطى، هـ.ا.ل. فشر، ترجمة محمد مصطفى ود. السيد الباز العريني، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٠ م، (١/ ١٤٤).

(٢) انظر: أوربا العصور الوسطى، د. سعيد عبد الفتاح عاشور (١/ ٣٤٦).

(٣) أحد أباطرة ألمانية الأقوياء كان ميلاده (٤٤٢ هـ ـ ١٠٥٠ م) وتسلم الحكم وعمره خمس عشرة سنة واستمر به حتى تنازل عام (٤٩٩ هـ ١١٠٥م) لابنه هنري الخامس، وكانت وفاته عام ١١٠٦م. (انظر: أوربا العصور الوسطى، د. سعيد عبد الفتاح عاشور (١/ ٣٥٠) وما بعدها. والمنجد في اللغة والأعلام، ص (٥٩٩).

(٤) انظر: العصور الوسطى الأوربية، د. عبد القادر اليوسف، ص (١٥٢).

حيث عقد جمع من رجال الدين والأمراء في ألمانيا سنة (٤٩٦ هـ ـ ١٠٧٦م) مجمعاً قرروا فيه الخروج على طاعة هنري الرابع وإنذاره باختيار ملك غيره إن لم يغفر له البابا[١].

ذلك الأمر جعل هنري الرابع يأتي إلى البابا جريجوري السابع ويخضع بين يديه ويغفر له البابا بشرط التسليم للبابوية بكل ما تطلبه[٢].

وهكذا انتصر البابا الذي يمثل السلطة الدينية على الإمبراطور الذي يمثل كذلك أعلى سلطة علمانية في أوربا.

وقد تجدد هذا النزاع بين الإمبراطور هنري الرابع والبابا جريجوري السابع حتى أدى إلى الحرب بينهما[٣].

وقد ظل النزاع بين الأباطرة والباباوات قائماً بسبب مسألة التقليد العلماني حتى بعد وفاة الإمبراطور هنري الرابع والبابا جريجوري السابع. ومع استمرار هذا النزاع ازدادت قوة البابوية واكتسبت المزيد من النفوذ في المجتمع الأوربي[٤].

وهكذا يتبين مدى القوة التي بلغتها البابوية في هذه الفترة، ويظهر مدى تأثيرها في المجتمع الأوربي لدرجة أنها إذا اصطدمت بالسلطة العلمانية والقوى السياسية في أوربا انتصرت البابوية؛ وذلك نتيجة لميول الغالبية من شعوب أوربا إلى جانب الكنيسة وتأييدهم لها. يدفعهم لهذا الناحية الدينية.

حيث ساد خلال هذه الفترة في أوربا شعور بقرب نهاية العالم مع نهاية القرن العاشر الميلادي وبداية القرن الحادي عشر. وظهرت لذلك الكثير من

---

(١) انظر: تاريخ أوربا في العصور الوسطى، هـ.ا.ل. فشر، ترجمة محمد مصطفى زيادة ود. السيد الباز العريني، القسم الأول ص (١٤٦).

(٢) انظر: المرجع السابق، القسم الأول، ص (١٤٦).

(٣) انظر: العصور الوسطى الأوربية، د. عبد القادر اليوسف، ص (١٥٤ ـ ١٥٥).

(٤) انظر: تفاصيل هذا النزاع بين الأباطرة والبابوات في: أوربا العصور الوسطى، د. سعيد عبد الفتاح عاشور (١/ ٣٥٠) وما بعدها.

التنبؤات. الأمر الذي دفع الكثيرين إلى التوبة، والرجوع إلى تعاليم الكنيسة، والتكفير عن الذنوب[1]. حيث استغلت الكنيسة هذا الشعور ودعت إلى أن يكون التكفير بالحج إلى بيت المقدس والمشاركة في الحروب الصليبية.

بل إن الكنيسة سعت جاهدة إلى إيقاف الصراعات والحروب بين الملوك والإقطاعيين في أوربا وذلك بما يعرف بسلام الرب. وتوجيه هذه الحروب لأغراض مثالية متمثلاً ذلك بحرب المسلمين والمشاركة بالحروب الصليبية[2].

وقد دعيت هذه الفترة في أوربا ـ بعصر الإيمان ـ نتيجة لتزايد سلطة الكنيسة، مع تزايد الشعور الديني العام لدى شعوب هذه القارة[3].

هذه هي الأحوال الدينية للنصارى في وسط أوربا وجنوبها وشمالها الغربي.

أما في شبه جزيرة أيبيريا فقد كان الإسبان على المذهب الأريوسي[4]، وباعتناق الملك «ريكارد»[5] المذهب الكاثوليكي[6] بدأ هذا

---

(١) انظر: ماهية الحروب الصليبية، د. قاسم عبده قاسم، ص (١٨ ـ ٢٠).

(٢) انظر: الحروب الصليبية، آرنست باركر، ترجمة د. السيد الباز العريني، ص (١١ ـ ١٢).

(٣) انظر: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، د. فايد حماد عاشور، ص (٧٨) والحركة الصليبية، د. سعيد عبد الفتاح عاشور (١/ ٣٢).

(٤) المذهب الأريوسي نسبة إلى أريوس الذي كان قسيساً بالإسكندرية، والذي عاش بين عامي ٢٥٦ ـ ٣٣٦م وكان يقول بوحدانية الله، ويقر بنبوّة المسيح، فحرَمه المجمع النيقاوي سنة ٣٢٥ هـ وكفره. (انظر: مجموعة الشرع الكنسي، جمع: حنانيا إلياس كساب، منشورات النور، بيروت، ص (٤٠ ـ ٤٣)، والمنجد في اللغة والأعلام، ص (٤١).

(٥) ريكارد: ملك قوطي غربي حكم إسبانيا بين سنتي (٥٨٦ ـ ٦٠١م) اعتنق الكاثوليكية وكان أريوسيا فأدى ذلك إلى نشرها في إسبانيا (انظر: الموسوعة العربية الميسرة، ص (٩١١).

(٦) الكاثوليكي نسبة إلى الكاثوليك. Cathliqe ـ وهي كلمة يونانية معناها العالمي أو العام وهو اصطلاح ظهر في القرن الثاني الميلادي، ويرأس هذه الكنيسة بابا الفاتيكان في روما، ويعتقد أتباعها أن الروح القدس منبثق عن الأب والابن معاً وبالمساواة الكاملة بين الأب والابن. وهم منتشرون في معظم بلدان العالم. (انظر: قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة محمد بدران، الجزء الأول من المجلد الرابع، ص (٩٢ ـ ٩٣)،

المذهب ينتشر في إسبانيا(١).

وفي بادىء الأمر لم يكن النصارى الإسبان معترفين بسيادة بابا روما عليهم، ولكن في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي ـ أي قبيل قيام الحروب الصليبية ـ أصبحت أديرة مملكة أرغونة في إسبانيا تحت سيطرة البابا. وفي عهد البابا جريجوري السابع (٤٦٦ هـ ـ ١٠٧٣م و٤٧٨ هـ ـ ١٠٨٥م) اعترفت جميع الممالك النصرانية في إسبانيا بسلطة البابوية وإشرافها(٢).

ثم جاء البابا أوربان الثاني صاحب الدعوة للحروب الصليبية في مجمع كليرمونت ـ والذي أصبح له نفوذ كبير في إسبانيا ـ ودعا إلى مساندة الإسبان في حروبهم ضد المسلمين وذلك في سنة (٤٨٢ هـ ـ ١٠٨٩م) حيث استجاب لندائه كثير من فرسان جنوب فرنسا وهبوا للقتال مع النصارى الإسبان ضد المسلمين(٣).

وأثناء دعوة البابا أوربان الثاني للحروب الصليبية في مجمع كليرمونت طلب المطران برنارد(٤) وعدد من القساوسة الإسبان المشاركة في القتال ضد المسلمين في الشرق فمنعهم البابا أوربان بحجة وجود حروب صليبية في بلادهم. بل إن الأمر تجاوز ذلك إلى أن أصدر البابا أوربان مرسوماً حرم فيه على رجال الدين

والموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، إشراف د. مانع حماد الجهني، دار الندوة للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة، ١٤١٨ هـ، (٢/ ٦١٠).

(١) انظر: الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، شكيب أرسلان، المطبعة الرحمانية، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٥٥ هـ ـ ١٩٣٦م، (١/ ٣٦٣).

(٢) انظر: الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، يوسف أشباخ، ترجمة عبدالله عنان (١/ ١٤٦).

(٣) انظر: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، محمد العروسي المطوي، ص (١٩٠).

(٤) المطران برنارد عينه البابا أوربان الثاني رئيساً أعلى للكنيسة الإسبانية، وقد عرف هذا المطران بشدة تعصبه ضد المسلمين، فعلى الرغم من تعهد ألفونسو السادس بالأمان للمسلمين في طليطلة وعدم المساس بأنفسهم وممتلكاتهم سعى هذا المطران إلى تحويل جامع طليطلة الشهير إلى كنيسة بعد استسلام المدينة. (انظر: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، محمد العروسي المطوي، ص (١٨٩ ـ ١٩١).

والفرسان الإسبان المشاركة في صليبيات المشرق[1].

وهكذا يتضح مدى تأثير البابوية الكاثوليكية على النصارى الإسبان، وكذلك عمق الحقد النصراني الإسباني على المسلمين، حتى اتخذت حروبهم ضد المسلمين الصليب شعاراً لها. كما هي الحال في حروب النصارى الأوربيين في المشرق.

فهذا الملك خاييم الأول[2] ملك أرغونة لما اعتزم احتلال جزيرة ميورقة[3] جعل الصليب شعاراً له. بل إنه قام بحملة للمشاركة في حرب المسلمين في المشرق عام ٦٦٨ هـ. لكن حملته عادت أدراجها لعاصفة بحرية قوية[4].

في مقابل ذلك كان هناك الكثير من النصارى الإسبان الذين احتفظوا بدياناتهم النصرانية مع تمتعهم بقدر كبير من التسامح في ظل حكم الدول الإسلامية في أنحاء إسبانيا؛ مما دفع الكثيرين منهم إلى الدخول في الإسلام، وفضل البعض ممن بقي على نصرانيته حكم المسلمين على حكم الإفرنج أو القوط[5][6].

---

(١) انظر: المرجع السابق، ص (١٩١).

(٢) الملك خاييم الأول أو جمس من ملوك أرغونة النصرانية في الأندلس، عاش بين سنتي ٦٠٩ هـ ـ ١٢١٣م و٦٧٤ هـ ـ ١٢٧٦م، يلقب بالفاتح لأنه استولى على كثير من المناطق التي فتحها المسلمون خاصة جزر البليار في البحر المتوسط ومنها جزيرة ميورقة. (انظر: أوربا العصور الوسطى، د. سعيد عبد الفتاح عاشور (١/ ٥٥٩).

(٣) ميورقة: إحدى جزر البليار في البحر المتوسط مقابل الساحل الإسباني حالياً. (انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٥/ ٢٨٥). وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس ص (١٧٤ ـ ١٧٥). وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٧٨).

(٤) انظر: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، محمد العروسي المطوي، ص (١٩١ ـ ١٩٢).

(٥) القوط: شعب جرماني قديم إسكندنافي الأصل ـ أي من أقصى شمال أوربا ـ ويقسمون إلى قوط شرقيين، استقروا في البلقان، وقوط غربيين استقروا في جنوب فرنسا وإسبانيا في حوالي القرن الخامس الميلادي. وكانوا على المذهب الأريوسي. (انظر: أوربا العصور الوسطى، د. سعيد عبد الفتاح عاشور (١/ ٨٣ ـ ٨٨)، والمنجد في اللغة والأعلام، ص (٣٣٤).

(٦) انظر: العرب في إسبانيا، لين بول، ترجمة علي الجارم، ص (٤١ ـ ٤٢).

أما في شرق أوربا فيتنازعه تأثيران: تأثير الكنيسة اللاتينية الكاثوليكية، وتأثير البيزنطيين الأرذوذكس[١].

فبتأثير الإمبراطورية الألمانية يسود المذهب الكاثوليكي لدى السلاف الغربيين[٢] كالبوهيميين[٣] والتشيك[٤] والبولنديين[٥][٦].

وأما السلاف الشرقيون[٧] فيسود بينهم المذهب الأرذوذكسي بتأثير الدولة

---

(١) الأرذوذكس: كلمة يونانية مركبة من كلمتين ـ Orthos أي الحق والثانية ـ Doxa ـ أي المذهب ـ أي إن معنى أرذوذكس المذهب الحق، أو الرأي الصحيح، وقد ظهر هذا المصطلح في القرن الرابع الميلادي وقد أخذت به كنائس الحبشة ومصر وبعض كنائس آسيا وأرمينية. وتذهب الكنيسة الأرذوذكسية إلى أن روح القدس منبثق عن الأب وحده وأن المسيح طبيعة واحدة من طبيعة لاهوتية وناسوتية. وقد انفصلت عن الكنيسة الكاثوليكية الغربية بشكل نهائي عام ٤٤٥ هـ ـ ١٠٥٤م. ولا يجتمع الأرذوذكس تحت لواء رئيس واحد بل كل كنيسة مستقلة بنفسها. (انظر: قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة محمد بدران، الجزء الأول من المجلد الرابع، ص (٩٦، ١٠٢، ١٠٣، ٢٣٣). والموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، إشراف د. مانع الجهني، (١/ ٥٩٣).

(٢) السلاف الغربيين: هم سكان الوسط الشرقي لأوربا والذي يشمل بولندا وإقليم بوهيميا وسلوفاكيا، وكانت هذه المناطق تابعة للإمبراطورية الألمانية في فترة الحروب الصليبية. (انظر: أوربا العصور الوسطى، د. سعيد عبد الفتاح عاشور (١/ ٦٠٨)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٧٧).

(٣) نسبة إلى إقليم بوهيميا في وسط أوربا وقد سبق التعريف به.

(٤) التشيك: سكان جمهورية تشيكيا في الوقت الحاضر والتي انفصلت عن سلوفاكيا مؤخراً وكانت في عصر الحروب الصليبية تابعة لألمانيا. والتشيك من السلاف الغربيين. (انظر: أوربا العصور الوسطى، د. سعيد عبد الفتاح عاشور (١/ ٦٠٨)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٧٧). والمنجد في اللغة والأعلام، ص (١٧٥).

(٥) البولنديون: نسبة إلى بولندا في شرق أوربا. وقد سبق التعريف به.

(٦) انظر: أوربا العصور الوسطى، د. سعيد عبد الفتاح عاشور (١/ ٦١١).

(٧) السلاف الشرقيون: المقصود بهم الروس وتمثل مناطقهم في الوقت الحاضر: أجزاء من الجزء الأوربي لدولة روسيا، وجمهورية روسيا البيضاء، ولتوانيا وغيرها من دول شرق

البيزنطية[1] التي تسيطر على الأجزاء الجنوبية الشرقية من أوربا وآسيا الصغرى حيث تدين بالمذهب الأرذوذكسي.

الأحوال الاجتماعية والاقتصادية:

تألف المجتمع الأوربي النصراني قبيل قيام الحروب الصليبية من ثلاث طبقات هي:

طبقة رجال الدين، وطبقة المحاربين من النبلاء والفرسان، وطبقة الفلاحين من الأقنان ورقيق الأرض[2].

ونظراً لسيطرة البابوية وقوة نفوذها في المجتمع الغربي أصبحت طبقة رجال الدين الطبقة المقدمة في المجتمع، والتي تتمتع بنفوذ كبير حتى على الأمراء والقادة. فعاشت لذلك هذه الطبقة نتيجة لمواردها الكبيرة حياة البذخ والنعيم.

فالبابا يعيش في بلاط أشبه ببلاط الأباطرة والملوك، تحيط به جميع مظاهر العظمة والفخامة[3]. ومَنْ دونه من رجال الدين يتمتعون بحياة مترفة ويسرفون في تناول الفاخر من الطعام والشراب وارتداء الثمين من الملابس[4].

فأصبحت الوظائف الدينية لذلك مطمعاً يُتسابق عليه، بل صارت هذه الوظائف تباع وتشترى.

حيث انتشرت في هذه الفترة ظاهرة المتاجرة بالمناصب الدينية. وقد أطلق على هذه الظاهرة ـ السيمونية[5].

ومع انتشار هذه الظاهرة انحط المستوى الخلقي لرجال الدين، حيث وصل

أوربا. (انظر: أوربا العصور الوسطى، د. سعيد عبد الفتاح عاشور (١/ ٦١٤).

(١) انظر: أوربا العصور الوسطى، د. سعيد عبد الفتاح عاشور (١/ ٦١٤).

(٢) انظر: الحركة الصليبية، د. سعيد عبد الفتاح عاشور (١/ ٣٧ ـ ٣٨).

(٣) انظر: أوربا العصور الوسطى، د. سعيد عبد الفتاح عاشور (١/ ٢١٩).

(٤) انظر: المرجع السابق (٢/ ٢٤٤)، (٢٥٢).

(٥) انظر: العصور الوسطى الأوربية، د. عبد القادر اليوسف، ص (١٤٩).

إلى أعلى المناصب الدينية بهذه الطريقة الكثير من غير المؤهلين لها. مع ما يتصفون به من بذخ وإسراف في ملاذ الحياة. مما أدى بعد ذلك إلى حركة الإصلاح الكلونية.

أما طبقة المحاربين من النبلاء والفرسان فهم الطبقة الإقطاعية التي تعيش مرفهة على حساب طبقة الفلاحين من الأقنان، ورقيق الأرض، فأفراد هذه الطبقة هم الذين يمتلكون القصور، والضياع، وهم وحدهم الذين يتمتعون بوسائل الحياة المرفهة التي توفرت في عصرهم، فالسيد الإقطاعي يمتلك أراضي واسعة قد تشمل عدة قرى بل مدن. يكون في وسطها في الغالب حصن خصص الطابق الأسفل منه كمخزن للتموين والأسلحة، والطابق الأعلى للرماية وقذف السهام في وقت الحرب، والطابق الأوسط يعيش به السيد الإقطاعي مع أسرته. حيث يوجد به كنيسة صغيرة، وقاعة فسيحة للهو وتلقى فيه فروض التبعية والخضوع من إقطاعيين دونه يقعون تحت نفوذه. وفي وقت السلم يتنقل الإقطاعي بين ضياعه الواسعة وتنتقل معه احتياجات الترف والراحة(١).

وكل هذا البذخ والإسراف والتمتع بملاذ الحياة من طبقة رجال الدين وطبقة الإقطاعيين يقع أمام الغالبية الكادحة طبقة الفلاحين وأقنان الأرض.

فهذه الطبقة غالبها من الأقنان المسخرين في خدمة السيد الإقطاعي ـ الذي هو بدوره تابع لإقطاعي أكبر منه ـ وهؤلاء قد وزع بينهم السيد قطعاً صغيرة من الأرض يعيشون منها مقابل خدمات يقدمونها له تتمثل في العمل في مزرعته الواسعة عدداً من الأيام، ودفع رسوم له تسمى ـ ضريبة الرأس ـ، وعشر نتاج الأرض التي يستثمرها القن، إضافة إلى ما يكلفهم به السيد من أعمال أخرى(٢).

والسيد وحده هو الذي يمتلك الطاحونة والمعصرة والبئر. وعلى هؤلاء الأقنان الاستفادة من هذه الأشياء مقابل ما يدفعونه للسيد. وويل لمن يحاول

---

(١) انظر: أوربا العصور الوسطى، د. سعيد عبد الفتاح عاشور (٢/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠).

(٢) انظر: أوربا العصور الوسطى، د. سعيد عبد الفتاح عاشور (٢/ ٢٩١).

منافسة السيد بامتلاك مثل هذه الأشياء. إذ يعرض نفسه للطرد من الضيعة هو وأسرته[1].

وعلاقة السيد بالأقنان والفلاحين لا تتوقف عند حدود العمل، بل إنه يتحكم حتى بالأمور الشخصية لأفراد هذه الطبقة التابعين له.

فلا يستطيع القن أو الفلاح أن يتزوج إلا بإذن السيد، وتزداد المشكلة تعقيداً حينما يكون أحد الزوجين تابع لسلطة إقطاعي آخر. ففي هذه الحالة يفرض على الزوج أعباء مالية كبيرة تدفع للسيد، حتى يتمكن من تعويض الإقطاعي الآخر مقابل انتقال الزوجة إلى إقطاعيته تبعاً لزوجها[2].

وقد كان المجتمع في إسبانيا قبل الفتح الإسلامي امتداداً لما عليه مجتمعات أوربا من سوء في الأحوال، خاصةً الاجتماعية والاقتصادية.

فالثروة بيد النبلاء والفرسان ورجال الدين، أما طبقة عبيد الأرض من الفلاحين والأقنان فتحيى حياة سيئة في ظل النظام الإقطاعي السائد في أوربا بشكل عام[3].

واستمر هذا الوضع حتى قبل قيام الحروب الصليبية وذلك في الممالك النصرانية في شمال إسبانيا، أما الأجزاء التي دخلت تحت سيطرة المسلمين فقد زالت عنها هذه الأوضاع السيئة، وتخلص النصارى فيها من سيطرة رجال الدين واضطهاد أمراء الإقطاع، فاشتغل معظم الناس فيها بفلاحة الأرض في الأرياف، وبالصناعة في المدن، وجنوا من وراء ذلك أرباحاً طائلة، وأسهم البعض منهم في النهضة العلمية التي تعيشها الأندلس في ظل الحكم الإسلامي[4].

---

(١) انظر: العصور الوسطى الأوربية، د. عبد القادر اليوسف، ص (١٢٩).

(٢) انظر: المرجع السابق، ص (١٢٧)، وللتوسع في علاقة السيد الإقطاعي بالفلاحين والأقنان الذين يعملون في إقطاعيته، انظر: أوربا العصور الوسطى، د. سعيد عبد الفتاح عاشور (٢/ ٢٩٣ ـ ٢٩٦).

(٣) انظر: التاريخ الأندلسي، د. عبد الرحمن علي الحجي، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ هـ، ص (٢٩ ـ ٣٠).

(٤) انظر: أوربا العصور الوسطى، د. سعيد عبد الفتاح عاشور (١/ ٥٣٧).

أما الدولة البيزنطية فكانت أكثر استقراراً وحضارةً وتنظيماً من الإمبراطورية اللاتينية الغربية، بل إن نظرة البيزنطيين إلى شعوب وسط أوربا وغربها على أنها شعوب متبربرة لا ترقى إلى الحضارة البيزنطية(١).

وقد وضح فوشيه الشارتري(٢) ـ وهو ممن دخل القسطنطينية في الحملة الصليبية الأولى ـ مظاهر الحضارة والرقي سواء في البناء والقصور، أو توفر البضائع والسلع أو مظاهر الثروة لدى البيزنطيين(٣).

وهذا يعني أن شعوب الدولة البيزنطية خصوصاً في القسطنطينية لا تعاني مما تعانيه شعوب وسط وغرب أوربا من جراء الطبقية في ظل النظام الإقطاعي السائد في وسط وغرب أوربا في تلك الفترة.

وفيما يتعلق بالأخلاق والآداب العامة في المجتمع الأوربي النصراني في هذه الفترة، فقد انحطت إلى أدنى مستوياتها، فانتشرت الرذيلة من عهر، وانحلال، واغتصاب، وفشت السرقة والغش، والكذب، وغيرها من الأخلاق السيئة في مختلف طبقات المجتمع.

حيث أشار إلى انتشار ذلك البابا أوربان الثاني في خطابه الذي دعا فيه إلى الحروب الصليبية في مجمع كليرمونت(٤).

---

(١) انظر: العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، د. جوزيف نسيم يوسف، ص (١١٩).

(٢) هو فوشيه دي شارتر مؤرخ فرنسي ورجل دين في الوقت نفسه، كان مولده عام ٤٤٩ هـ ـ ١٠٥٨م ووفاته ٥٢١ هـ ـ ١١٢٨م. حضر مجمع كليرمونت الذي دعا فيه أوربان للحروب الصليبية وشارك في الحملة الأولى بل وكان القس الخاص لبلدوين الأول حاكم الرها في الحملة الصليبية الأولى، ألف ما يعرف بتاريخ أورشليم، سجل فيه أخبار الحملة الصليبية الأولى. ترجمه الدكتور قاسم عبده قاسم تحت عنوان: الوجود الصليبي في الشرق العربي. (انظر: الوجود الصليبي في الشرق العربي، ص (٢٣) وما بعدها. والمنجد في اللغة والأعلام، ص (٤٢٠).

(٣) انظر: الوجود الصليبي في الشرق العربي، فوشيه شارتر، ص (١٠٧).

(٤) انظر: المصدر السابق، ص (٩١).

وتحدث صاحب قصة الحضارة بإسهاب عن المظاهر الأخلاقية السيئة في المجتمع الأوربي في هذه الفترة[1].

(١) انظر: قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة محمد بدران، المجلد الرابع، الجزء الخامس، ص (١٧٩ ـ ١٨٠)، وص (١٩٣)، وما بعدها. والمجلد الرابع، الجزء السادس، ص (٥١ ـ ٥٢).

المطلب الثالث

النصارى في البلاد الإسلامية قبيل الحروب الصليبية

النصارى في البلاد الإسلامية خاصةً في بلاد الشام ومصر في مجملهم ينتسبون إلى الكنيسة الشرقية الأرذوذكسية. «... ومع ذلك لم يكن لبطريرك القسطنطينية شيء من الولاية على زملائه بالمشرق. لم يكن ذلك إلا تعبيراً عاطفياً قوياً عن استمرار فكرة أن العالم المسيحي لا زال وحدة لا تتجزأ...»[(١)].

لذلك نظر إليهم الأوربيون الكاثوليك أثناء الحروب الصليبية على أنهم منشقون عن الكنيسة الكاثوليكية وملحدون[(٢)].

ومن أهم فرقهم في البلاد الإسلامية: النساطرة[(٣)] ويتركزون في بغداد،

(١) تاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رنسيمان، ترجمة د. السيد الباز العريني (١/ ٤٣ ـ ٤٤).

(٢) انظر: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد، د. محمود محمد الحويري، ص (٨٨).

(٣) النساطرة: نسبة إلى نسطوريوس الحكيم الذي ولد بسوريا سنة ٣٨٠ م، وكانت وفاته ٤٥١م، كان نسطور بطريركاً للقسطنطينية وكان رأيه أن مريم العذراء لم تلد الإله بل ولدت الإنسان فقط. فانعقد لذلك مجمع أفسس سنة ٤٣١م وتقرر فيه أن مريم العذراء والدة الله وأن للمسيح طبيعتان لاهوتية وناسوتية، وتقرر أيضاً خلع نسطور وتسفيه مقالته ونفيه إلى مصر. (انظر: مجموعة الشرع الكنسي، حنانيا إلياس كساب، ص (٢٨٨ ـ ٢٩٣). والموسوعة الفلسفية العربية، رئيس التحرير: معن زيادة، معهد الإنماء العربي،

وطرابلس، وعكا، وبيروت[1]، وجبيل[2][3]، واليعاقبة[4]، وهم غالبية النصارى في الشام خاصةً أنطاكية، وكفرطاب[5] وسمسياط[6]، وسروج[7]، ومرعش[8]،

بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م، (٢/ ١٢٣٨) وما بعدها.

(١) بيروت: عاصمة لبنان في الوقت الحاضر تقع في منتصف الساحل اللبناني على ساحل البحر المتوسط.
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، (١/ ٦٢٣)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس، ص (٤١٣).

(٢) جبيل: مدينة على ساحل البحر المتوسط في لبنان حالياً شمال مدينة بيروت. (انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٢/ ١٢٧)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس، ص (٢٦٤)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٤٢ ـ ٤٣).

(٣) انظر: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، د. محمود محمد الحويري، ص (٩٧).

(٤) اليعاقبة: هم أتباع يعقوب البرادعي الذي ظهر في القرن السادس الميلادي، والذي يرى أن للمسيح طبيعة واحدة من طبيعتين لاهوتية وناسوتية ولم يكن يعقوب القائل الأول لذلك وإنما هو أكثر الداعين له، أما القائل الأول فهو أوطاخي (أوتيكيس) ورئيس أحد الأديرة قرب القسطنطينية. ولذلك عقد مجمع خلدونية سنة ٤٥١م لاتخاذ قرار برفض هذه العقيدة ولعن القائلين بها. (انظر: مجموعة الشرع الكنسي، جمع حنانيا إلياس كساب، ص (٣٦٤) وما بعدها. والنصيحة الإيمانية، نصر بن يحيى المتطبب، تحقيق د. محمد الشرقاوي، دار الصحوة، القاهرة، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦م، ص (٥٨).

(٥) يقع في شمال غرب سوريا بين معرة النعمان ومدينة حلب.
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٤/ ٥٣٤)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس، ص (٤١٧).

(٦) سمسياط: «مدينة على شاطىء الفرات في طرف بلاد الروم على غربي الفرات».
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٣/ ٢٩٣)، أي أنها تقع حالياً في جنوب شرق تركيا. (انظر: المنجد في اللغة والأعلام، ص (٣٠٩)).

(٧) سروج: بلدة قريبة من حران تقع حالياً في جنوب شرق تركيا على الحدود السورية. (انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٣/ ٢٤٤)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٣٨ ـ ٣٩).

(٨) مرعش: تقع حالياً في جنوب شرق تركيا قرب الحدود السورية.
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٥/ ١٢٦)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر

وطوروس[1][2]. والموارنة[3]، وينتشر في وادي العاصي[4]، ومعرة النعمان[5]، وشيزر[6]، وحماة، وحمص، وقنسرين[7]، . . . .

وآخرون، ص (٦٨)، والمنجد في اللغة والأعلام، ص (٥٢٩).

(١) طوروس: منطقة جبلية في جنوب تركيا حالياً قرب البحر المتوسط.
انظر: أطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٦٨)، والمنجد في اللغة والأعلام، ص (٣٥٩).

(٢) انظر: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، د. محمود محمد الحويري، ص (٩٧).

(٣) الموارنة: نسبة إلى القديس مارون المتوفّى سنة ٤١٠ م، وهم طائفة من الكاثوليك الشرقيين ولذلك تعرضوا كثيراً لاضطهاد اليعاقبة والنساطرة مما اضطرهم إلى النزوح لجبال لبنان. ومن هذا الاضطهاد ما حدث سنة ٥١٧م من قتل اليعاقبة لثلاثمائة وخمسين راهباً مارونياً في دير أفامية على نهر العاصي. وذلك بسبب موافقتهم لمقررات مجمع خلدونية في شأن طبيعة المسيحﷺ. وقد كانوا من أقرب نصارى البلاد الإسلامية للصليبيين خلال فترة الحروب الصليبية.
انظر: الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المفصل، يوسف الدبس، بيروت، ١٩٠٥م، ص (٣)، وتاريخ الطائفة المارونية، إسطفان الدويهي، بيروت، ١٨٩٠ م، ص (١٩ ـ ٢٠)، ولبنان في التاريخ، فيليب حتي، ترجمة د. أنيس فريحة، بيروت، ١٩٥٩م، ص (٣٠٣ ـ ٣٠٥).

(٤) وادي العاصي: أي وادي نهر العاصي الذي ينبع من منطقة الهرمل شمال البقاع اللبناني، ويتجه شمالاً إلى بحيرة العمق قرب إنطاكية في شمال سوريا.
انظر: أطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس ص (١١٢)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٣٩)، والمنجد في اللغة والأعلام، ص (٣٦٢).

(٥) معرة النعمان: تقع حالياً في شمال غرب سوريا بين حماة وحلب. (انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٥/ ١٨٢)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس، ص (١١٢)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٣٩).

(٦) شيزر: تقع حالياً في شمال غرب سوريا إلى الشمال من مدينة حماة، كان حكامها فترة الحروب الصليبية أسرة آل منقذ.
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٣/ ٤٣٤)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس، ص (١١٢)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٤١).

(٧) بلدة في شمال غرب سوريا جنوب مدينة حلب.

وأجزاء من جبال لبنان[1] والأرمن[2] ومن أهم أماكن وجودهم أرمينية، وأنطاكية، واللاذقية، وتل باشر[3] وغيرها والأقباط[4]، ويوجدون في مصر خاصةً الإسكندرية[5].

وقد تمتع النصارى بصفة عامة بقسط وافر من التسامح في ظل الدولة الإسلامية حتى فضل كثير منهم سلطة المسلمين على سلطة إخوانهم النصارى في

انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٤/ ٤٥٧)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس، ص (١١٢)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٤١).

(١) انظر: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، د. محمود محمد الحويري، ص (٨٩).

(٢) الأرمن: نسبة إلى الكنيسة الأرمنية التي تأسست في القرن الثالث الميلادي على يد القديس غريغوريوس المنوّر حيث رفضت هذه الكنيسة مقررات مجمع خلدونية عام ٤٥١م وأصبحت كنيسة وطنية في القرن السادس الميلادي. انظر: المنجد في اللغة والأعلام، ص (٣٩). وكانت طائفة الأرمن في أعالي الشام من أشد المناصرين للصليبيين في بداية تقدمهم في الحملات الأولى. انظر: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، د. محمود محمد الحويري، ص (٩٢ ـ ٩٥).

(٣) تل باشر: قلعة صليبية تقع حالياً في أقصى شمال سوريا على الحدود التركية.
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٢/ ٤٧)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس، ص (٢٦٣)، والمنجد في اللغة والأعلام، ص (١٧٨).

(٤) الأقباط والقبط: كلمة يونانية معناها: سكان مصر، وهم سلالة قدماء المصريين، ويمتد أصل الكنيسة القبطية إلى النصرانية في عهودها الأولى حيث أسسها القديس مرقس.
وأول أسقف لها هو أنثايوس (٦٢ ـ ٨٢م)، وهو أول من بنى كنيسة في الإسكندرية.
انظر: لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، مادة «قبط» (٧/ ٣٧٣)، والموسوعة الميسرة، إشراف محمد شفيق غربال، ص (١٣٦٩)، والموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٩م، (٢/ ٤٠٩ ـ ٤١٠).

(٥) ميناء مهم تقع في شمال مصر على ساحل البحر المتوسط، وهي مدينة قديمة أسسها الإسكندر الأكبر سنة ٣٣٢ ق.م.
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (١/ ٢١٧)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس، ص (٣٢٩).

الدولة البيزنطية[١]. فحين رد أبو عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه الجزية على نصارى الشام لعدم استطاعة المسلمين حمايتهم، قالوا: «... ردكم الله علينا ونصركم عليهم، فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئاً، وأخذوا كل شيء بقي لنا حتى لا يدعوا لنا شيئاً...»[٢].

يقول أحد المؤرخين الأوربيين: «... ولذا ليس ثمة ما يدعو المسيحيين لأن يأنفوا لانتصار الإسلام... فإن المسيحيين أصابوا من الثراء ما يزيد على ما كانوا عليه زمن الأباطرة المسيحيين. إذ استتب الأمن، ونشطت التجارة، وازداد هبوط الضرائب...»[٣].

وكتب أحد بطاركة بيت المقدس (في نهاية القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي) إلى زميله في القسطنطينية يخبره عن سلطة المسلمين حيث قال له: «... إنها عادلة، ولم تنزل بنا الضرر، ولم تظهر شيئاً من العنف نحونا...»[٤].

وقد بين أحد الكتاب الغربيين الحياة الطبيعية التي كان يعيشها نصارى البلاد الإسلامية قبيل قيام هذه الحروب حيث قال: «... وبشكل عام فإن أوضاع المسيحيين في كل البلدان المندمجة داخل إمبراطورية السلاجقة كانت طبيعية...»[٥].

وقال عن سهولة حياة غير المسلمين في المجتمع الإسلامي في هذه الفترة: «... لا يظهر أن الحياة كانت شاقة بالنسبة للطوائف غير الإسلامية، فمن كان

(١) ذكرت طرفاً من حسن معاملة المسلمين للنصارى في البلاد الإسلامية؛ لتفنيد ما يدعيه الصليبيون من سوء معاملة المسلمين لإخوانهم النصارى حتى جعلوا ذلك حجةً للاستيلاء على البلاد الإسلامية.

(٢) كتاب الخراج، أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٩ هـ، ص (١٣٩).

(٣) تاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رنسيمان، ترجمة د. السيد الباز العريني (١/ ٤٧ ـ ٤٨).

(٤) المرجع السابق (١/ ٤٩).

(٥) الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، كلودكاهن، ترجمة أحمد الشيخ، ص (٤٨).

يستطيع الهجرة من المقيمين على الحدود لم يفعل ذلك...»[1].

بل إن كثيراً من أهل الذمة قد تقلدوا أعمالاً في الدولة الإسلامية ابتداءً من الدولة الأموية وحتى قيام الحروب الصليبية. ما بين وزارة، وكتابة، وطب، وغير ذلك[2].

وهكذا وبشهادة النصارى أنفسهم لم تكن حياة غير المسلمين شاقة في ظل الدولة الإسلامية ـ خصوصاً النصارى ـ حتى يتخذ ذلك الصليبيون ذريعة للاستيلاء على بلاد المسلمين.

---

(١) المرجع السابق، ص (٣٥).

(٢) انظر: الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع الهجري، عبد المجيد الشرقي، الدار التونسية للنشر، ١٩٩٦م، ص (١٧١)، وللتوسع في إيضاح حسن معاملة المسلمين للنصارى في البلاد الإسلامية، انظر: أثر العامل الديني في توجيه الحركة الصليبية، د. محمد صالح منصور، من ١٧٥ ـ ١٨٥. والمجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، د. أحمد رمضان أحمد محمد، ص (٦٠) وما بعدها. وتاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رنسيمان، ترجمة: د. السيد الباز العريني، (١/ ٤٣) وما بعدها.

المبحث الرابع

أسباب الحروب الصليبيـــة

يتفق معظم المؤرخين على أن أسباب هذه الحروب التي قامت بها أوربا في القرنين السادس والسابع الهجريين - الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين - باتجاه الشرق الإسلامي ترجع إلى دوافع دينية، وسياسية، واقتصادية، واجتماعية، ويختلفون في تحديد قيمة كل دافع من هذه الدوافع وتغليبه على غيره.

ولا شك أن دراسة هذه الدوافع توضح أن الدافع الديني هو الذي حرك جموع الصليبيين من أوربا باتجاه الشرق الإسلامي. ولا ينفي ذلك استغلال بعض المنتفعين في أوربا هذه الحملات الصليبية لتحقيق أطماع سياسية، أو اقتصادية، أو أن يجذبها البعض من الأوربيين علاجاً لأوضاعهم الاجتماعية السيئة.

والمطالب التالية دراسة تفصيلية لهذه الدوافع:

المطلب الأول

الدافع الديني

لا شك أن الدافع الأول للحروب الصليبية هو عداء النصارى الأوربيين للمسلمين، وحقد البابوية على الإسلام الذي اكتسح مناطق واسعة كانت تسود فيها النصرانية كالشام ومصر والأندلس وصقلية. فهدف هذه الحروب الأول هو الانتقام من هذا الدين الذي قضى على نفوذ النصارى في هذه المناطق، وإيقاف المد الإسلامي الزاحف على أوربا من الشرق، بسبب سيطرة السلاجقة المسلمين على آسيا الصغرى وتهديدهم للقسطنطينية، ومن الغرب بسبب تقدم المرابطين ثم الموحدين في الأندلس وتهديدهم لجنوب فرنسا. ومن الجنوب سيطرة المسلمين على صقلية والجزر القريبة من جنوب أوربا ومن ثم الاقتراب من مركز البابوية في إيطاليا.

وقد تذرعت أوربا لتبرير هذا الهدف بالمعاملة السيئة التي يتعرض لها حجاج بيت المقدس من النصارى، وما تتعرض له الكنائس في الشرق من تخريب أو إغلاق أو مصادرة.

هذا، ويتجلى الدافع الديني لهذه الحروب بشكل واضح من خلال ما يلي:

١ ـ إن فكرة الحرب الدينية من النصارى ضد المسلمين قديمة جداً، قبل الحروب الصليبية. وما قيام هذه الحروب إلا نتيجة لإرهاصات سابقة، وحقد عاشته الأجيال النصرانية في بيزنطة أو أوربا ضد المسلمين.

فهذا نقفور فوقاس[1] الإمبراطور البيزنطي يعد حروبه ضد المسلمين حروباً مقدسة لاستعادة بيت المقدس.

فعندما دخل هذا الإمبراطور طرسوس[2] وصعد منبرها قال لمن حوله: أين أنا؟ قالوا: على منبر طرسوس، فقال: لا، ولكن على منبر القدس[3].

وهذا ما يبين حلم نقفور في الاستيلاء على بيت المقدس.

وفي رسالة على شكل قصيدة أنشأها أحد كتاب نقفور العرب وبعث بها إلى الخليفة العباسي المطيع لله[4] سنة ٣٥٢ هـ. أفصح عن حقده الدفين للإسلام

---

(١) نقفور: لقب يطلق على أباطرة بيزنطة. وصاحب الترجمة هو: نقفور بن فوكاس ينتمي إلى إحدى الأسر الكبرى في آسيات الصغرى، تولى الحكم في ٣٥٢ هـ وكان قبل ذلك يطلق عليه الدمستق بمعنى القائد العام للقوات البيزنطية في آسيا الصغرى، واشتهر في وقته بحروبه العنيفة ضد المسلمين خاصةً مع سيف الدولة الحمداني. استمر في الحكم حتى اغتيل سنة ٣٥٩ هـ. (انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٧/ ٢٣٦)، والبداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين (١١/ ٢٥٩) وما بعدها. والموسوعة العربية الميسرة، إشراف: محمد شفيق غربال، ص (١٨٤٤).

(٢) مدينة تركية تقع حالياً في جنوب غرب تركيا على ساحل البحر المتوسط.

انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٤/ ٣١ ـ ٣٢)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس، ص (٣٨٦ ـ ٣٨٧)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٣٩).

(٣) انظر: البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين (١١/ ٢٥٥ ـ ٢٥٧)، والإمبراطور نقفور فوقاس واسترجاع الأراضي المقدسة، عمر كمال توفيق، القاهرة، ١٩٧٩م، ص (١٧).

(٤) هو الفضل بن جعفر المقتدر، بويع له بالخلافة لما خُلع المستكفي بالله في جمادى الآخرة سنة ٣٣٤ هـ واستمر في الحكم إلى أن تنازل لابنه الطائع بالله عن الخلافة آخر سنة ٣٦٣ هـ ثم توفي في محرم من السنة التالية.

انظر: الأنباء في تاريخ الخلفاء، محمد بن علي بن العمراني، تحقيق قاسم السامرائي، دار العلوم، الرياض، الطبعة التالية، ١٩٨٢م، ص (١٧٧ ـ ١٧٩). وسير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (١٥/ ١١٣ ـ ١١٨).

والمسلمين، حيث يظهر من هذه القصيدة الطابع الديني لحروبه تلك والمتمثل في رغبته الاستيلاء على بيت المقدس، وإقامة عرش للمسيح في مكة، وتدمير بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية. ومن هذه القصيدة:

سأفتح أرض الله شرقاً ومغرباً ... وأنشر ديناً للصليب بصارمي

فعيسى علا فوق السموات عرشه ... يفوز الذي والاه يوم التخاصم

ثم يقول:

أعود إلى القدس التي شرفت بنا ... بعز مكين ثابت الأصل قائم

ويقول مخاطباً أهل بغداد ومهدداً لهم:

فعودوا إلى أرض الحجاز أذلة ... وخلوا بلاد الروم أهل المكارم

سألقي جيوشاً نحو بغداد سائراً ... إلى باب طاق حيث دار القماقم

وأحرق أعلاها وأهدم سورها ... وأسبي ذراريها على رغم راغم

ثم يهدد بغزو مكة وامتلاكها:

وأخرج منها نحو مكة مسرعاً ... أجر جيوشاً كالليالي السواجم

فأملكها دهراً عزيزاً مسلماً ... أقيم بها للحق كرسي عالم[(١)]

ثم إن هذه الرغبة الحاقدة في محاربة المسلمين والاستيلاء على بلادهم ظلت ملازمة للهاجس النصراني في بيزنطة وأوربا. تظهر تارة وتختفي تارة أخرى سواء على مستوى القادة السياسيين، أو على مستوى الباباوات.

فهذا البابا سلفستر الثاني (٣٨٩ هـ - ٣٩٣ هـ، ٩٩٩م - ١٠٠٣م) وقبل قيام هذه الحروب بقرن تقريباً يدعو إلى إنقاذ بيت المقدس من أيدي المسلمين[(٢)].

وبعده بفترة يأتي البابا جريجوري السابع (٤٦٥ هـ - ٤٧٧ هـ، ١٠٧٣ - ١٠٨٥م) ليقول: «إن تعريض حياتي للخطر في تخليص الأماكن المقدسة أفضل

(١) انظر: البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين (١١/ ٢٦٠ - ٢٦٣).

(٢) انظر: تاريخ الحروب الصليبية، د. محمود سعيد عمران، ص (٢١).

عندي من حكم العالم بأسره»[١].

وهكذا فإن عداء النصارى في أوربا للمسلمين قديم جداً، والرغبة لديهم في الاستيلاء على بلاد المسلمين خصوصاً بيت المقدس ظلت تراودهم إلى أن جاءت الحروب الصليبية لتحقق ذلك.

٢ ـ استنجاد إمبراطور القسطنطينية ميخائيل السابع[٢] في سنة ٤٦٥ هـ ـ ١٠٧٣م بالبابا جريجوري السابع[٣]. بعد انحسار نفوذ البيزنطيين عن آسيا الصغرى وهزيمتهم الساحقة من قبل السلاجقة المسلمين في معركة مانزكرت في عام ٤٦٣ هـ ـ ١٠٧١م، ثم وصولهم بعد ذلك إلى نيقية[٤] على بحر مرمرة في مقابل عاصمة البيزنطيين ـ القسطنطينية.

هذا الخطر المحدق بالعاصمة البيزنطية جعل الإمبراطور البيزنطي يستنجد مباشرة بالزعيم الديني للنصارى في ذلك الوقت ـ البابا جريجوري السابع ـ ولم يستنجد بأحد ملوك أوربا على الرغم من الاختلاف الشديد بين الكنيستين الأرذوذكسية والغربية الكاثوليكية والخلاف بينهما، حتى أدى الأمر إلى الانفصال التام بين الكنيستين وعدم خضوع الكنيسة الشرقية لسلطة البابا في روما.

هذه الاستغاثة من الإمبراطور البيزنطي جعلت البابا جريجوري السابع يستثير حماس أوربا ضد المسلمين بخطاباته ورسائله إلى الملوك والأمراء في أنحاء

(١) تاريخ الحروب الصليبية، د. محمود سعيد عمران، ص (٢١).

(٢) ميخائيل السابع واسمه دوكاس، حكم بين سنتي ٤٦٣ هـ ـ ٤٧١ هـ/ ١٠٧١ ـ ١٠٧٩م) وكان قد تولى الحكم بعد هزيمة الروم في معركة ملاذكرت وأسر الإمبراطور البيزنطي رومانونس الرابع من قبل المسلمين. (انظر: أوربا العصور الوسطى، د. سعيد عبد الفتاح عاشور (١/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥). والمنجد في اللغة والأعلام، ص (٥٦١).

(٣) انظر: الحروب الصليبية، أرنست باركر، ترجمة د. السيد الباز العريني، ص (١٩).

(٤) نيقية: هي مدينة إزنيك التركية والتي تقع شمال غرب تركيا على بحر مرمرة. (انظر: أطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٦٨)، والمنجد في اللغة والأعلام، ص (٥٨٤).

أوربا نجدة للإمبراطور البيزنطية. ومن ذلك: ـ رسالة البابا جريجوري السابع في (٢٦/ ٥/ ٤٦٦ هـ، ٢/ ٢/ ١٠٧٤م) إلى وليم الأول[١] يدعوه فيها للمساعدة وجمع النورمان لقتال الكفار الذين يهددون القسطنطينية[٢].

وفي (٢٣/ ٦/ ٤٦٦ هـ، ١/ ٣/ ١٠٧٤م) أصدر البابا بياناً خاطب فيه كل من يريد الدفاع عن العقيدة النصرانية وحثهم على القدوم نجدة للإمبراطورية البيزنطية التي تتعرض لتهديد الكفار الذين تقدموا حتى وصلوا أسوار القسطنطينية[٣].

وفي (٤/ ١١/ ٤٦٦ هـ، ٧/ ٧/ ١٠٧٤م) أرسل البابا جريجوري السابع رسالةً إلى الإمبراطور الألماني هنري الرابع أخبره فيها أنه مستعد لإنقاذ البيزنطيين، وتخليص الضريح المقدس بجيش قوامه خمسون ألف رجل[٤].

ـ وكتب البابا جريجوري السابع خطاباً للإمبراطور البيزنطي بين فيه أنه عازم على القدوم إلى الشرق على رأس جيش لمحاربة السلاجقة وأنه سوف يعقد خلال ذلك مجلساً في القسطنطينية لتسوية المشكلات المعلقة وتحقيق الوحدة بين الكنيستين.

وهكذا يتضح من هذه المواقف للبابا جريجوري السابع أن إثارة هذه

---

(١) وليم الأول ويعرف بوليم الفاتح، كان دوقاً لنورماندیا تقع حالياً في شمال غرب فرنسا، قاد النورمان واحتل إنجلترا وصار أول ملوك نورماندي عليها وذلك سنة ٤٥٨ هـ ـ ١٠٦٦م، مات سنة ٤٧٩ هـ ـ ١٠٨٧م.

انظر: أوربا العصور الوسطى، د. سعيد عاشور، (١/ ٤٦٨ ـ ٤٦٩)، والمنجد في اللغة والأعلام، ص (٦١٤)، وأثر العامل الديني في توجيه الحركة الصليبية، د. محمد صالح منصور، ص (١٦٧).

(٢) انظر: العلاقات بين الشرق والغرب، د. عزيز سريال عطية، ترجمة فليب جابر سيف، دار الثقافة، ١٩٧٢م، ص (٣٥).

(٣) انظر: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، محمود محمد الحويري، دار المعارف، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م، ص (٢٨).

(٤) انظر: الخليفة الأيديولوجية للحروب الصليبية دراسة عن الحملة الأولى، د. قاسم عبده قاسم، دار المعارف ١٩٨٣م، ص (٢٦).

الحروب فيما بعد ضد المسلمين في الشرق ما كانت إلا لأهداف دينية بحتة، وهي إيقاف المد لإسلامي الزاحف على أوربا، والسيطرة على البلاد الإسلامية خاصةً الشام، ومد نفوذ الكنيسة الكاثوليكية على كنائس الشرق الأرذوذكسية.

٣ ـ دور بعض رجال الدين النصارى في الدعوة إلى هذه الحروب وتخليص نصارى الشرق من سيطرة المسلمين، وإذكاء مشاعر الحقد في أوربا ضد المسلمين.

ومن أبرز هؤلاء: بطرس الناسك(١) الذي قدم للحج والتقى مع أحد البطاركة النصارى في القدس وتذاكر معه شقاء النصارى في الشرق وما يتعرضون له من ظلم المسلمين وهدم كنائسهم وما إلى ذلك. وكان مما قال بطرس مخاطباً البطريرك: «.. اعلم أيها الأب المبارك أنه إذا توفر لكنيسة رومة وأمراء الغرب مُبَلِّغ ألمعي ثقة يخبرهم بالمصائب التي تكابدونها، فلا شك أنهم سوف يبادرون إلى بذل الجهد لتقديم العلاج بأسرع ما يمكنهم قولاً وعملاً لتخليصكم من هذه المشاق. وعليك أن تثابر في الكتابة إلى قداسة البابا وإلى الكنيسة في روما... وأما أنا فلن أتراجع من جهتي عن حمل هذه الرسالة رجاء خلاص روحي. كما أنني مستعد ـ مهتدياً بالله ـ لزيارة الجميع والتوسل إليهم... وأدعو الجميع أفراداً وجماعاتٍ ألا يتوانوا عن إسعافكم بما فيه خلاصكم...»(٢).

حيث عاد بطرس من القدس والتقى بالبابا أوربان الثاني ثم أخذ يطوف أوربا ملتقياً بالقادة ورجال الدين والشعوب يحثهم على الانتصار لإخوانهم النصارى في الشرق وتطهير الأماكن المقدسة ـ في زعمه ـ من الخبائث.

---

(١) بطرس الناسك عاش بين سنتي ٤٤١ هـ ـ ١٠٥٠ م و٥٠٨ هـ ـ ١١١٥م، كان ميلاده في مدينة ميان شمال فرنسا، كان رجلاً قصير القامة قبيح الوجه رث الهيئة. من أشد الداعين للحروب الصليبية حيث جال في أوربا لهذا الغرض قدم مع طلائع الحملة الصليبية الأولى. (انظر: الحروب الصليبية، وليم الصوري، ترجمة د. حسن حبشي (١/ ٩٠) وما بعدها. وتاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رنسيمان، ترجمة د. السيد الباز العريني (١/ ١٧٩) وما بعدها.

(٢) تاريخ الحروب الصليبية، وليم الصوري، ترجمة د. حسن حبشي (١/ ٩٢).

وقد بين وليم الصوري هذه الحماسة الصليبية لدى بطرس بقوله: «حينذاك اشتعلت جذوة الحماسة الزكية في نفي بطرس الذي راح يذرع كافة أرجاء إيطاليا وعبر جبال الألب ولم يترك أميراً من الأمراء إلا زاره، غير مدخر وسعاً في حثهم جميعاً وتحذيرهم ولومهم. فنجحت تحذيراته بفضل الرب في حمل بعضهم على المبادرة إلى الخروج لمساعدة إخوانهم الذين مستهم البلوى ونزل بهم الضر؛ رغبة منهم في ألا يدعوا الأماكن المقدسة ـ وهي البقاع التي تعطف السيد فشرفها بحضوره وصانها ـ أن تدنس بالخبائث»[1].

وفي الحملة الصليبية الثانية (٥٤٠ هـ ـ ٥٤٢ هـ، ١١٤٦م ـ ١١٤٨م) كان من أهم الأسباب الدافعة لها استغاثة القديس برنار[2] بالبابا يوجنيوس[3] الثالث. حيث شجع البابا القديس برنار فقام هذا القديس بنفسه يدعو إلى حمل السلاح ضد المسلمين في الشرق ويقنع بذلك الملك لويس السابع[4] ويلح عليه بأن

(١) تاريخ الحروب الصليبية، وليم الصوري، ترجمة د. حسن حبشي (١/ ٩٦ ـ ٩٧).

(٢) برنار أوبرنردس. قديس فرنسي عاش بين سنتي ٤٨٢ هـ ـ ٥٤٧ هـ، ١٠٩٠ ـ ١١٥٣م. أسس دير كليرفو وتولى رئاسته حتى وفاته. أسهم في تكوين ما يسمى فرسان المعبد وله جهود كبيرة في الدعوة للحملة الصليبية الثانية في فرنسا وألمانيا. (انظر: قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة: محمد بدران، المجلد الرابع، الجزء الخامس ص (١١١). وتاريخ الحروب الصليبية، ستيفين رنسيمان، ترجمة د. السيد الباز العريني (٢/ ٤٠٦) وما بعدها. والمنجد في اللغة والأعلام، ص (١٢٢).

(٣) البابا يوجنيوس الثالث تولى البابوية من سنة ٥٣٩ هـ ـ ٥٤٧ هـ، ١١٤٥م ـ ١١٥٣م. وكان له جهود كبيرة في تحريض ملكي فرنسا وألمانيا للمشاركة في إنقاذ وإنجاد نصارى الشرق بزعمه بعد فتح المسلمين للرها واستعادتها من الصليبيين فكانت قيادتهما للحملة الصليبية الثانية. (انظر: تاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رنسيمان، ترجمة د. السيد الباز العريني (٢/ ٤٠٥)، وما بعدها، و(٣/ ٨٥٩). وأوربا العصور الوسطى، د. سعيد عاشور (١/ ٦٦١).

(٤) لويس السابع: أحد ملوك فرنسا من أسرة آل كابيه عاش بين سنتي ٥٣١ هـ ـ ٥٧٥ هـ، ١١٣٧م ـ ١١٨٠ م شارك في الحملة الصليبية الثانية، حيث وصل إنطاكية على رأس الجيش الفرنسي ثم إلى بيت المقدس ثم حاصر دمشق مع جموع الصليبيين ثم ارتدوا عنها وغادر لويس السابع إلى بلاده.

يحمل الصليب ويتجه للمشرق. وقبل ذلك يقف برنار والملك بجانبه يخطب في الجموع المحتشدة[1] سنة ٥٤٠ هـ ـ ١١٤٦م، ويتطوع الجميع بعد خطبته بحمل الصليب وأخذ السلاح والاتجاه لقتال المسلمين في المشرق. حتى أن القديس برنار مزق مئزره ليعمل منه شارات الصليب التي يحملها المحاربون[2].

ويتضح مدى عمق الدافع الديني للنصارى ضد المسلمين من كثرة المستجيبين لدعوة القديس برنار. حيث كتب هذا القديس إلى البابا بعد دعوته لهذه الحملة يشتكي من نقص الرجال في فرنسا، وأنه وصل الحد إلى أن لكل سبع نساء رجل واحد، وفي كل مكان ترى أرامل لأزواج لا يزالون أحياء[3].

٤ ـ دعوة البابا أوربان الثاني (٤٨٠ هـ ـ ٤٩٢ هـ، ١٠٨٨م ـ ١٠٩٩م) الصريحة لشن هذه الحروب في مجمع كليرمون في فرنسا عام (٤٨٧ هـ، ١٠٩٥م).

يقول فوشيه شارتر[4]: «... وعندما سمع ـ أي البابا أوربان الثاني ـ أن المناطق الداخلية من رومانيا قد احتلها الأتراك، وأن المسيحيين خضعوا لغزوٍ مدمر ساحق، اهتز أوربان كثيراً بفضل تقواه وتدينه العميق وزيادة حبه للرب، فعبر الجبال وهبط في بلاد الغال[5] وأمر بعقد مجمع ديني في أوفريني بكليرمون وهو اسم المدينة وتمّ الإعلان عن هذا المجمع... وحضره ثلاثمائة وعشرة من الأساقفة ومقدمي الأديرة ممن يحملون العصا المعقوفة...»[6].

انظر: أوربا العصور الوسطى، د. سعيد عبد الفتاح عاشور (١/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨)، وتاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رنسيمان، ترجمة د. السيد الباز العريني (٢/ ٤٤٧) وما بعدها.

(١) وذلك في مدينة فيزلاي الفرنسية.

(٢) انظر: قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة محمد بدران، الجزء الرابع من المجلد الرابع، ص (٣٠).

(٣) انظر: المرجع السابق، الجزء الرابع من المجلد الرابع، ص (٣٠).

(٤) سبق التعريف به في المقدمة، وهو ممن حضر هذا المجمع.

(٥) بلاد الغال أو غاله: يعني حالياً وسط وجنوب فرنسا (انظر: أطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس ص (٢٧٦). والمنجد في اللغة والأعلام (٤٦٦)).

(٦) الوجود الصليبي في الشرق العربي، فوشيه الشارتري، ترجمة د. قاسم عبده قاسم، ص (٨).

وقد استمر هذا المجمع منعقداً لمدة عشرة أيام، ألقى فيه البابا أوربان خطابه المشهور الذي دعا فيه الأوربيين للقيام بهذه الحروب انتقاماً من المسلمين واستخلاصاً لبيت المقدس من أيديهم. وكان مما قال مخاطباً الحاضرين: «... إني بصلاة خاشعة أحثكم، بل إن الرب هو الذي يحثكم باعتباركم قساوسة المسيح أن تحضوا الناس من شتى الطبقات... بأن يسارعوا إلى استئصال شأفة هذا الجنس الشرير من أرضنا وأن تساعدوا السكان المسيحيين قبل فوات الأوان...»[1].

حيث يتضح من ذلك أن نظرة الباباوات في أوربا إلى البلاد الإسلامية خصوصاً الشام على أنها أرض لهم. فشنُّ هذه الحروب ما كان إلا لاستخلاص هذه الأراضي من المسلمين، وإنقاذ النصارى الخاضعين للمسلمين في هذه البلاد.

ويظهر الحقد والعداوة المتغلغلة لدى القيادات الدينية في أوربا والمحركة لهذه الحروب ضد المسلمين بقول أوربان الثاني في هذا الخطاب: «... يا له من عار إذ قام جنس خسيس مثل هذا، جنس منحل تستعبده الشياطين بهزيمة شعب يتحلى بإيمان عظيم بالرب...»[2].

بل إن نظرة البابوية في ذلك الوقت إلى المسلمين على أنهم وثنيون، يستحق المغفرة كل مذنب يهب لقتالهم.

يقول البابا أوربان الثاني: «... إن ذنوب كل أولئك الذاهبين إلى هناك سوف تغتفر إذا انتهت حياتهم... أثناء مسيرتهم على الأرض أو عند عبورهم البحر أو في خضم قتالهم ضد الوثنيين. هذا الغفران أمنحه لكل من يذهب بمقتضى السلطة التي أسبغها الرب عليَّ...»[3].

(١) الوجود الصليبي في الشرق العربي، فوشيه الشارتري، ترجمة د. قاسم عبده قاسم، ص (٩٣).
(٢) المرجع السابق، ص (٩٣).
(٣) المرجع السابق، ص (٩٣).

وقد بين وليم الصوري مدى استجابة الحاضرين لدعوة البابا بقوله: «... لقد تلقى الكثيرون ممن حضروا كليرمونت هذه الكلمة الراسخة بفرح عظيم...»[١]. وقال: «... ودبت نفس الحماسة كذلك في نفوس أمراء جميع الممالك الذين لم يحضروا الاجتماع. إذ راح كل واحد منهم يشجع صاحبه ويستعدون للسفر...»[٢].

وتحدث فوشيه الشارتري ووليم الصوري بإسهاب وإعجاب عن انطلاق جموع النصارى بعد هذا المجمع مباشرة باتجاه الشرق وبأعداد كبيرة[٣].

٥ ـ جعل الصليب شعاراً لهذه الحروب. والصليب هو الشعار الديني للنصارى والذي يرمز إلى عقيدة النصارى المتمثلة بإيمانهم بصلب المسيح.

فقد دعا البابا أوربان الثاني بنفسه جميع المشاركين بهذه الحملات إلى رسم شارة الخلاص على ثيابهم. ألا وهي الصليب[٤].

وكانت راياتهم في جميع حروبهم ضد المسلمين تحمل شارة الصليب. بل ومن أعظم مصائبهم استيلاء المسلمين على شعارهم بعد معركة حطين والمسمى بـ«صليب الصلبوت»[٥]. حيث تعددت رسل الإفرنج لاستعادة هذا الصليب.

فمن ذلك أنه لما قدمت رسل منهم إلى دمشق في التاسع من شهر رجب من سنة ٥٨٧ هـ؛ للتباحث في هذا الشأن. طلبوا مشاهدة الصليب، فلما أُحضر لهم

---

(١) الحروب الصليبية، وليم الصوري، ترجمة د. حسن حبشي (١/ ١٠٧).

(٢) المصدر السابق (١/ ١٠٨).

(٣) انظر: الوجود الصليبي في الشرق العربي، فوشيه الشارتري، ترجمة د. قاسم عبده قاسم، ص (٩٩)، والحروب الصليبية، وليم الصوري، ترجمة د. حسن حبشي (١/ ١٠٩).

(٤) انظر: الحروب الصليبية، وليم الصوري، ترجمة د. حسن حبشي (١/ ١٠٨ ـ ١٠٩).

(٥) يقول العماد الأصفهاني: «وهم يزعمون أنه من الخشبة التي صلب عليها معبودهم، وقد غلفوه بالذهب الأحمر، وكللوه بالدر والجواهر...». الروضتين في أخبار الدولتين، عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (٢/ ٧٨).

عظموه ورموا بأنفسهم على الأرض، ومرغوا وجوههم على التراب، وخضعوا خضوعاً عظيماً(١).

وكانوا حينما يستولون على مدينة من مدن المسلمين يسارعون إلى رفع الصليب عليها كما حصل في القدس، وفي عكا(٢) وغيرها. إظهاراً للصفة الدينية التي دفعت بهم إلى هذه الحروب.

٦ ـ حرص البابوية على رعاية هذه الحروب ومباركتها، ومتابعتها، ودعمها، مما يؤكد على الصفة الدينية لهذه الحروب. ونماذج ذلك كثيرة منها:

أ ـ حماية أموال المحاربين والمشاركين فيها طوال مدة غيابهم(٣).

ب ـ اختيار الكنيسة لرجال الدين المشاركين في هذه الحملات لإضفاء الطابع الديني عليها، والذين كانت مهامهم الوعظ والتذكير بالهدف الذي جاءت من أجله هذه الحملات وهو استخلاص بيت المقدس، وإنقاذ النصارى من سلطة المسلمين وفض النزاعات التي قد تثور بين المشاركين في الحملات، أو التوفيق فيما بينهم(٤).

بل إن بعض الحملات لم يقتصر الأمر فيها على مشاركة رجال الدين المعينين من قبل الكنيسة أو المتطوعين، بل تعداه إلى تعيين ممثل للكنيسة يسمى المندوب البابوي ومهمته الإشراف على الحملة كما حصل ذلك في الحملة الصليبية الأولى(٥).

---

(١) انظر: النوادر السلطانية، يوسف بن رافع بن شداد، تحقيق د. جمال الدين الشيال، ص (٢٦٠).

(٢) النوادر السلطانية، يوسف بن رافع بن شداد، تحقيق د. جمال الدين الشيال، ص (٢٥٨).

(٣) انظر: الحركة الصليبية، د. سعيد عبد الفتاح عاشور (١/ ١٣٠).

(٤) انظر: أثر العامل الديني في توجيه الحركة الصليبية، د. محمد صالح منصور، ص (١٩٤ ـ ١٩٥).

(٥) العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، د. جوزيف نسيم، ص (٦٨)، وتاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، بيروت، ١٩٧٦م، ص (٨٦).

جـ ـ مراقبة أعمال الملوك والقادة الصليبيين المشاركين في هذه الحملات من قبل الكنيسة، ومعاقبة المقصرين منهم في قتال المسلمين.

ومن نماذج ذلك بعث البابا في سنة ٦٤٤ هـ برجال إلى الشام لقتل أحد قادة الفرنج لتهاونه في قتال المسلمين، وكان قبل ذلك قد أباح دمه ولم يفلح في قتله فأرسل جيشاً لهذه المهمة وفشل كذلك[١].

د ـ عندما تمّ استيلاء الصليبيين على بيت المقدس في الحملة الأولى اختاروا الأمير جودفري بوايون[٢] حاكماً لها، حيث تسمى بحامي بيت المقدس؛ إظهاراً للصفة الدينية لحكمه[٣].

هـ ـ إن من تردد وتقاعس بعد خروجه لقتال المسلمين فإنه يعرض نفسه لعقوبة الحرمان[٤].

و ـ جعل الكنيسة التكفير عن الذنوب بالحج إلى القدس، والمشاركة في القتال ضد المسلمين.

حيث قال البابا أوربان الثاني في خطبته في مجمع كليرمونت: «. . . وعلى ذلك فنحن محذروكم وموصوكم باسم الرب بالعمل على التطهر من خطاياكم وذلك بمشاطرة إخواننا سكان القدس ومن حولهم في مصائبهم وآلامهم. . . وعليكم أن تكبحوا بكل غضبة دينية وقاحة الكفار الذين يحاولون إخضاع

---

(١) انظر: البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين (١٣/١٨٣).

(٢) هو جودفري ده بويون دوق إقليم اللورين من كبار رجال الإقطاع في ألمانيا ومن أبرز قواد الحملة الصليبية الأولى وأول حاكم لبيت المقدس بعد احتلاله حيث أطلق على نفسه ـ حامي بيت المقدس ـ كان ميلاده عام ٤٥١ هـ ـ ١٠٦٠ م ووفاته ٤٩٣ هـ ـ ١١٠٠ م. انظر: الحروب الصليبية، وليم الصوري، ترجمة د. حسن حبشي، (١/١٠٩، ١٤٥)، وتاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رنسيمان، ترجمة د. السيد الباز العريني (١/ ٢٢٤) وما بعدها.

(٣) انظر: الحركة الصليبية، د. سعيد عبد الفتاح عاشور (١/ ٢٤٤).

(٤) انظر: المرجع السابق (١/ ١٣٠).

الممالك، والولايات، والدول، وأن تحاربوا ما وسعكم الجهد هؤلاء الذين أجمعوا العزم على إزالة الاسم المسيحي...»[1].

ولذلك تتالت جموع النصارى على المشرق رغبةً في تكفير الخطايا وغفران الذنوب. وليس هذا على مستوى العامة فقط، بل إن كثيراً من القادة النصارى في أوربا كان هدفهم المعلن الذي دفعهم للقدوم إلى الشرق هو الرغبة في التكفير وغفران الذنوب.

وقد ذكر وليم الصوري أنه أثناء تقدم الصليبيين في الحملة الأولى ووصولهم إلى طرسوس رأوا أسطولاً يمخر البحر على مسافة قريبة من شاطىء المدينة، فلما وصل هذا الأسطول تبين أنهم نصارى من هولندا[2] ووسط أوربا يقودهم رجل يدعى جنمار، وقد ظل هؤلاء يمارسون القرصنة ثمان سنوات ثم صحت ضمائرهم فندموا على ما كان منهم وتابوا عن إثمهم، فاتجهوا للقدس من أجل الحج، حيث انضموا إلى إخوانهم النصارى في طرسوس واتجهوا معهم تحت قيادة بلدوين[3] إلى القدس[4].

كذلك فروتمون[5] أحد قادة النصارى في أوربا كان قد قتل عمه وأخاه

---

(١) الحروب الصليبية، وليم الصوري، ترجمة د. حسن حبشي (١/ ١٠٤).

(٢) تقع في شمال غرب أوربا حيث يحدها من الشرق ألمانيا، ومن الجنوب بلجيكا، ومن الشمال والغرب بحر الشمال. (انظر: أطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٧٧)، والمنجد في اللغة والأعلام، ص (٦٠٣).

(٣) المقصود ببلدوين هنا: هو بلدوين البولوني من قادة الحملة الصليبية الأولى، يدعى بلدوين الأول تولى إمارة الرها الصليبية ثم خلف أخاه جودفري بوايون في حكم بيت المقدس كأول ملك صليبي عليها.

(انظر: الحركة الصليبية، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، ص (١٦٦)، وما بعدها وص (٢٧٠) وما بعدها. والوجود الصليبي في الشرق العربي، فوشيه شارتر، ترجمة د. قاسم عبده قاسم، ص (١١٧) وما بعدها.

(٤) انظر: الحروب الصليبية، وليم الصوري، ترجمة د. حسن حبشي (١/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤).

(٥) فروتمون أو فورمون أحد سادة الإقطاع في أوربا في أواخر القرن العاشر الميلادي ـ

الأصغر، فأراد أن يكفر عن فعلته فمثل أما محكمة من القساوسة الذين فرضوا عليه السفر إلى فلسطين حافي القدمين عاري الجسد وذلك شرط لقبول توبته. حيث وصل القدس ثم عاد إلى روما وقابل البابا الذي طلب منه العودة ثانية إلى فلسطين مرة أخرى فعاد. ولما رجع إلى أوربا بعد ذلك استقبله قومه باعتباره قديساً[1].

وهذا لويس السابع ملك فرنسا يقطع نذراً على نفسه للقيام بحملة صليبية إلى الشرق؛ ندماً على إحراقه إحدى المدن الأوربية، وذلك في حروبه مع بعض القادة الأوربيين فاستغل البابا يوحنيوس الثالث هذا النذر وأرسل إلى لويس السابع في الثالث عشر من جمادى الآخرة من سنة ٥٤٠ هـ رسالة تتضمن ذكر استيلاء المسلمين على الرها وما لذلك من سيىء الأثر على الكيان الصليبي في الشام، وبحثه في هذه الرسالة على سرعة النجدة للصليبيين في الشام[2].

٧ ـ ظهور فرق الرهبان الفرسان ونشاطها في الحروب ضد المسلمين. وكان من أشهرها: الاسبتارية والداوية، والتيوتون.

وفيما يلي نبذة عن هذه الفرق ودورها في قتال المسلمين خلال فترة الحروب الصليبية تأكيداً على الروح الدينية النصرانية الحاقدة على المسلمين والباعثة لهم للقيام بهذه الحروب.

أ ـ هيئة الاسبتارية أو فرسان المستشفى. وهذه الهيئة عبارة عن مجموعة من الرهبان ورجال الدين الذين انقطعوا للعبادة وخدمة الحجاج النصارى في بلاد الشام. ثم تحولوا بعد ذلك إلى هيئة عسكرية قوية كان لها دورها في حرب المسلمين خلال فترة الحروب الصليبية.

عرف بسيد مدينة بريتوني. (انظر: تاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رنسيمان، د. السيد الباز العريني (١/ ٨٢)، وأثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوربي خلال الحروب الصليبية، د. عبدالله الربيعي، ص (٢٧).

(١) انظر: أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوربي خلال الحروب الصليبية، عبدالله بن عبد الرحمن الربيعي، ص (٢٧).

(٢) انظر: الحروب الصليبية، د. محمود سعيد عمران، ص (٧٢ ـ ٧٣).

وكانت بداية نشأة الاسبتارية قبل قيام الحروب الصليبية وذلك في عام (٤٦٢ هـ ـ ١٠٧٠م)[١]. حيث قدم مجموعة من الحجاج النصارى وكونوا لهم مجموعة من الأديرة في بيت المقدس، وكان غالبهم من الرهبان من مدينة أماليفي[٢]، ثم انفصل عنهم بعد ذلك ما يعرف بهيئة الاسبتارية أو فرسان المستشفى. ونالوا اعتراف البابا ودعمه في عام (٥٠٦ هـ ـ ١١١٣م)، وأنشأوا لهم فروعاً في غالب المدن الشامية، وأصبحت الاسبتارية تتلقى الدعم الكبير من النصارى في أوربا وفي بلاد الشام[٣].

ثم تحولت هذه الهيئة إلى الحرب ضد المسلمين، وتأليب النصارى في أوربا وفي الشام لمواجهة المسلمين بدافع ديني بحت[٤].

ب ـ هيئة الداوية: ظهرت هذه الهيئة في القدس بعد إنشاء الاسبتارية بعشرين عاماً تقريباً، وقد أسسها مجموعة من رجال الدين النصارى الفرنسيين، وكانت مهمتهم منذ البداية محاربة المسلمين، وحماية طرق الحج. حيث نالوا على ذلك تصريحاً من بطيرك القدس ومن الملك بلدوين الثاني[٥]

---

(١) جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، د. فايد حماد محمد عاشور، ص (٩١).

(٢) مدينة أماليفي تقع في إيطاليا في الوقت الحاضر.

(٣) انظر: فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، د. نبيلة إبراهيم مقامي، مطبعة جامعة القاهرة، والكتاب الجامعي، القاهرة، ١٩٩٤م، ص (١٣ ـ ١٤).

(٤) المرجع السابق، ص (١٥).

(٥) بلدوين هنا: هو بلدوين دي بورج ـ بلدوين الثاني ـ من أبرز قادة الصليبيين في الشام، تولى إمارة الرها الصليبية وأسره المسلمون سنة ٤٩٧ هـ في معركة حران ومكث في الأسر أربع سنوات حيث أطلق بفدية كبيرة. وبعد وفاة بلدوين الأول ملك مملكة بيت المقدس الصليبية تُوج بلدوين الثاني ملكاً عليها سنة ٥١١ هـ ـ ١١١٨م، وكانت وفاته سنة ٥٢٤ هـ ـ ١١٣٠ م.

انظر: الحركة الصليبية، د. سعيد عاشور (١/ ٤٢٤) وما بعدها. و(١/ ٤٨٤) وما بعدها. والأسرى الصليبيون في أيدي الحكام المسلمين، د. محمود سعيد عمران، دار النهضة

وذلك في عام ٥١١ هـ ـ ١١١٨م[١].

جـ ـ هيئة الفرسان التيوتون: وقد أنشأ هذه الهيئة مجموعة من الحجاج الألمان في عام (٥٨٥ هـ ـ ١١٩٠م) وذلك أثناء حصار عكا خدمة للمحاربين، وتقديماً للعون والعلاج للجرحى[٢]، ثم ما لبثت هذه الهيئة في المشاركة الفعلية والمباشرة في حرب المسلمين، وتأليب النصارى ضدهم. وإن كان دورها في المجال العسكري أقل من دور الهيئتين السابقتين[٣].

وقد أصبحت هذه الهيئات تمتلك الإقطاعات الواسعة، وتنهال عليها التبرعات من الشعوب والقادة، سواء في أوربا أو في بلاد الشام دعماً لجهودها ضد المسلمين. وكل هذا الدعم ما كان إلا بدافع ديني خالص.

حتى إنه مما تفتخر به بعض العائلات الأوربية النبيلة هو أن يكون أحد أبنائها له شرف الانتماء إلى إحدى هذه الهيئات، خاصة الاسبتارية والداوية[٤].

وكان كل من ينضم إلى إحدى هذه الهيئات يتمتع برضى الكنيسة، خاصةً عندما يقوم بمنح الهيئة هبة من الأراضي أو القصور، حتى تسابق الأمراء والنبلاء إلى الاشتراك في إحدى هذه الهيئات كناحية شرفية لهم[٥].

أما عن دور هذه الهيئات في حروب الصليبيين للمسلمين فكان مهماً جداً خاصةً الاسبتارية والداوية.

العربية، بيروت، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦م، ص (٢٥)، وما بعدها. وتاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رانسيمان، ترجمة: د. السيد الباز العريني (٢/ ٨٢٨)، والحروب الصليبية، وليم الصوري، ترجمة: د. حسن حبشي (٢/ ٣٣٥) وما بعدها.

(١) انظر: فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، د. نبيلة إبراهيم مقامي، ص (١٧ ـ ١٨).

(٢) المرجع السابق، ص (١٦١).

(٣) انظر: المرجع السابق، ص (١٧٦).

(٤) انظر: المرجع السابق، ص (٣٠).

(٥) انظر: المرجع السابق، ص (٣٠).

حيث اشترك فرسان الداوية في حصار دمشق سنة ٥٤٢ هـ، وفي حصار عسقلان[١] مع فرسان الاسبتارية سنة ٥٤٨ هـ[٢]. واشتركت الهيئات في كثير من المعارك ضد صلاح الدين - رحمه الله تعالى - فمن ذلك: أنه حينما هاجم - رحمه الله تعالى - أحد حصون الإفرنج قرب بانياس[٣]، اشتركت الداوية والاسبتارية بشكل قوي في الدفاع عنه. وقد هزمهم صلاح الدين، وكان من ضمن الأسرى مقدم الداوية، ومقدم الاسبتارية[٤].

وفي آخر صفر سنة ٥٨٣ هـ أمر صلاح الدين ابنه أن يغير على عكا، «... فخرج إليه الإفرنج في جمع من الداوية والاسبتارية وغيرهما، فالتقوا هناك وجرت بينهم حرب تشيب لها المفارق السود، ثم أنزل الله تعالى نصره على المسلمين فانهزم الإفرنج وقتل منهم جماعة... وفيمن قتل مقدم الاسبتارية، وكان من فرسان الإفرنج المشهورين، وله النكايات العظيمة في المسلمين...»[٥].

ثم تحدث ابن الأثير عن هذا النصر فقال: «... فكان فتحاً كثيراً، فإن الداوية والاسبتارية هم جمرة الإفرنج...»[٦].

---

(١) تقع حالياً في جنوب فلسطين على ساحل البحر المتوسط بين غزة ويافا. (انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٤/ ١٣٧)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس، ص (١١٢).

(٢) انظر: الروضتين في أخبار الدولتين، عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، أبو شامة (١/ ٢٢٣).

(٣) بانياس: بلدة تقع في جنوب غرب سوريا على الحدود مع فلسطين بالسفح الغربي لجبل الشيخ.
انظر: أطلس تاريخ الإسلام، د، حسين مؤنس، ص (٢٦٣)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٣٩)، والمنجد في اللغة والأعلام، ص (١١٠).

(٤) انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٩/ ٤٣٩).

(٥) المصدر السابق (١٠/ ٢١).

(٦) المصدر السابق (١٠/ ٢١).

وفي معركة حطين في ربيع الآخر من سنة ٥٨٣ هـ. اشترك الداوية والاسبتارية ضد المسلمين فكانوا من أشد الإفرنج قتالاً وصبراً[١].

ولذلك فإن صلاح الدين بعد هذه المعركة كان يقبل فداء الأسرى الإفرنج ما عدا من ينتسب إلى الداوية أو الاسبتارية منهم. فهؤلاء مصيرهم القتل. «... وإنما خص هؤلاء بالقتل لأنهم أشد شوكة من جميع الإفرنج، فأراح الناس من شرهم، وكتب إلى نائبه بدمشق ليقتل من دخل البلد منهم...»[٢][٣].

إذن فالداوية والاسبتارية وغيرهما من فرق الرهبان الفرسان كانت طوال فترة الحروب الصليبية تغذي الشعور الديني للنصارى ضد المسلمين، وكانت لهذه الفرقة الحضوة والمكانة لدى قواد النصارى سواء في أوربا أو في بلاد الشام. وكثيراً ما تشترك هذه الفرقة مع قادة الصليبيين في البلاد الإسلامية ضد المسلمين. كل ذلك يثبت الدور الأساس للدافع الديني في حرب النصارى للمسلمين في هذه الفترة.

٨ ـ ومما يثبت الصفة الدينية لهذه الحروب، والدوافع الدينية الباعثة لها من قبل النصارى؛ اعتبار المؤرخين الأوربيين المعاصرين لها، بل والمشاركين فيها أنها حملات حج انطلقت من أوربا، وفي خدمة الرب كان هذا الخروج.

فعلى سبيل المثال لا يتحدث وليم الصوري عن الحملات الصليبية إلا على أنها حملات حج خرجت من أوربا قاصدة بيت المقدس.

ففي مقدمة كتابه الحروب الصليبية صرح أن خروج زعماء أوربا إلى الشرق كان استجابة لنداء السيد حيث قال: «... فيبدأ الكتاب بسفر أولئك الرجال والزعماء المغاوير الذين أحبهم الله فخرجوا استجابة لنداء السيد من ممالك

---

(١) انظر: المصدر السابق (١٠/ ٢٤ ـ ٢٥).

(٢) المصدر السابق (١٠/ ٢٧).

(٣) للتوسع عن هذه الفرق ودورها في الحروب ضد المسلمين في فترة الحروب الصليبية، انظر: كتاب فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، د. نبيلة إبراهيم مقامي.

الغرب واستولوا بيد قوية على أرض الميعاد ومعظم بلاد الشام. ولقد تابعنا بإخلاص عظيم التأريخ ابتداء من هذه النقطة لفترة تجاوزت أربع وثمانين سنة. . .»[١].

ولا تختلف نظرة فوشيه الشارتري المؤرخ والقس المتابع لأحداث الحملات الصليبية الأولى، بل والمشارك بها، والشاهد على الدعوة إليها في مجمع كليرمونت. لا تختلف نظرته لهذه الحروب عن نظرة وليم الصوري. بل إنه بالغ في إضفاء الصفة الدينية على هذه الحملات، وتبجيل رجالها، وأنها في خدمة الرب. حيث قال في مقدمة كتابه الوجود الصليبي في الشرق العربي: «. . . ومن دواعي غبطة الأحياء، بل من المفيد للموتى أن تتلى أعمال الرجال الشجعان، لا سيما أولئك الذين يحاربون في سبيل الرب. . .»[٢]. ثم وصف هؤلاء المحاربين بقوله: «. . . كيف أنهم اتبعوا نهج الإنجيل فتخلوا عن أجمل الأشياء وهجروا الوالدين ونبذوا ممتلكاتهم مهما كبرت، سوف يدفعهم الإلهام إلى اتباع الرب وسوف يعانقونه في حماسة. . .»[٣].

وقرر أن كتابته لسير المحاربين الصليبيين، من أجل إغداق الصدقات التي تصحبها الصلوات عليهم من الأحياء[٤].

ولهذا السبب، وبناء على طلبات من رفاقه تحرك للكتابة عن هذه الحملات التي يراها حملات حج إلى بيت المقدس. «. . . لهذا السبب تحركت بناء على طلبات متكررة من رفاقي لكي أحكي في أسلوب منظم دقيق أعمال الفرنج الباهرة التي فعلوها عندما قاموا برحلة حج مسلح إلى بيت المقدس بأمر إلهي في سبيل المسيح المخلص. . .»[٥].

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية، وليم الصوري (١/ ٥٤).

(٢) الوجود الصليبي في الشرق العربي، فوشيه الشارتري، ترجمة د. قاسم عبده قاسم، ص (٨١).

(٣) المصدر السابق، ص (٨١).

(٤) انظر: المصدر السابق (٨١).

(٥) المصدر السابق، ص (٨١).

٩ ـ والمؤرخون المسلمون المعاصرون لهذه الحروب، أو الذين كتبوا عنها في القرنين التاليين لفترتها نظروا إليها على أنها حروب دينية، هدفها الاستيلاء على بيت المقدس، وأن الباعث لها الحقد النصراني على المسلمين، وأن قتال المسلمين لهؤلاء الصليبيين جهاد في سبيل الله.

حيث قال العماد الأصفهاني[١] في مقدمة كتابه الفتح القسي في الفتح القدسي متحدثاً عن حال البلاد الإسلامية قبل فتح القدس سنة ٥٨٣ هـ: «... والكفار قد خشنت عرائكهم، واتسعت ممالكهم، واستبصروا في الضلال، واستصبروا للقتال، وخرجوا من ديارهم يخطبون غاشية الموت، ونفروا من وراء البحر يطلبون أمامهم من البر ناشية الصوت، وقاتلوا جنداً ورعيةً، واستباحوا الأنفس متورعين. فلا ترى أعجب من أن ترى استباحة ورَعِية، ... وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون...»[٢].

فالعماد الأصفهاني المعاصر لفترة طويلة من هذه الحروب، والمشارك في الكثير من أحداثها، يعرض وجهة النظر الإسلامية السائدة في وقته من أن النصارى قد جاؤوا من وراء البحار للقتال والحرب، يدفعهم لذلك الورع، فهي في نظرهم حرب دينية تقربهم إلى الله. وتعجب العماد من استباحتهم القتل قربة وورعاً. ثم سجل أحداث فتح القدس وما بعدها، وقتال المسلمين للصليبيين على أنه جهاد في سبيل الله.

وتحدث ابن الجوزي عن استيلاء الفرنج على بيت المقدس، وما فعلوه

---

(١) هو محمد بن محمود بن محمد بن عباد، شمس الدين، الأصبهاني، مؤرخ، وكاتب وعالم بالأدب، قدم من أصبهان، وتفقه في بغداد، واتصل بنور الدين محمود ثم صلاح الدين، مولده كان في أصبهان سنة ٥١٩ هـ ووفاته في دمشق سنة ٥٩٧ هـ، من كتبه البرق الشامي، والفتح القسي وغيرها.
انظر: طبقات الشافعية الكبرى، عبد الوهاب بن علي السبكي، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو وزميله، (٨/ ١٠٠ ـ ١٠٣)، والبداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرون (٣/ ٣٣ ـ ٣٤).

(٢) محمد بن محمود الأصفهاني «العماد الأصفهاني»، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص (٥١).

بالمسلمين من القتل والأسرة، وقعود المسلمين عن نصرتهم، مصوراً ذلك بأبيات الأبيوردي[1] المشهورة:

وكيف تنام العين ملء جفونها ... على هفوات أيقظت كل نائم

وإخوانكم بالشام يضحي مقيلهم ... ظهور المذاكي أو بطون القشاعم

تسومهم الروم الهوان وأنتم ... تجرون ذيل الخفض فعل المسالم

إلى أن يقول مستنهضاً حمية المسلمين:

وليتهم إن لم يذودوا حمية ... عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم[2]

فالشاعر الأبيوردي وضح رأيه في مقاتلة الإفرنج بأنه بالدرجة الأولى حمية عن الدين. ولا شك أنه صور بذلك الرأي السائد في عصره. ونَقْل ابن الجوزي لهذه الأبيات في مثل هذه الحادثة العظيمة وهي استيلاء النصارى على بيت المقدس يدل أيضاً على مشاركة الأبيوردي في الرأي، واعتباره قتال المسلمين للإفرنج جهاد في سبيل الله.

وفي أحداث سنة ٥٤٣ هـ تحدث ابن الجوزي عن وصول ثلاثة من ملوك الإفرنج إلى بيت المقدس وصلاتهم فيه صلاة الموت، ثم تفريقهم كثيراً من المال في العساكر، وعزمهم على قصد المسلمين في دمشق، وبعد وصولهم إلى دمشق حدث القتال بينهم وبين المسلمين، ثم انسحبوا بعد ذلك خائبين. وكان معهم قسيس طويل بلحية بيضاء، فركب هذا القسيس حماراً وجعل في حلقه صليباً وفي

---

(١) هو محمد بن أحمد بن محمد القرشي الأموي، شاعر ومؤرخ، وعالم بالأدب، ولد في أبيورد بخراسان، ومات في أصبهان سنة ٥٠٧ هـ. من كتبه: تاريخ أبيورد، والمختلف والمؤتلف، وطبقات العلماء في كل فن، وديوان شعر وغير ذلك.

انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي، (١٩/ ٢٨٣)، وطبقات الشافعية الكبرى، عبد الوهاب بن علي السبكي، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو وزميله، (٦/ ٨١ ـ ٨٤).

(٢) انظر: المنتظم، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق محمد عبد القادر عطا وزميله (١٧/ ٤٧ ـ ٤٨).

حلق حماره صليباً، وأخذ في يده صليباً، وقال للإفرنج: إني قد وعدني المسيح أن آخذ دمشق ولا يردني أحد. فاجتمعوا حوله فتقدم على حماره فغار المسلمون لذلك، وحملوا عليه وقتلوه هو وحماره وأحرقوا الصلبان(١).

فمن خلال عرض ابن الجوزي لهذه القصة، والتفصيل في دور القسيس ووصف حماره وصلبانه يبرز الدوافع الدينية للنصارى والتي تحركهم لقتال المسلمين، ويبدي ما يعتقده بنفسه من أنها حرب دينية ضد المسلمين.

وحينما تحدث ابن الأثير عن خروج الإفرنج إلى البلاد الإسلامية وأسهب في ذكر أحداثها؛ لا تختلف نظرته إلى قتال المسلمين للصليبيين عن نظرة العماد الأصفهاني وابن الجوزي. حيث رأى أن هذا القتال جهاد في سبيل الله، بل وأثنى كثيراً على القادة الذين كان لهم جهود في ذلك. ولا يغفل ابن الأثير الجوانب الدينية المحركة للنصارى ضد المسلمين؛ ليعبر عن رأيه بأن إشعالهم لهذه الحروب كان بدافع ديني بحت.

فمن ذلك: ما ذكره من تشاور زعمائهم حينما عزموا على حرب البلاد الإسلامية أي جهة يقصدون، وإشارة روجار صاحب صقلية(٢) عليهم بقصد بيت المقدس لتخليصه من أيدي المسلمين؛ ليحصل الفخر لهم بذلك(٣).

ثم قصة الحربة المقدسة التي اخترعها أحد رهبانهم والتي يعتقدون أنها حربة المسيح عليه السلام، وهي مدفونة في القسيان الذي في أنطاكية. فإن وجدوها فإنهم

---

(١) انظر: المصدر السابق (١٨/ ٦٣ ـ ٦٤).

(٢) المقصود به: روجار الأول، أول ملوك النورمان الذين حكموا صقلية، وكان مولده سنة ٤٣١ هـ ـ ١٠٤٠ م، وولايته الحكم سنة ٤٦٢ هـ ـ ١٠٧٠ م، أما وفاته ففي سنة ٤٩٤ هـ ـ ١١٠١م. فهذا الملك الصقلي هو المعاصر لبدايات الدعوة للحروب الصليبية وقيام الحملة الأولى منها. (انظر: المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا، أحمد توفيق المدني، ص (١٦٧).

(٣) انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٨/ ٤١٥ ـ ٤١٦).

سوف يظفرون، وإن لم يجدوها فإن الدائرة عليهم[(١)].

فذكر ابن الأثير قصة هذه الحربة، وموقف النصارى منها، فيه إبراز منه للعاطفة الدينية لديهم.

وفي أحداث سنة ٤٩٦ هـ، ذكر ابن الأثير وصول أعداد كبيرة من الإفرنج لزيارة بيت المقدس. حيث ندبهم بغدوين[(٢)] للقتال معه ضد المسلمين، فساروا تحت قيادته إلى عسقلان[(٣)].

فهؤلاء الذين جاؤوا لغرض ديني وهو زيارة بيت المقدس ـ والذي دفعهم للقتال مع بغدوين ضد المسلمين. إنه الحقد على الإسلام والعداوة للمسلمين.

وابن الأثير في ربطه بين مجيئهم للحج وانصرافهم لقتال المسلمين يريد أن يوضح مدى عمق الدافع الديني الذي ينطلقون منه لقتال المسلمين.

وذكر ابن الأثير في أحداث سنة ٥٣١ هـ أنه عندما حاصر زنكي قلعة بعرين[(٤)].

وهزم الإفرنج فيها، فزع القسس والرهبان، ودخلوا بلاد الروم وبلاد الإفرنج مستنفرين على المسلمين. وأن المسلمين ليس لهم همة إلا قصد بيت المقدس. فحينئذٍ اجتمعت النصرانية على الصعب والذلول وقصدوا بلاد الشام[(٥)].

---

(١) انظر: المصدر السابق (٨/ ٤١٩).

(٢) بغدوين، المقصود به هنا بلدوين الأول ملك مملكة بيت المقدس الصليبية وقد سبقت ترجمته.

(٣) انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٨/ ٤٩٠).

(٤) بعرين أو بارين أو بيرين: تقع حالياً بين مدينتي حماه وحمص في شرق سوريا. (انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (١/ ٥٣٧)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس، ص (١٢٩).

(٥) انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٩/ ٨٥ ـ ٨٦).

ففي هذه الحادثة أبرز ابن الأثير الدافع الديني لدى النصارى في حربهم المسلمين، وبين بما لا يدع مجالاً للشك أثره في حشد جموع النصارى وقدومهم إلى البلاد الإسلامية من خلال إبرازه لدور القسس والرهبان في ذلك، وإيضاحه استغلالهم لناحية دينية يؤمن بها النصارى ويضحون من أجلها - وهي القدس وخطر المسلمين عليها - وكيف استجاب النصارى لنداء القسس والرهبان واشتعلت عواطفهم ضد المسلمين بتأثير هذه الدعاية الدينية.

وفي أحداث سنة ٥٨٥ هـ ذكر أيضاً ابن الأثير اجتماع أعداد كبيرة من الإفرنج في صور[١]، وقد لبس قوادهم ورهبانهم وقساوستهم السواد حزناً على فتح المسلمين لبيت المقدس. وكان الرهبان والقساوسة وعلى رأسهم بطريرك القدس يسعون في حث الناس وإذكاء الحماسة الدينية في نفوسهم للأخذ بالثأر لبيت المقدس. حيث صوروا المسيح عليه السلام وجعلوه مع صورة عربي يضربه، وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح، وقالوا: هذا نبي المسلمين يضربه، وقد جرحه وقتله، حيث عظم ذلك على الإفرنج فحشدوا حتى النساء لقتال المسلمين[٢].

ثم علق ابن الأثير على ذلك بقوله: «... وكان عند الفرنج من الباعث الديني والنفساني ما هذا حده، فخرجوا على الصعب والذلول براً وبحراً من كل فج عميق...»[٣].

وهكذا حينما تحدث ابن الأثير عن الوقائع بين المسلمين والإفرنج لا يغفل الجوانب الدينية الباعثة للإفرنج على القتال المسلمين؛ ليوضح نظرته، بل والنظرة السائدة في وقته إلى دوافع النصارى من وراء قدومهم إلى البلاد الإسلامية وقتالهم المسلمين.

---

(١) صور مدينة تقع حالياً في الجنوب الغربي لدولة لبنان على ساحل البحر المتوسط.
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٣/ ٤٩٢)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس، ص (٤١٣).

(٢) انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٩/ ٧٠).

(٣) المصدر السابق (٩/ ٧٠).

وهذا ابن شداد عندما تحدث عن سيرة صلاح الدين الأيوبي وما قام به ضد الصليبيين، أبرز ذلك بشكل أعمال جهادية في سبيل الله ضد النصارى الغازين للبلاد الإسلامية.

ثم بين بشكل واضح في عرضه لأحداث هذه الفترة وفي مواضع كثيرة الدوافع الدينية التي جعلت النصارى يتوافدون على البلاد الإسلامية.

فمن ذلك ما فعله المركيس[1] صاحب صور النصراني الصليبي حين أراد أن يهيج جموع النصارى في أوربا ضد المسلمين، ويدفعهم إلى القدوم لقتال المسلمين، حيث قام بتصوير القدس في ورقة عظيمة، وصور فيها كنيسة القيامة التي يحجون إليها ويعظمون شأنها وفيها قبر المسيح بزعمهم، وصور عليه فرساً عليه مسلم وقد وطىء الفرس القبر وبال عليه. حيث نشر هذه الصورة وراء البحر، وفي الأسواق والمجامع. والقسس يحملونها مكشوفة رؤوسهم، وينادون بالويل والثبور، فيهيج لذلك خلائق لا يحصى عددهم، وكان من جملتهم ملك الألمان[2].

ففي هذه القصة وغيرها يظهر الدافع الديني واضحاً لهذه الحروب، ويتبين من خلال عرض ابن شداد لها إدراكه لهذه الدوافع الدينية النصرانية الحاقدة التي حركت جموع النصارى من أوربا باتجاه البلاد الإسلامية.

ويأتي ابن كثير بعد فترة من انقضاء هذه الحروب؛ ليوضح هذه الدوافع

---

(١) المركيس: هو صاحب صور كونراردي مونتفرات قدم من أوربا على رأس جيش صليبي نجدة للنصارى في عكا سنة ٥٨٢ هـ ـ ١١٨٧م ثم توجه إلى صور وأصبح منذ ذلك الوقت حاكماً لها، تحصن بها وبدأ يطلب الإمدادات من أوربا ضد المسلمين حيث جاءت لذلك الحملة الصليبية الثالثة. (انظر: الحركة الصليبية، د. سعيد عاشور (٢/ ٦٥٩، ٦٦٢، ٦٩٧). وتاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رنسيمان، ترجمة د. السيد الباز العريني (٢/ ٧٦٢) وما بعدها).

(٢) انظر: النوادر السلطانية، يوسف بن رافع بن شداد، تحقيق د. جمال الدين الشيال، ص (٢٠٨).

معبراً من خلال عرضه لكثير من أحداثها عن رأيه في سبب قدوم النصارى لحرب المسلمين، والذي لا يختلف عن رأي من سبقه من المؤرخين المسلمين في أن سبب ذلك كله ديني بحت يتمثل في عداء النصارى للإسلام، وحقدهم على المسلمين. وابن كثير يعكس بذلك الرأي السائد في وقته حول دوافع هذه الحروب.

فحينما تحدث ابن كثير عن معركة حطين وضح اتحاد النصارى ضد المسلمين رغم خلافهم، واستصحابهم صليب الصلبوت[١]. إبرازاً للطابع الديني لهذه الحرب.

كذلك أثناء حصار القدس تحدث ابن كثير عن المظاهر الدينية التي كانت لدى النصارى في المدينة ـ ويتمسكون بها في جميع حروبهم مع المسلمين ـ من رفع الصلبان على الأسوار وفوق قبة الصخرة وغير ذلك[٢].

ثم قدوم ملك الألمان إلى الشام «... ومن نيته خراب البلد وقتل أهلها المسلمين، والانتصار لبيت المقدس، وأن يأخذ البلاد إقليماً بعد إقليم، حتى مكة والمدينة...»[٣].

وفي موضع آخر أبرز ابن كثير الطابع الديني لحرب النصارى للمسلمين من خلال قصة جماعة من الرهبان والقساوسة الذين كانوا ببيت المقدس وبعد فتحه من قبل المسلمين خرجوا إلى جزر النصارى يطوفون بها يحرضون على المسلمين، وقد صوروا المسيح ﷺ وبجانبه عربي يضربه، وإذا سئلوا من هذا الذي يضرب المسيح قالوا: نبي العرب[٤].

---

(١) انظر: البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين (١٢/ ٣٤٢).

(٢) انظر: المصدر السابق (١٢/ ٣٤٤).

(٣) المصدر السابق (١٢/ ٣٥٨).

(٤) انظر: البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين (١٢/ ٣٥٧).

وكل ذلك إذكاءً للعاطفة الدينية لدى النصارى ضد المسلمين، واستنهاضاً لهم بما يؤجج هذه العاطفة ويوجهها لحرب المسلمين.

وحينما تحدث ابن المغربي[1] أيضاً عن الحروب الصليبية أبرز هذه العاطفة الدينية المحركة للنصارى ضد المسلمين، والأحداث المثيرة للمشاعر الدينية لديهم.

فعلى سبيل المثال: يلحظ ذلك حينما تحدث عن قصة قتل صلاح الدين لأرناط[2] الصليبي الذي سب النبيّ محمداً ﷺ، وهم بأخذ المدينة المنورة[3].

وحينما عدد مظاهر دين النصرانية في القدس وإزالة هذه المظاهر بعد فتحها من قبل صلاح الدين[4].

وكذلك إبرازه لفزع النصارى في أوربا وجزائر البحر، واجتماعهم على

---

(١) هو أحمد بن علي بن أحمد الحريري، عاش بالشام، وكان حياً حتى سنة ٩٢٦ هـ، له اهتمام بالتاريخ، منها كتابه الإعلام والتبيين، وكتاب منتخب الزمان في تاريخ الخلفاء والعلماء والأعيان.
انظر: مقدمة الدكتور مهدي رزق الله في تحقيقه لكتاب الإعلام والتبيين، والأعلام، خير الدين الزركلي (١/ ١٧٩ ـ ١٨٠).

(٢) أرناط الصليبي أو البرنس أرناط: اسمه رينودي شاتيون من فرسان الفرنج في الشام ومن أكثرهم نقضاً للعهود وقطعاً للطريق. أسره المسلمون في حلب ثم أطلق سراحه بفدية، تولى إمارة إنطاكية الصليبية ثم تولى إمارة الأردن خاصة حصني الكرك والشوبك. شارك في حطين ضد المسلمين وأسره المسلمون حيث قتله صلاح الدين بعد المعركة لاستخفافه بالنبيّ ﷺ وكثرة نقضه العهود مع المسلمين.
انظر: النوادر السلطانية، يوسف بن رافع بن شداد، تحقيق د. جمال الدين الشيال، ص (١٣٠)، والحركة الصليبية، د. سعيد عاشور (٢/ ٥٨٦، ٦٠٤ ـ ٦٠٥).

(٣) انظر: الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على بلاد المسلمين، أحمد بن علي ابن أحمد الحريري، تحقيق د. مهدي رزق الله أحمد، دار الدعوة، الإسكندرية، ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤م، ص (٣٤).

(٤) انظر: المرجع السابق، ص (٤٠ ـ ٤١).

حرب صلاح الدين بعد فتحه للقدس[1].

وهكذا فإن رأي المؤرخين المسلمين المعاصرين لهذه الحروب، أو القريبين من عهدها أنها حروب دينية، دافعها ديني بحت هدفه الحقد على الإسلام، وعداوة المسلمين واستخلاص بيت المقدس.

١٠ ـ ومما يؤكد أن الدافع الديني له الأثر الأكبر في خروج النصارى إلى البلاد الإسلامية وقتالهم المسلمين ـ بما يعرف بالحروب الصليبية ـ أن أوربا قبيل بدء هذه الحروب كانت تعيش ـ بما يعرف بعصر الإيمان ـ؛ نتيجة لحركة الإحياء الديني الكبرى التي ظهرت في القرنين الخامس والسادس الهجريين، العاشر والحادي عشر الميلاديين.

وقد ترتب على حركة الإحياء الديني هذه أن عادت البابوية إلى سطوتها القديمة، وأصبح لها الإشراف المركزي على الكنائس الغربية كافة، بل وأصبح لها نفوذ قوي على السلطة السياسية في الغرب الأوربي. وقد ترتب على ذلك إثارة الحماسة الدينية بوجه عام في الغرب الأوربي. حتى أصبح الدين هو المحرك لتفكير الناس وعواطفهم. ومن ثم ظهرت شعارات بأن لا يحارب المسيحي أخاه المسيحي، وأن لا بد من توجيه القتال ضد المسلمين، وضرورة إنقاذ الأرض المقدسة منهم. فازدادت لذلك أعداد الحجاج النصارى إلى فلسطين، بل أصبحت بشكل حملات كبيرة ومسلحة في بعض الأحيان[2]. حتى جاءت دعوة البابا أوربان الثاني الصريحة إلى هذه الحروب في مجمع كليرمونت في عام (٤٨٧ هـ ـ ١٠٩٥م)[3].

وفي تلك المرحلة انتشرت في أوربا الأفكار التي تدور حول نهاية العالم بعد الألف الميلادية الأولى وبداية الألف الميلادية الثانية ـ القرن الحادي عشر الميلادي ـ، والتطلع إلى الحياة الأخروية. فكانت هذه الأفكار مسيطرة على

(١) انظر: المرجع السابق، ص (٤٠ ـ ٤١).
(٢) انظر: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، د. فايد حماد محمد عاشور، ص (٧٨).
(٣) انظر: تاريخ الحروب الصليبية، وليم الصوري (١/ ٩٩).

عقول الناس؛ فكانوا تواقين لضمان الخلاص وضرورة الرحلة إلى بيت المقدس. وهذا ما أدى إلى ظهور عدد من الرحلات التي قام بها الحجاج من غرب أوربا إلى القدس(١).

حيث ساعدت هذه الأفكار على الاستجابة الكبيرة من قبل شعوب أوربا للدعوة إلى الحروب الصليبية بعد ذلك على أنها حملات حج كبرى هدفها التكفير عن السيئات، وتخليص الأراضي المقدسة من سيطرة الأعداء تقرباً إلى الله.

---

(١) انظر: ماهية الحروب الصليبية، د. قاسم عبده قاسم، ص (٢٠)، وتاريخ الحروب الصليبية، د. سعيد عمران، ص (٢٠)، وتاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رنسيمان، ترجمة د. السيد الباز العريني (١/ ١٨٢).

المطلب الثاني

الدافع السياسي

تمثل هذا الدافع في ناحيتين:

الناحية الأولى: أن ملوك وأمراء الغرب الأوربي ما شاركوا في هذه الحروب وما قادوا حملاتها إلا لكسب ود الكنيسة؛ لتحقيق مكاسب سياسية في داخل أوربا وفي خارجها، والحصول على تأييد البابوية لهم. والبعض منهم ما اشترك إلا بضغط من الكنيسة والتهديد بإصدار قرارات الحرمان إن لم يشاركوا فيها[١].

الناحية الثانية: ضعف الإمبراطورية البيزنطية خصوصاً بعد انتصار السلاجقة المسلمين على البيزنطيين في معركة ـ مانزكرت ـ عام (٤٦٣ هـ ـ ١٠٧١م) وتوسعهم في آسيا الصغرى حتى وصولهم إلى نيقية واقترابهم من العاصمة البيزنطية ـ القسطنطينية ـ[٢].

حيث تعد القسطنطينية مركز الدفاع الأول للنصرانية ضد المسلمين. والتي استعصى فتحها على المسلمين حتى تمّ ذلك على يد العثمانيين سنة ٨٥٧ هـ[٣].

---

(١) انظر: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، د. فايد حماد عاشور، ص (٨٨).

(٢) انظر: تاريخ الحروب الصليبية، د. محمود سعيد عمران، ص (١٨ ـ ١٩). والحروب الصليبية في المشرق والمغرب، محمد العروسي المطوي، ص (٣٠).

(٣) انظر: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، محمد العروسي المطوي، ص (٣٠).

ذلك الأمر الذي دعا الإمبراطور البيزنطي الأرذوذكسي أن يستنجد بأعلى سلطة دينية في أوربا، وهي البابوية الكاثوليكية؛ للمساعدة في وقف تقدم السلاجقة المسلمين على أوربا(١).

وحتى هذا الدافع الذي عده بعض المؤرخين سياسياً، فإنه في الحقيقة يدور في فلك الدافع الديني بل يؤيده.

ذلك إن مشاركة ملوك وأمراء الغرب بهذه الحروب بهدف كسب ود الكنيسة، والحصول على تأييد البابوية لهم، دليل على مدى تغلغل التيار الديني في المجتمع الأوربي بحيث لا يجرؤ أحد مهما بلغت قوته مخالفة ذلك التيار.

وأبرز مثال على ذلك الإمبراطور فردريك الثاني(٢) الذي أخذ الباباوات واحداً بعد آخر، يلحون عليه في الخروج على رأس حملة صليبية إلى الشرق ضد المسلمين. وماطل الإمبراطور في الاستجابة لطلبهم حتى أصدرت البابوية بحقه قرار الحرمان. وعند ذلك خرج على رأس فئة من النصارى قاصداً الشام إرضاء للكنيسة(٣).

وأرسل بمجرد وصوله رسالة إلى السلطان الكامل الأيوبي يشرح فيها له

---

(١) انظر: أثر العامل الديني في توجيه الحركة الصليبية، د. محمد صالح منصور، ص (١٦٠).

(٢) الإمبراطور فريدريك الثاني واسمه هوهنشكاوفن من أباطرة الدولة الرومانية المقدسة في ألمانيا وإيطاليا وصقلية، دخلت مملكة بيت المقدس الصليبية في حكمه من سنة ٦٢١ هـ ـ ١٢٢٥م. وكانت وفاته سنة ٦٤٧ هـ ـ ١٢٥٠ م. كان من المعجبين بالحضارة الإسلامية وعلى اتصال ودي بكثير من القادة والعلماء المسلمين حتى اتهم بإخفاء إسلامه. (انظر: ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة د. السيد الباز العريني (٣/ ٨٤١)، والعرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، د. جوزيف نسيم، ص (٩٩)، والحركة الصليبية، د. سعيد عاشور (٢/ ٧٨٥) وما بعدها).

(٣) انظر: الحركة الصليبية، د. سعيد عبد الفتاح عاشور (١/ ٤٠).

موقفه وأنه: «... ما له غرض في القدس ولا غيره، وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج...»[1].

على أنه من الثابت أن كثيراً من ملوك وأمراء الغرب الذين اشتركوا بهذه الحروب كان اشتراكه بدافع ديني بحت. وذلك نصرة للنصرانية، ومحاربة للإسلام.

فهذا لويس التاسع[2] ملك فرنسا الذي اشتهر بورعه وتقواه حتى أطلق عليه لقب ـ القديس لويس التقي ـ يشهد له أحد المؤرخين المرافقين له أنه أراد أن يعبر عن حماسته الدينية بتزعمه الحملة الصليبية السابعة على مصر، ثم الحملة الثامنة على تونس[3].

وهذ البرنس أرناط يهم بمهاجمة المدينة ومكة سنة ٥٧٨ هـ[4]. وكل ذلك إهانة للإسلام، وحقد على المسلمين. وإلا فليس للمدينة أو مكة في ذلك الوقت أي مشاركة في الحروب ضد النصارى.

وبعد استيلاء الصليبيين على أنطاكية يبعث مجموعة من قادتهم برسالة إلى

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك، أحمد بن علي المقريزي، الجزء الأول والثاني تحقيق محمد مصطفى زيادة، نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٧١م (١/ ٢٣٠).

(٢) لويس التاسع: أحد ملوك فرنسا حكم بين سنتي ٦١٠ هـ ـ ١٢١٤م ـ ٦٦٨ هـ ـ ١٢٧٠ م قاد حملتين صليبيتين على البلاد الإسلامية، دافعه لذلك حقده على الإسلام إذ كان يطلق عليه لشدة تدينه: القديس لويس وكان قيامه بحملاته الصليبية بزعمه شكراً لله على شفائه من مرض أصابه. أسره المسلمون في معركة المنصورة وفدى نفسه بفدية عظيمة وذلك في الحملة الصليبية السابعة. ثم عاد مرة أخرى في الحملة الصليبية الثامنة على تونس حيث مرض بالطاعون وتوفي بها.
انظر: الحروب الصليبية، آرنست باركر، ترجمة: د. السيد الباز العريني، ص (١٢١)، وأوربا العصور الوسطى، د. سعيد عبد الفتاح عاشور (١/ ٢٧٢) وما بعدها.

(٣) انظر: جهاد المسلمين في الحروب، د. فايد حماد محمد عاشور، ص (٨٩).

(٤) انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك، أحمد بن علي المقريزي، تحقيق محمد مصطفى زيادة (١/ ٧٨ ـ ٧٩).

البابا أوربان الثاني يبشرونه بذلك ويعلنون ولاءهم له، وخدمتهم للمسيح، وعزمهم على احتلال القدس، ورفع الاسم المسيحي فوق الجميع. ومن هذه الرسالة: «إلى السيد المبجل البابا أوربان؛ من بوهيموند(١)، وريمون(٢) كونت سان جيل، والدوق جودفري أمير اللورين، وكونت روبرت أمير نورماندي(٣)، وروبرت كونت الفلاندرز(٤)، والكونت إيستاس البولوني(٥)، تحياتنا ومثلما يبعث

(١) المقصود به: بوهيمند الأول وهو أمير أوترانتوا في إيطاليا كان من قواد الحملة الصليبية الأولى وكان جيشه من النورمان وهو أول أمير صليبي على أنطاكية بعد احتلالها حيث حكمها في الفترة من ٤٩١ هـ ـ ١٠٩٨م ـ ٥٠٤ هـ ـ ١١١١م.
انظر: تاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رانسيمان، ترجمة د. السيد الباز العريني، (٣/ ٨٤٢)، والعرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، ص (١٧٨، ٢٤٨). والحركة الصليبية، د. سعيد عاشور (١/ ٣٧٠)، وما بعدها. والقادة الصليبيون في أيدي الحكام المسلمين، د. محمود سعيد عمران، دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦م، ص (٩) وما بعدها.

(٢) المقصود به: ريموند كونت تولوز واشتهر باسم كونت سان جيل وفد إلى البلاد الإسلامية على رأس حملة من جنوب فرنسا وكان ممن حاصر إنطاكية. (انظر: الوجود الصليبي في الشرق العربي، فوشيه شارتر، ترجمة د. قاسم عبده قاسم، ص (١٠٠)، وتاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رنسيمان (١/ ٢٤٣)).

(٣) الكونت روبرت النورماندي نسبة إلى إقليم نورماندبا في شمال فرنسا حيث قاد الجيش الذي شارك من منطقة نورماندبا في الحملة الصليبية الأولى وكان ممن اشترك في حصار إنطاكية وهو ابن وليم الفاتح أول ملوك إنجلترا من النورمانديين. (انظر: الوجود الصليبي في الشرق العربي، فوشيه شارتر، ترجمة د. قاسم عبده قاسم، ص (١٠١)، وتاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رنسيمان، ترجمة د. السيد الباز العريني (١/ ٢٥٠) وما بعدها.

(٤) روبرت كونت الفلاندرز ـ أي أمير منطقة الفلاندرز وهي تقع حالياً في بلجيكا وفرنسا على بحر الشمال. ويدعى روبرت الثاني حيث قاد حملة من منطقة الفلاندرز اشتركت في الحملة الصليبية الأولى وكان ممن حاصر إنطاكية. (انظر: تاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رنسيمان، ترجمة د. السيد الباز العريني (١/ ٢٥٢ ـ ٣٥٣).

(٥) هو إيستاس الثالث كونت بولوني ـ أي أمير منطقة بولوني ـ في شمال إيطاليا. وهو الأخ الأكبر لجودفيري ده بويون وبلدوين الأول. شارك في الحملة الصليبية الأولى وكان ممن حاصر إنطاكية وبعد نهاية الحملة عاد لوطنه.

الأبناء إلى أبيهم الروحي نعلن أننا خدام مخلصون ورعايا حقيقيون للمسيح. . . وإننا حجاج المسيح الذاهبون إلى القدس قد انتقمنا للرب العظيم. . .»[(١)]. وفي نهاية الرسالة، يدعون البابا ليأتي معهم فيدخل القدس وتكون الدنيا كلها رهن إشارته. «. . . وهكذا تنهي معنا الحج الذي قمنا به إلى يسوع المسيح بعد أن أعلنت عن بدايته، سوف تفتح لنا بوابات أورشليم[(٢)] السماوية والأرضية، وتحرر ضريح سيدنا، وترفع الاسم المسيحي فوق الجميع. لأنك إذا جئت إلينا، وأنهيت معنا الحج الذي بدأناه بك ستكون الدنيا كلها رهن إشارتك. . .»[(٣)].

كذلك استنجاد البيزنطيين الأرذوذكس بالسلطة البابوية الكاثوليكية في أوربا للمساعدة في وقف تقدم السلاجقة المسلمين، وإنقاذ القسطنطينية من أقوى الأدلة على الروح الدينية الصليبية الباعثة لهذه الحروب ضد المسلمين. فعلى الرغم مما بين الكاثوليك والأرذوذكس من اختلاف ديني كبير، وعلى الرغم من عدم خضوع الكنيسة الأرذوذكسية الشرقية للسلطة البابوية الكاثوليكية، على الرغم من ذلك فإنهم اتحدوا ضد الخطر الإسلامي عليهم. وجمعهم عداء الإسلام على حربه.

وقد بين أحد الكتاب الأروبيين ذلك بقوله: «. . . كان هناك شعور طبيعي من كلا الجانبين بالتعاون بين الغرب والشرق المسيحي في مواجهة التهديد الإسلامي. . .»[(٤)].

ويرى فوشيه الشارتري أحد المعاصرين بل والحاضرين لمجمع كليرمونت أن استجابة البابا أوربان الثاني لنجدة البيزنطيين بعد انتصار السلاجقة المسلمين

انظر: الوجود الصليبي في الشرق العربي، فوشيه شارتر، ترجمة د. قاسم عبده قاسم، ص (١٣٨).

(١) الوجود الصليبي في الشرق العربي، فوشيه الشارتري، ترجمة د. قاسم عبده قاسم، ص (١٣٨).

(٢) أورشليم أي مدينة السلام ـ باللغة العبرية ـ البيت المقدس أو القدس بالعربية. وقد سبق التعريف بذلك.

(٣) المصدر السابق، ص (١٤١ ـ ١٤٢).

(٤) الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، كلود كاهن، ترجمة أحمد الشيخ، ص (٨٤).

على النصارى في موقعة ـ ملاذكرت ـ سنة (٤٦٣ هـ ـ ١٠٧١م)، كانت بدافع ديني بحت، فبسبب ذلك «. . . اهتز أوربان كثيراً بفضل تقواه وتدينه العميق، وزيادة حبه للرب. فعبر الجبال، وهبط في بلاد الغال، وأمر بعقد مجمع ديني في أوفريني بكليرمونت»[١]. حيث كانت في هذا المجمع الدعوة إلى الحروب الصليبية.

وهذا وليم الصوري أحد رجال الدين النصارى المعاصرين لهذه الحملات، والمشاركين في بعض أحداثها، حينما تحدث عن موقعة ـ ملاذكرت ـ وهزيمة البيزنطيين النصارى فيها على يد السلاجقة المسلمين ومن ثم اجتياحهم لآسيا الصغرى، ثم استيلاؤهم على الشام ودخول بيت المقدس، حينما تحدث عن ذلك عرضة على أنه من المصائب العظيمة على النصارى[٢]. وهو الدافع المباشر لبطرس الناسك أحد كبار الداعين للحروب الصليبية في أوربا[٣]. وأن هذه الحروب هي إرادة الله لإنقاذ شعبه من بلواه. حيث قال: «. . . إن اهتمامنا في هذا الكتاب منصب على بيان طريقة وتنظيم هذه الخطة الإلهية التي أرادها الله؛ لإنقاذ شعبه من بلواه تمجيداً للمخلصين في المسيح. . .»[٤]. فجعل وليم ذلك السبب الذي عده بعض المؤرخين سياسياً جعله دينياً بحتاً.

---

(١) الوجود الصليبي في الشرق العربي، فوشيه الشارتري، ترجمة د. قاسم عبده قاسم، ص (٨٨).

(٢) انظر: تاريخ الحروب الصليبية، وليم الصوري، ترجمة: د. حسن حبشي (١/ ٨٤ ـ ٨٦).

(٣) انظر: المصدر السابق (١/ ٩٠) وما بعدها.

(٤) المصدر السابق (١/ ٩٠).

المطلب الثالث

الدافع الاقتصادي والاجتماعي

أولاً: الدافع الاقتصادي:

تمثل الدافع الاقتصادي للحروب الصليبية في ناحيتين:

الناحية الأولى: ما كانت تعيشه أوربا قبيل الحروب الصليبية، وبخاصة القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي. من سوء في الأحوال الاقتصادية وانتشارٍ للمجاعات والأوبئة. حتى لجأ البعض إلى أكل الأعشاب والحشائش. وكان مرد ذلك إلى استمرار الحروب والمنازعات بين الأمراء الإقطاعيين في أوربا. فجاءت الحروب الصليبية لتفتح أمام أولئك الجوعى في أوربا باباً جديداً للهجرة والخلاص من أوضاعهم السيئة[1].

الناحية الثانية: إن المدن التجارية الأوربية خصوصاً المدن الإيطالية أبدت حماسة منقطعة النظير في تشجيع هذه الحروب ودعمها، ونقل المحاربين من أوربا إلى البلاد الإسلامية في الشام ومصر، وما كان ذلك بدافع ديني، وإنما للسيطرة على طرق التجارة، واحتكارها، والحصول على امتيازات تجارية أخرى

(١) انظر: الحركة الصليبية، د. سعيد عبد الفتاح عاشور (١/ ٣٤ ـ ٣٥). والحروب الصليبية، آرنست باركر، ترجمة د. السيد الباز العريني، ص (٢٢). والحروب الصليبية في المشرق والمغرب، محمد العروسي المطوي، ص (٣٣).

في الشرق الإسلامي، في مقابل انحسار نفوذ المسلمين في هذه المناطق؟[1].

ولا شك أن المبالغة في جعل العوامل الاقتصادية هي الدافع للأوربيين في القيام بهذه الحروب أمر مخالف للحقيقة.

فقد تعرضت أوربا لأزمات اقتصادية شديدة، وحروب داخلية طاحنة أكثر مما تعرضت له قبيل فترة الحروب الصليبية، ومع ذلك لم تبعث هذه الأوضاع الاقتصادية السيئة شعوب أوربا للقيام بحروب ضد المسلمين. ومرد ذلك لأن الكنيسة البابوية لم تبعث فيهم الروح الدينية الداعية لهذه الحرب[2].

وكذلك المدن التجارية ـ خصوصاً الإيطالية ـ لم تكن المبادرة في هذه الحروب، وإن شجعت عليها وشاركت بها. وهذا لا يعني إنها بتشجيعها ودعمها للحروب الصليبية ضد المسلمين تهدف إلى مطمع تجاري فحسب، بل مع ذلك دافع ديني وحماس نصراني. فالمدن التجارية الإيطالية النصرانية تدرك أن انتصار الصليبيين على المسلمين يصب في مصلحتها. لأن هؤلاء إخوانهم في العقيدة، والآخرين أعداؤهم في الديانة، وإن تحقق لهم مع هذا الانتصار مكاسب مادية كبيرة فهذه المكاسب في النهاية غنائم من المسلمين.

ولو كان هدف المدن الإيطالية تجارياً فقط فلماذا لم تساعد هذه المدن المسلمين ضد النصارى في فترات ظهور المسلمين وقوتهم وتقدمهم. لماذا لم تقم أساطيل هذه المدن بنقل المسلمين إلى جنوب أوربا والحصول في مقابل ذلك على المكاسب المادية الكبيرة.

إن العوامل الاقتصادية ليست الدافع الأول لقيام الأوربيين بحربهم الصليبية ضد المسلمين، وإن كانت هذه العوامل مساعدة في سرعة الاستجابة والمشاركة في هذه الحروب.

---

(١) انظر: الحركة الصليبية، د. سعيد عبد الفتاح عاشور (١/ ٣٥ ـ ٣٦)، وأثر العامل الديني في توجيه الحركة الصليبية، د. محمد صالح منصور، ص (٢١٦)، وتاريخ الحروب الصليبية، د. محمود سعيد عمران، ص (٢٠).

(٢) انظر: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، د. فايد حماد محمد عاشور، ص (٨٢).

ثانياً: الدافع الاجتماعي:

تمثل هذا الدافع في طبيعة المجتمع الأوربي قبيل فترة الحروب الصليبية.

حيث تألف هذا المجتمع من ثلاث طبقات: طبقة رجال الدين، وطبقة المحاربين من النبلاء والفرسان، وطبقة الفلاحين من الأقنان ورقيق الأرض[1].

فكانت طبقة الفلاحين هي الغالبية المغلوبة في المجتمع، تعيش حياة قاسية في ظل النظام الإقطاعي، حيث لم يجد هؤلاء ما يشجعهم على البقاء في بلادهم، فكانت الحروب الصليبية مخلصة لهم من أوضاعهم السيئة، وحياة الفقر والفاقة التي يعيشونها، إضافةً إلى ما يعتقدونه من أجر أخروي في رحلتهم هذه[2].

كما أن طبقة المحاربين من النبلاء والفرسان لم تعد الأراضي في أوربا تكفي أعدادهم المتزايدة؛ مما وجه الأنظار إلى أراضي أخرى لهؤلاء الإقطاعيين الجدد، فكانت الحروب الصليبية فرصة لهؤلاء لتأسيس إقطاعيات لهم في الشرق لا ينافسون عليها[3].

يضاف إلى ذلك أن هؤلاء الفرسان ارتبطت حياتهم بالحرب والفروسية وإظهار الشجاعة في ظل النظام الإقطاعي والتنافس على الأراضي. فكانت حياة السلم التي دعت الكنيسة إليها في أوربا قبيل الحروب الصليبية تعني البطالة لهم. لذلك جاءت هذه الحروب؛ لتفتح لهم باباً واسعاً لإظهار شجاعتهم وفروسيتهم، مع ما يعتقدونه من أجر وثواب وغفران في ذلك[4].

ولا شك أن المبالغة في إعطاء الدافع الاجتماعي قيمة كبيرة في دفع النصارى لهذه الحروب الطاحنة فيه تعسف كبير.

---

(١) انظر: الحركة الصليبية، د. سعيد عبد الفتاح عاشور (١/ ٣٧).

(٢) انظر: المرجع السابق (١/ ٣٨ ـ ٣٩).

(٣) انظر: تاريخ الحروب الصليبية، د. محمود سعيد عمران، ص (٢٠).

(٤) انظر: الحركة الصليبية، د. سعيد عبد الفتاح عاشور (١/ ٤٢).

فغالبية الصليبيين القادمين من أوربا كانوا يعلمون بما سيواجهونه في البلاد الإسلامية من حروب، مع ما يمكن أن يتعرضوا له في الطريق من مخاطر كبيرة. فأيها أخف ضرراً: الموت من جراء الحرب أو في مهالك الطريق.

أو الحياة حياة فقيرةً. لا شك أن الحياة مع الفقر عند الغالبية أفضل من الموت في حرب أو في مهلكةٍ؛ إلا أن يكون الموت في سبيل غاية نبيلةٍ سامية. هذه الغاية السامية في اعتقاد النصارى هي تخليص البيت المقدس، والانتصار لعيسى، والفوز بالنعيم الأبدي، وهذا في الحقيقة ما دفعهم للقدوم إلى البلاد الإسلامية وإن ساعدت بعض الأوضاع الاجتماعية السيئة التي يعيشونها على سرعة استجابتهم لنداء الكنيسة إلى هذه الحروب.

كذلك طبقة المحاربين من الفرسان والنبلاء إذا كان كل الدافع لهم هو إظهار فروسيتهم ومهاراتهم الحربية، وألا يعيشوا عاطلين في حياة السلم. فلماذا يقطع هؤلاء الفرسان والمحاربون هذه المسافات البعيدة، ويجتازون البحار من أجل هذه الغاية؛ بينما باستطاعتهم تحقيقها باتجاههم إلى شرق أوربا والتوغل في آسيا لممارسة هذه الأعمال.

إذن فاتجاه هؤلاء الفرسان والنبلاء إلى الشرق الإسلامي وبالتحديد إلى بيت المقدس، وقتالهم للمسلمين كان لغاية في نفوسهم أسمى - في نظرهم - من مجرد إظهار الفروسية والشجاعة، بل جَعْلُ هذه الفروسية وهذه المهارات الحربية في خدمة غايتهم الأخرى وهي الغاية الدينية لما يعتقدونه من الأجر في قتال المسلمين وتخليص القدس منهم والانتصار للمسيح.

لذلك كله يمكن القول إن أوربا النصرانية سخرت كافة الدوافع السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، لخدمة الهدف الديني الأكبر وهو الانتصار للنصرانية، والعداء للإسلام. ولا يمنع ذلك أن يجد بعض المنتفعين في أوربا ضالته في المشاركة بهذه الحروب، وتكون أهواؤه ورغباته حافزاً له في سرعة الاستجابة لنداء البابوية في التوجه للشرق الإسلامي وحرب المسلمين.

الفصل الأول

موضوعات دعوة المسلمين للنصارى
في
عصر الحروب الصليبية

تمهيـــد

موضوعات دعوة المسلمين للنصارى في هذه الفترة لا تختلف كثيراً عن موضوعات دعوتهم في أي عصر من العصور. إذ هي بمجملها إظهار لمحاسن الدين الإسلامي وبيان لحقيقته، وإبطال لعقائد النصارى، وردود على شبههم.

ومن خلال تحليل موضوعات دعوة المسلمين للنصارى في هذه الفترة يمكن القول إن هذه الموضوعات اتخذت شكلاً معيناً يظهر فيه نوع من التنظيم والترتيب الذي يراعي الأولويات ويتناسب مع طبيعة المدعوين.

لذلك يمكن تبويب هذه الموضوعات على النحو التالي:

موضوعات تتعلق بالدعوة إلى العقيدة الإسلامية.

موضوعات تتعلق بمناقشة عقائد النصارى وإبطالها.

موضوعات تتعلق بالردود على شبه النصارى التي يثيرونها حول الدين الإسلامي.

والمباحث التالية تلقي الضوء على أبرز موضوعات دعوة المسلمين للنصارى في هذه الفترة وفق هذا الترتيب.

المبحث الأول

الدعوة إلى العقيدة الإسلامية

اتجهت جهود المسلمين في دعوتهم للنصارى في هذه الفترة إلى معالجة الموضوعات الأساسية في الدين الإسلامي، وذلك بالدعوة إلى أصول الدين وأسسه التي لا يتم إسلامهم إلا بها كالتوحيد، والتصديق بالقرآن، وقبول الإسلام بعمومه، والإيمان بنبوّة محمد ﷺ، والإقرار بنبوّة عيسى ونفي ألوهيته.

وفيما يلي بيان لأبرز القضايا التي دعا المسلمون النصارى إليها في هذه الفترة.

المطلـــب الأول

الدعـــوة إلـــى التوحيـــد

مفهوم التوحيد عند أهل السنّة هو: «إفراد الله سبحانه وتعالى بما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات»[1]. وهو أساس الرسالات السماوية، وما بعث الله الأنبياء وأرسل الرسل إلا لتحقيقه، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾[2]. وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[3].

وبدون تحقيق التوحيد لا ينفع الإنسان عمله، قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾[4]. وكل ذنب تحت مشيئة الله إن شاء عذب صاحبه وإن شاء غفر له إلا الشرك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[5].

واهتم الرسول ﷺ بتحقيق التوحيد والدعوة إليه وحماية جنابه، بل من أجله شُرع الجهاد، وقامت الحروب بين الموحدين والمشركين، قال ﷺ: «**أمرت أن**

---

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد، محمد بن صالح العثيمين، جمع وترتيب د. سليمان أبا الخيل وزميله، دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ (١/ ٥).

(٢) سورة الأنبياء، الآية: (٢٥).

(٣) سورة النحل، الآية: (٣٦).

(٤) سورة الفرقان، الآية: (٢٣).

(٥) سورة النساء، الآية: (١١٦).

أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله...»[1].

وكان لذلك أمر التوحيد أهم أمور العقيدة الإسلامية التي دعا المسلمون النصارى إليها في فترة الحروب الصليبية وذلك من خلال الدعوة المباشرة بالحث على توحيد الله سبحانه وتعالى ونفي الشريك عنه، أو من خلال إبطال عقيدة التثليث، أو من خلال نفي الألوهية عن المسيح عليه السلام[2].

فمن الأمثلة الكثيرة على قيام العلماء المسلمين بالدعوة إلى التوحيد بشكل مباشر إبرازهم توحيد الله سبحانه وتعالى وتنزيهه عن الشريك، وإنكار عقيدة التثليث وذلك عند مخاطبة النصارى أو الرد على شبهاتهم[3].

ومن ذلك مثلاً ما ورد في مقدمة رسالة الخليفة الموحدي المرتضي لأمر الله إلى البابا أنوصان الرابع[4] في روما حيث قال في مقدمتها: «... أما بعد فإنا نحمد الله الذي لا إله إلا هو، حمد من علم أنه الرب الواحد، الذي دلت على وحدانيته البراهين القاطعة والشواهد، ونزهته العقول الراجحة على أن يكون له ولد أو يدّعي أنه الوالد...»[5].

وحينما رد الخزرجي على رسالة قسيس طليطلة التي دعاه فيها إلى اعتناق

---

(١) أخرجه البخاري، الصحيح، كتاب الإيمان، باب: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، حديث رقم (٢٥)، ص (٢٨).

(٢) انظر: المطلب الأول من المبحث الثاني من هذا الفصل.

(٣) انظر: الرد على دعوى النصارى أن المسلمين وثنيون، وذلك في المبحث الثالث من هذا الفصل.

(٤) وهو أنوسنت الرابع الذي ولد في جنوة بإيطاليا سنة ٥٩٦ هـ ـ ١٢٠٠ م، وتولى البابوية سنة ٦٤٠ هـ ـ ١٢٤٣م، وكانت وفاته سنة ٦٥١ هـ ـ ١٢٥٤م.
انظر: أوربا العصور الوسطى، د. سعيد عاشور (١/ ٦٦١)، والموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض (٣/ ٢٩٤).

(٥) دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبدالله عنان، عصر الموحدين، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١١ هـ ـ ١٩٩٠ م، ص (٥٣٨).

النصرانية بدأها بقوله: «بسم الله الرحمن الرحيم إله فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، سلام على المهتدين والحمد لله رب العالمين...»[(١)].

وفي مقدمة القرافي في كتابه الأجوبة الفاخرة رداً على رسالة لبعض النصارى نزه الله سبحانه وتعالى عن الشريك والوالد والولد حيث قال: «الحمد لله العظيم من غير عُددٍ... المنزه عن الصاحبة والولد، المتعالي في ذاته وصفاته عما يقوله من عنّد وجحد، الواحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له...»[(٢)].

ومثل ذلك صَدْر خطبة الجعفري في كتابه تخجيل من حرب التوراة والإنجيل وما تضمنته من تنزيه الله سبحانه وتعالى عن الوالد والولد والشريك[(٣)].

وابن الزكي في أول خطبة له في بيت المقدس بعد تخليصه من النصارى الصليبيين كان مما تضمنته هذه الخطبة تمجيد الله سبحانه وتعالى وتوحيده جلّ وعلا وتنزيهه عما يقول النصارى[(٤)].

بل إن العلماء جعلوا دعوة النصارى إلى التوحيد هي أولى ما تصرف فيه الهمم.

حيث بين ذلك القرافي وأكد على أهمية إقامة الأدلة على وحدانية الله

---

(١) مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، تحقيق د. محمد شامة تحت عنوان بين الإسلام والمسيحية، مكتبة وهبة، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥م، ص (١٢٠).

(٢) الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦م، ص (٢٣).

(٣) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨م (١/ ٨٧).

(٤) انظر: الروضتين في أخبار الدولتين، عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي «أبو شامة»، (١/ ١١٠ ـ ١١٢).

سبحانه وتعالى. ولهذه الغاية ألف كتاباً خاصاً بذلك سماه: «أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية[1]».

وكثيراً ما تتكرر الدعوة إلى التوحيد في ثنايا مناقشات العلماء المسلمين للنصارى وردودهم عليهم.

فمن ذلك مثلاً دعوة القرطبي لصاحب كتاب تثليث الوحدانية إلى نبذ الشرك وتوحيد الباري سبحانه وتعالى، وبيان براءة عيسى عليه السلام من تثليث النصارى وأنه ما بلغهم إلا أن الله واحد فرد صمد لا شريك له سبحانه وتعالى[2].

وفي هذا السياق وبعد أن عرض الجعفري شيئاً من الأدلة على توحيد الله سبحانه وتعالى من التوراة والإنجيل وجه كلامه إلى النصارى قائلاً: «... فمن أشرك مع الله غيره فقد كفر بالتوراة والإنجيل...»[3].

وكانت دعوة النصارى إلى التوحيد بالإضافة إلى الطريقة المباشرة من خلال دعوتهم الصريحة إلى توحيد الله سبحانه وتعالى ونفي الشريك عنه كانت أيضاً من خلال إبطال عقائدهم الشركية المنافية للتوحيد وذلك بإبطال عقيدة التثليث لديهم وهدمها وإبراز تناقضها، وكذلك من خلال نفي الألوهية عن المسيح عليه السلام وإقامة الأدلة المختلفة على ذلك[4].

---

(١) انظر: أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية، أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق عبد الرحمن دمشقية، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨م، ص (٢٠ ـ ٢١).

(٢) انظر: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، مكتبة الحرمين، الرياض، ص (١٢٣).

(٣) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/ ٥٨٢).

(٤) سيأتي تفصيل هذا في المبحث الثاني من هذا الفصل.

المطلب الثاني

الدعوة إلى اعتناق الإسلام بشكل مجمل

إن الدين الإسلامي هو الدين الحق الذي ارتضاه الله سبحانه وتعالى لعباده، وختم به الأديان كما قال جلّ وعلا: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[1]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[2].

فكانت الدعوة لهذا الدين، والتمكين له، ونصرته مهمة الداعي الأول محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾[3]. وقام بهذه المهمة الجليلة من بعده صحابته الكرام رضوان الله عليهم، ثم سلفهم الصالح، ولا تزال هذه المهمة العظيمة هي رسالة الأمة الإسلامية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وفي فترة الحروب الصليبية ومع تسلط أعداء الأمة من النصارى، وظهورهم في بعض الفترات على المسلمين، ومع ما أصاب الأمة من ضعف وتفرق في بعض الأحيان، إلا أن ذلك لم يمنع الغيورين على الإسلام قادة وعلماء من الدعوة إليه، والتضحية من أجله.

وكان من موضوعات دعوة المسلمين للنصارى في هذه الفترة دعوتهم إلى

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (٨٥).

(٢) سورة آل عمران، الآية: (١٩).

(٣) سورة يوسف، الآية: (١٠٨).

اعتناق الإسلام بشكل مجمل. وذلك من خلال الدعوة المباشرة إلى اعتناقه، أو من خلال ذكر الأدلة على صحته وبيان محاسنه، أو من خلال رد الشبه عن تشريعاته.

أ ـ الدعوة المباشرة إلى اعتناق الإسلام:

لا شك أن كل جهد قام به المسلمون في هذه الفترة في خدمة الإسلام يعد دعوة إلى الإسلام، لكن المقصود هنا بالدعوة المباشرة إلى اعتناق الإسلام ـ هو مخاطبة النصارى مباشرةً بقبول الإسلام والانقياد له.

ومن الأمثلة على ذلك: دعوة صلاح الدين لأرناط الصليبي الذي نقض الصلح مع المسلمين، فغدر بقافلة مسلمة قادمة من مصر إلى الشام، فلما ناشده أصحابها الله وذكروه بالصلح الذي بينه وبين المسلمين رد بكلام يتضمن الاستخفاف برسول الله ﷺ. لذلك لما علم صلاح الدين أقسم إن ظفر به ليقتلنه لاستخفافه برسول الله ﷺ، فلما جيء بهذا الصليبي مع الأسرى بعد معركة حطين في منتصف شوال سنة ٥٨٣ هـ ذكره صلاح الدين بما صدر منه ثم عرض عليه الإسلام فأبى فقتله(١).

والشاهد من ذلك هو عرض الإسلام على هذا القائد الصليبي ودعوته إلى اعتناقه.

ومثل ذلك عرض الإسلام على صاحب صيدا وقد شهد ذلك ابن شداد حيث قال: «. . . ولقد رأيته وقد دخل عليه صاحب صيدا بالناصرة، فاحترمه وأكرمه، وأكل معه الطعام، ومع ذلك عرض عليه الإسلام فذكر له طرفاً من محاسنه، وحثه عليه»(٢).

ومن نماذج عرض الإسلام على النصارى في هذه الفترة ودعوتهم إلى

(١) انظر: النوادر السلطانية، يوسف بن رافع بن شداد، تحقيق د. جمال الدين الشيال، ص (١٣٠ ـ ١٣١).

(٢) المصدر السابق، ص (٦٦).

اعتناقه استغلال صلاح الدين للقاءاته بوفود الفرنج لإيضاح محاسن الإسلام ثم دعوتهم إليه[1].

وقد بين الجعفري أن من أسباب تأليفه كتاب ـ تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ـ هو دعوة النصارى إلى الإسلام، حيث قال: «فعسى الله أن يقدر هداية بعضهم، ونحن مأمورون بدعائهم إلى سبيل ربنا بالحكمة والموعظة الحسنة. . .»[2].

وتكرر في ثنايا مناقشة القرطبي لكتاب أحد القساوسة النصارى دعوته لهذا القسيس إلى اعتناق الإسلام، ومن ذلك قوله: «. . . فالله الله، أدرك بقية نفسك قبل حلول رمسك، واستعمل عقلك، ولا تعول على تقليد فاسد نقلك، واتبع الدين القويم، دين الأب إبراهيم، ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾[3]»[4].

وفي موضع آخر من مناقشته لهذا القسيس في كتابه: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام بين له أنه لولا رجاء استنقاذه من الضلال إلى الهدى لما ناقشه، ولما أعطى الحكمة إلى غير أهلها حيث يقول: «. . . فلعل مقلب القلوب يستنقذك من عبادة إله مصلوب، ويبدلك بها إخلاص العبادة لعلام الغيوب. ولولا رجاء ذلك لما كان ينبغي لي أن أعطي الحكمة غير أهلها. . .»[5].

---

(١) انظر: الدعوة إلى الإسلام ـ توماس أرنولد، ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن وآخرين، ص (١١٠).

(٢) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (١/ ١٠٣).

(٣) سورة آل عمران، الآية: (٦٧).

(٤) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (١٠١).

(٥) المصدر السابق، ص (١٠٦)، وانظر: أمثال ذلك في ص (١٢٣)، (٢٣٦).

وبعد مناقشة المتطبب للنصارى في كتابه ـ النصيحة الإيمانية في فضيحة الملة النصرانية ـ، وجه كلامه إليهم جميعاً طالباً من ذوي العلم فيهم التفكر والتدبر في أمر النبيّين، والبحث في أصول الدين حتى يقفوا على اليقين. «... ولو كان فيكم رجل عليم، له عقل سليم، لتفكر في أمر النبييّن، وبحث عن أصول الدين، حتى يقف على اليقين؛ لعرف أن الدين عند الله الإسلام، وأن شريعة محمد سيد الأنام هي الشريعة الواضحة، وميزان أمته هي الميزان الراجحة...»[1].

ب ـ الدعوة إلى الإسلام من خلال بيان محاسنه:

إن الدين الإسلامي بتشريعاته المختلفة موافق للفطرة البشرية، فهو من عند الله سبحانه وتعالى، وهو خالق الخلق ويعلم ما يصلح لهم، وإبراز محاسن هذا الدين ـ وكله محاسن ـ وبيان سماحته، له أكبر الأثر في قبوله، خاصةً عند من لا يعرف عنه شيئاً.

وقد اهتم العلماء المسلمون بذلك في هذه الفترة رغبة منهم أن يكون ذلك سبباً للهداية واعتناق الإسلام.

ومن هؤلاء: القرطبي الذي عقد فصلاً في كتابه ـ الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ـ مبيناً فيه محاسن الإسلام ومبرزاً الهدف من ذلك بقوله: «الغرض من هذا الفن أن نبين فيه عقيدة الإسلام، وجملاً من أصوله وأحكامه، ومواضع من فروع دينه أنكرتها النصارى عليه، وإنما فعلنا ذلك لغرضين...»[2]، ثم وضح أن أحد الغرضين هو: «... إنه لا يبعد أن يقف على هذا الكتاب نصراني أو يهودي لم يسمع قط من ديننا تفصيلاً ولا تصريحاً، بل إنما سمع له سباً وتقبيحاً. فأردت أن أسرده على الجملة؛ ليتبين حسنه لمن

---

(١) النصيحة الإيمانية، نصر بن يحيى المتطبب، تحقيق د. محمد الشرقاوي، ص (١٤٧).

(٢) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٤٣٨).

كان ذكي العقل، صحيح الفطرة، فلعل ذلك يكون سبب هداه، وجلاء عماه. . .»[١].

بعد ذلك عرض القرطبي شيئاً من محاسن الإسلام من خلال ثلاثة جوانب هي:

١ - مراعاته لمصالح العباد في الآخرة: حيث جاءت تشريعاته بإيضاح كل ما يتعلق بها مما يحتاج إليه العباد غاية الوضوح، وتعبدنا الله سبحانه وتعالى بعبادات محضة كالصلاة، والحج وغير ذلك، تعظيماً له سبحانه، وخضوعاً له بالظاهر والباطن[٢].

٢ - مراعاته لمصالح العباد الدنيوية: فجاءت تشريعاته في هذا الجانب حماية للدين، والنفس، والمال، والنسب، والعرض، والعقل. ولأجل ذلك شرع العقوبات، وحرم كل ما يؤثر على هذه الضرورات كالغيبة، والقذف، وقول الزور، والغش، والسرقة، وأكل أموال الناس بالباطل. وحرم الخمر لأنها تذهب العقل الذي هو مناط التكليف، وغير ذلك من أنواع المفاسد[٣].

٣ - إتمامه لمكارم الأخلاق: يقول القرطبي: «. . . وأما مكارم الأخلاق التي تضمنها شرعنا فلا تخفى على متأمل، وذلك أن شرعنا أمرنا بها ظاهراً وباطناً، ونهانا عن رذائلها وسفاسفها»[٤].

ثم وضح القرطبي أمثلة على مكارم الأخلاق في الإسلام، هذه المكارم التي تسعى للتحلي بها كل نفس طاهرة، محبة للخير، مبغضة للشر.

فمن المكارم الظاهرة عدد القرطبي النظافة، والطهارة، والتطيب، وتحسين

---

(١) المصدر السابق، ص (٤٣٩).

(٢) انظر: المصدر السابق، ص (٤٤٢).

(٣) انظر: المصدر السابق، ص (٤٤١).

(٤) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٤٤٤).

الهيئة، وقص الشارب، وإعفاء اللحية، وغير ذلك. وبين أن من النظافة الباطنية التخلي عن مذموم الأخلاق كالغضب، والحسد، والبخل، ومهانة النفس، والكبر، والرياء. والتحلي بالأخلاق المحمودة كالتوبة من المعاصي، وحسن الصحبة، والنصيحة، والعدل، والتواضع، والإخلاص، والصبر، والصدق، والتوكل، ومحبة الله ورسله، إلى غير ذلك[١].

وأخيراً أكد القرطبي على أن المتدبر لهذه المحاسن سيعلم من غير شك أنها حق من الله، وأن الذي جاء بها لا يجوز عليه الغلط والكذب[٢]. وعلى ذلك فلا يسعه إلا قبولها والإيمان بالدين الذي دعا إليها وهو الإسلام.

جـ - الدعوة إلى الإسلام من خلال رد الشبه عن تشريعاته[٣]:

قد يكون سبب عدم قبول الحق شبهة في ذهن المدعو، وبإزالة هذه الشبهة تزول العقبة ويتحقق القبول. وهكذا الحال مع النصارى، فلربما كانت كثير من الشبه التي يثيرها بعض مضليهم مانعة من إسلام الكثيرين منهم في هذه الفترة.

ولذلك تصدى العلماء في فترة الحروب الصليبية للذود عن الإسلام بدحض الشبه التي يروج لها أئمة الضلال من النصارى.

ومن الأمثلة على ذلك رسالة أحد القساوسة إلى أبي عبيدة الخزرجي التي تتضمن الكثير من الشبه والمفتريات حول تشريعات الإسلام، ورد أبي عبيدة على هذا القسيس داحضاً شبهه ومفترياته[٤].

---

(١) المصدر السابق، ص (٤٤٥).

(٢) المصدر السابق، ص (٤٤٦).

(٣) سيأتي الحديث مفصلاً عن الشبه التي أثارها النصارى في فترة الحروب الصليبية ورد العلماء المسلمين عليها وذلك في المبحث الثالث من الفصل الأول.

(٤) انظر: أمثلة على هذه الشبه والرد عليها في كتاب: مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، تحقيق د. محمد شامة تحت عنوان بين الإسلام والمسيحية.

ومثله القرافي الذي عرض كثيراً من شبه النصارى في هذه الفترة وأبطلها[1].

وبطبيعة الحال فإن إبطال هذه الشبه التي يثيرها قادة الضلال من النصارى في فترة الحروب الصليبية قد يكون سبباً لهداية الكثيرين ممن حُجب الحق عنهم بسببها. فإذا كان الأمر كذلك وزالت عنهم هذه الشبه فلا يسعهم بعد هذا إلا اعتناق الإسلام.

(١) وذلك في كتابه الأجوبة الفاخرة على الأسئلة الفاجرة.

المطلب الثالث

الدعوة إلى الإيمان بالقرآن

القرآن هو معجزة الإسلام الخالدة، والذي أنزله الله سبحانه وتعالى على نبيّه محمد ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور. قال تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١﴾[1]. وهو دستور هذه الأمة، وأساس نظامها، ومصدر عزها.

والأمة الإسلامية عبر تاريخها اعتنت بكتاب الله أشد العناية، فجُمع حديث الرسول ﷺ، ومُيز صحيحه من ضعيفه، ليكون تفسيراً وتفصيلاً للقرآن. ثم اهتم العلماء بتفسير ألفاظه فظهرت كتب التفسير، وانبثقت علوم أخرى مستمدة من كتاب الله وخادمة له كعلوم التوحيد، والفقه، والقراءات، وعلوم اللغة المختلفة كالصرف، والنحو، والبلاغة، والمعاجم اللغوية وغيرها.

وعلماء الأمة في عصر الحروب الصليبية - وهم يعرفون أهمية كتاب الله بالنسبة للمسلمين - أدركوا الخطر الذي تتعرض له الأمة من جراء تكالب أعدائها عليها، خصوصاً النصارى وما يقومون به من حرب عسكرية وفكرية ضد الإسلام في هذه الفترة، وبالتحديد ما يثيرونه حول القرآن رغبةً منهم في زعزعة ثقة الأمة بكتابها، لذلك اشتدت عنايتهم بكتاب الله دفاعاً عنه أولاً، ودعوة لهؤلاء

(١) سورة إبراهيم، الآية: (١).

النصارى ثانياً، وذلك بتفنيد مفترياتهم حوله، وتصحيح شبههم التي قد تمنع الكثيرين منهم من التصديق به.

ولا شك أن التصديق بالقرآن والإيمان به يعني الدخول في الإسلام واعتناقه، إذ إن القرآن والسنّة بينا كل ما يتعلق بهذا الدين من عقائد وتشريعات يجب على المسلم الالتزام بها، والقرآن قد أمر بالأخذ بالسنّة كما قال تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾[1]. ومن ثم فإن تسليم النصارى بصحة القرآن، واقتناعهم بذلك، وقبولهم لأوامره ونواهيه، يعني نبذهم لما هم عليه من عقائد باطلة ودخولهم في الإسلام.

وكانت عناية الأمة في هذه الفترة بدعوة النصارى إلى الإيمان بالقرآن من خلال ما يلي:

أولاً: عناية القرآن بخدمة كتاب الله بشكل عام من خلال المؤلفات في تفسيره، أو قراءته، أو إيضاح غريبه، أو بيان محكمه ومتشابهه، أو ما يتعلق بناسخه ومنسوخه، أو أحكامه، أو إبراز فضائله، أو بلاغته، أو إعرابه، إلى غير ذلك. وفيما يلي نماذج مما ألف في هذه الفنون في عصر الحروب الصليبية.

أ ـ نماذج مما ألف في تفسير القرآن:

١ ـ تفسير القرآن العظيم[2].

٢ ـ التفسير الكبير[3].

٣ ـ تفسير الرازي[4].

---

(١) سورة الحشر، الآية: (٧).

(٢) لعبد السلام بن عبدالله بن الخضر بن محمد بن تيمية ت (٦٥٢ هـ).

(٣) لعبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي ت (٦٦٠ هـ).

(٤) لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ت (٦٦٦ هـ).

٤ ـ تفسير القرآن العظيم[(١)][(٢)].

ب ـ نماذج مما ألف في القراءات:

١ ـ التبصرة في القراءات القرآنية[(٣)].

٢ ـ أرجوزة في القراءات السبع[(٤)].

٣ ـ أحكام القراءات[(٥)].

٤ ـ إبراز المعاني من حرز الأماني[(٦)][(٧)].

جـ ـ نماذج مما ألف في غريب القرآن:

١ ـ الأريب في تفسير الغريب[(٨)].

٢ ـ غريب القرآن[(٩)].

د ـ نماذج مما ألف في المحكم والمتشابه:

١ ـ البرهان في مسائل القرآن[(١٠)].

---

(١) للمنجي بن عثمان بن أسعد الدمشقي الحنبلي ت (٦٩٥ هـ).

(٢) للتوسع فيما ألف في التفسير في هذه الفترة. انظر: معجم مصنفات القرآن الكريم، د. علي شواخ إسحاق (٢/ ١٦٠) وما بعدها.

(٣) لعبدالله بن علي بن أحمد البغدادي ت (٥٤١ هـ).

(٤) ليحيى بن عبد المعطي بن عبد النور الزواوي ت (٦٢٨ هـ).

(٥) لعلي بن محمد بن الحسين البيهقي ت (٥٦٥ هـ).

(٦) لشهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي المعروف بأبي شامة ت (٦٦٥ هـ).

(٧) للتوسع فيما ألف في القراءات في هذه الفترة. انظر: معجم مصنفات القرآن الكريم د. علي شواخ إسحاق (٤/ ١١) وما بعدها.

(٨) لعبد الرحمن بن علي بن الجوزي ت ٥٩٧ هـ.

(٩) لمحمد بن يوسف بن عمر الكفرطابي ت ٥٥٣ هـ.

(١٠) لعبدالله بن أحمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ت ٦٢٠ هـ.

٢ ـ الآيات المتشابهات[١].

٣ ـ بيان متشابه القرآن[٢].

٤ ـ منظومة في متشابه القرآن بعنوان ـ هداية المرتاب ـ[٣][٤].

هـ ـ نماذج مما ألف في الناسخ والمنسوخ:

١ ـ الإيجاز في ناسخ القرآن ومنسوخه[٥].

٢ ـ الناسخ والمنسوخ[٦].

٣ ـ الناسخ والمنسوح[٧].

٤ ـ الطود الراسخ في المنسوخ والناسخ[٨][٩].

و ـ نماذح مما ألف في أحكام القرآن:

١ ـ أحكام القرآن[١٠].

٢ ـ أحكام القرآن[١١].

---

(١) لأحمد بن يزيد بن عبد الرحمن بن بقي بن مخلد قاضي قضاة المغرب ت ٦٢٥ هـ.

(٢) لعيسى بن عبد العزيز بن عبد الواحد اللخمي الإسكندري ت ٦٢٩ هـ.

(٣) لعلي بن محمد بن عبد الصمد الهمداني السخاوي المتوفّى سنة ٦٤٣ هـ.

(٤) للتوسع فيما ألف في محكم القرآن ومتشابهه، انظر: معجم مصنفات القرآن الكريم، د. علي شواخ إسحاق (٤/ ١٩٣) وما بعدها.

(٥) لمحمد بن بركات بن هلال الصقلي المصري ت ٥٢٠ هـ.

(٦) لعبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي ت ٥٩٧ هـ.

(٧) لعلي بن محمد الأنصاري الخزرجي الأندلسي ت ٦١١ هـ.

(٨) لعلي بن محمد بن عبد الصمد السخاوي ت ٦٤٣ هـ.

(٩) للتوسع فيما ألف في الناسخ والمنسوخ في هذه الفترة. انظر: معجم مصنفات القرآن الكريم د. علي شواخ إسحاق (٤/ ٢٢٥).

(١٠) لمحمد بن عبدالله بن محمد المعافري المعروف بابن العربي ت ٥٤٣ هـ.

(١١) لعبد المنعم بن محمد بن عبد الرحيم الخزرجي، ت ٥٩٩ هـ.

٣ ـ الإلمام في أدلة الأحكام[١].

٤ ـ الجامع لأحكام القرآن[٢][٣].

ز ـ نماذج مما ألف في فضائل القرآن:

١ ـ فضائل القرآن[٤].

٢ ـ الدر النظيم في فضائل القرآن العظيم[٥][٦].

ح ـ نماذج مما ألف في بلاغة القرآن:

١ ـ التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن[٧].

٢ ـ بديع القرآن[٨][٩].

ط ـ نماذج مما ألف في إعراب القرآن:

١ ـ إملاء ما منَّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن[١٠].

٢ ـ إعراب القراءات الشواذ[١١].

---

(١) لعبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم السلمي ت ٦٦٠ هـ.

(٢) لمحمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري القرطبي ت ٦٧١ هـ.

(٣) للتوسع فيما ألف في أحكام القرآن في هذه الفترة. انظر: معجم مصنفات القرآن الكريم د. علي شواخ إسحاق (١/ ٩٤) وما بعدها.

(٤) لمحمد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الرحمن المقدسي ت ٦٤٣ هـ.

(٥) لمحمد بن أحمد بن الخشاب ت ٥٦٧ هـ.

(٦) للتوسع فيما ألف في أحكام القرآن في هذه الفترة. انظر: معجم مصنفات القرآن الكريم د. علي شواخ إسحاق (١/ ٩٤).

(٧) لعبد الواحد بن عبد الكريم الزملكاني ت ٦٥١ هـ.

(٨) لعبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر العدواني البغدادي ت ٦٥٤ هـ.

(٩) للتوسع فيما ألف في بلاغة القرآن في هذه الفترة. انظر: معجم مصنفات القرآن الكريم د. علي شواخ إسحاق (١/ ١٤٠) وما بعدها.

(١٠) لعبدالله بن الحسين بن عبدالله العكبري ت ٦١٦ هـ.

(١١) لعبدالله بن الحسين بن عبدالله العكبري ت ٦١٦ هـ.

٣ - الفريد في إعراب القرآن المجيد[١][٢].

ولا شك أن هذه المؤلفات حول كتاب الله سبحانه وتعالى تساعد على فهمه وإيضاحه. ولا يخفى أثر ذلك في زيادة ترسيخ إيمان المسلمين بكتاب ربهم، ومن ثم صمودهم أمام شبهات أعدائهم من النصارى وغيرهم. كما أن هذه الدراسات حول كتاب الله - وهي تساعد على فهمه - قد تزيل غشاوة الجهل عن كثير من النصارى، فيفهمون كتاب الله سبحانه. وقد يكون ذلك سبباً في إسلامهم.

ثانياً: عناية العلماء ببيان إعجاز القرآن بشكل عام، وإبراز ذلك للنصارى بشكل خاص:

حيث اعتنى العلماء في هذه الفترة ببيان إعجاز القرآن بشكل عام، فظهرت مؤلفات قصرت الحديث على هذا الجانب، ككتاب البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن[٣]. وكتاب التنبيه على إعجاز القرآن[٤].

ولا يخفى أن إظهار إعجاز القرآن له أثر كبير في إقناع غير المسلمين؛ لذلك أبرز بعض العلماء هذا الجانب للنصارى من خلال عدة أمور منها:

١ - إثبات إعجازه من خلال حفظه من التحريف والتبديل:

وهذا من أعظم الإعجاز، وما كان ذلك ليتحقق لو وُكل حفظه إلى البشر. حيث أشار القرافي إلى حفظ الله سبحانه وتعالى لكتابه، وذلك بتهيئة أسباب ذلك، من العناية بجمعه، وألا يداخله غيره؛ حذراً مما وقع لأهل الكتاب، ثم نَقْله من السلف إلى الخلف نقلاً متواتراً. فصدق الله إذ يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا

---

(١) لابن أبي العز بن رشيد أبو يوسف منتجب الدين الهمزاني ت ٦٤٣ هـ.

(٢) للتوسع فيما ألف في إعراب القرآن. انظر: معجم مصنفات القرآن الكريم د. علي شواخ إسحاق (٤/ ٢٢٥) وما بعدها.

(٣) لكمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكاني المتوفّى سنة ٦٥١ هـ.

(٤) لمحمد بن أبي القاسم البقالي الخوارزمي المتوفّى سنة ٥٦٢ هـ.

﴿ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾[1][2].

قال القرطبي حول هذه الآية: «﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ ـ من أن يزاد فيه أو ينقص منه»[3]، وبين ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه الإعلام حفظ الله سبحانه وتعالى لكتابه مقابل التحريف والتبديل الذي جرى على التوراة والإنجيل[4]. ثم أورد أمثلة على ذلك[5][6].

٢ ـ إثبات إعجازه ببيان فصاحته:

وفي ذلك قال الخزرجي مخاطباً النصارى ومبيناً إعجاز القرآن بفصاحته، وأن العرب الأوائل ـ وهم الفصحاء ـ أقروا له بذلك: «فكيف يلتفت إلى مقال العجم الجهلاء»[7].

ثم وضح أن العرب وقت نزول القرآن وهم أشد أعداء الرسول ﷺ، وقد كان منهم ما كان من سب الرسول ﷺ وأصحابه، وإيذائهم بل وحربهم، ما تكلموا في فصاحته. وقد جرى لهم التحدي أن يأتوا بمثله كما قال تعالى: ﴿قُل

---

(١) سورة الحجر، الآية: (٩).

(٢) انظر: الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (٩٥).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، المجلد الخامس، الجزء العاشر، ص (٥).

(٤) انظر: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (١٨٩)، (١٩٣ ـ ١٩٤).

(٥) انظر: المصدر السابق، ص (٩٥)، وما بعدها وص (٢٠٣)، وما بعدها. ومثل هذه الأمثلة أوردها أحمد بن عبد الصمد الخزرجي في كتابه: مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان، تحقيق د. محمد شامة تحت عنوان بين الإسلام والمسيحية، ص (١٤٢) وما بعدها.

(٦) سيأتي الحديث في إثبات تحريف النصارى لكتابهم وأمثلة على ذلك في المبحث الثاني من هذا الفصل.

(٧) مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، تحقيق د. محمد شامة تحت عنوان بين الإسلام والمسيحية، ص (١٩٧).

لَئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[١]. فما استطاعوا ذلك، ثم كان التحدي بعشر سور كما قال سبحانه: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾[٢] حتى صار التحدي إلى سورة واحدة ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾[٣]. ومع ذلك عجزوا ولن يستطيعوا لو حاولوا كما أخبر سبحانه: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾[٤][٥].

وفي مناقشة القرطبي للنصارى في كتابه الإعلام بين أن فصاحة القرآن أمر لا يقبل الشك «حتى أن العاقل الفصيح إذا سمعه قال: ليس هذا من كلام البشر»[٦].

ثم وضح نماذج من إعجازه، كقوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾[٧]. وكيف أن هذه الآية لما نزلت قال أبو جهل: «إن رب محمد لفصيح».

ثم لفت القرطبي النظر إلى جوانب من الفصاحة في هذه الآية، حيث تضمنت أحكاماً وتفسير الحلال والحرام، والإعراض عن أهل الجهل والاجترام، والأمر بالتزام أخلاق الكرام، مع ما هي عليه من اللفظ الموجز الجزل الرصين[٨].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: (٨٨).

(٢) سورة هود، الآية: (١٣).

(٣) سورة يونس، الآية: (٣٨).

(٤) سورة البقرة، الآية: (٢٤).

(٥) انظر: مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، تحقيق د. محمد شامة تحت عنوان بين الإسلام والمسيحية، ص (١٩٣).

(٦) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٣٢٧).

(٧) سورة الأعراف، الآية: (١٩٩).

(٨) انظر: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٣٢٩ ـ ٣٣٠).

ومثال آخر أورده القرطبي هو قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾[١]. وكيف أن الوليد بن المغيرة[٢] لما سمع هذه الآية ـ وهو من أفصح قريش وكان من أشد أعداء الرسول ﷺ قال: «**إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وأن أعلاه لمثمر مورق، وما يقول هذا بشر...**[٣]»[٤].

وقد جرت مناظرة بين أحد قساوسة بلنسية بالأندلس وأبي علي بن رشيق التغلبي[٥]، حول فصاحة القرآن. حيث بدأ القسيس يتكلم حول إعجاز القرآن، وأن العرب ـ وهم الفصحاء البلغاء ـ عجزوا عن الإتيان بشيء مثله، وأن هذا التحدي باق إلى آخر الدهر. فوافقه ابن رشيق على ذلك. بعد ذلك أفصح القسيس عما يريد الوصول إليه، فذكر كتاب المقامات للحريري[٦] مدعياً أن

---

(١) سورة النحل، الآية: (٩٠).

(٢) هو الوليد بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم، من قضاة العرب وحكمائها وفصحائها، والد الصحابي الجليل خالد بن الوليد، كان مولده قبل الهجرة بخمس وتسعين سنة ووفاته مشركاً في السنة الأولى من الهجرة. وقد كان من أعداء رسول الله ﷺ ومن المنفرين من دعوته.
انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (١/ ٦٦٨ ـ ٦٦٩).

(٣) أخرجه الحاكم، المستدرك، كتاب التفسير، باب تفسير سورة المدثر (٢/٥٠٦)، وقال حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجاه.

(٤) انظر: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٣٣٠).

(٥) هو أبو علي الحسين بن عتيق بن الحسين بن رشيق التغلبي، من أهل مرسية بالأندلس، كان مؤرخاً وأديباً، له مشاركة في كثير من الفنون، توفي في محرم سنة ٦٩٦ هـ.
انظر: الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين محمد بن عبدالله بن الخطيب، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣م (١/ ٤٧٢ ـ ٤٧٦).

(٦) هو القاسم بن علي بن محمد الحريري، من سكان البصرة، كان من أئمة اللغة والأدب من أشهر كتبه المقامات التي بلغت خمسين مقامة، كانت وفاته سنة ٥١٦ هـ. (انظر: الأنساب، عبد الكريم بن محمد السمعاني، تحقيق: عبدالله عمر البارودي، دار الجنان،

الأدباء والشعراء عجزوا عن معارضته، وأن الحريري قد أنشد بيتين اثنين في إحدى المقامات وتحدى أن يعزهما أحد بثالث، وإن السنين انصرفت وما أتى أحد بثالث لهما، رغم دَرْس الناس لتلك المقامات وتداولها بينهم. وانتهى إلى القول على ضوء ما سبق: أن ما أتى به الحريري كلام فصيح يصح أن يكون معجزة وليس هو بنبي. فإذا حصل ذلك فإن نبوة الرسول ﷺ لا تثبت بمسألة التحدي المنصوص عليه بالقرآن. فلما أخذ ابن رشيق يرد عليه بالأدلة والبراهين العلمية، أخذ القسيس يرد عليه بقوله: قد سمعت هذا وناظرني فيه فلان. في تلك الأثناء انقدح في ذهن ابن رشيق بيت ثالث على شاكلة بيتي الحريري، فساقه للقسيس، الذي راح يفهمه لمن معه، وعند ذلك انقطعت حجة القسيس، وكانت النتيجة كما يقول ابن رشيق: «إنه انفصل عنهم وهم كالمسلمين في انقطاع شبهتهم»[1].

٣ ـ إثبات إعجازه بلفت النظر إلى طريقة نظمه وأسلوبه الغريب:

وفي معرض مناقشة القرطبي للنصارى لفت أنظارهم إلى نظم القرآن وأسلوبه الغريب، «... والذي خالف به أسلوب كلام العرب، حتى كأنه ليس بينه وبينه نسب ولا سبب. فلا هو كمنظوم كلامها فيكون شعراً موزوناً. ولا كمنثوره فيكون نثراً عرياً عن الفواصل محروماً. بل تشبه رؤوس آيته وفواصله قوافي النظم، ولا تدانيها، وتخالف آية متفرقات النثر، وتناويها. فصار لذلك أسلوباً خارجاً عن كلامهم، ومنهاجاً خارجاً لعادة خطابهم»[2].

بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٩٨م، (٣/١٠٩). وشرح مقامات الحريري، أحمد بن عبد المؤمن الشريشي تحقيق د. محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٢م (١/٤ ـ ٥).

(١) انظر: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، أحمد بن يحيى الونشريسي، خرجه جماعة من الفقهاء ـ بإشراف محمد حجي ـ دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١م، (١١/١٥٧ ـ ١٥٨).

(٢) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٣٣٣).

ثم ضرب القرطبي مثالاً على ذلك موجهاً إلى النصارى وهو قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾[١]، طالباً منهم التأمل في معاني هذه الآيات، ولافتاً أنظارهم إلى نظمها البديع المنيف الذي عجزت العرب عن معارضته[٢].

٤ ـ إعجاز القرآن بإخباره عن بعض المغيبات فتقع كما أخبر:

ومن ذلك بيان الخزرجي لأحد القساوسة النصارى أن من إعجاز القرآن إخباره عن بعض المغيبات فتحصل كما أخبر. حيث أورد العديد من الأمثلة منها:

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾[٣] فما كان بضع سنين حتى تحقق ذلك وغلبت الروم الفرس[٤].

ومثال آخر هو قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾[٥]، فصدق وعده فدخلوا مكة وتحقق الفتح القريب وهو فتح خيبر[٦].

---

(١) سورة مريم، الآيات: (١٦ ـ ٣٣).

(٢) انظر: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٣٣٣ ـ ٣٣٤).

(٣) سورة الروم، الآيات: (١ ـ ٦).

(٤) انظر: مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، تحقيق د. محمد شامة تحت عنوان بين الإسلام والمسيحية، ص (٢٠٧).

(٥) سورة الفتح، الآية: (٢٧).

(٦) انظر: مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، تحقيق د. محمد شامة تحت عنوان بين الإسلام والمسيحية، ص (٢٠٨).

ومن الأمثلة التي أوردها الخزرجي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧﴾[1] فيظفر المسلمون بالنصر على قريش في بدر، وما كذب خبر القرآن.

وبعد عدة أمثلة ذكرها الخزرجي على ذلك خاطب النصارى متعجباً من عدم تصديقهم بالقرآن وبمن جاء به رغم إعجازه، وذلك بقوله: «ومن أعجب الأشياء أنكم تؤمنون بنبوّة مريم وحنة وهما امرأتان، بلا كتاب ومعجزة، ولا ذكرتا في صحف الأنبياء، وتكفرون بسيد المرسلين محمدﷺ وله كتاب يعجز الإنس والجن»[2].

وأكد القرطبي في رده على النصارى في كتابه الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام أن الإخبار عن المغيبات في القرآن فتقع كما أخبر به من وجوه إعجازه[3]. ثم عرض أمثلة كثيرة على ذلك[4].

وفي هذا السياق قال ابن الأنباري[5]: «فإنه لما كان لا يجوز أن يقع ذلك

---

(١) سورة الأنفال، الآية: (٧).

(٢) مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، تحقيق د. محمد شامة تحت عنوان بين الإسلام والمسيحية، ص (٢١٣).

(٣) انظر: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٣٣٧).

(٤) انظر: المصدر السابق، ص (٣٣٧) وما بعدها.

(٥) هو عبد الرحمن بن محمد بن عبدالله الأنصاري، من علماء اللغة وتاريخ الرجال، مولده سنة ٥١٣ هـ ووفاته في بغداد سنة ٥٧٧ هـ، من كتبه: نزهة الألباء في طبقات الأدباء، وأسرار العربية والبيان في غريب إعراب القرآن وغير ذلك.

انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (٢١/ ١١٣ ـ ١١٥)، وطبقات الشافعية الكبرى، عبد الوهاب بن علي السبكي، تحقيق عبد الفتاح الحلو وزميله (٧/ ١٥٥).

على وجه الاتفاق دل على أنه من عند علام الغيوب»[1]. ثم أورد أمثلة عديدة على ذلك[2].

٥ ـ إعجاز القرآن بإخباره عن بعض الأمم السابقة:

تحدث القرطبي عن وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وهو ما تضمنه من الأخبار عن الأمم السالفة التي يشهد العلماء بصحتها، مع أن النبيّ ﷺ لم ينل ذلك بتعليم بشري[3]. حيث أورد في رده على النصارى أمثلة على ذلك. خصوصاً ما كان يثيره أهل الكتاب في عهده ﷺ من أسئلة ينزل القرآن مجيباً عليها، فما ينكرون منها شيئاً، مع شدة عداوتهم لرسول الله ﷺ وحرصهم على تكذيبه، ومن ذلك: سؤالهم عن الروح، وعن ذي القرنين، وعن أصحاب الكهف، وعن عيسى عليه السلام، وعن حكم الرجم، وعن ما حرم إسرائيل على نفسه، وغير ذلك من أمورهم التي نزل القرآن مجيباً عنها فلم ينكروا منها شيئاً[4].

ثالثاً: الدعوة إلى الإيمان بالقرآن من خلال رد الشبه التي أثيرت حوله:

وما أكثر الشبه والمفتريات التي أثارها ويثيرها أعداء الإسلام على القرآن عبر التاريخ الإسلامي.

وأعداء الإسلام من النصارى في فترة الحروب الصليبية رددوا شبه من كان قبلهم، وافتروا غيرها طعناً في هذا الدين، وإضعافاً للمسلمين، ويأبى الله إلا أن يتم نوره.

وقد تصدى علماء الأمة في فترة الحروب الصليبية للرد على مطاعن

---

(١) الداعي إلى الإسلام، عبد الرحمن بن محمد الأنباري، تحقيق سيد حسين باغجوان، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ، ص (٤٢٤).

(٢) انظر: المصدر السابق، ص (٤٢٤) وما بعدها.

(٣) انظر: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٣٤٣).

(٤) انظر: المصدر السابق، ص (٣٤٣) وما بعدها.

النصارى ومفترياتهم حول كتاب الله، كالقرافي، والخزرجي، وابن الأنباري، وابن رشيق التغلبي، وغيرهم[1]. ولا يخفى أثر إزالة الشبه في قبول الحق لدى من يمنعه من الهدى سوء فهم، أو تضليل معاند. يقول القرطبي في مقدمة نبذة كتبها عن محاسن الإسلام: «... إنه لا يبعد أن يقف على هذا الكتاب نصراني أو يهودي لم يسمع قط من ديننا تفصيلاً ولا تصريحاً، بل إنما سمع له سباً وتقبيحاً. فأردت أن أسرده على الجملة؛ ليتبين حسنه لمن كان ذكي العقل، صحيح الفطرة. فلعل ذلك أن يكون سبب هداه، وجلاء عماه...»[2].

(١) سيأتي تفصيل هذه الشبه والرد عليها في المبحث الثالث من هذا الفصل.

(٢) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٤٣٩).

المطلب الرابع

الدعوة إلى الإيمان بنبوّة محمدﷺ

نبوّة محمدﷺ كانت ولا تزال أساس الحوارات والمناظرات التي تجري بين المسلمين وغيرهم. ففي الوقت الذي يسعى الدعاة المسلمون إلى الإقناع بصدقهﷺ وصحة رسالته، يسعى المعاندون إلى تكذيب ذلك بل وإثارة الشبه حول شخصهﷺ وحول رسالته.

لذلك ما ترك علماء الأمة صغيرة ولا كبيرة في حياتهﷺ إلا كتبوا عنها، وما غادروا شيئاً من أقواله وأفعاله إلا قيدوه وميزوا صحيحه من ضعيفه، فكتبوا في سيرته، ومغازيه، وأخلاقه، وشمائله، ومناقبه، وفضائله، وحقوقه، ودلائل نبوّته، ومعجزاته(١)، وهديه. وصنفوا في أقواله وأفعاله فظهرت الموسوعات الحديثية كالصحيحين، والسنن، والمسانيد، والمصنفات، وغيرها من كتب الحديث، فصار القارىء في أي جانب من هذه الجوانب المتعلقة بهﷺ كأنه عاش معه لدقة ما نُقِل عنه.

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في المعجزات: «وتسمى دلائل النبوّة، وأعلام النبوّة، وهذه الألفاظ إذا سميت بها آيات الأنبياء كانت أدل على المقصود من لفظ المعجزات، ولهذا لم يكن لفظ المعجزات موجوداً في الكتاب والسنّة وإنما فيه لفظ: الآية والبرهان».

الجواب الصحيح، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق د. علي بن حسن بن ناصر وآخرين، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩م، (٥/ ٤١٢).

وقد أثبت لفظ - المعجزات - هنا لما درج عليه علماء ذلك العصر في ردهم على النصارى.

وفي عصر الحروب الصليبية كان من أهم الأمور التي دعا المسلمون النصارى إليها الإيمان بنبوّة محمدﷺ، ولا شك أن تصديق النصارى بذلك وإيمانهم به يعني بالضرورة نبذهم لما هم عليه من الكفر والضلال والدخول في الإسلام.

وقد كانت الدعوة إلى الإيمان بمحمدﷺ من خلال جانبين:

الجانب الأول: إثبات نبوّتهﷺ. **والجانب الثاني:** رد الشبه التي يثيرها النصارى حول شخصه أو نبوّته.

وفيما يلي عرض لهذين الجانبين:

الجانب الأول: الدعوة إلى الإيمان بهﷺ من خلال إثبات نبوّته: وقد اتجه العلماء في هذه الفترة إلى إثبات نبوّته عليه الصلاة والسلام من خلال ما يلي:

أولاً: من خلال تأليف الكتب عنهﷺ بشكل عام، خاصةً ما يتعلق بدلائل نبوّته، ومعجزاته، وشمائله، وأخلاقه، ومناقبه، وفضائله، ومن الأمثلة على هذه الكتب ما يلي:

- الدر الثمين في خصائص النبيّ الأمين[١].
- ذكر ما أعطي نبيّنا محمدﷺ دون الأنبياء[٢].
- نهاية السول في خصائص الرسول[٣].
- الآثار المرضية في فضائل خير البرية[٤].
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى[٥].

---

(١) لعبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي المتوفّى سنة ٥٢٠ هـ.

(٢) لمحمد بن عبد الواحد بن أحمد «الضياء المقدسي» المتوفّى سنة ٦٤٣ هـ.

(٣) لعمر بن الحسن بن علي بن محمد (بن دحية الكلبي) المتوفّى سنة ٦٣٣ هـ.

(٤) للحافظ عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي المتوفّى سنة ٦٠٠ هـ.

(٥) للقاضي عياض بن موسى بن عياض اليحصبي المتوفّى سنة ٥٤٤ هـ.

- بداية السول في تفضيل الرسول[1][2].

- أعلام النبوّة[3].

- دلائل النبوّة[4].

- دلائل النبوّة[5].

- دلائل النبوّة[6].

- الآيات البينات في ذكر ما في أعضاء رسول الله ﷺ من المعجزات[7].

- البشائر والأعلام لسياق ما لسيدنا محمد ﷺ من الآيات البينات والمعجزات والأعلام[8][9].

ثانياً: من خلال المؤلفات الموجهة إلى النصارى وفي ثناياها الحديث عن نبوّته ﷺ. وكانت طريقة العلماء في ذلك على النحو التالي:

أ - إثبات نبوّته ﷺ من خلال دعواه النبوّة. حيث وضح الجعفري في كتابه الرد على النصارى أن مجيء محمد ﷺ ودعواه النبوّة أمر مقطوع به، قد ثبت عن

(١) لعبد العزيز بن عبد السلام بن الحسن السلمي «العز بن عبد السلام» المتوفّى سنة ٦٦٠هـ.

(٢) للتوسع فيما ألف في مناقب الرسول ﷺ وفضائله، وأخلاقه، انظر: معجم ما ألف عن رسول الله ﷺ، د. صلاح الدين المنجد، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٤٠٢ هـ، ص (١٨٩) وما بعدها.

(٣) لمحمد بن عبدالله بن محمد بن ظفر الصقلي المكي المتوفّى سنة ٥٦٥ هـ.

(٤) لإسماعيل بن محمد بن الفضل القرشي الأصبهاني المتوفّى سنة ٥٣٥ هـ.

(٥) لمصعب بن محمد بن مسعود الخشني الأندلسي المتوفّى سنة ٦٠٤ هـ.

(٦) لمحمد بن عبد الواحد المقدسي «الضياء المقدسي» المتوفّى سنة ٦٤٣ هـ.

(٧) لعمر بن الحسن بن علي «ابن دحية الكلبي» المتوفّى سنة ٦٣٣ هـ.

(٨) للحسن بن علي بن محمد القطان المتوفّى سنة ٥٤٨ هـ.

(٩) للتوسع فيما ألف في معجزات النبيّ ﷺ ودلائل نبوّته، انظر: معجم ما ألف عن رسول الله ﷺ، د. صلاح الدين المنجد، ص (٦٢) وما بعدها.

طريق التواتر فلا يسوغ النزاع فيه. وإن من أنكر ذلك كمن جحد وجود بغداد ومكة[1].

ب ـ إثبات نبوّته من خلال ذكر البشارات بهﷺ من التوراة والإنجيل.
حيث أسهب العلماء في هذه الفترة بذكر البشارات بمحمدﷺ من التوراة والإنجيل. وذلك إلزاماً للمعاندين من النصارى بما لا يستطيعون إنكاره، وإيضاحاً لمن يجهل ذلك منهم، أو حال بينه وبين فهمه تضليل مبطلٍ من قساوستهم.

حيث ساق الجعفري مثلاً أربعاً وثمانين بشارة بنبوّة محمدﷺ من التوراة والإنجيل[2]. وسرد القرافي إحدى وخمسين بشارة في كتابه الأجوبة الفاخرة[3].

وقد أسهب الخزرجي والقرطبي والمتطبب في معرض ردودهم على النصارى بذكر البشارات بهﷺ من التوراة والإنجيل[4].

ومن أبرز الأمثلة على هذه البشارات ما يلي:

أولاً: البشارات بمحمدﷺ من التوراة:

١ ـ قال الجعفري: جاء في التوراة «قال موسى: أقبل الله من سينا وتجلى

---

(١) انظر: الرد على النصارى، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمد محمد حسانين، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٨م، ص (٩٥).

(٢) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/ ٦٥١) وما بعدها.

(٣) انظر: الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٦٣) وما بعدها.

(٤) مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، تحقيق د. محمد شامة تحت عنوان بين الإسلام والمسيحية، ص (٢١٤) وما بعدها. والإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٢٦٣) وما بعدها. والنصيحة الإيمانية، نصر بن يحيى المتطبب، تحقيق د. محمد الشرقاوي، ص (١٣٨) وما بعدها.

(٥) الكتاب المقدس، سفر التثنية، الإصحاح (٣٣/ ١ ـ ٣)، مع اختلاف يسير في اللفظ عما

من ساعير وظهر في جبال فاران معه ربوات الأطهار عن يمينه»[(١)].

وقد علق الجعفري على هذه البشارة بقوله: «فسيناء الجبل الذي كلم الله فيه موسى، وساعير هو جبل الخليل بالشام، وكان المسيح يتعبد فيه ويناجي ربه، وفاران جبل بني هاشم الذي كان رسول الله ﷺ يتحنث فيه ويتعبد. وقد خصت التوراة نبيّنا محمدﷺ بزيادة على موسى وعيسى فقالت: ـ معه ربوات الأطهار، عن يمينه ـ وذلك كناية عن أصحاب رسول الله ﷺ»[(٢)].

وقال القرطبي بعد ذكره لهذه البشارة مع اختلاف يسير في ألفاظها: «ولا اختلاف أن فاران ـ مكة ـ وقد قال في التوراة: إن الله أسكن هاجر وابنها إسماعيل فاران»[(٣)]، ثم خاطب النصراني بقوله: «ففكر على الإنصاف وتثبت، مَن الجائي المقبل من جبال فاران مع آلاف من الصالحين؟[(٤)] وإن الجائي منها محمدﷺ وأمته[(٥)].

أورده الجعفري.

(١) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/ ٦٥٥).

(٢) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٢٦٥).

(٣) المصدر السابق، ص (٢٦٥).

(٤) يوضح شيخ الإسلام ابن تيمية في تعليقه على هذه البشارة أن المقصود بمجيء الله من طور سيناء ـ كما قرر ذلك كثير من العلماء ـ إنزاله التوراة على موسى، وأن إشراقه من جبل ساعير إنزاله الإنجيل على المسيح، وساعير هي أرض الخليل. انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: د. علي بن حسن بن ناصر وآخرين (٥/ ١٩٩ ـ ٢٠٠).

كذلك بين شيخ الإسلام أن المقصود بفاران جبل حراء الذي كان فيه نزول أول الوحي على رسول الله ﷺ، كما أن البرية التي بين مكة وطور سيناء تسمى برية فاران. ولا يمكن لأحد أن يدعي أنه بعد المسيح نزل كتاب في تلك الأرض ولا بعث نبيّ إلا محمدﷺ. فَذِكْر ذلك في التوراة جاء على الترتيب الزماني: إنزال التوراة، ثم الإنجيل، ثم القرآن. انظر: المصدر السابق (٥/ ٢٠٢).

٢ ـ ومن بشارات التوراة بهﷺ التي أوردها الجعفري أن الله قال: «يا موسى إني سأقيم لبني إسرائيل نبياً من إخوتهم مثلك، أجعل كلامي في فيه، ويقول لهم ما آمره به، والذي لا يقبل قول ذلك النبيّ الذي يتكلم باسمي أنا أنتقم منه ومن سبطه»(١).

وقد علق الجعفري على ذلك موضحاً أن إخوة بني إسرائيل هم ولد إسماعيل الذين منهم محمدﷺ ولا يجوز بأن يكون هذا النبيّ الموعود من بني إسرائيل لأن الله قال: «نبي مثلك» ولم يُبعث في بني إسرائيل نبي مثل موسى جاء بكتاب مُنزل وشرع مبتدإٍ، فتعين لذلك أن يكون هذا النبي من ولد إسماعيل وهو محمد ﷺ(٢).

وقد فسر القرطبي هذه البشارة بأن النبي المبشر به من إخوة بني إسرائيل وهم العرب مستدلاً على ذلك بقوله: «أجعل كلامي في فيه» إشارة إلى القرآن، وبالانتقام ممن عصاه بإهلاك صناديد قريش وعظماء الفرس والروم(٣).

وقال نصر بن يحيى المتطبب: «لو كانت هذه البشارة لنبي من بني إسرائيل لم يكن لها معنًى، لأن الله تعالى قد بعث بعد موسى خلقاً كثيراً من الأنبياء من بني إسرائيل، واليهود تعتقد أنه لا يجيء من بني إسرائيل بعد موسى مثل موسى...»(٤).

إضافة إلى أنه قال: «نبياً من إخوتهم» أي أنه ليس من أنفسهم والأنبياء الذين بعثوا بعد موسى من بني إسرائيل وليس من إخوتهم فتعين أن يكون

---

(١) الكتاب المقدس، سفر التثنية، الإصحاح (١٨/١٨، ١٩) مع اختلاف يسير في اللفظ عما أورده الجعفري.

(٢) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/ ٦٥٧).

(٣) انظر: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٢٦٤).

(٤) النصيحة الإيمانية، نصر بن يحيى المتطبب، تحقيق د. محمد الشرقاوي، ص (١٤٥).

محمدﷺ الذي هو من ولد إسماعيل إخوة بني إسرائيل[1].

٣ ـ قال الجعفري: جاء في التوراة: «قال موسى لبني إسرائيل: لا تطيعوا العرافين ولا المنجمين، فسيقيم لكم الرب نبيّاً من إخوتكم مثلي، فأطيعوا ذلك النبي»[2].

وقد أورد هذه البشارة أيضاً القرافي[3].

وعلق الجعفري على هذه البشارة موضحاً أن النبيّ الموعود هو محمدﷺ؛ إذ لا يمكن أن يكون هو هارون أخو موسى حيث مات في حياة أخيه، ولا يوشع بن نون الذي هو من بني إسرائيل والله تعالى يقول: «من إخوتهم»، ولا يصح أن يكون هذا النبيّ الموعود المسيحعليه السلام؛ إذ هو عند اليهود كذاب والنصارى يزعمونه الرب[4].

٤ ـ وجاء في التوراة قول داودعليه السلام في مزمور له: «إن ربنا عظيم محمود جداً، وفي قرية إلهنا قدوس، ومحمد قد عم الأرض كلها فرحاً»[5]. حيث أورد هذه البشارة كل من الجعفري والقرافي موضحين أنه تم النص فيها على اسم محمدﷺ وبلده التي سميت بقرية الله تعالى، ثم بينت هذه البشارة أن كلمته تعم أهل الأرض[6][7].

---

(١) انظر: المصدر السابق، ص (١٤٥).

(٢) الكتاب المقدس، الإصحاح (١٨/ ١٤ ـ ١٥)، مع اختلاف يسير في اللفظ.

(٣) الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٦٤).

(٤) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/ ٦٥٨).

(٥) الكتاب المقدس، سفر المزامير، الإصحاح (٤٨/ ١، ٢)، ونصها: «عظيم هو الرب وحميد جداً، في مدينة إلهنا جبل قُدْسه جميل الارتفاع فَرَحُ كل الأرض جبل صهيون فَرَحُ أقاصي الشمال مدينة الملك العظيم».

(٦) انظر: المصدر السابق (٢/ ٦٦١)، والأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٧١).

(٧) كما ورد في الحديث عنه ﷺ أنه قال: **«إن الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها وإن**

٥ ـ ومن بشارات التوراة قول داود عليه السلام: «لترتاح البوادي وقراها ولتصير أرض قيدار مروجاً، وتسبح سكان الكهوف ويهتفون من قلل الجبال بمحامد الرب، ويذيعون تسابيحه في الجزائر»[١] حيث أورد هذه البشارة الجعفري[٢] والقرافي[٣]، وساقها مع شيء من الاختلاف اليسير في بعض ألفاظها الخزرجي[٤] والقرطبي[٥].

وقيدار هو ابن إسماعيل جد رسول الله ﷺ، والبوادي المقصود بهم أمة محمد ﷺ. ومَنْ سكان الكهوف وقلل الجبال سوى العرب الذين ينادون من رؤوسها بالآذان والتلبية تمجيداً لله سبحانه وتعالى[٦].

٦ ـ وفي التوراة قال نبيّ الله أشعيا: لتفرح البادية العطشاء، ولتبتهج البراري والفلوات، ولتزهو فإنها ستعطي بأحمد أحسن محاسن لبنان حتى تصير

أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها» أخرجه مسلم، الصحيح، كتاب الفتن، باب هلاك هذه الأمة بعض ببعض، حديث رقم ٢٨٨٩، ص (١١٥٨).

(١) هذا النص أورده الجعفري، وهي في الكتاب المقدس مع اختلاف يسير في اللفظ في سفر أشعيا، الإصحاح (٤٢/ ١١ ـ ١٢).

(٢) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/ ٦٦٢).

(٣) الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٧١).

(٤) انظر: مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، تحقيق د. محمد شامة تحت عنوان بين الإسلام والمسيحية، ص (٢٢٥).

(٥) انظر: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٢٧٣).

(٦) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/ ٦٦٢)، والأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٧١)، والإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٢٧٣)، ومقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، تحقيق د. محمد شامة تحت عنوان بين الإسلام والمسيحية، ص (٢٢٥).

كالدساكر[1] والرياض، وسيرون جلال الله وبهاء إلهنا». حيث ذكر هذه البشارة الجعفري[2]، ومع اختلاف يسير في بعض ألفاظها أوردها الخزرجي والقرافي مبينين أن هذه البشارة نصت على اسمه ﷺ واسم بلده[3]. وقد قال الجعفري بعدها: «أفلا يستحيي من يحجم عن الإسلام من نبيّ الله أشعيا مع إبطال أقواله، ورد أخباره، وتكذيب شهادته، والقدح في رواياته، وأي شك في صدر لبيب بعد سماعه أشعيا ينص على اسم نبيّنا واسم أرضه»[4].

٧ ـ وقال النبيّ أشعيا في مكة شرفها الله: «سُرِّي واهتزي أيتها العاقر التي لم تلد، وانطقي بالتسبيح وافرحي إذ لم تحبلي، فإن أهلك يكونون أكثر من أهلي». حيث ذكر هذه البشارة كل من الجعفري[5] والقرافي[6]، وأوردها مع اختلاف يسير في الألفاظ كل من القرطبي[7] والخزرجي[8].

---

(١) الدساكر جمع دَسْكَرَةُ وهي القرية، والصومعة، والأرض المستوية، وبيوت الأعاجم يكون فيها الشراب والملاهي، انظر: القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مادة دَسَر، ص (٥٠١).

(٢) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/ ٦٧١)، وهي في الكتاب المقدس مع اختلاف يسير في ألفاظها في سفر أشعيا، (٣٥/ ١ ـ ٢).

(٣) انظر: الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٧٥ ـ ١٧٦). ومقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، تحقيق د. محمد شامة تحت عنوان بين الإسلام والمسيحية، ص (٢٢٨).

(٤) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/ ٦٧١).

(٥) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/ ٦٧٤)، وهي في الكتاب المقدس مع اختلاف يسير في ألفاظها في سفر أشعيا، الإصحاح (٥٤/ ١).

(٦) الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٧٦).

(٧) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٢٧٨ ـ ٢٧٩).

(٨) انظر: مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي،

والمراد بالعاقر مكة شرفها الله لأنها لم تلد نبيّاً قبل محمدﷺ، ويقصد بقوله ـ أكثر من أهلي ـ أي أهل بيت المقدس؛ إذ لا يجوز أن يعني بالعاقر بيت المقدس لأنه بيت الأنبياء ومعدن الوحي. ولأن أهل مكة الذين هم على الحق باتباعهم محمدﷺ أكثر من أهل الحق الذين هم على حقيقة التوراة. فيخرج أهل الضلال من اليهود والنصارى[١].

ثانياً: البشارات بمحمدﷺ من الإنجيل:

١ ـ ما ورد من البشارات به بلفظ «الفارقليط»: ومن نصوص الإنجيل في ذلك قول يوحنا الإنجيلي: قال المسيح: «إن الفارقليط روح الحق الذي يرسله أبي هو يعلمكم كل شيء»[٢]. وقول المسيح: «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي، وسأرغب إلى الأب في أن يبعث إليكم البرقليط»[٣]. وقوله: «أنا ذاهب إلى أبي وأبيكم، وربي وربكم، ليبعث لكم البارقليط الذي يأتيكم بالتأويل، وذلك أنه يأخذ من الذي أخذت»[٤]. وقوله: «اللهمّ أبعث الفارقليط ليعلم الناس أن ابن الإنسان بشر»[٥]. وقوله: «إذا جاء الفارقليط الذي أبي أرسله، روح الحق الذي من أبي هو يشهد لي، قلت لكم هذا حتى إذا كان تؤمنوا به ولا تشكوا فيه»[٦].

تحقيق د. محمد شامة تحت عنوان بين الإسلام والمسيحية، ص (٢٧٥).

(١) انظر: الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٧٦).

(٢) هذا النص الذي أورده الجعفري في التخجيل (٢/ ٧٠١)، وورد في الكتاب المقدس مع اختلاف يسير في اللفظ في إنجيل يوحنا، الإصحاح (١٤/ ٢٦).

(٣) هذا النص أورده القرطبي في الإعلام ص (٢٦٨)، وورد في الكتاب المقدس مع اختلاف يسير في اللفظ في إنجيل يوحنا، الإصحاح (١٤/ ١٥ ـ ١٨).

(٤) هذا النص الذي أورده المتطبب في النصيحة الإيمانية، ص (١٣٩)، وحول هذا المعنى ورد في الكتاب المقدس في إنجيل يوحنا، الإصحاح (١٥/ ٢٦ ـ ٢٧)، والإصحاح (١٦/ ١٢، ١٤).

(٥) أورد هذا النص الخزرجي في كتابه مقامع الصلبان، ص (٢٢٠)، ولم أجده في نسخة الكتاب المقدس التي في يدي.

(٦) هذا النص الذي أورده الجعفري في التخجيل (٢/ ٧٠٨)، وورد في الكتاب المقدس مع

قال الجعفري معلقاً على هذه البشارة: «واعلموا أن رسول الله ﷺ قد شهد للمسيح في غير موضع من الكتاب العزيز بالنبوّة والرسالة، وصدقه فيما جاء به من عند الله كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[2]، وقول المسيح هذا يشعر بتقدم رسالة محمد ﷺ، لأن المسيح عليه السلام ذكر ذلك بلفظ الماضي فقال: الله أرسله ولم يقل: إنه يرسله.

ويؤيد ذلك قول النبيّ ﷺ وقد سُئل متى وجبت لك النبوّة؟ فقال عليه السلام: **«كنت نبيّاً وإن آدم لمنجدل في طينته»**[3].

ومعنى كلمة «الفارقليط» التي وردت في هذه البشارات أي الحامد والحماد والمقصود به محمد ﷺ[4]. وهي لفظة رومية تعني باللغة العربية محمد[5][6].

اختلاف يسير في اللفظ في إنجيل يوحنا، الإصحاح (١٥/ ٢٦ ـ ٢٧).

(١) سورة المؤمنون، الآية: (٥٠).

(٢) سورة النساء، الآية: (١٧١).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده حديث رقم (١٧١٥٠)، (٢٨/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠)، قال محققوه: حديث حسن لغيره، وأخرجه بنحوه الحاكم، المستدرك على الصحيحين وبذيله التلخيص للذهبي، وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ٦٠٧ ـ ٦٠٩).

(٤) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/ ٧٠٢).

(٥) انظر: مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، تحقيق د. محمد شامة تحت عنوان بين الإسلام والمسيحية، ص (٢٢١)، والإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٢٦٩).

(٦) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذا اللفظ، لفظ الفارقليط في لغتهم ذكروا فيه أقوالاً: قيل: إنه الحماد، وقيل: الحامد، وقيل: المعز، وقيل: إنه الحمد...» الجواب الصحيح، تحقيق د. علي بن حسن بن ناصر وآخرين (٥/ ٢٨٧)، ثم قرر شيخ الإسلام أن هذه اللفظة والصفات التي ذكرت في سياقها لا تنطبق إلا على محمد ﷺ. انظر: الجواب الصحيح، تحقيق: د. علي بن حسن بن ناصر (٥/ ٢٩٣).

٢ ـ ومن بشارات الإنجيل قول متّى التلميذ: «ألم تقرؤوا أن الحجر الذي أرذله البناؤون صار رأساً للزاوية من عند الله، كان هذا وهو عجيب في أعيننا، ومن أجل ذلك أقول لكم: إن ملكوت الله ستؤخذ منكم وتدفع إلى أمة أخرى تأكل ثمرتها، ومن سقط على هذا الحجر يتخدش، وكل من سقط عليه يمحق»(١).

وقد فسر كل من الجعفري والقرافي هذه البشارة بأن هذه الأمة التي دُفِعَ لها ملكوت الله تعالى بعد نزعه من النصارى هي أمة محمدﷺ، وأن هذا الذي كل

«وكلمة الفارقليط اسم مركب من مقطعين، الأول: Peri، والثاني: Kleitos، مشتق من التمجيد والثناء ويكتب: Periqlytos أو Periqleitos مما يعني تماماً اسم أحمد باللغة العربية أي أكثر ثناءً وحمداً».

انظر: محمد ﷺ كما ورد في كتاب اليهود والنصارى، برفيسور/ عبد الأحد داود، ترجمة محمد فاروق الزين، الطبعة الأولى، الرياض، مكتبة العبيكان، ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧م، ص (١٩٧).

قال د. محمود قدح: «وقد أبدلت لفظة البارقليط في الترجمات الحديثة للأناجيل بألفاظ أخرى مثل: المعزي، المحامي، المعين، المخلص، الوكيل، الشافع، «تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/ ٧٠٣)، وقال د. محمد عبدالله الشرقاوي: «وفي بعض الترجمات أضيف إلى كلمة ـ المعزي ـ روح القدس، حتى تنصرف إلى روح المقدس الذي نزل على التلاميذ بالدار فألهمهم ـ حسبما يقولون ـ ولا تنصرف إلى النبيّ الذي يأتي بعد المسيح وهو محمد ﷺ وتبديل النصارى لكتابهم وتحريفهم له واضح تماماً في هذه النقطة وفي غيرها» النصيحة الإيمانية، نصر بن يحيى المتطبب، تحقيق د. محمد الشرقاوي، ص (١٤٠).

وانظر للتوسع في معنى كلمة الفارقليط: الجواب الصحيح، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق د. علي بن حسن بن ناصر وآخرين (٥/ ٢٨٧) و(٥/ ٣٠٢)، ومحمد ﷺ كما ورد في كتاب اليهود والنصارى، برفيسور عبد الأحد داود، ترجمة محمد فاروق الزين، ص (١٨٣) وما بعدها. وإظهار الحق، رحمة الله الهندي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، دار التراث العربي، القاهرة، ص (٥١١ ـ ٥١٤).

(١) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح، (٢/ ٧١٥)، والأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٧٠).

من غزاه انشدخ، وكل من تولى هو غزوه وقتاله محق ليس إلا محمدﷺ[1][2].

٣ ـ وفي بشارة أخرى في الإنجيل: «قالت امرأة من أولاد يعقوب للمسيح: يا سيد، آباؤنا سجدوا في هذا الجبل، وأنتم تقولون إنه أورشليم؟ فقال المسيح: يا هذه آمني، فإنه ستأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في أورشليم يسجدون للرب»[3]. وقد وضح كل من الجعفري والقرافي هذه البشارة وأن هذا القول من المسيح تنويه بأمر الكعبة. فإن التوجه إليها على يد محمدﷺ نَسَخَ ما عداها، وصار السجود لله تعالى لا إلى أورشليم ولا إلى غيرها بل إلى جهة الكعبة لا غير[4].

٤ ـ ومن بشارات الإنجيل: قول شمعون الصفار رئيس الحواريين: «إنه قد حان أن يبتدىء الحكم من بيت الله ابتداءً». وقد أورد هذه البشارة الجعفري[5] الذي فسرها بقوله: «فبيت الله الذي ذكره الحواري هو الكعبة شرفها الله، ومنها

---

(١) هذا النص أورده الجعفري في التخجيل (٢/ ٧١٥)، والقرافي في الأجوبة الفاخرة، ص (١٧٠)، وورد في الكتاب المقدس مع اختلاف يسير في اللفظ في إنجيل متى، الإصحاح (٢١/ ٤٢، ٤٤).

(٢) قال ابن القيم: «وتأمل قوله في البشارة ـ ألم تر إلى الحجر الذي أخره البناؤون صار رأساً للزاوية، «كيف نجده مطابقاً لقول النبيّ ﷺ: «**ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأتمها إلا موضع لبنة منها. فجعل الناس يطوفون بها ويعجبون منها ويقولون**: «**هلا وضعت تلك اللبنة؟ فكنت أنا تلك اللبنة**». هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، محمد بن أبي بكر «ابن القيم» من مطبوعات الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ص (٦٣). والحديث أخرجه البخاري برقم (٣٥٣٥) ومسلم برقم (٢٢٨٦) مع اختلاف يسير في اللفظ.

(٣) هذ النص أورده الجعفري في التخجيل (٢/ ٧١٣)، وكذلك القرافي في الأجوبة، ص (١٦٨)، وورد في الكتاب المقدس مع اختلاف يسير في اللفظ في إنجيل يوحنا، الإصحاح (٤/ ١٨، ١٩).

(٤) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح، (٢/ ١٧٣).

(٥) أوردها في التخجيل (٢/ ٧١٧)، وجاءت في الكتاب المقدس مع اختلاف يسير في اللفظ في رسالة بطرس الأولى، الإصحاح (٤/ ١٧).

كان ابتداء الحكم الجديد، ولا يحسن تنزيل هذا الكلام على بيت المقدس؛ لأن حكم ذاك كان مستمراً عند صدور هذا الكلام من شمعون. ولا يليق إلا بشرع جديد مبتدأ، ولا يقال فيما كان مستمراً: إنه قد حان أن يبتدأ»[١].

جـ ـ إثبات نبوّته ﷺ من خلال إبراز معجزاته التي أظهرها الله على يديه تأييداً له وتصديقاً لما جاء به. وقد أسهب علماء ذلك العصر في إبراز معجزات النبيّ ﷺ وإيضاحها بشكل عام من خلال مؤلفات خاصة بها. واعتنى آخرون بتفصيلها في معرض الرد على النصارى كأدلة على صدق نبوّته ﷺ، وأملاً في أن تكون سبباً لهداية من شاء الله منهم.

وفيما يلي أمثلة مما أورده علماء ذلك العصر من معجزاته ﷺ في مناقشاتهم وردودهم على النصارى.

أولاً: المعجزات المعنوية[٢]:

أ ـ القرآن الكريم: حيث انصرف جانب من جهود علماء عصر الحروب الصليبية إلى إبراز إعجاز القرآن بشكل عام، فألفوا في ذلك كتباً قصرت الحديث على هذا الجانب فحسب[٣]. واهتم بعضهم في إبراز إعجاز القرآن للنصارى خاصة وذلك في معرض مناقشاتهم معهم من خلال إثبات إعجازه بحفظه وسلامته من التحريف والتبديل، ومن خلال فصاحته التي عجز العرب الفصحاء عن الإتيان بمثلها، ومن خلال طريقة نظمه وأسلوبه الغريب، أو إخباره عن بعض المغيبات فتقع كما أخبر، إلى غير ذلك من وجوه الإعجاز[٤].

---

(١) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٧١٧/٢ ـ ٧١٨).

(٢) عرضت بعض معجزاته ﷺ التي أبرزها علماء ذلك العصر في ردودهم على النصارى بحسب تقسيم ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ وذلك باعتبار المدركين لها، حيث قسمها إلى معنوية وحسية.

(٣) انظر: أمثلة على ذلك في المطلب الثالث في المبحث الأول من هذا الفصل.

(٤) انظر: أمثلة على ذلك في المطلب الثالث في المبحث الأول من هذا الفصل.

فلا يكاد يخلو مؤلف موجه للنصارى في هذه الفترة من الإشارة إلى القرآن بصفته معجزة لرسول الله ﷺ، وإبرازه وجوه إعجازه.

فمن ذلك مثلاً أنه بعد ما رد ابن الإنباري على النصارى في كتابه الداعي إلى الإسلام عقد فصلاً في إثبات نبوّة محمد ﷺ من خلال تأييده بالمعجزات التي أعظمها القرآن الكريم حيث قال: «... وقد ظهر على يده من المعجزات أكثر من ألف معجزة أعظمها وأبقاها على مرور الدهور والأزمان القرآن المعجز للأولين والآخرين»(١). ثم وضح بعد ذلك شيئاً من وجوه إعجازه.

وقد ألزم القرافي النصارى بالإيمان بنبوّة محمد ﷺ لأنه جاء بأعظم معجزة وهي القرآن، جاء بذلك في زمن الفصحاء وتحداهم به وعجزوا عن الإتيان بمثله. ثم قرر بعد ذلك أن المعجزة تفيد النبوّة، فإن أنكروا ذلك لزمهم إنكار نبوّة موسى عليه السلام لأنه جاء أيضاً بمعجزة وصدقوه بها(٢).

وبعد أن ذكر الجعفري نماذج من بشارات التوراة والإنجيل بمحمد ﷺ، تحدث عن معجزاته ودلائل نبوّته مبتدئاً بالقرآن الكريم وموضحاً وجوه إعجازه(٣).

ثم بين عدم استطاعة النصارى المنازعة في كون النبيّ ﷺ قد جاء بهذا القرآن مع كونه أمياً نشأ بأرض لا علوم بها ولا معارف. إذ هم محجوجون بالتواتر. فلو جاز أن يتطرق الشك إلى ذلك لجاز أيضاً على سائر معجزات الرسل عليهم السلام(٤).

ب ـ أخلاقه ﷺ وسيرته وقرائن أحواله: فما جبله الله عليه من الخلق

---

(١) الداعي إلى الإسلام، عبد الرحمن بن محمد الأنباري، تحقيق: سيد حسين باغجوان، ص (٣٩٣).

(٢) انظر: الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٤٣).

(٣) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح، (٢/ ٧٢٧).

(٤) الرد على النصارى، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمد محمد حسانين، ص (٩٥).

العظيم الذي وصفه الله به بقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾[1]، كالزهد في الدنيا، والعلم، والحكمة، والبيان، والتواضع، والرحمة، والوقار، والهيبة حتى وصل درجة الكمال في ذلك كله، هذا ولا شك من أعظم الدلائل على صدق نبوّته ﷺ[2].

ولم يغفل كثير من علماء ذلك العصر في مناقشاتهم مع النصارى ذلك الأمر بوصفه أحد الأدلة على صدق نبوّته ﷺ. فبعد أن ناقش ابن الأنباري بعض عقائد النصارى عقد فصلاً في معجزاته ﷺ مبرزاً أخلاقه وسيرته كأحد الأدلة على صدقه ﷺ حيث قال: «. . . فمنذ أن نشأ يافعاً إلى أن بلغ شاباً لم يطلع منه بشر على خلة تنافي العصمة في قول أو فعل أو حال ينكرها ذو دين أو عقل. . . ولا خفاء على ذي عقل ولب أن عصمة الصبيان والشبان في كل قول وفعل وحال، خارق للعادة. ومن كان بهذه المثابة في حال صغره وشبيبته فكيف في حال كبره ونبوّته؟[3].

ثم قال: «. . . وأحواله كلها معجزة خارقة للعادة، وكل نبيّ من الأنبياء كان له معجزة أو معجزات يسيرة، وهذا النبيّ الكريم محمد بن عبدالله بن عبد المطلب صلوات الله عليه كل أحواله معجزات دالة على نبوّته ناطقة بتصديق رسالته، فقرائن أحواله كافية لمن نظر وتدبر، مغنية لمن تأمل واستبصر. . .»[4].

ثانياً: المعجزات الحسية:

وهي كثيرة جداً، وقد اهتم علماء ذلك العصر بالاستشهاد بها على صحة نبوّة محمد ﷺ وصدق رسالته. وذلك في معرض مناقشاتهم للنصارى والرد عليهم، ومن أبرز هذه المعجزات:

---

(١) سورة القلم، الآية: (٤).

(٢) انظر: أمثلة على ما ألف في أخلاق المصطفى وشمائله في معجم ما ألف عن رسول الله ﷺ. د. صلاح الدين المنجد، ص (١٨٤) وما بعدها وص (١٩٢) وما بعدها.

(٣) الداعي إلى الإسلام، عبد الرحمن بن محمد الأنباري، تحقيق: سيد حسين باغجوان، ص (٤٦٣).

(٤) المصدر السابق، ص (٤٦٥).

أ ـ انشقاق القمر: حيثُ ذُكرت هذه المعجزة في الكتاب العزيز، قال الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾[1].

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «**انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين فقال ﷺ: اشهدوا**»[2].

وقد علق الجعفري على ذلك بأنه إذا طعن في هذه المعجزة نصراني أن يقال له: «ما حجتك على انشقاق حجاب الهيكل عند صلب الشبه الذي أشركته مع الله في الربوبية؟ فإذا قال: النقل الصحيح والخبر الصريح، قلنا: من أصار عباد الصلبان والعجول أولى بالقبول من أخبار الموحدين العدول!؟»[3].

وخاطب كل من القرطبي والخزرجي النصارى موضحين أن انشقاق القمر أعظم من انشقاق البحر لموسى عليه السلام ـ وإن كان عظيماً[4] ـ وهم يؤمنون بذلك. وهذا إلزامٌ منهما للنصارى بالتصديق بمعجزة انشقاق القمر، ومن ثم الإيمان بمن جاء بها وهو محمد ﷺ.

ب ـ نبع الماء من بين أصابعه ﷺ: حيث تكررت هذه المعجزة منه ﷺ مرات عديدة. فمن ذلك:

---

(١) سورة القمر، الآيتان: (١ ـ ٢).

(٢) أخرجه البخاري، الصحيح، كتاب المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النبيّ ﷺ آية، حديث رقم ص (٦٩٤)، (٣٦٣٦) ومسلم، الصحيح، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب انشقاق القمر، حديث رقم ٢٨٠٠، ص (١١٢٦).

(٣) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/ ٧٣٣).

(٤) انظر: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٣٥٠). ومقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، تحقيق د. محمد شامة بعنوان «بين الإسلام والمسيحية»، ص (١٩٩).

ما رواه أنس رضي الله عنه قال: «أتي النبيّ ﷺ بإناء وهو بالزوراء[1]، فوضع يده في الإناء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ القوم»[2].

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: عطش الناس يوم الحديبية، والنبيّ ﷺ بين يديه ركوة فتوضأ، فجهش الناس نحوه، فقال: ما لكم. قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك، فوضع يده في الركوة، فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا...»[3].

وقد أورد كلّ من الجعفري[4] والخزرجي[5] والقرطبي[6] وابن الأنباري[7] أمثلة على ذلك في معرض ردودهم على النصارى.

ثم خاطب الجعفري المعاند من النصارى في مثل هذه المعجزة بأن لا سبيل له في إثبات معجزات عيسى عليه السلام إلا بالرواية، إذاً فما الذي جعلكم أيها

---

(١) الزرواء: البئر البعيدة القعر، وأرض زوراء أي بعيدة، واسم للجانب الغربي من بغداد، وهي هنا موضع عند سوق المدينة في العصر النبويّ قرب المسجد. وقيل: بل هي سوق المدينة نفسه.

انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٣/ ١٧٥).

(٢) أخرجه البخاري، الصحيح، كتاب المناقب، باب علامات النبوّة في الإسلام، حديث رقم ٣٥٧٢، ص (٦٨٤). وبنحوه مسلم، الصحيح، كتاب الفضائل، باب في معجزات النبيّ ﷺ، حديث رقم ٢٢٧٩، ص (٩٣٥).

(٣) أخرجه البخاري، الصحيح، كتاب المناقب، باب علامات النبوّة في الإسلام، حديث رقم ٣٥٧٦، ص (٦٨٤).

(٤) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/ ٧٣٦)، وما بعدها.

(٥) انظر: مقامع الصلبان ومراتع أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، تحقيق: د. محمد شامة، بعنوان «بين الإسلام والمسيحية»، ص (١٩٩ ـ ٢٠٠).

(٦) انظر: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٣٥١ ـ ٣٥٤).

(٧) انظر: الداعي إلى الإسلام، عبد الرحمن بن محمد بن الأنباري، تحقيق سيد حسن باغجوان، ص (٤٣٨).

النصارى أحق بما تروون منا - نحن المسلمين - بما نروي عن ثقاتنا(١).

جـ - تكثير الطعام اليسير ببركته ﷺ: وقد تكرر ذلك مراراً منه ﷺ، وشهد عليه ونقله الجم الغفير من الصحابة رضوان الله عليهم. ومن الأمثلة على ذلك ما رواه جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ أطعم يوم الخندق من طعام جابر - وهو صاع شعيرٍ وعناق ألف رجل. يقول جابر رضي الله عنه: «... أقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا وإن البرمة لتغط كما هي وإن العجين ليخبز»(٢).

وحينما بنى الرسول ﷺ بزينب رضي الله عنها، جاء أنس رضي الله عنه بحيسة فأمره ﷺ أن يضعها وقال له: «ادع لي رجالاً سماهم، وادع لي من لقيت، قال: ففعلت الذي أمرني به، فرجعت فإذا البيت غاص بأهله، فرأيت النبيّ ﷺ وضع يده على تلك الحيسة وتكلم بها ما شاء، ثم جعل يدعو عشرة عشرة، يأكلون منه...»(٣).

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه حين أصابه الجوع فاستتبعه النبيّ ﷺ فوجد قدحاً من لبن قد أهدي إلى رسول الله ﷺ، فأمره عليه السلام أن يدعو أهل الصفة، قال: فقلت في نفسي: ما هذا القدح فيهم، كنت محتاجاً أن أصيب منه شربةً أتقوى بها، فدعوتهم، فقال: ٱسقهم، فشربوا حتى رووا من عند آخرهم، ثم قال ﷺ: بقيت أنا وأنت يا أبا هريرة، اقعد فاشرب، فما زلت أشرب ورسول الله ﷺ يقول: اشرب حتى قلت: والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكاً، فأخذ القدح وسمى الله تعالى وشرب الفضلة(٤).

---

(١) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/ ٧٤٢).

(٢) أخرجه البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، حديث رقم (٤١٠٢)، ص (٧٨٠). ومسلم، الصحيح، كتاب الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك. حديث رقم (٢٠٣٩)، ص (٨٤٣ - ٨٤٤).

(٣) أخرجه البخاري، الصحيح، كتاب النكاح، باب الهدية للعروس، حديث رقم ٥١٦٣، ص (١٠٢٣). ومسلم بنحوه، الصحيح، كتاب النكاح، باب زواج زينب بنت جحش، حديث رقم ١٤٢٨، ص (٥٦٥ - ٥٦٦).

(٤) انظر: صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبيّ ﷺ، حديث رقم ٦٤٥٢، ص (١٢٣٩).

وقد أورد هذه الأمثلة وغيرها الجعفري[1] الذي قرر أن أهل الكتاب عموماً لا يستطيعون إنكار مثل هذه المعجزات، لأن نظيرها نقل عن أنبيائهم، وطريقها في الإثبات ما يدعونه من الأخبار الصحيحة، وهكذا في معجزات نبيّنا محمدﷺ، فإن رام أحدهم قدحاً في أخبارنا لم ينفك من عكس ذلك عليه[2].

وكذلك ساق الخزرجي[3] والقرطبي[4] شواهد كثيرة من هذا القبيل، حيث يقول القرطبي بعد إيراده لها: «وهذا النوع من المعجزات من قبيل ما نقلت النصارى عن عيسىعليه السلام في الإنجيل... فإن اعترضت اليهود والنصارى على هذا النوع من معجزات نبيّناعليه السلام، عارضناهم بذلك في معجزات أنبيائهم، وبالذي ينفصلون عن ذلك به، بعينه ننفصل عن معجزات نبيّنا»[5].

د ـ ومن معجزاتهﷺ كلام الجمادات: ومن أبرز الأمثلة على ذلك قول ابن عمررضي الله عنهما: «كان النبيّﷺ يخطب إلى جذع، فلما اتخذ المنبر تحول إليه، فحن الجذع، فأتاه فمسح يده عليه»[6].

وتسبيح الطعام بين يديه وهو يؤكل حيث سمع ذلك من حضر من الصحابةرضي الله عنه: «... ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل»[7].

---

(١) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/ ٧٤٢).

(٢) انظر: المصدر السابق (٢/ ٧٤٨).

(٣) انظر: مقامع الصلبان ومراتع أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، تحقيق د. محمد شامة، بعنوان «بين الإسلام والمسيحية». ص (٢٠٥ ـ ٢٠٦).

(٤) انظر: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٣٥٤) وما بعدها.

(٥) المصدر السابق، ص (٣٥٦).

(٦) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوّة في الإسلام، حديث رقم (٣٥٨٣)، ص (٦٨٦).

(٧) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوّة في الإسلام، حديث رقم (٣٥٧٩)، ص (٦٨٥).

وتسليم الحجر عليه، فعن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن**»[(١)].

حيث أورد هذه الأمثلة وغيرها كل من الجعفري[(٢)] والقرطبي[(٣)] وأشار إلى بعضها القرافي[(٤)] وذلك في سياق الحديث عن معجزاته ﷺ كأحد الأدلة على نبوّته ﷺ.

هـ ـ ومن معجزاته ﷺ اضطراب الجبل لهيبته وسكوته بأمره، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «صعد رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان أحداً فرجف بهم، فقال ﷺ: **اثبت أحد فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان**»[(٥)].

و ـ ومن أشهر معجزاته إخباره عن بعض أمور الغيب فتقع كما أخبر ﷺ. ومن الأمثلة على ذلك والتي أوردها بعض علماء ذلك العصر في مناقشاتهم مع النصارى ما يلي:

إخباره عن فاطمة رضي الله عنها أنها أول أهل بيته لحوقاً به، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: دعا النبيّ ﷺ فاطمة ابنته في شكواه الذي قبض فيها، فسارها بشيء فبكت، ثم دعاه فسارها فضحكت، قالت: فسألتها عن ذلك، فقالت: سارّني النبيّ ﷺ فأخبرني أنه يقبض في وجعه الذي توفي فيه، فبكيت، ثم سارني فأخبرني أني أول أهل بيته اتبعه، فضحكت»[(٦)].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبيّ ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوّة، حديث رقم (٢٧٧٧)، ص (٩٣٥).

(٢) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/ ٧٤٨ ـ ٧٥٧).

(٣) انظر: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٣٥٦)، وما بعدها.

(٤) انظر: الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٤٤).

(٥) أخرجه البخاري، الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبيّ ﷺ: «**لو كنت متخذاً خليلاً**»، حديث رقم (٣٦٧٥)، ص (٧٠٢).

(٦) أخرجه البخاري، الصحيح، كتاب المناقب، باب علامات النبوّة في الإسلام، حديث

وإخباره بما يفتح الله على يدي أمته من الدنيا وما يؤتون من زهرتها، حيث قال: «. . . فأبشروا وأملوا ما يسركم، فوالله لا الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم»[١].

وإخباره بزوال ملك قيصر، وملك كسرى، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفس محمد بيده، لتنفقن كنوزهما في سبيل الله»**[٢].

ومن ذلك إخباره بأن عماراً رضي الله عنه تقتله الفئة الباغية كما قال ﷺ: **«... ويح عمار، تقتله الفئة الباغية...»**[٣].

وأن الحسن رضي الله عنه يصلح به الله بين فئتين من المسلمين، كما قال ﷺ: **«... إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين»**[٤].

وإخباره عن مصارع أهل بدر قبل كونها[٥]، وحديثه عن الخوارج ووصفهم

رقم (٣٦٢٥)، ص (٦٩٢ ـ ٦٩٣). ومسلم بنحوه، الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل فاطمة ـ رضي الله تعالى عنها ـ، حديث رقم (٢٤٥٠)، ص (٩٩٤).

(١) أخرجه البخاري، الصحيح، كتاب الجزية والموادعة، باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة الحرب، حديث (٣١٥٦)، ص (٦٠٥)، ومسلم الصحيح، كتاب الزهد والرقائق، حديث رقم (٢٩٦١)، ص (١١٨٨).

(٢) أخرجه البخاري، الصحيح، كتاب المناقب، باب علامات النبوّة في الإسلام، حديث رقم (٣٦١٨). ص (٦٩٢)، ومسلم بنحوه، الصحيح، كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل، حديث رقم (٢٩١٨)، ص (١١٧٠).

(٣) أخرجه البخاري، الصحيح، كتاب الصلاة، باب التعاون في بناء المسجد، حديث رقم (٤٤٧)، ص (١٠٧).

(٤) أخرجه البخاري، الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب الحسن والحسين، حديث رقم (٣٧٤٦)، ص (٧١٥).

(٥) انظر: صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة بدر، حديث رقم (١٧٧٩)، ص (٧٣٩ ـ ٧٤٠).

بصفاتهم والمخدج الذي فيهم[1].

وغير ذلك مما لا يمكن حصره، حيث وقع كل ما أخبر بهﷺ. وهذا من أظهر الأدلة على نبوّتهﷺ. حيث ساق هذه الأمثلة وغيرها كل من الجعفري والقرطبي في معرض ردهم على النصارى.

ز ـ ومن أدلة نبوّته ما أظهره الله سبحانه وتعالى على أيدي أصحابه من الكرامات في حياتهﷺ وبعد مماته[2]. حيث وضح القرطبي نماذج لذلك منها: ظهورهم ونصرهم على أعدائهم مع قلتهم وكثرة أعدائهم، وما أجراه الله سبحانه وتعالى على أيدي بعضهم من الكرامات[3]. وذلك: «آية لرسول الله ﷺ من أعظم الآيات وذلك أن الله تعالى إذا أكرم واحداً منهم بأن خرق له عادة فإن ذلك يدل على أنه الحق وأن دينه الحق...»[4].

ثم عقب القرطبي على كرامات الصحابة بقوله: «أقول للنصارى: وليست هذه الأمور العجيبة، والأفعال الغريبة من قبل الحيل والنيرجات التي تعظمون بها أديانكم، وتموهون بها على عوامكم...»[5].

وقال الجعفري: «ففي صدور الكرامات والآيات على يد الأتباع برهان

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوّة في الإسلام، حديث رقم (٣٦١٠)، وصحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، حديث رقم (١٠٦٤).

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن كرامات الأولياء هي من دلائل النبوّة، فإنها لا توجد إلا لمن اتبع النبيّ الصادق، فصار وجودها كوجود ما أخبر به النبيّ من الغيب... وكرامات الصالحين تدل على صحة الدين الذي أخبر به الرسول، لا تدل على أن الولي معصوم. مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد (٣/١٥٦).

(٣) انظر: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٣٨١).

(٤) المصدر السابق، ص (٣٨١).

(٥) المصدر السابق، ص (٣٨٤).

ظاهر على صدق المتبوع»[1]. ثم أورد بعد ذلك نماذج من كرامات الصحابة رضي الله عنهم، منها:

ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن رجلين خرجا من عند رسول الله ﷺ في ليلة مظلمة وإذا نور بين أيديهما حتى تفرقا فتفرق النور معهما»[2]. وهذان الرجلان هما أسيد بن حضير وعباد بن بشر رضي الله عنهما[3].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «رأيت رسول الله ﷺ يوم أحد، ومعه رجلان يقاتلان عنه، عليهما ثياب بيض كأشد القتال ما رأيتهما قبل ولا بعد»[4]. يعني جبريل وميكائيل عليهما السلام.

ومن ذلك: أن البراء بن مالك رضي الله عنه لقي جيشاً من المشركين «... وقد أوجع المشركون في المسلمين. فقالوا: يا براء، إن رسول الله ﷺ قال: إنك لو أقسمت على الله لأبرك، فأقسم على ربك، فقال: أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم. ثم التقوا على قنطرة السوس فأوجعوا في المسلمين. فقالوا: يا براء، أقسم على ربك، فقال: أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم، وألحقتني بنبيّك ﷺ. فمنحوا أكتافهم وقُتل البراء شهيداً»[5].

الجانب الثاني: الدعوة إلى الإيمان بمحمد ﷺ من خلال رد الشبه التي

---

(١) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/ ٨٦٦).

(٢) أخرجه البخاري، الصحيح، كتاب مناقب الأنصار، باب منقبة أسيد بن حضير وعباد بن بشر، حديث رقم (٣٨٠٥)، ص (٧٢٣).

(٣) انظر: المصدر السابق، ص (٧٢٣).

(٤) أخرجه البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، باب إذ همت طائفتان منكم، حديث رقم (٤٠٥٤)، ص (٧٧٠)، ومسلم، الصحيح، كتاب الفضائل، باب في قتال جبريل، حديث رقم (٢٣٠٦)، ص (٩٤٤).

(٥) أخرجه الحاكم، المستدرك على الصحيحين، وبذيله التلخيص للذهبي، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، (٣/ ٢٩١ ـ ٢٩٢).

أثارها النصارى حول شخصه أو صدق نبوّته[1]. ولا شك في أن الشبه التي يثيرها النصارى حول رسول الله ﷺ لها أكبر الأثر في صد الكثيرين من بني ملتهم عن تصديقه والإيمان بنبوّته.

وإزالة هذه الشبه يجلو الغبش عن العقل، فيكون ذلك أدعى للتسليم والتصديق به ﷺ.

وقد انبرى كثير من علماء عصر الحروب الصليبية للرد على علماء النصارى الذين جعلوا رسول الله ﷺ ونبوّته غرضاً لهم، فاستفرغوا الوسع في تفنيد شبههم، ورد باطلهم، انتصاراً لرسول الله ﷺ، وطمعاً في هداية من كانت مثل هذه الشبه حجاباً بينه وبين قبول الحق.

---

(١) سيأتي تفصيل هذه الشبه ونماذج من جهود العلماء المسلمين في تفنيدها في تلك الفترة وذلك في المبحث الثالث من هذا الفصل.

المطلب الخامس

الدعوة إلى الإيمان بنبوّة المسيح عليه السلام

لقد اعتنى الإسلام بالمسيح عيسى ابن مريم عليه السلام بصفته أحد أولي العزم من الرسل. فجاء القرآن بتكريمه وأمه وحتى عائلته. وصحح الأخطاء، ورد الاتهامات والافتراءات الباطلة التي كان يوجهها اليهود والنصارى للمسيح وأمه.

فمن تكريم القرآن للمسيح عليه السلام أن جاءت إحدى السور باسم عائلته وهي سورة آل عمران، وسورة أخرى هي سورة مريم باسم أمه التي ورد اسمها في القرآن في مواضع كثيرة. كلها تتحدث عنها بكل التقدير والتبجيل. ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾[2].

وتحدث القرآن عن حياة المسيح عليه السلام منذ ولادته وحتى رفعه إلى السماء، فهو بشر مخلوق عبد للخالق عزّ وجلّ، قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾[3]، وهو نبي ورسول من عند الله عزّ وجلّ، قال

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (٤٢).

(٢) سورة التحريم، الآية: (١٢).

(٣) سورة الزخرف، الآية: (٥٩).

تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾[(1)]، والمسيح بارٌّ بوالدته وليس بجبار ولا شقي، قال تعالى: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾[(2)]، وهو قدوة صالحة في العبادة والإخلاص لله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾[(3)]، وقد أرسله الله إلى بني إسرائيل وأيده بالمعجزات التي منها إبراء الأكمة والأبرص، وإحياء الموتى، ونزول المائدة من السماء وغير ذلك، قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾[(4)]. ولما بلَّغ رسالة ربه وأراد به أعداؤه كيداً نجاه الله من كيدهم، فتوفاه ورفعه إليه: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾[(5)]. وقال سبحانه: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ﴾[(6)].

هذا هو مجمل اعتقاد المسلمين بالمسيح عليه السلام، وقد ضل النصارى في ذلك ضلالاً بعيداً بجعلهم المسيح عيسى عليه السلام ابناً لله تعالى الله عن ذلك، قال سبحانه: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ﴾[(7)]، بل ادعوا أن الله سبحانه هو المسيح ابن مريم قال جلّ وعلا: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ﴾[(8)].

وقد كانت نبوّة المسيح عليه السلام منذ ظهور الإسلام إلى الوقت الحاضر من

---

(١) سورة المائدة، الآية: (٧٥).

(٢) سورة مريم، الآية: (٣٢).

(٣) سورة مريم، الآيتان: (٣٠ ـ ٣١).

(٤) سورة آل عمران، الآية: (٤٩).

(٥) سورة آل عمران، الآية: (٥٥).

(٦) سورة النساء، الآية: (١٥٧).

(٧) سورة التوبة، الآية: (٣٠).

(٨) سورة المائدة، الآية: (١٧).

القضايا الرئيسة التي تناولها العلماء المسلمون في مناقشاتهم مع النصارى رجاء هدايتهم للحق في ذلك.

وقد اعتنى العلماء في عصر الحروب الصليبية ببيان ذلك للنصارى ودعوتهم إلى الإيمان بنبوّته عليه السلام، ونبذ معتقداتهم الباطلة حوله، وذلك من خلال ما يلي:

١ ـ الدعوة إلى الإيمان بنبوّة المسيح عليه السلام من خلال بيان معتقد المسلمين فيه على الإجمال: فما كتب أحد من علماء هذا العصر في مناقشة النصارى إلا ووضح معتقد المسلمين في المسيح عليه السلام، ونعي على النصارى ضلالهم في ذلك.

قال ابن الجوزي عند قوله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾[١]: فيه رد على اليهود في تكذيبهم رسالته، وعلى النصارى في ادعائهم إلهيته، والمعنى: أنه ليس بإله وإنما حكمه حكم من سبق من الرسل...»[٢].

وقال البغوي[٣]: «أي ليس بإله بل هو كالرسل الذين مضوا لم يكونوا آلهة»[٤].

وقال الرازي: «أي ما هو إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبل»[٥].

---

(١) سورة المائدة، الآية: (٧٥).

(٢) زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن الجوزي، تحقيق د. محمد بن عبد الرحمن عبدالله وزميله، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧م، (٢/ ٣٠٦).

(٣) هو الحسين بن مسعود بن محمد الفراء البغوي، فقيه محدث مفسر، نسبته إلى بغا من قرى خراسان، يلقب بمحيي السنة، من كتبه: التهذيب في الفقه وشرح السنة في الحديث وغير ذلك، كان مولده سنة ٥٣٦ هـ، ووفاته بمرو الروذ سنة ٥١٠ هـ.
انظر: طبقات الشافعية الكبرى، عبد الوهاب بن علي السبكي، تحقيق عبد الفتاح الحلو وزميله (٧/ ٧٥ ـ ٨٠)، والنجوم الزاهرة، يوسف بن تغري بردي (٥/ ٢٢٣).

(٤) معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق محمد عبدالله النمر وآخرين، دار طيبة، الرياض، ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩م، (٣/ ٨٢).

(٥) التفسير الكبير، محمد بن عمر الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، المجلد السادس، والجزء الثاني عشر، ص (٥١ ـ ٥٢).

وعند قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾[1] قال: «واعلم أن المقصود من ذلك الاستدلال على فساد قول النصارى»[2] أي نفيهم نبوّته وادعائهم الألوهية له.

وهكذا كل مفسري هذا العصر لم يغفلوا بيان عقيدة المسلمين في المسيح عليه السلام، وفضح ضلال النصارى فيه وذلك في تفسيرهم للآيات التي تتحدث عن عيسى عليه السلام أو النصارى بشكل عام[3].

وبعد أن بين القرطبي حيرة اليهود والنصارى في عيسى عليه السلام، وتضارب أقوالهم حوله، وضّح رحمة الله سبحانه وتعالى ومنّه علينا ـ نحن المسلمين ـ وعلى النصارى بأن بعث سيد المرسلين لينزه الله المسيح وأمه على لسان نبيه مما قالته اليهود فيهما، ويشهد ببراءتهما مما نسب إليهما، قال سبحانه: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾[4][5]. ثم ذكر القرطبي النصارى بموقف النجاشي[6] من عقيدة المسلمين بعيسى عليه السلام حينما أخبره

---

(١) سورة المائدة، الآية: (٧٥).

(٢) التفسير الكبير، محمد بن عمر الرازي، المجلد السادس، الجزء الثاني عشر، ص (٥٢).

(٣) انظر على سبيل المثال: تفسير قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ... إلى قوله: ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ في المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق بن عطية الأندلسي، تحقيق المجلس العلمي بفاس، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (١١/ ١٩) وما بعدها، وزاد المسير، عبد الرحمن بن الجوزي (٥/ ١٥١) وما بعدها، ومعالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، (٥/ ٢٢٢) وما بعدها. والتفسير الكبير، محمد بن عمر الرازي، المجلد الحادي عشر، الجزء الحادي والعشرين، ص (١٦٧)، وما بعدها.

(٤) سورة المائدة، الآية: (٧٥).

(٥) انظر: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد واولأهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٤).

(٦) النجاشي: ملك الحبشة، واسمه أصحمة، مخضرم آمن بالنبيّ ﷺ ولم يره، وآوى الصحابة المهاجرين إلى الحبشة، توفي سنة تسع من الهجرة وصلى عليه النبيّ ﷺ صلاة الغائب، ولم يصل على غائب سواه.

بها جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه بقوله: «نقول فيه ـ أي المسيح عليه السلام ـ الذي جاء به نبيّنا ﷺ، وهو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، فلما سمع النجاشي ذلك ضرب بيده الأرض، وأخذ عوداً منها، وقال: ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود. فتناخرت بطارقة حوله فقال: «وإن نخرتم والله»[(١)].

ثم خاطب القرطبي النصارى بعد ذلك قائلاً: «... فهذا ـ أي رأي النجاشي ـ قول أهل العلم من قبلكم، العارفين بشريعتكم، وما عدا ذلك فشجرته غثاء... ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾[(٢)(٣)].

وقد دعا الخزرجي القسيس الذي طلب منه الإيمان بألوهية عيسى إلى الإيمان بنبوّته بعد إيضاح عقيدة المسلمين فيه عليه السلام حيث قال: «ونحن بالمسيح ابن مريم رسول الله أولى، قدرناه حق قدره، وقلنا بفضله المعلوم وفخره، واعتقدناه بمنزلة تقبلها الأفهام، وتليق بالعقول...» ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾[(٤)]، وتبرأنا من قوم غدوا فيه على طرفي نقيض: مفتون به ضال، وظالم بغيض...»[(٥)]. ثم دعاه إلى الإيمان بنبوّة المسيح عليه السلام

انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الكتاب العربي، بيروت، (١/ ١١٧). وسير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي، (١/ ٤٢٨)، وما بعدها.

(١) انظر: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٢٥٦ ـ ٢٥٨)، وخبر النجاشي أخرجه الإمام أحمد، المسند، حديث رقم (١٧٤٠)، (٣/ ٢٦٣ ـ ٢٦٨) وقال محققوه: إسناده حسن.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: (٢٦).

(٣) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٢٥٨).

(٤) سورة النساء، الآية: (١٧٢).

(٥) مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، تحقيق د. محمد شامة تحت عنوان بين الإسلام والمسيحية، ص (١٢٨).

قائلاً: «. . . ما أزين بك أن تقول: إن الله خلق عيسى وأمه آية للناس، عبداً ورسولاً، وهي صديقة مباركة وكانا يأكلان الطعام. . .»(1).

٢ ـ الدعوة إلى الإيمان بنبوّة المسيح عليه السلام من خلال ذكر الأدلة على ذلك من كتب النصارى:

أ ـ تصريح المسيح نفسه في الإنجيل بأنه نبيّ مرسل من الله سبحانه وتعالى، حيث أورد ابن الأنباري نقولاً من الإنجيل صرح فيها المسيح عليه السلام بعبوديته ونبوته. ومن ذلك قول المسيح للحواريين: «. . . أخرجوني من هذه المدينة، فإنه ما أكرم نبيّ في مدينته»(2)(3)، حيث أورد هذا النص مع شيء من الاختلاف اليسير الخزرجي في إثباته لنبوّة المسيح عليه السلام(4).

ب ـ شهادة بعض أنبياء بني إسرائيل له بالنبوّة: ومنهم أشعيا. قال لوقا: «جاء يسوع إلى الناصرة حيث تربى، ودخل كعادته في مجامعهم يوم السبت ليقرأ فدفع إليه سفر أشعيا النبيّ، فلما فتحه إذا فيه مكتوب (روح الرب عليّ من أجل هذا مسحني وأرسلني لأبشر المساكين، وأشفي منكسري القلوب، وأنذر المأسورين بالتخلية، والعميان بالنظر، وأبشر بالسنة المقبولة) ثم طوى السفر ودفعه إلى الخادم فجعلوا ينظرون إليه، فقال: اليوم كمل هذا المكتوب في سماعكم. . .»(5).

---

(١) المصدر السابق، ص (١٣٠).

(٢) هذا النص الذي أورده ابن الأنباري في كتابه: الداعي إلى الإسلام، ص (٣٧٩)، وقد ورد في الكتاب المقدس بمعناه في إنجيل يوحنا، الإصحاح (٤/ ٤٣ ـ ٤٤).

(٣) انظر: الداعي إلى الإسلام، عبد الرحمن بن محمد الأنباري، تحقيق سيد حسن باغجوان، ص (٣٧٩).

(٤) انظر: مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، تحقيق د. محمد شامة تحت عنوان بين الإسلام والمسيحية، ص (١٣١).

(٥) هذا النص أورده الجعفري في التخجيل (١/ ١٩٧ ـ ١٩٨)، وورد في الكتاب المقدس في إنجيل لوقا، الإصحاح (٤/ ١٦ ـ ٢٤)، وذلك بألفاظ مقاربة.

قال الجعفري معلقاً على ذلك: «فهذه نبوءة من أشعيا على تصديق المسيح ودعوى النبوّة والرسالة»[1].

وسمع يوحنا ـ يحيىعليه السلام ـ وهو في السجن بأعمال المسيح فأرسل إليه اثنين من تلاميذه وقال: قولوا له: أنت الآتي أو يرجى آخر؟ فقال يسوع: اذهبا وأخبرا يوحنا بما رأيتما وسمعتما، العمي يبصرون، والعرج يمشون، والبرص يطهرون، والصم يسمعون، والموتى يقومون، فطوبى لمن لم يشك في. . .»[2].

حيث وضح الجعفري أن حديث نبيّ الله يحيى بن زكريا هذا، شهادة منه للمسيحعليه السلام بالنبوّة والرسالة، فهوعليه السلام أرسل يسأل عن النبوّة ـ أأنت الآتي أو يرجى آخر ـ، وأحاله المسيح على رؤية الخوارق والتي هي من أعلام النبوّة[3].

جـ ـ شهادة بعض تلامذته وحوارييه له بالنبوّة: فهذا يوحنا الإنجيلي تلميذ المسيحعليه السلام وحبيبه وأحد مدوني الإنجيل يقول: «كان الناس إذا رأوا يسوع وسمعوا كلامه يقولون: هذا النبيّ حقاً»[4]. قال الجعفري: «هذا هو يوحنا الإنجيلي الذي يسمى حبيب المسيح يشهد بنبوّته، وهو أحسن أقوال أهل زمانه فيه»[5].

وجاء في الإنجيل قول يوحنا الإنجيلي: «قال المسيح لتلاميذه: من قبلكم

---

(١) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (١/ ١٩٨).

(٢) هذا النص أورده الجعفري في التخجيل (١/ ١٨٢)، وقد ورد في الكتاب المقدس بألفاظ مقاربة في إنجيل متى، الإصحاح (١١/ ٢ ـ ١٩).

(٣) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (١/ ١٨٢ ـ ١٨٣).

(٤) هذا النص أورده الجعفري في التخجيل (١/ ٢٠٧)، ورد بمعنى ذلك في الكتاب المقدس في إنجيل يوحنا، الإصحاح (٤/ ١٩)، والإصحاح (٦/ ١٤).

(٥) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح، (ص ١/ ٢٠٧).

وأكرمكم فقد قبلني وآواني، ومن قبلني فقد قبل من أرسلني»[1]، وقد علق الجعفري في كتابه الرد على النصارى على ذلك بقوله: «فهذا يوحنا صاحب المسيح يخبر أنه لم يدع سوى الرسالة[2]. وبعد أن ساق الجعفري بعض النصوص من كتب النصارى الدالة على نبوّة المسيح قال: «وينبغي أن نسأل النصارى عن هذه الفصول التي تلوناها عليهم في إنجيلهم فيقال لهم: أحق ذلك أم باطل؟ فإن اعترفوا أنها حق تركوا التنصر، وإن زعموا أنها باطل كفروا بالإنجيل وتركوا دين النصرانية»[3].

د ـ اعتراف أهل زمانه له بالنبوّة، وإقراره لهم وعدم الإنكار عليهم: ومن ذلك قول متى في إنجيله: «لما دنا المسيح وأصحابه من أورشليم، أرسل من جاءه بأتان وجحش، فركب وفرش الناس له ثيابهم، وارتجت المدينة لدخوله، فقال الجميع: هذا يسوع النبي الذي من ناصرة الجليل»[4]. وقد وضح الجعفري وجه الدلالة من هذا النص وهو الشهادة للمسيح من أصحابه وأهل زمانه بالنبوّة وعدم إنكاره عليهم، وذلك رضا بما يقولون[5]. ثم توجه الجعفري باستفهام إلى النصارى غايته دعوتهم إلى الإيمان بنبوّة المسيح عليه السلام وذلك بقوله: «كيف يسمع ـ أي المسيح ـ آلافاً من الناس يشهدون أنه النبيّ الآتي من الناصرة ويقرهم على ذلك، ولا تقوم به الحجة؟ أفيظن متأخرو النصارى يومنا هذا أنهم أعلم بالمسيح ممن رآه وشاهده وصحبه؟»[6].

---

(١) هذا النص أورده الجعفري في الرد على النصارى، ص (٨٨)، وورد بألفاظ مقاربةٍ في الكتاب المقدس، إنجيل يوحنا، الإصحاح (١٢/ ٤٤)، والإصحاح (١٣/ ١٦).

(٢) الرد على النصارى، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمد محمد حسانين، ص (٨٨).

(٣) المصدر السابق، ص (٩٤).

(٤) أورد هذا النص الجعفري في كتابه: الرد على النصارى، ص (٨٨)، وهو في الكتاب المقدس بألفاظ مقاربة في إنجيل متى، الإصحاح (٢١/ ١ ـ ٩).

(٥) انظر: الرد على النصارى، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمد محمد حسانين، ص (٨٨).

(٦) المصدر السابق، ص (٨٨).

وقد ورد في الإنجيل: أن امرأة رأت المسيح فقالت له: أنت ذلك النبيّ الذي كنا ننتظر مجيئه؟ فقال لها المسيح: «صدقت، طوبى لك أيتها المرأة»[1]، فهذه المرأة تسأل المسيح هل هو النبيّ المنتظر؟ ويصدقها المسيح إذ أقرت له بالنبوّة. حيث أورد هذا النص المتطبب مستدلاً به على نبوّة المسيح وذلك في مناقشته للنصارى في كتابه النصيحة الإيمانية[2].

٣ ـ الدعوة إلى الإيمان بنبوّة عيسى عليه السلام من خلال نفي الألوهية عنه، وإثبات عبوديته لله سبحانه تعالى، وتفنيد شبه النصارى وأدلتهم على ألوهيته. حيث أسهب علماء هذه الفترة في بحث هذه القضايا ومناقشاتها من خلال ما أوردوه من أدلة نقلية وعقلية على ذلك[3].

---

(١) هذا النص أورده المتطبب في كتابه: النصيحة الإيمانية، ص (١٠٩)، وقد ورد بمعناه في الكتاب المقدس في إنجيل يوحنا، الإصحاح (٤/ ٢٠)، و(٢٥ ـ ٢٦).

(٢) انظر: النصيحة الإيمانية، نصر بن يحيى المتطبب، تحقيق د. محمد الشرقاوي، ص (١٠٩).

(٣) سيأتي عرض ذلك في المبحث التالي من هذا الفصل.

المبحث الثاني

مناقشة عقائد النصارى

المطلب الأول

مناقشة معتقدات النصارى

انحرف النصارى عن الديانة التي جاء بها المسيح عليه السلام، فجعلوها وثنية خالصة، وأدخلوا عليها معتقدات منحرفة لم يعرفها المسيح عليه السلام ولا حواريوه.

وأبرز الانحرافات في معتقدات النصارى ترجع إلى اختراعهم للأمانة التي جعلوها أصل دينهم، وتحريفهم للأناجيل التي يستدلون بها على عقائدهم الباطلة، وضلالهم بالمسيح عليه السلام ضلالاً بعيداً.

وقد تصدى العلماء المسلمون في عصر الحروب الصليبية لمناقشة معتقدات النصارى إبطالاً لها، وتفنيداً لحجج النصارى عليها، وبياناً للحق الذي ضلّ عنه هؤلاء في ديانتهم، وقياماً بواجب الدعوة الذي حصلت به الخيرية لهذه الأمة. وفيما يلي عرض لجوانب من ذلك:

أولاً: نقض الأمانة:

وثيقة الأمانة، أو ما يعرف بقانون الإيمان عند النصارى، هو أصل عقيدتهم، وهو الذي لا يتم إيمان نصراني إلا باعتقاده. ونص هذه الأمانة ما يلي:

«نؤمن بالله الواحد الأب ضابط الكل، مالك كل شيء، صانع ما يرى وما لا يرى، وبالرب الواحد يسوع المسيح ابن الله الواحد بكر الخلائق كلها، الذي

ولد من أبيه قبل العوالم كلها، وليس بمصنوع، إله حق من إله حق من جوهر أبيه الذي بيده أتقنت العوالم، وخلق كل شيء، الذي من أجلنا معشر الناس ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسد من روح القدس وصار إنساناً، وحبل به وولد من مريم البتول، وأوجع وصلب أيام فيلاطس[1] النبطي، ودفن وقام في اليوم الثالث ـ كما هو مكتوب ـ وصعد إلى السماء وجلس عن يمين أبيه، وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء ونؤمن بروح القدس الواحد روح الحق الذي يخرج من أبيه روح محبته، وبمعمودية واحدة لغفران الخطايا، وبجماعة واحدة قديسية جاثليقية[2]، وبقيامة أبداننا وبالحياة الدائمة إلى أبد الآبدين»[3].

ولقد اهتم علماء المسلمين في فترة الحروب الصليبية بهذه الأمانة لمكانتها

---

(١) هو بيلاطس ويلقب بالنبطي، وهو والٍ أقامته الحكومة الرومانية نائباً على اليهود في فلسطين سنة ٢٩م، واستمر حكمه بضع سنين، وقد ألبه اليهود ضد عيسى ﷺ حتى سلمه إليهم ليقتلوه.

انظر: قاموس الكتاب المقدس، ص (٢٠٧ ـ ٢٠٨)، فنجاه الله منهم ورفعه إليه.

(٢) الجاثليقية: والجمع: جثالقة، وهو متقدم الأساقفة «يونانية». المنجد في اللغة والأعلام، ص (٩٧).

(٣) هذا النص هو الذي أورده الجعفري في كتابه التخجيل (٢/ ٥٠١ ـ ٥٢٠)، وقد وضعت هذه الأمانة في مجمع نيقية سنة ٣٢٥م. (انظر: مجموعة الشرع الكنسي، جمع وترتيب حنانيا إلياس كساب، ص (٤٣)، ثم نقحت في مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١م). (انظر: مجموعة الشرع الكنسي، جمع وترتيب حنانيا إلياس كساب، ص (٢٤٥ ـ ٢٤٧)، وعدلت كذلك في مجمع أفسس سنة ٤٣١م). (انظر: مجموعة الشرع الكنسي، جمع وترتيب، حنانيا إلياس كساب، ص (٢٨٨)، وما بعدها).

وهذه الأمانة لا تزال الفرق النصرانية تؤمن بها إلى الوقت الحاضر وتتفق عليها على الرغم من الخلاف الشديد فيما بينها في كثير من العقائد. (انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/ ٥٠٣)، والمسيحية د. أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثامنة، ص (١٤٨)، وكتاب إيماني، القس إلياس مقار، دار الثقافة، القاهرة، ص (٦٥ ـ ٦٦).

في الديانة النصرانية حيث ناقشوها مبينين تناقضها وتهافتها ومن ثم هدم ما يقوم عليها من معتقدات في الديانة النصرانية.

ومن وجوه التناقض التي بينها هؤلاء العلماء في هذه الأمانة ما يلي:

١ ـ إن فيها الإقرار بوحدانية الله سبحانه ثم نقض ذلك بالشرك. فقولهم فيها: «نؤمن بالله الواحد الأب...» يناقضه قولهم فيها أيضاً: «... وبالرب الواحد يسوع المسيح»[(١)].

٢ ـ إقرارهم فيها بأن الله صانع ما يرى وما لا يرى، ثم قولهم عن المسيح: «... الذي بيده أتقنت العوالم، وخلق كل شيء»[(٢)].

٣ ـ قولهم في الأمانة: «إن يسوع المسيح ابن الله بكر الخلائق الذي ولد من أبيه» مشعر بحدوثه، فلا معنى لكونه ابن الله إلا إذا تأخر عنه، إذ كونهما معاً كما يقر به النصارى مستحيل ببداهة العقول[(٣)].

٤ ـ قولهم فيها: «إن يسوع بكر الخلائق كلها» لا يفهم منه إلا أن المسيح خلقه الله قبل كل الخلائق. أي أنه مخلوق مصنوع، وهذا مناقض لما في أمانتهم وهو: «... وليس بمصنوع إله حق من إله حق»[(٤)].

---

(١) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/٥٠٣ ـ ٥٠٤)، وأدلة الوحدانية في الرد على النصرانية، أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق عبد الرحمن دمشقية، ص (٩٨ ـ ٩٩).

(٢) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/ ٥٠٤)، وأدلة الوحدانية في الرد على النصرانية، أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق عبد الرحمن دمشقية، ص (٩٩).

(٣) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/ ٥٠٤)، والأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١١٣).

(٤) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/ ٥٠٤)، وأدلة الوحدانية في الرد على النصرانية، أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق عبد الرحمن دمشقية، ص ٩٩ ـ ١٠٠). والنصيحة الإيمانية، نصر بن

٥ ـ قالوا في الأمانة عن المسيح إنه: «إله حق من إله حق من جوهر أبيه»، وهذا ينقضه ما في الإنجيل حينما سئل المسيح عن يوم القيامة قال: «لا أعرف ذلك ولا يعرفه إلا الأب وحده»[(١)]. حيث تساءل كل من الجعفري والقرافي: لو كان المسيح من جوهر أبيه كما يدعيه النصارى لعلم ما يعلمه الأب[(٢)].

٦ ـ ادعى النصارى بأجمعهم أن المسيح ابن الله، فإن كان كما يقولون فقد كذبت الأمانة التي يعتقدونها، إذ فيها: «إن المسيح تجسد من روح القدس» وإذا كانت الأمانة صحيحة، فإن المسيح ابن روح القدس وليس ابن الله. وعليه ففي صحة أحدهما تكذيب الأمانة أو فساد اعتقادهم في بنوة المسيح لله[(٣)].

٧ ـ نصت الأمانة على أن المسيح نزل من السماء، وحبلت به امرأة، وسكن رحمها، ويكذب ذلك قول لوقا: «... إن الله هو خالق العالم بما فيه، وهو رب السماء والأرض، لا يسكن الهياكل، ولا يناله أيدي الرجال، ولا يحتاج إلى شيء من الأشياء، ...»[(٤)].

فقد شهد لوقا بأن الباري سبحانه لا يسكن الهياكل، والأمانة تقول إن الكلمة سكنت هيكل مريم، وتحولت إلى هيكل المسيح، وشهد لوقا بأن الله لا تناله أيدي الرجال، والأمانة تقول: بأنه قتل وصلب[(٥)].

يحيى المتطبب، تحقيق د. محمد الشرقاوي، ص (٧٠).

(١) هذا النص الذي أورده الجعفري في التخجيل (٢/ ٥٠٥)، وقد ورد في الكتاب المقدس مع اختلاف يسير في العبارة في إنجيل مرقس، الإصحاح (١٣/ ٣٢).

(٢) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/ ٥٠٥)، والأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١١٤).

(٣) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/ ٥١١).

(٤) هذا النص الذي أورده الجعفري في التخجيل (٢/ ٥١٢)، وقد ورد في الكتاب المقدس مع اختلاف يسير في العبارة في أعمال الرسل، الإصحاح (١٧/ ٢٤ ـ ٢٥).

(٥) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/ ٥١٢).

٨ ـ جاء في الأمانة: «... ونؤمن بروح القدس الواحد روح الحق الذي يخرج من أبيه» وهذا فيه تصريح بأن المسيح وروح القدس أخوان، وأن الله أبوهما. فالأمانة تقول: إن يسوع ولد من أبيه، وإن روح القدس يخرج من أبيه[١].

٩ ـ ورد في الأمانة: «... ونؤمن بمعمودية واحدة لغفران الخطايا» وهذا فيه مناقضة لاعتقاد النصارى في أن قتل المسيح وصلبه من أجل غفران خطاياهم. فإذا كانت المعمودية كافية لغفران الخطايا فما الحاجة إلى القتل والصلب إذ صار وقوعه عبثاً. وإن كانت المغفرة من الخطايا بقتل المسيح فقد تناقضت الأمانة وكذبت في دعوى المغفرة بالتعميد[٢].

١٠ ـ قولهم في الأمانة: «... ونؤمن بجماعة واحدة قديسة» ويعنون بذلك من عقد لهم هذه الأمانة. وفي الإيمان بهذه الأمانة وبهؤلاء كفر بالمسيح ورد لأقواله، وأقوال تلاميذه. فالمسيح موحد كما في قوله: «الله واحد هو الله»[٣] وقوله: «إن الله لم يره أحد قط»[٤]، وقوله: «لا ينبغي لأحدٍ أن يعبد ربيّن»[٥]، وقوله: «لا صالح إلا الله وحده»[٦]. إلى غير ذلك. وهذه

---

(١) انظر: المصدر السابق (٢/ ٥١٥)، والأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١١٧).

(٢) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/ ٥١٥ ـ ٥١٦)، والأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١١٧).

(٣) هذا نص الجعفري في التخجيل (٢/ ٥١٦)، وفي الكتاب المقدس ما نصه: «والمجد الذي من الإله الواحد لستم تطلبونه» إنجيل يوحنا، الإصحاح (٥/ ٤٤).

(٤) الكتاب المقدس، إنجيل يوحنا، الإصحاح (١/ ١٨).

(٥) هذا نص الجعفري في التخجيل (٢/ ٥١٦)، وفي الكتاب المقدس ما نصه: «لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد» إنجيل متى، الإصحاح (٤/ ١٠).

(٦) هذ نص الجعفري في التخجيل (٢/ ٥١٦)، وفي الكتاب المقدس ما نصه: «... ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله» إنجيل مرقس، الإصحاح (١٠/ ١٨).

الأمانة تثبت الشرك وتنص على التثليث[1].

ثم عقب الجعفري بعد أن وضح بعض وجوه التناقض في هذه الأمانة قائلاً: «وإذا بطلت شريعة الدين بطل الدين المبني عليها، ووجب الرجوع إلى أقوال الأنبياء في توحيد الله سبحانه»[2].

وقال نصر بن يحيى المتطبب بعد مناقشته لهذه الأمانة: «... فهل يستحسن عاقل أن يبقى على اعتقاد مثل هذه الأباطيل والخرافات، والتناقضات، أو يتبع من هذا قدر عقولهم وعلومهم واعتقاداتهم ومذاهبهم»[3]. ثم يحمد الله سبحانه وتعالى أن خلصه من هذا الجهل العظيم قائلاً: «الحمد لله الذي خلصني من دين هذا عقل أربابه»[4].

وقال القرافي عن النصارى واتخاذهم هذه الأمانة عقيدة لهم: «... أصبحوا هزأً للناظر، ومضغة للمناظر»[5].

وهكذا من خلال ما سبق أبرز العلماء المسلمون تهافت هذه الأمانة التي يعدها النصارى أساس ديانتهم والتي لا يصح إيمان أحدهم إلا باعتقادها فأصبحوا بذلك كما وصفهم القرافي هزأً للناظر ومضغة للمناظر.

ثانياً: اختلاف الأناجيل:

الإنجيل: «من اللفظ اليوناني أونجيلون ومعناه خبر طيب»[6].

---

(١) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/ ٥١٦ ـ ٥١٧).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٥٢٣).

(٣) النصيحة الإيمانية، نصر بن يحيى المتطبب، تحقيق د. محمد الشرقاوي، ص (٧١ ـ ٧٢).

(٤) المصدر السابق، ص (٧٢).

(٥) الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١١٨).

(٦) قاموس الكتاب المقدس، نخبة من علماء اللاهوت النصارى، ص (١٢٠).

وتأتي بمعنى ـ الحلوان ـ وهو ما يعطى لمن يأتي بالبشرى، ثم أريد بها البشرى عينها. واستعملها المسيح عليه السلام بمعنى بشرى الخلاص التي حملها إلى البشر، وقد غلب استعمالها على الكتاب الذي يتضمن هذه البشرى عند النصارى منذ أواخر القرن الأول إلى الوقت الحاضر[(١)].

حيث يشمل هذا الكتاب العهد القديم والعهد الجديد.

فالعهد القديم يعني التوراة والكتب الملحقة بها حيث تضم تسعاً وثلاثين سفراً[(٢)]، والعهد الجديد يعني الأسفار التاريخية والأناجيل الأربعة ورسالة أعمال الرسل والأسفار التعليمية حيث يبلغ تعدادها جميعاً سبعاً وعشرين سفراً[(٣)].

والعهد القديم أو التوراة على الرغم من إيمان النصارى به إلى أنهم يفسرون كثيراً من نصوصه تفسيراً يوافق عقائدهم الباطلة كالتثليث وألوهية المسيح وغير ذلك؛ لعدم استطاعتهم التصرف بنصوصه كالإنجيل لأنه محفوظ عند أعدائهم اليهود[(٤)].

والإنجيل في الأصل هو الكتاب الذي أنزل على عيسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾[(٥)]. لكن هذا الإنجيل الذي أنزل على عيسى عليه السلام ليس هو الذي بين أيدي النصارى اليوم. إذ الذي بين أيديهم الآن أربعة أناجيل انتخبت من عدد غير محدود من الأناجيل.

حيث اعتمدت الكنيسة هذه الأربعة بما يسمى بالأناجيل القانونية من بين

---

(١) انظر: المسيحية، د. أحمد شلبي، ص (٢٠٤).

(٢) انظر: معجم الحضارات السامية، هنري س. عبودي، جروس برس، طرابلس، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١١ هـ ـ ١٩٩١م، ص (٦٢٦).

(٣) انظر: المرجع السابق، ص (٦٢٥)، وقاموس الكتاب المقدس، ص (٦٤٤).

(٤) انظر: المسيحية، د. أحمد شلبي، ص (٢٠٤).

(٥) سورة المائدة، الآية: (٤٦).

أناجيل كثيرة تم استبعادها أطلق عليها الأناجيل غير القانونية[1].

وقد كان ذلك سنة ١٧٠م[2].

وقد بين صاحب قصة الحضارة هذه القضية بقوله: «أما الأناجيل فليس أمرها بهذه السهولة، وذلك أن الأناجيل الأربعة التي وصلت إلينا هي البقية الباقية من عدد أكبر منها كثيراً كانت في وقت ما منتشرة بين المسيحيين في القرنين الأول والثاني»[3].

وإذا كانت هذه الأناجيل الأربعة قد تم اختيارها من بين أناجيل كثيرة فلا يستبعد أن يكون الإنجيل الصحيح من بين ما تم استبعاده وحتى هذه الأربعة المعتمدة لم تسلم من الاختلاف فيما بينها بل والتناقض الذي لا يمكن التوفيق فيه.

وقد تساءل ابن القيم[4] كيف يكون في الإنجيل الذي أنزل على عيسى قصة صلبه وما جرى له من الألم ثم الموت والقيام من القبر إلى غير ذلك مما هو من كلام شيوخ النصارى[5].

---

(١) انظر: قاموس الكتاب المقدس، نخبة من علماء اللاهوت والنصارى، ص (١٢٢).

(٢) انظر: المصدر السابق (١٢٠ ـ ١٢٣)، والتوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاي، ترجمة حسن خالد، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧ هـ، ص (٧٦).

(٣) قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة بدران، المجلد ٣، الجزء ٣، ص (٢٠٦).

(٤) هو العلامة محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي (ابن قيم الجوزية) كان مولده في دمشق سنة ٦٩١ هـ ووفاته بها سنة ٧٥١ هـ، من كبار العلماء ومن أخص تلامذة شيخ الإسلام ابن تيمية، أغري بحب الكتب فجمع منها شيئاً عظيماً وألف تصانيف كثيرة منها إعلام الموقعين، والطرق الحكمية، وأحكام أهل الذمة، والصواعق المرسلة، وغير ذلك.
انظر: البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين (١٤/٢٤٦ ـ ٢٤٧)، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن عماد الحنبلي، تحقيق محمد الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ (٨/ ٢٨٧ ـ ٢٩١).

(٥) انظر: هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، محمد بن أبي بكر «ابن القيم»، ص (٤٨).

وفيما يلي نبذة عن ما يسمى عند النصارى بالأناجيل الأربعة القانونية التي أقروها لتوافق التحريفات التي أدخلوها على ديانتهم في مجامعهم المختلفة:

١ ـ **إنجيل متى:** ومتى أحد تلاميذ المسيح الاثني عشر، وقد كان قبل اتصاله بالمسيح من جباة الضرائب للدولة الرومانية في كفر ناحوم بفلسطين. وبعد رفع المسيحﷺ جال في بلاد كثيرة يبشر بالنصرانية[١]، وقد كانت وفاته في الحبشة سنة ٦٢م وقيل: ٧٠م[٢]، وقيل غير ذلك.

وقد كتب متى إنجيله بالعبرية لليهود[٣] حيث فقدت هذه النسخة واشتهرت ترجمتها إلى اليونانية. وليس هناك اتفاق على تاريخ كتابة النسخة الأصلية المفقودة، والتي يعتقد أنها كتبت بين سنتي ٦٠ ـ ٦٥م، وكذلك الحال بالنسبة للترجمة اليونانية. إذ الخلاف واسع في ذلك[٤].

٢ ـ **إنجيل مرقس:** ومرقس اسمه يوحنا، أما مرقس فهو لقب له معناه باللاتينية ـ المطرقة ـ[٥].

ومرقس ليس من الحواريين الاثني عشر الذين اختصهم المسيح بل هو يهودي من أوائل من آمن بدعوة المسيحﷺ، وقد دخل مرقس مصر مبشراً بالنصرانية في منتصف القرن الأول، وكان يتردد منها إلى روما إلى أن قتله الوثنيون بمصر بين سنتي ٦٢ ـ ٦٧م. ويقال إن تجاراً من البندقية نقلوا جثمانه إلى مدينتهم في إيطاليا وذلك في مطلع القرن التاسع الميلادي[٦].

---

(١) انظر: قاموس الكتاب المقدس، نخبة من علماء اللاهوت النصارى، ص (٨٣٢)، ومعجم الحضارات السامية، هنري س. عبودي، ص (٧٧١ ـ ٨٧٢).

(٢) انظر: محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، الطبعة الثالثة، ١٩٦٦ هـ، ص (٤٣).

(٣) انظر: قاموس الكتاب المقدس، نخبة من علماء اللاهوت النصارى، ص (٨٣٢).

(٤) انظر: المرجع السابق، ص (٨٣٣).

(٥) انظر: المرجع السابق، ص (٨٥٣).

(٦) انظر: معجم الحضارات السامية، هنري س. عبودي، ص (٧٨٤ ـ ٧٨٥)، وكتاب

وقد كتب مرقس إنجيله باللغة اليونانية، واختلف في سنة كتابته له بين سنتي ٦٠ ـ ٦٥م. واختلف كذلك في أنه كتب هذا الإنجيل عن بطرس رئيس الحواريين أو أن بطرس كتب عنه[١].

٣ ـ **إنجيل لوقا:** ولوقا ولد في أنطاكية، وقيل في روما، وكان من رفقاء بولس، وقد كان طبيباً، وقيل مصوراً، ومن المؤكد أنه ليس من تلاميذ المسيح، وقد كتب إنجيله في حوالي ٦٠ ـ ٧٠م باللغة اليونانية، ويظن أنه كتبه للمصريين[٢]. والخلاف واسع في شخصية لوقا وصحة نسبة هذا الإنجيل إليه.

٤ ـ **إنجيل يوحنا:** وهو يوحنا الحواري من تلاميذ المسيح الأولين، وقد كانت وفاته في أفسس حوالي سنة ١٠٠م[٣]. وقيل: إنه يوحنا آخر من الجيل الثاني لا علاقة له بيوحنا الحواري وهو الأرجح[٤].

وقد كتب يوحنا إنجيله في سنة ٩٠م لغرض خاص وهو الرد على من ينكر ألوهية المسيح، لذلك فهذا الإنجيل أكثر أهمية من غيره بسبب تصريحه بألوهية المسيح خلافاً للأناجيل الثلاثة الأخرى والتي ليس فيها ذلك[٥].

هذه هي أناجيل النصارى التي عليها عماد ديانتهم، وهي في اعتقاد المسلمين لا يمكن أن تكون الإنجيل الذي أنزله الله عزّ وجلّ على عبده عيسى عليه السلام.

التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، سعيد بن البطريق، ص (٤٤).

(١) انظر: محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، ص (٤٦ ـ ٤٧).

(٢) انظر: قاموس الكتاب المقدس، نخبة من علماء اللاهوت النصارى، ص (٨٢٢). ومعجم الحضارات السامية، هنري س. عبودي، ص (٧٤٩).

(٣) انظر: معجم الحضارات السامية، هنري س. عبودي، ص (٩٣٢)، وقاموس الكتاب المقدس، نخبة من علماء اللاهوت النصارى، ص (١١٠٩ ـ ١١١٠).

(٤) انظر: محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، ص (٥٠).

(٥) انظر: معجم الحضارات السامية، هنري س. عبودي، ص (٩٣٢ ـ ٩٣٣)، ومحاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، ص (٥٣ ـ ٥٤).

وأحسن أحوالها أن تكون متضمنة لبعض ما أنزله الله جلّ وعلا على عيسى، وكثير مما فيها حرف بلفظه أو بمعناه، قال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[1]. قال القرطبي: «أي يتأولونه على غير تأويله ويلقون ذلك إلى العوام»[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «... فجمهور المسلمين يقولون: إن بعض ألفاظها بدل ـ أي التوراة والإنجيل ـ كما قد بدل كثير من معانيها، ومن المسلمين من يقول: التبديل إنما وقع في معانيها لا في ألفاظها، وهذا القول يقر به عامة اليهود والنصارى»[3].

وقال: «... وكل عاقل يعلم أن الكتب التي بأيديهم في تفسيرها من الاختلاف والاضطراب بين فرق النصارى، وبين النصارى واليهود ما يوجب القطع بأن كثيراً من ذلك مبدل محرف»[4]. ثم قال: «والقرآن والسنة المتواترة يدلان على أن التوراة والإنجيل الموجودين في زمن النبيّ ﷺ فيها ما أنزله الله عزّ وجلّ»[5].

ولمكانة الأناجيل عند النصارى؛ لكونها عماد ديانتهم، وأساس ضلالهم بما حرفوا فيها، فقد اهتم بعض من العلماء المسلمين في عصر الحروب الصليبية بدراستها مبينين تناقضها وعدم الطمأنينة إلى ما فيها، وإظهار ذلك للنصارى هدماً لأساس عقائدهم الباطلة، ورغبة في هداية من شاء الله هدايته منهم.

فهذا الجعفري يوضح أن مَنْ وقف على التناقض في الإنجيل، ومصادمة

---

(١) سورة المائدة، الآية: (١٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، المجلد الثالث، الجزء السادس، ص (٧٧).

(٣) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق د. علي بن حسن بن ناصر وآخرين (٢/ ٤٠٧).

(٤) المصدر السابق، ص (٢/ ٤١١).

(٥) المصدر السابق، ص (٢/ ٤٤٩).

بعضه بعضاً يشهد بأنه ليس هو الإنجيل الحق المنزل من عند الله، وأن أكثره من أقوال الرواة وأقاصيصهم، وأن نقلته أفسدوه ومزجوه بحكاياتهم، وألحقوا به أموراً غير مسموعة من المسيح ولا من أصحابه. وهو ليس إنجيلاً واحداً بل أربعة أناجيل كتب كل واحد منها في قطر من الأقطار، بقلم غير قلم الآخر، وتضمن كل كتاب أقاصيص وحكايات أغفلها الكتاب الآخر. وإذا كان الأمر كذلك فقد انخرمت الثقة بهذا الإنجيل، وعدمت الطمأنينة بنقلته[١].

ثم أورد الجعفري نماذج عديدة تبين تحريف الإنجيل وتناقضه. ومن ذلك:

١ ـ قال متى: مِن يوسف خطيب مريم ـ وهو الذي يسمى يوسف النجار ـ إلى إبراهيم الخليل اثنتان وأربعون ولادة[٢]. وقال لوقا: لا، ولكن بينهما أربع وخمسون ولادة[٣]. ثم عقب الجعفري على ذلك بقوله: وهذا تكاذب قبيح[٤].

٢ ـ نصان آخران أحدهما عند لوقا يصف المسيح عليه السلام بأنه سيملك على بني إسرائيل[٥]. ونص آخر عند يوحنا يصف المسيح عليه السلام بأنه الضعيف الذليل[٦]. حيث عقب عليهما الجعفري بقوله: وهذا تكاذب قبيح؛ لأن أحدهما يقول: إن يسوع يملك على بني إسرائيل، والآخر يصفه بصفة ضعيف ذليل[٧].

---

(١) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (١/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤).

(٢) انظر: الكتاب المقدس، إنجيل متى، الإصحاح (١/ ١٦).

(٣) انظر: الكتاب المقدس، إنجيل لوقا، الإصحاح (٣/ ٢٣ ـ ٣٤).

(٤) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (١/ ٢٨٥).

(٥) انظر: الكتاب المقدس، إنجيل لوقا، الإصحاح (١/ ٣٠ ـ ٣٣).

(٦) انظر: الكتاب المقدس، إنجيل يوحنا، الإصحاح (١٩/ ١ ـ ١١).

(٧) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (١/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨).

٣ - قال لوقا: «لما نزل بيسوع الجزع من اليهود ظهر له ملك من السماء ليقويه وكان يصلي متوارياً وصار عرقه كعبيط الدم»[١]. ثم وضح الجعفري أن ذلك لم يذكره حتى ولا مرقص ولا يوحنا. وإذا تركوا ذلك لا يؤمن أن يتركوا أهم منه، فإن كان ذلك صحيحاً فكيف تركه الجماعة؟ وإن لم يصح ذلك عندهم لم يؤمن أن يدخل لوقا في الإنجيل أشياء أخر[٢].

٤ - ومثل ذلك ما ذكره يوحنا: إن أول آية أظهرها المسيح تحويل الماء خمراً[٣]. ولم يذكر أصحابه الثلاثة ذلك. حيث عقب الجعفري على ذلك متسائلاً كيف أغفل هؤلاء الثلاثة مثل هذه الحادثة مع شهرتها؟ فالأمر لا يخلو من أن ذلك ناتج عن غفلة عظيمة منهم أو لأنها غير صحيحة وكلا الأمرين قدح في الإنجيل[٤].

٥ - ذكر متى أن يوسف خطيب مريم كان أبوه يسمى يعقوب بن ماثان[٥]. وذكر لوقا غير ذلك فقال: «أقام يسوع ثلاثين سنة وهو يظن أنه ابن يوسف بن هالي بن مطب»[٦]. ثم عقب الجعفري على النصين بقوله: «وهذا تناقض عجيب»[٧]. وهكذا استطرد الجعفري بذكر نماذج من تحريف الإنجيل

---

(١) هذا النص أورده الجعفري في التخجيل (١/ ٢٨٨)، وقد ورد في الكتاب المقدس مع اختلاف يسير في اللفظ في إنجيل لوقا، الإصحاح (٢٢/ ٤٣ ـ ٤٤).

(٢) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (١/ ٢٨٨).

(٣) انظر: الكتاب المقدس، إنجيل يوحنا، الإصحاح (٢/ ١ ـ ١١).

(٤) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (١/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠).

(٥) انظر: الكتاب المقدس، إنجيل متى، الإصحاح (١/ ١٥).

(٦) هذا النص الذي أورده الجعفري في التخجيل (١/ ٢٩٣)، وفي الكتاب المقدس ما نصه: «ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة وهو على ما كان يظن ابن يوسف بن هالي بن متثات...» إنجيل لوقا، الإصحاح (٣/ ٢٣ ـ ٢٤).

(٧) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (١/ ٢٩٣).

وتناقضه في اثنين وخمسين موضعاً[1]، عقب بعد عرضها بقوله: «فهذا كتاب قد تلاعبت به بنيات الطرق، وتزاحمت به تراجمة الفرق، وولد من لسان إلى لسان، وعبث به التحريف والتصحيف في كل زمان»[2].

وخاطب الخزرجي أحد قساوسة النصارى بقوله: «... أناجيلكم ما هي إلا حكايات، وتواريخ، وكلام كهنة، وتلاميذ، وغيرهم. حتى إني أحلف بالذي لا إله إلا هو أن تاريخ الطبري عندنا أصح نقلاً من الإنجيل، ويعتمد عليه العاقل أكثر. مع أن التاريخ عندنا لا يجوز أن ينبني عليه شيء من أمر الدين...»[3].

ثم أورد الخزرجي في نقاشه مع القسيس أمثلة على تناقض الإنجيل مبتدئاً لها بقوله: «... وفي الإنجيل الذي بأيديكم كثير من المتناقضات»[4]. ومنها:

١ - قول المسيح ﷺ: «إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي غير مقبولة وغيري يشهد لي»[5]. ثم في موضع آخر من الإنجيل قول المسيح: «إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق، لأني أعلم من أين أتيت وإلى أين أذهب»[6]. عقب الخزرجي بعد ذلك مخاطباً القسيس بقوله: «أخبرني كيف تكون شهادته حقاً وباطلاً، مقبولة وغير مقبولة؟ وكيف يجمع بين هذين في كتاب منسوب إلى الله تعالى؟»[7].

٢ - وفي الإنجيل للوقا يخبر عن المرأة التي صبت الطيب على رجلي المسيح،

---

(١) انظر: المصدر السابق (١/ ٢٨٣)، وما بعدها.

(٢) المصدر السابق، ص (١/ ٣٢٥).

(٣) مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، تحقيق د. محمد شامة تحت عنوان بين الإسلام والمسيحية، ص (١٥٧).

(٤) المصدر السابق، ص (١٤٢).

(٥) هذا النص الذي أورده الخزرجي في كتابه مقامع الصلبان، ص (١٤٦)، ورد في الكتاب المقدس مع اختلاف يسير في اللفظ في إنجيل يوحنا، الإصحاح (٥/ ٣١)،

(٦) الكتاب المقدس، إنجيل يوحنا، الإصحاح (٨/ ١٤).

(٧) مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، تحقيق د. محمد شامة تحت عنوان بين الإسلام والمسيحية، ص (١٤٦).

وأنكر ذلك التلاميذ وقالوا: هلا تصدقت به[1]. وفي إنجيل متى وصف هذ الخبر بعينه إلا أن المرأة صبت الطيب على رأس المسيح[2]. عقب بعد ذلك الخزرجي بقوله: «فما أبعد اليقين عن خبر فيه هذا الاختلاف»[3].

٣ ـ وفي الإنجيل قول المسيح ﷺ: لم آت لأنقض شريعة من قبلي، إنما جئت لأتمم[4]. ثم فيه بعد أحرف قليلة كلام آخر ينقض ذلك وهو قوله: أما علمتم أنه قيل للقدماء: لا تقتلوا، ومن قتل فقد استوجب القتل، وأنا أقول: كل من سخط على أخيه فقد استوجب العقوبة[5][6].

وبعد أن أورد الخزرجي أمثلة على ذلك وجه خطابه للقسيس قائلاً: «أخبرني أيها المغرور عن هذا الخلاف، أتعده تتميماً أو نقضاً لشريعة من سبقه؟»[7].

وأخيراً بعد أن انتهى الخزرجي من سرد الأمثلة الكثيرة على تناقض الإنجيل وبين أن فيها الكفاية على تهافت الأناجيل، والدليل على ما اشتملت عليه من الزلل والأباطيل، بعد ذلك تساءل قائلاً: «فليت شعري أين هذا الإنجيل المنزل من عند الله؟ وأين كلماته من بين هذه الكلمات»[8].

وقد بين القرافي أنه لكثرة التحريف والتبديل في الإنجيل، وكثرة كتبته، واختلاف طوائف النصارى فيه فلا يمكن والحال هذه تمييز الكلام الذي أنزله الله

---

(١) انظر: الكتاب المقدس، إنجيل لوقا، الإصحاح (٧/ ٣٦ ـ ٣٩).

(٢) انظر: الكتاب المقدس، إنجيل متى، الإصحاح (٢٦/ ٦ ـ ٩).

(٣) مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، تحقيق د. محمد شامة تحت عنوان بين الإسلام والمسيحية، ص (١٥١).

(٤) انظر: الكتاب المقدس، إنجيل متى، الإصحاح (٥/ ١٧).

(٥) انظر: الكتاب المقدس، إنجيل متى، الإصحاح (٥/ ٢١ ـ ٢٣).

(٦) انظر: مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، تحقيق د. محمد شامة تحت عنوان بين الإسلام والمسيحية، ص (١٥٤).

(٧) المصدر السابق، ص (١٥٥).

(٨) المصدر السابق، ص (١٥٧).

عن غيره، حيث قال: «وأما النصارى فلا يتعين لهم شيء مما أنزل الله تعالى أبداً. . .»[1][2].

وفي موضع آخر وصف القرافي كتب النصارى بقوله: «. . . ومن طالع كتبهم وأناجيلهم وجد فيها من العجائب ما يقضي له بأن القوم تفرقت شرائعهم، وأحكامهم، ونقولهم. . . وأن القوم لا يلتزمون مذهباً، والعجب أن أناجيلهم حكايات، وتواريخ، ومجريات، وكلام كفرة وكهنة. . . .»[3]. ثم أورد بعد ذلك خمسة عشر مثالاً من تناقضات الأناجيل تدل على تغييرها وتبديلها وعدم الوثوق بشيء منها[4].

وهكذا من خلال إبراز العلماء المسلمين لاختلاف الأناجيل وتناقضها ومصادمة بعضها بعضاً وإيراد الأمثلة على ذلك، إيضاحٌ بما لا يدع مجالاً للشك لضعف ما بنى عليه النصارى عقائدهم الباطلة ومن ثم زعزعة الثقة لديهم بمصدر هذه العقائد الذي يعدونه أساس ديانتهم.

ثالثاً: مناقشة قولهم في المسيح عليه السلام:

المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام بشر مخلوق ليس بإله ولا ابن إله، قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾[5]، وقال سبحانه:

---

(١) الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (٢٧).

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «. . . فجمهور المسلمين يقولون: إن بعض ألفاظها بدل - أي التوراة والإنجيل -، كما قد بدل كثير من معانيها، ومن المسلمين من يقول: التبديل إنما وقع في معانيها؛ لا في ألفاظها، وهذا القول يقر به عامة اليهود والنصارى. . .». الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق د. علي بن حسن بن ناصر وآخرين (٢/ ٤٠٧).

(٣) الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (٢٧).

(٤) انظر: الأمثلة التي أوردها القرافي على تحريف الإنجيل في الأجوبة الفاخرة، ص (٢٢) وما بعدها.

(٥) سورة الزخرف، الآية: (٥٩).

﴿مَا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾[1]. وما ادعى عليه السلام الربوبية ولا الألوهية، ولم يأمر أحداً باتخاذه إلهاً. بل إنه عبدالله ورسوله كما قال الله سبحانه فيما حكاه عنه: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾[2].

وقد عاش المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام يدعو إلى التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده، وكان قدوة صالحةً في ذلك، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾[3].

ولما بلغ رسالة ربه وأراد به أعداؤه كيداً نجاه الله منهم، وذلك برفعه إليه، قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ﴾[4] وقال سبحانه: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾[5]،

وقد ضل النصارى في المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ضلالاً بعيداً إذ اعتقدوا فيه الألوهية، وجعلوه ابناً لله نزل ليصلب ويقتل فداءً للبشرية، وتكفيراً لخطيئة أبيهم آدم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في عقيدة النصارى بالمسيح عيسى ابن مريم عليه السلام بعد أن عرض أقوالهم فيه: «... والصواب أن هذه الأقوال جميعها قول طوائف النصارى... فتقول: إن الله ثالث ثلاثة، وتقول عن المسيح إنه الله، وتقول إنه ابن الله...»[6] وقال: «... ثم يزعمون أن الصلب الذي هو من أعظم الذنوب

---

(١) سورة المائدة، الآية: (٧٥).

(٢) سورة المائدة، الآية: (١١٧).

(٣) سورة مريم، الآيتان: (٣٠ ـ ٣١).

(٤) سورة آل عمران، الآية: (٥٥).

(٥) سورة النساء، الآية: (١٥٧).

(٦) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق د. علي بن حسن بن ناصر وآخرين (٢/ ١٢).

والخطايا به خلص الله آدم وذريته من عذاب الجحيم...»[1].

ولقد ناقش العلماء المسلمون في عصر الحروب الصليبية عقيدة النصارى بالمسيح عليه السلام نقاشاً مستفيضاً؛ فضحاً لباطل النصارى في ذلك، وبياناً للحق الذي لُبس على عامتهم. فأسهبوا في ردودهم على النصارى في إبطال اتخاذهم المسيح أحد ثلاثة آلهة، ورد ادعائهم فيه الاتحاد والتجسد، ونفي الألوهية عنه، وهدم زعمهم بنوته لله ـ تعالى الله عن ذلك ـ، وتفنيد ما ادعوه من قتله وصلبه.

وفيما يلي عرض لبعض جهودهم في ذلك:

١ ـ إبطال التثليث:

اتخذ النصارى المسيح عليه السلام إلهاً بجعله واحداً من ثلاثة.

وقد بدأ بذرة التثليث في النصرانية بولس[2] بعد المسيح عليه السلام[3]، حيث استقرت فرقها المختلفة على هذه العقيدة بعد ذلك في مجمع نيقية عام ٣٢٥م بتأليه الأب، وتأليه الابن، ثم تأليه روح القدس في مجمع القسطنطينية عام ٣٨١م[4]، وعرفت هذه العقيدة بالتثليث. وكان النصارى قبل مجمع نيقية مختلفين بين موحدين ومشركين على ديانة بولس حتى جمعهم قسطنطين[5]

---

(١) المصدر السابق، ص (٢/١٠٨).

(٢) بوليس، ومعناه باليونانية: الصغير، وكان اسمه في اليهودية: شاؤول، ويلقبه النصارى بالرسول، وهو ليس من تلاميذ المسيح ولم تثبت له رؤية، وقد كان بولس في بداية حياته من أشد أعداء أتباع المسيح، ثم فجأة اعتنق النصرانية بسبب نورٍ رآه وهو في طريقه إلى دمشق حيث زعم أنه المسيح وأمره باتباعه وتبليغ دعوته. حيث بدأ منذ ذلك الوقت ـ أي بعد رفع المسيح بسبع سنوات يدعو إلى النصرانية على أساس فهمه هو وآرائه التي انحرف بها عن تعاليم المسيح عليه السلام، وقد قتل بولس سنة ٦٧ أو ٦٨م. انظر: قاموس الكتاب المقدس، نخبة من علماء اللاهوت والنصارى، ص (١٩٦ ـ ١٩٩).

(٣) انظر: رسالته إلى أهل رومية، الإصحاح (٥/١٠ ـ ١٢).

(٤) انظر: علم اللاهوت النظامي، المؤلف مجهول الاسم، دار الثقافة المسيحية، القاهرة، ١٩٧١م، ص (١٣٣).

(٥) هو قسطنطين بن قسطنديوس كلورس، ولد في نيتش في يوغوسلافيا سنة ٢٨٠ م، والتحق

على الشرك بالله في هذا المجمع[1].

وإيمان النصارى بالتثليث سماعاً وتقليداً لما ورثوه عن آبائهم مع عدم الخوض في كنه هذه العقيدة أو التعمق فيها. قال أحدهم[2]: «... وهذه ـ أي التثليث ـ حقيقة تفوق الإدراك البشري»[3]. وبين آخر أن التثليث من الأسرار التي يعجز العقل البشري عن إدراكها[4].

وقال أحد القساوسة[5]: «إن الثالوث سر يصعب فهمه وإدراكه كمن يحاول وضع مياه المحيط كلها في كفه»[6].

ولهذا التعقيد في فهم عقيدة التثليث لدى النصارى اختلفوا في تحديدها، وفي المراد منها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «... لو سألت بعض النصارى وامرأته وابنه عن توحيدهم؛ لقال الرجل قولاً، وامرأته قولاً آخر، وابنه قولاً ثالثاً»[7].

بالجيش الروماني وعمره ١٥ سنة، ثم أصبح قائداً وعمره ثماني عشرة سنة، بعدها استقل بالسلطة سنة ٣٢٤م، ثم اعتنق النصرانية فعقد مجمع نيقيا المشهور سنة ٣٢٥م، والذي انتهى بالقول بتأليه المسيح عليه السلام، وقد كانت وفاته سنة ٣٣٧م.

انظر: قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة محمد بدران، المجلد الثالث، الجزء الثالث، ص (٣٨٢ ـ ٤٠٣).

(١) انظر: مجموعة الشرع الكنسي، حنانيا إلياس كساب، ص (٤٠) وما بعدها.

(٢) وهو زكي شنودة، صاحب تاريخ الأقباط في مصر.

(٣) تاريخ الأقباط في مصر، زكي شنودة، (١/ ٢٣٧)، نقلاً عن: النصرانية من التوحيد إلى التثليث د. محمد الحاج، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ، ص (٢٠٧).

(٤) انظر: حقائق أساسية في الإيمان المسيحي، القس فايز فارس، دار الثقافة المسيحية، القاهرة، ص (٥٣).

(٥) هو توفيق جيد، قس وكاتب نصراني.

(٦) النصرانية من التوحيد إلى التثليث، د. محمد الحاج، ص (٢٠٧).

(٧) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق د. علي بن حسن بن ناصر وآخرين (٣/ ٣١٩).

وفي معنى التثليث قال أحدهم[1]: «وكلمة الثالوث تطلق عند النصارى على وجود ثلاثة أقانيم[2] معاً في اللاهوت، تعرف بالأب، والابن، والروح القدس...»[3].

وفي قاموس الكتاب المقدس أن طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية، الله الأب، الله الابن، الله روح القدس، فإلى الأب ينتمي الخلق، وإلى الابن ينتمي الفداء، وإلى روح القدس التطهير، غير أن الثلاثة تتقاسم جميع الأعمال الإلهية على السواء[4].

وقد عرض بعض العلماء المسلمين في عصر الحروب الصليبية عقيدة التثليث لدى النصارى كما يعتقدونها، حيث قال نصر بن يحيى المتطبب: «... إن الله سبحانه وتعالى جوهر واحد وثلاثة أقانيم، أقنوم الأب، وأقنوم الابن، وأقنوم روح القدس. وأنها - أي الذات الإلهية - واحدة في الجوهر مختلفة الأقانيم»[5].

وقال القرافي في عرض عقيدة التثليث عند النصاري: «... النصاري مجمعون على القول بالثالوث، وهو أن ربهم أب، وابن، وروح. فالأب الذات، والابن النطق الذي هو الكلام النفساني، والروح الحياة. فالأب جوهر، واختلفوا في الكلام والحياة هل هما صفتان للأب أو ذاتان قائمتان بأنفسهما، أو خاصيتان لذلك الجوهر؟»[6].

---

(١) هو بطرس البستاني.

(٢) الأقانيم: جمع أقنوم، والأقنوم كلمة يونانية الأصل تدل على شخصية متميزة. (انظر: حقائق أساسية في الإيمان المسيحي، القس فايز فارس، ص (٥٢).

(٣) دائر المعارف، بطرس البستاني، مؤسسة مطبوعاتي إسماعيليان، طهران، ١٨٨٢م، (٦/ ٣٠٥).

(٤) انظر: قاموس الكتاب المقدس، نخبة من علماء اللاهوت النصارى (١٠٧ - ١٠٨).

(٥) النصيحة الإيمانية، نصر بن يحيى المتطبب، تحقيق د. محمد الشرقاوي، ص (٥٦ - ٥٧).

(٦) الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١١١).

وبعد عرض هؤلاء العلماء لعقيدة التثليث لدى النصارى تصدوا لمناقشتها، وتفنيد أدلتهم عليها على النحو التالي:

أ ـ بيان فساد هذه العقيدة وكفر من يعتقدها ابتداءً:

ففي تفسير قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾[١]. قال ابن عطية[٢] بعد أن بين أن هذا القول لبعض فرق النصارى: «... وهم على اختلاف أحوالهم كفار من حيث جعلوا في الإلهية عدداً، ومن حيث جعلوا لعيسى عليه السلام حكماً إلهياً... ثم توعد تبارك وتعالى هؤلاء القائلين هذه العظيمة بمس العذاب بالدنيا من القتل والسبي، وبعذاب الآخرة بعد لا يفلت منه أحد...»[٣].

وبعد أن وضح الرازي تثليث النصارى عقب بقوله: «... ولا يرى في الدنيا مقالة أشد فساداً وأظهر بطلاناً من مقالة النصارى...»[٤].

وفي موضع آخر بعد أن شرح الرازي تثليث النصارى قال: «... وذلك محض الكفر»[٥].

---

(١) سورة المائدة، الآية: (٧٣ ـ ٧٤).

(٢) هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي الغرناطي، مفسر فقيه من أهل غرناطة، ولي قضاء المرية، من كتبه كتابه المشهور المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، كان مولده في غرناطة سنة ٤٨١ هـ، ووفاته في بلورقة سنة ٥٤٢ هـ.
انظر: الديباج المذهب إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون، تحقيق د. محمد الأحمدي أبو النور، (٢/ ٥٧ ـ ٥٩)، وسير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (١٩/ ٥٨٧).

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلس، تحقيق المجلس العلمي بفاس (٥/ ١٦١ ـ ١٦٢).

(٤) التفسير الكبير، محمد بن عمر بن الحسين الرازي، المجلد السادس، الجزء الثاني عشر، ص (٥١).

(٥) المصدر السابق، المجلد السادس، الجزء الحادي عشر، ص (٩٢).

وبعد أن وضح البغوي غلو النصارى في المسيح عليه السلام والذي منه قولهم إنه أحد ثلاثة آلهة عقب بقوله: «وأصل الغلو مجاوزة الحد، وهو في الدين حرام»[(١)].

وقال الجعفري: «. . . عند النصارى ثلاثة آلهة قديمة أزلية. . . وذلك باطل وكفر»[(٢)].

وقال القرطبي: «. . . وفيه ـ أي التثليث ـ خروج عن التوراة والإنجيل والمزامير والنبوات وسائر الكتب. . .»[(٣)].

ب ـ إيراد الأدلة من كتب النصارى على وحدانية الله سبحانه وتعالى: حيث ساق كثير من العلماء في معرض مناقشتهم للنصارى وإبطالهم لعقيدة التثليث لديهم الأدلة من التوراة والإنجيل التي تثبت وحدانية الله سبحانه وتعالى وتنقض التثليث الذي يعتقدونه.

فمما أورده الجعفري من ذلك قول الله في التوراة: «يا موسى أنا الله أنا إله غيور، أنا الله وحدي، وليس معي غيري»[(٤)].

وقوله لموسى عليه السلام: «لا يكن لك إله غيري»[(٥)].

---

(١) معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق محمد بن عبدالله النمر، (٢/ ٣١٣ ـ ٣١٤).

(٢) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/ ٥٨٢).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، المجلد الثالث، الجزء السادس، ص (١٦١).

(٤) هذا نص الجعفري في الواضح المشهود في المسألة الثامنة من المخطوط ص (٢٧ ـ ٢٨)، وقد ورد في التوراة مع اختلاف يسير في اللفظ في سفر الخروج، الإصحاح (٢٠/ ١ ـ ٥).

(٥) هذا نص الجعفري في الواضح المشهود في المسألة الثامنة من المخطوط ص (٢٨)، وانظر: التوراة، سفر الخروج، الإصحاح (٢٠/ ١ ـ ٣).

ومن الإنجيل أورد الجعفري قول متى: «قال رجل للمسيح: يا معلم صالح، فقال له: لا تقل لي صالحاً، لا صالح إلا الله الواحد»[١]. حيث عقب الجعفري على ذلك بقوله: «أضاف المسيح لربه الوحدة، واعترف له بالألوهية وحده، وفي ذلك رد على النصارى في دعواهم التثليث وعبادة المسيح. إذ نفى الصلاحية عن نفسه وأثبتها لله وحده، ولو كان الأمر في ذلك على ما يعتقده النصارى لبينه للرجل، ولقال له: لا صالح إلا الأب وأنا وروح القدس، ولم يؤخر البيان عن وقت الحاجة»[٢].

ومن الأدلة التي أوردها القرافي من التوراة على التوحيد وإبطال التثليث قول الله سبحانه وتعالى لبني إسرائيل: «أنا الله ربكم الذي أخرجتكم من أرض مصر من بيت العبودية لا يكون لكم إله غيري»[٣]. ومن الإنجيل قول يوحنا: إن المسيح رفع بصره إلى السماء وتضرع إلى الله وقال: «إن الحياة الدائمة تجب للناس أن يعلموا أنك أنت الله الواحد الحق، وأنك أرسلت يسوع المسيح»[٤]. ثم علق القرافي على ذلك بقوله: «وهذا هو التوحيد المحض»[٥]. وما ورد في الإنجيل أيضاً أن الشيطان قال ليسوع: «اسجد لي وأعطيك ملك الأرض، قال له يسوع: اذهب عني يا شيطان، إن الله أمر في التوراة أن لا يسجد لغيره، ولا يعبد إله سواه»[٦]. وقول موسى عليه السلام: «اسمعوا يا بني إسرائيل، الله ربنا، إله

(١) هذا النص أورده الجعفري في التخجيل (١/١٣٩)، وورد في الكتاب المقدس مع اختلاف يسير في اللفظ في إنجيل متى، الإصحاح (١٩/١٦ ـ ١٧).

(٢) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (١/١٣٩).

(٣) هذا النص الذي أورده القرافي في كتابه أدلة الوحدانية، ص (٥٨)، وورد في التوراة مع اختلاف يسير في اللفظ في سفر الخروج، الإصحاح (٢٠/١ ـ ٣).

(٤) هذا النص الذي أورده القرافي في كتابه أدلة الوحدانية، ص (٥٩)، وورد في الكتاب المقدس في إنجيل يوحنا مع اختلاف يسير في اللفظ في الإصحاح (١٧/٣).

(٥) أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية، أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق د. عبد الرحمن دمشقية، ص (٥٩).

(٦) هذا النص الذي أورده القرافي في كتابه أدلة الوحدانية، ص (٦٠)، وقد ورد في الكتاب

واحد»[1]. حيث عقب على ذلك القرافي بقوله: «هذا موسى عليه السلام لما قال: «إله واحد» لو كانوا ثلاثة كما زعمتم لما وسعه تغيير الكلام الذي سمعه من مولاه، ولا استحيا بتبديله عن معناه»[2].

وبعد أن أبطل نصر بن يحيى المتطبب التثليث بأدلة عقلية، وجه كلامه للنصارى قائلاً: «فلم لا تجعلوه ـ أي المسيح ـ كما جعل نفسه وهو لم يدع ذلك ـ أي الألوهية ـ ولم يرضَ به»[3]، ثم أورد نصوصاً من الإنجيل في إفراد الله سبحانه وتعالى بالألوهية معقباً بعدها بقوله: «فهذه الشواهد كلها من كتبكم وما رضيتم قوله ـ أي المسيح ـ في نفسه، ولا قول تلاميذه فيه، ولا قول من أثنى عليه من الأنبياء، . . . فتركتم ذلك كله وأخذتم بآراء قوم من رؤسائكم تأولوا ما تأولوه لكم مع علمكم بأنهم قد اختلفوا أيضاً في الرأي. فبينوا لنا حجتكم في ذلك، وهيهات من حجة»[4].

جـ ـ إبطال عقيدة التثليث من خلال بيان اختلاف النصارى في تفسير هذه العقيدة اختلافاً شديداً. حتى أن بعض فرقهم تكفر البعض الآخر.

وهذا الاختلاف راجع إلى غموض هذه العقيدة، ومصادمتها للعقل السليم. ولذلك صار الإيمان بها لدى النصارى سماعاً وتقليداً لما ورثوه عن آبائهم.

هذا الغموض الشديد في تثليث النصارى والاختلاف في تفسيره أشار إليه نصر بن يحيى المتطبب في معرض رده عليهم كدليل على تهافت هذه العقيدة[5].

وفي مناقشة القرافي لذلك وضح أن اختلافهم في أصل ديانتهم دليل على

المقدس مع اختلاف يسير في اللفظ في إنجيل متى، الإصحاح (٤/٨ ـ ١٠).

(١) الكتاب المقدس، إنجيل مرقس، الإصحاح (١٢/ ٢٩).

(٢) أدلة الوحدانية، أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق د. عبد الرحمن دمشقية، ص (٦٣).

(٣) النصيحة الإيمانية، نصر بن يحيى المتطبب، تحقيق د. محمد الشرقاوي، ص (١٢٩).

(٤) المصدر السابق، ص (١٣٠).

(٥) انظر: النصيحة الإيمانية، نصر بن يحيى المتطبب، تحقيق د. محمد الشرقاوي، ص (٥٦، ٥٧).

أنهم ليسوا على دين، ولا في شيء من أمرهم على يقين[1].

وقال القرطبي في ثنايا عرضه لعقيدة التثليث لدى النصارى، وسياقه لاختلافاتهم فيها: «... وهم مع ذلك فيما ذكرناه من الأقانيم مختلفون، وبالحيرة عمون»[2]. وقال: «وإذا وقفت على هذه الأقاويل الضعيفة والآراء السخيفة لم تشك في تخبطهم في عقائدهم، وحيرتهم في مقاصدهم»[3].

د ـ إبطال عقيدة التثليث من خلال تفنيد أدلة النصارى عليها:

حيث عرض بعض العلماء المسلمين أمثلة من أدلة النصارى على عقيدة التثليث؛ بياناً لهشاشتها، وإيضاحاً لضعفها ومن ثَمَّ إبطالاً لهذه العقيدة المعتمدة عليها:

فمن هذه الأدلة ما عرضه القرافي مما ورد في التوراة أن الله سبحانه وتعالى بعد أن وصل إلى خلق آدم قال: «نضع آدم بصورتنا كشبهنا»[4] حيث وضح وجه استدلال النصارى بذلك على التثليث بأن صيغة الجمع تدل على التثليث من حيث أن أقل الجمع ثلاثة، فالمراد بذلك الأب، والابن، وروح القدس، إله واحد، وأراد بقوله ـ بشبهنا ـ السيد المسيح حيث شبهه بنفسه لأجل اللاهوت وشبهه بآدم لأجل الناسوت[5]. وبعد أن عرض القرافي هذا الدليل للنصارى على التثليث ووجه استدلالهم به أبطله ببيان المعنى الصحيح لقول الله سبحانه وتعالى، وأن النون لا تعني الجمع وإنما المقصود بها العظمة،

---

(١) انظر: الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١١٨ ـ ١١٩).

(٢) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٨٠).

(٣) المصدر السابق، ص (٨١).

(٤) هذا النص الذي أورده القرافي في أدلة الوحدانية، ص (٢٧)، ونصه في التوراة «وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا» سفر التكوين، الإصحاح (١/ ٢٦).

(٥) انظر: أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية، أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق د. عبد الرحمن دمشقية، ص (٢٧).

وهي مستعملة عند سائر الأمم، وقوله ـ بشبهنا ـ ليس المراد به المسيح، إذ القول وقع على آدمعليه السلام[1][2].

ودليل آخر أورده القرافي من التوراة يستدل بها النصارى على تثليثهم وهو أن الملائكة تراءت لإبراهيمعليه السلام في صورة ثلاثة نفر، فقام إبراهيم فسجد للواحد وخاطب الثلاثة وجاء بعجل حينئذٍ وبشروه بإسحاق[3]. ووجه استدلال النصارى بذلك هو سجود إبراهيم للواحد، ومخاطبة الثلاثة. فهذا فيه دليل على التثليث بزعمهم[4]. وقد رده القرافي عليهم مبيناً جهلهم بفهمهم التثليث من ذلك، وموضحاً عدم تسليم اليهود لهم بهذا الفهم. ثم إنه على التسليم بصحة هذا النقل

---

(١) انظر: المصدر السابق، ص (٧١ ـ ٧٢).

(٢) يوضح شيخ الإسلام ابن تيمية أن استدلال النصارى على التثليث بلفظ التوراة «نخلق خلقاً على شبهنا ومثالنا» وأن المراد به المسيح ومن سوى شبهه سوى حكمته وروحه. إن هذا الاستدلال باطل من وجوه:

أ ـ إن لفظ التوراة «نصنع آدم كصورتنا وشبهنا» فالمراد به آدم وليس المسيح.

ب ـ إن الله ليس كمثله شيء، وليس اللفظ على مثالنا.

جـ ـ إن هذا اللفظ على تقدير «نخلق خلقاً على شبهنا ومثالنا» لا اختصاص للمسيح به.

د ـ إن أراد النصارى بالكلمة التي هي شبهه ومثاله صفته التي هي العلم والحياة مثلاً فالصفة لا تكون مثلاً للموصوف، إذ الموصوف هو الذات القائمة بنفسها، والصفة قائمة بها، وإن أرادوا شيئاً آخر مثل بدن المسيح وروحه فذلك مخلوق له والمخلوق لا يكون مثل الخالق. كذلك وعلى ما قالوه أنه قال: «نخلق خلقاً على شبهنا» وحكمة الله وروحه عندهم غير مخلوقة فامتنع بذلك حكمته وروحه. وإن قالوا المراد بذلك ـ على صورتنا وشبهنا ـ الناسوت المسيحي، فلا فرق بين ذلك الناسوت وسائر النواسيت، مع أن المراد بالنص آدم أبو البشر، والناسوت نفسه ليس هو حكمة الله وروحه. ولو قدر أنه أريد بذلك أن كلام الله يشبه ذاته من بعض الوجوه مثل كونه قديماً بقدمه لم يكن في ذلك ما يدل على الأقانيم الثلاثة، انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق د. علي بن حسن بن ناصر وآخرين (٥/ ٤٤٠ ـ ٤٤٢).

(٣) انظر: التوراة، سفر التكوين، الإصحاح (١٨/ ١ ـ ١٥).

(٤) انظر: أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية، أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق د. عبد الرحمن دمشقية، ص (٢٧ ـ ٢٨).

فيحتمل أن إبراهيم عليه السلام سجد لجبريل رئيس الملائكة لحشمته وسلم على البقية(١)(٢).

ومما استدل به النصارى من الإنجيل على تثليثهم قول عيسى عليه السلام: «اذهبوا إلى سائر الأمم وعمدهم باسم الأب والابن وروح القدس»(٣).

وقد ردَّ القرافي على ذلك بقوله: «وأما ما اعتمدوا عليه من نص الإنجيل فقد تقدم أن إنجيلهم ليس شيئاً يعتمد عليه، ولا هو مضبوط النقل، ولا مضبوط العين، ولا يوثق منه بشيء في الدين»(٤).

وبين نصر بن يحيى المتطبب بأنه لو صحت الرواية فإن المعنى أن تجتمع للمعمَّد بركة الله وبركة نبيّه المسيح، وبركة روح القدس التي يؤيد بها الأنبياء والرسل. كما يكون أحدكم أيها النصارى عند الجاثليق أو الأسقف فيقول له: صل عليَّ، أي ادع لي، باسم فلان النبيّ أو فلان الصالح الذي هو يعينك على أمورك(٥). ويحتمل أن يكون المسيح عليه السلام ذهب فيه إلى ما أعلم به، فكيف

---

(١) انظر: المصدر السابق، ص (٧٢).

(٢) وعلى هذا التوجيه: فالسجود من باب التحية والإكرام، لا سجود خضوع وعبادة، وقد كان ذلك جائز في الأمم السابقة كسجود أبوي يوسف وإخوته له، وقد نسخ ذلك في الإسلام سداً لذريعة الشرك فكانت التحية بين المسلمين السلام. انظر: الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، المجلد الخامس، الجزء العاشر، ص (١٧٣ ـ ١٧٤).

(٣) هذا النص الذي أورده القرافي في الأجوبة الفاخرة، ص (٣٣)، وقد ورد في الكتاب المقدس مع اختلاف يسير في اللفظ في إنجيل متى، الإصحاح (٢٨/ ١٩).

(٤) الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (٣٤).

(٥) هذا التوجيه من نصر بن يحيى المتطبب فيه تجاوز، حيث إنه لا الملائكة ولا الأنبياء، ولا غيرهم من الصالحين يملكون لأحدٍ ضراً ولا نفعاً في حال التوسل بهم.

والأقرب أن المعنى إن صحت هذه العبارة هو كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «أي مروا الناس أن يؤمنوا بالله وبنبيه الذي أرسله وبالملك الذي أنزل عليه الوحي الذي جاء به؛ فيكون ذلك أمراً لهم بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وهذا هو الحق الذي يدل عليه صريح المعقول وصحيح المنقول». الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق د. علي بن حسن بن ناصر وآخرين (٣/ ١٩٧).

فسرتموها أيها النصارى هذا التفسير الذي يقتضي التثليث[1].

هـ ـ بيان فساد عقيدة التثليث بالأدلة العقلية[2]:

وقد توسع العلماء المسلمون في عصر الحروب الصليبية في إبطال عقيدة التثليث من خلال طلبهم من النصارى عرض هذه العقيدة على العقل السليم المجرد من الهوى وتحكيمه فيها، وسيظهر لهم فساد ما هم عليه.

ومن ذلك أنه قد كتب أحد علماء النصارى في الأندلس كتاباً سماه ـ تثليث الوحدانية ـ وبعث به إلى المسلمين في قرطبة. فرد عليه القرطبي منتقداً عنوان الكتاب، وموضحاً أن قوله: ـ تثليث الوحدانية ـ مركب من مضاف ومضاف إليه، فالتثليث تعدد وكثرة والوحدانية مأخوذة من الوحدة، ومعناها راجع إلى نفي التعدد والكثرة. فمعنى هذا القول ـ تكثير ما لا يتكثر ـ وتكثير ما لا يتكثر باطل بالضرورة[3][4].

وألزم الجعفري النصارى بلوازم لا مفر لهم منها في قولهم بالتثليث، فإن كانوا يقولون: إن الثلاثة بمجموعها إله واحد، وإن كل واحد على انفراده ليس

(١) انظر: النصيحة الإيمانية، نصر بن يحيى المتطبب، تحقيق د. محمد الشرقاوي، ص (١٢٦).

(٢) يلاحظ في إبطال بعض العلماء المسلمين في عصر الحروب الصليبية لعقيدة التثليث لدى النصارى بالأدلة العقلية غلبة منهج المتكلمين عليهم في ذلك. مما يخالف في بعض ردودهم منهج أهل السنة والجماعة في أسماء الله وصفاته.

(٣) انظر: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٤٧).

(٤) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في إيمان النصارى بثلاثة آلهة وقولهم: إنما نثبت إله واحد: «... وهذا تصريح بإثبات ثلاثة جواهر، وثلاثة آلهة، ويقولون مع ذلك: إنما نثبت جوهراً واحداً وإلهاً واحداً، وهذا جمع بين النقيضين، فهو حقيقة قولهم يجمعون بين جعل الآلهة واحداً، وإثبات ثلاثة آلهة، وبين إثبات جوهر واحد، وبين إثبات ثلاثة جواهر». الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق د. علي بن حسن بن ناصر وآخرين (٣/ ٢٣٠ ـ ٢٣١).

بإله فإنهم حينئذٍ يخالفون أمانتهم التي هي أصل إيمانهم والتي يقولون فيها: إن الأب إله واحد، وإن الابن إله واحد، وإن روح القدس إله واحد[1].

وإن قالوا: إن الإله أحدهم والباقي صفات له أبطلوا ثالوثهم، وفسدت أمانتهم، ووافقوا المسلمين في أن الإله تعالى واحد وله صفات من العلم والقدرة والإرادة والحياة والسمع والبصر والكلام[2]، وإن شيئاً من الصفات ليس بإله، وإنما الإله ذات موصوفة بالصفات[3].

وإن أثبتوا الإلهية لكل واحد من الثلاثة فإنهم حينئذٍ كالثنوية من المجوس الذين يقولون بأصلين قديمين مدبرين للعالم، حيث وضح ابن الأنباري استحالة ذلك وأن الله سبحانه وتعالى بين هذا الأمر بقوله جلّ ولا: ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[4]، وقوله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[5][6].

وبين نصر بن يحيى المتطبب أن هذه الآلهة الثلاثة لا يخلو أن تكون متساوية في العلم والقدرة والحكمة أو متفاضلةً، فإن تساووا كان ما زاد عن الواحد فضل غير محتاج إليه وهذا لا يكون في الحوادث فضلاً عن القدماء. وإن

---

(١) انظر: الرد على النصارى، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمد محمد حسانين، ص (٧٨ ـ ٧٩).

(٢) نعم إن قالوا: الإله أحد الثلاثة والباقي صفات فقد نقضوا تثليثهم وخالفوا أمانتهم بإثبات إله واحد له صفتان العلم والحياة، أما أهل السنة من المسلمين فإنهم يقولون: إن الله سبحانه وتعالى فرد صمد متصف بصفات الكمال، لكن هذه الصفات ليست صفتان فقط ـ العلم والحياة ـ كما يطلق النصارى على أقانيمهم، وليست سبع صفات كما يثبتها الأشاعرة وهي التي نص عليها الجعفري، بل أهل السنة يثبتون كل ما أثبته الله لنفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تشبيه.

(٣) انظر: الرد على النصارى، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمد محمد حسانين، ص (٧٨).

(٤) سورة المؤمنون، الآية: (٩١).

(٥) سورة الأنبياء، الآية: (٢٢).

(٦) انظر: الداعي إلى الإسلام، عبد الرحمن بن محمد الأنباري، تحقيق د. سيد حسن باغجوان، ص (٣٦٢)، وإحالته في الرد على المجوس، ص (٢٢١).

تفاضلوا كان المفضول ناقصاً ولا يسوغ إدخال النقص على الآلهة[١].

وهكذا بمجموع هذه الأدلة وغيرها أبطل العلماء المسلمون الذين ناقشوا النصارى في هذه الفترة عقيدة التثليث لديهم التي هي أصل ديانتهم ولم يبق لهم إلا ترك المكابرة والعناد والتسليم للحق بنبذ هذه العقيدة الضالة وتوحيد الباري سبحانه وتعالى.

٢ ـ إبطال الاتحاد والتجسد:

يقصد النصارى بالاتحاد والتجسد: أن الأقنوم الثاني الابن قد صار جسداً لأجل بني الإنسان وتخليصهم من خطيئة أبيهم فاتخذ طبيعة البشر وحل بين الناس بصورة إنسان هو المسيح، فقبل الله اتخاذ الحالة البشرية والتقى الإنسان مباشرة بهذه الصورة[٢].

حيث صار في السيد المسيح طبيعتان: طبيعة لاهوتية: التي هي طبيعة كلمة الله وروحه، وطبيعة ناسوتية التي اتخذت من مريم العذراء واتحدت به[٣].

قال الجعفري: «... زعم النصارى أن ربهم عبارة عن لاهوت وناسوت، واتحدا فصارا مسيحاً، وكثيراً ما يقولون: اتحد اللاهوت بالناسوت، ويعبرون عن ذلك بالتأنس والتجسد»[٤].

---

(١) انظر: النصيحة الإيمانية، نصر بن يحيى المتطبب، تحقيق د. محمد الشرقاوي، ص (٦٣ ـ ٦٤).

(٢) انظر: علم اللاهوت النظامي، مؤلف مجهول، ص (٧٧٩ ـ ٧٧٠). والمسيح في الفكر الإسلامي الحديث وفي المسيحية، منير خوام، مؤسسة خليفة للطباعة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م، ص (٣١٢)، و(٣١٧). والأمور المتيقنة عندنا، القس كارل س وزميله، مكتبة إيزيس، الإسكندرية، ص (٥٦).

(٣) انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق د. علي ابن حسن بن ناصر وآخرين (٤/ ٧٦).

(٤) الرد على النصارى، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمد محمد حسانين، ص (٦٥).

وكلام النصارى في دعوى اتحاد اللاهوت بالناسوت متناقض ومضطرب، ولهذا يقال: لو اجتمع عشرة من النصارى لتفرقوا على أحد عشر قولاً. بل إن الأمر بلغ في ذلك أن كل فرقة منهم تكفر الأخرى[(١)].

ومن خلال ردود العلماء المسلمين على النصارى في فترة الحروب الصليبية؛ ناقشوا هذه العقيدة إما بشكل مستقل أو ضمن مناقشتهم لقضايا أخرى كألوهية المسيح عليه السلام، أو بنوته لله، أو في ردهم لعقيدة التثليث، وكان من إبطالهم لدعوى الاتحاد والتجسد مايلي:

أ ـ إن الاتحاد الذي يدعونه لم يشاهدوه بالعيان، ولم يدعيه أوائلهم، حيث وضح الجعفري أنهم إن ادعوا شيئاً من ذلك فقد تحامقوا وأكذبهم عقلاؤهم[(٢)].

ب ـ إن أقوال المسيح عليه السلام بأنه إنسان تكذبهم في هذه الدعوى. ومن ذلك قوله لليهود: «لِمَ تريدون قتلي؟ وأنا إنسان من بني آدم كلمتكم بالحق الذي سمعته من الله»[(٣)]. وقوله: «للثعالب أحجار، ولطير السماء أوكار، وابن الإنسان ليس له موضع يسند رأسه»[(٤)]. فبين الجعفري أن المسيح عليه السلام بهذه النصوص وغيرها أثبت أنه إنسان، وذلك تكذيب لمن يقول إنه إنسان وإله[(٥)].

جـ ـ وأشار الجعفري إلى تصريح الإنجيل بأن المسيح عليه السلام جاع وشبع وتألم

---

(١) انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق د. علي بن حسن بن ناصر وآخرين (٤/ ٧٦).

(٢) انظر: الرد على النصارى، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمد محمد حسانين، ص (٦٥).

(٣) هذا النص الذي أورده الجعفري في الرد على النصارى ص (٦٥)، وقد ورد في الكتاب المقدس مع اختلاف يسير في اللفظ في إنجيل يوحنا، الإصحاح (٨/ ٣٩ ـ ٤٠).

(٤) هذا النص الذي أورده الجعفري في الرد على النصارى ص (٦٥)، وقد ورد في الكتاب المقدس مع اختلاف يسير في اللفظ في إنجيل متى، الإصحاح (٨/ ٢٠).

(٥) انظر: الرد على النصارى، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمد محمد حسانين، ص (٦٥).

واعترضته عوارض البشر، فذلك كله يبطل الاتحاد الذين يزعمه النصارى لأن هذه الأوصاف تنافي الألوهية[1].

د ـ إبطال أقوال فرق النصارى في دعوى الاتحاد بالأدلة العقلية:

١ ـ فعلى قول اليعاقبة[2] من النصارى أن الاتحاد أصار المسيح طبيعة واحدة لأن طبيعة اللاهوت تركبت مع طبيعة الناسوت فصار المسيح إلهاً كاملاً باللاهوت وإنساناً كاملاً بالناسوت؛ على ذلك تساءل كل من الجعفري والمتطبب هل هاتان الطبيعتان اللتان أصارهما الاتحاد طبيعة واحدة هل تغيرت كل واحدة منهما عن أصلها بعد الاتحاد أم لا؟ فإن كانتا لم تتغير بطل ما يدعونه من الاتحاد، وإن تغيرتا عن حالهما الأولى وأصبحتا طبيعة ثالثة بعد الاتحاد فهذا تصريح بأن هذه الطبيعة لا إنسان ولا إله فيجب أن يطلق عليهما اسم آخر. وإن زعم أصحاب هذا الرأي أن الطبيعتين كانتا قبل الاتحاد كاملتين والاتحاد لم يخرجهما عن الكمال، بل بقي المسيح إلهاً كاملاً وهو بعينه إنسان كامل فقد تحامقوا بقولهم هذا وذلك بمثابة من يقول: إن الحركة هي السكون وإن السواد هو البياض. وإن قالوا: إن اللاهوت أبطل الناسوت كان العيان يكذبهم، فإن ناسوت المسيح مثل

---

(١) انظر: المصدر السابق. ص (٦٥).

(٢) اليعقوبية أو اليعاقبة: نسبة إلى يعقوب البراذعي الذي ظهر في القرن السادس الميلادي، ونسبتها إليه لأنه أنشط دعاتها (انظر: معجم الحضارات السامية، هنري س. عبودي، ص (٩١٧)، والمؤسس الأول لها هو أوطيخا رئيس دير قرب القسطنطينية وكذلك بطريرك الإسكندرية وذلك في القرن الخامس الميلادي. (انظر: معجم الحضارات السامية، هنري س. عبودي ص (٨٢٣ ـ ٨٢٤)، ورأي هذه الفرقة أن المسيحﷺ طبيعة واحدة تكونت بالاتحاد من طبيعتين هما طبيعة اللاهوت وطبيعة الناسوت انظر: الملل والنحل، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق أمير علي مهنا وزميله، دار المعرفة، بيروت، (١/ ٢٧٠ ـ ٢٧١)، والنصيحة الإيمانية، نصر بن يحيى المتطبب، تحقيق د. محمد الشرقاوي ص (٥٨)، ومعجم الحضارات السامية، هنري س. عبودي (ص ٨٢٣ ـ ٨٢٤)، والكنيسة الأرذوذكسية اليوم امتداد لرأي هذه الفرقة. انظر: النصرانية من التوحيد إلى التثليث، د. محمد أحمد الحاج، ص (٢٠٣).

ناسوت غيره، وإن قالوا: إن الناسوت أبطل اللاهوت لزمهم أن يكون المحدث يبطل القديم وهذا لا يجوز[١].

٢ ـ وعلى قول الملكانية[٢] أن المسيح بعد الاتحاد جوهران وأقنوم واحد، فالاتحاد صار في الأقنوم لا في الجوهر، وصار على ذلك للمسيح مشيئة بطبيعة اللاهوت كمشيئة الأب، وله مشيئة بطبيعة الناسوت كمشيئة إبراهيم وداود وغيرهما. يرد على ذلك كل من الجعفري والقرافي بأن بقاء الجوهر الأزلي على حاله وجوهر الإنسان على حاله بعد الاتحاد؛ فقد آل الاتحاد إلى مجرد تسمية فارغة عن المعنى. والقول باتحاد الأقنومين يلزم منه اتحاد الجوهرين وهذا باطل[٣].

٣ ـ وعلى قول النساطرة[٤] إن المسيح بعد الاتحاد جوهران وأقنومان باقيان

---

(١) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (١/ ٤٧٧ ـ ٤٧٨). والنصيحة الإيمانية، نصر بن يحيى المتطبب، تحقيق د. محمد الشرقاوي ص (٦٦ ـ ٦٧).

(٢) الملكانية أو الملكية: إحدى الفرق النصرانية أطلق عليهم هذا الاسم لأخذهم بمقررات مجمع خلدونية المنعقد سنة ٤٥١م بحضور الإمبراطور الروماني مرقيانوس وكان يسمى ملكاً. (انظر: معجم الحضارات السامية، هنري س. عبودي. ص (٨١٠ ـ ٨١١). ورأي هذه الفرقة أن للمسيح طبيعتين ومشيئتين، فالمسيح أقنوم إلهي بحت ولكن له ذاتان وكيانان هما الإله والإنسان. (انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (١/ ٤٨٣ ـ ٤٨٤)، والملل والنحل، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق أمير علي مهنا وزميله، (١/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧)، والتاريخ المجموع، سعيد بن البطريق، ص (١١٦) وما بعدها. والكاثوليك اليوم امتداد لهذه الفرقة. (انظر: النصرانية من التوحيد إلى التثليث، د. محمد أحمد الحاج، ص (٢٠٣).

(٣) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (١/ ٤٨٤ ـ ٤٨٥). والأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١١٠).

(٤) النساطرة أو النسطورية: إحدى الفرق النصرانية نسبة إلى مؤسسها نسطوريوس بطريرك القسطنطينية عام ٤٢٨م، والذي عزله مجمع أفسس سنة ٤٢١م لرأيه في المسيح (انظر:

على حالهما الأولى قبل الاتحاد. وإنما الاتحاد بينهما فقط في خاص النبوّة وهي علم الباري في زعمهم ـ أي أن المسيح اتحد مع الله سبحانه وتعالى في هذه الخاصية ـ فصار بها ابناً لله. يرد كل من الجعفري والقرافي على ذلك بأنه إذا كان الجوهران والأقنومان باقيان على حالهما قبل الاتحاد فلا معنى للاتحاد إذاً، وكون المسيح بزعمهم أقنومان ـ أقنوم لاهوتي وأقنوم ناسوتي ـ مكذب بالحس فلا يرى المسيح إلا شخص واحد وليس اثنان[(١)].

هـ ـ إبطال حجج النصارى على الاتحاد:

ومن أبرز حججهم على ذلك قول المسيح ﷺ: «أنا بأبي وأبي بي»[(٢)]. حيث يقولون: إن هذا تصريح من المسيح بأنه متحد بالله والله متحد به[(٣)].

فبعد أن أورد الجعفري هذه الحجة لهم رد عليهم بقول يوحنا: «تضرع المسيح إلى الله في تلاميذه فقال: أيها القدوس احفظهم باسمك ليكونوا هم أيضاً شيئاً واحداً كما أنا شيء واحد، قد منحتهم من المجد الذي أعطيتني ليكونوا

معجم الحضارات السامية، هنري س. عبودي، ص (٨٤٦).

والنساطرة يرون أن مريم لم تلد إلهاً بل ولدت إنساناً، والاتحاد لم يحصل إلا بعد الولادة، وليس هذا الاتحاد إلا اتحاداً مجازياً بالمحبة والنعمة فيقال للمسيح الله وابن الله على المجاز. (مجموعة الشرع الكنسي، حنانيا إلياس كساب، ص (٢٨٨)، وما بعدها. وتاريخ الأقباط، زكي شنودة، ص (١٥٩)، ومذهب النساطرة محاولة للعودة إلى التوحيد ويؤدي إلى القول بعدم ألوهية المسيح ولذلك فالنساطرة اليوم انحرفوا عن مذهب سابقيهم ووافقوا الكاثوليك (انظر: محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، ص (١٥٧ ـ ١٥٩)، والمسيحية، د. أحمد شلبي، ص (١٩٢).

(١) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (١/ ٤٨٨، والأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١١٠).

(٢) هذا النص الذي أورده الجعفري في التخجيل (١/ ٤١٢)، وورد في الكتاب المقدس مع اختلاف يسير في اللفظ في إنجيل يوحنا، الإصحاح (١٤/ ١١).

(٣) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (١/ ٤١٢).

شيئاً واحداً، فأنا بهم وأنت بي»[1]. ثم وضح معنى ذلك بأنك يا إلهي معي وأنت لي، وأنا أيضاً مع أصحابي وأنا لهم، وكما أنك أرسلتني لأدعو عبادك إلى توحيدك فكذلك أنا أرسلتهم ليدعو إليك فكن لهم كما كنت لي[2].

ثم أكد الجعفري أن هذا هو التأويل الصحيح لقول المسيح، وإن عدل عنه فيلزم منه حلول الله سبحانه في رجل من خلقه، وأن يكون التلاميذ أيضاً متداخلين مع المسيح، ويكون المسيح متداخلاً معهم، ومعنى ذلك أن الله أيضاً حال في التلاميذ، والتلاميذ حالون في الله، وهذا ما لا يقول به النصارى[3].

٣ ـ نفي الألوهية عن المسيح عليه السلام:

قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[4]. وتأليه المسيح عليه السلام قد بدأت بوادره في حياته عليه السلام. واستمر هذه الانحراف بتأثير الفلسفات القديمة والديانات الوثنية السائدة في المناطق التي انتشرت فيها النصرانية حيث تسربت إليها، مع ما لبولس اليهودي من دور كبير في هذا الانحراف بديانة النصارى وإفسادها عقيدة وشريعة[5]، وبذلك انقسم النصارى بعد المسيح عليه السلام إلى قسمين: طائفة جنحت للشرك بالله بتأليه المسيح عليه السلام، أو إثبات بنوته لله، وطائفة ظلت محافظة على التوحيد وتقرير بشرية المسيح ونبوته.

وقد استمر هذا الوضع والنزاع في طبيعة المسيح عليه السلام حتى مطلع القرن الرابع الميلادي حين حمل لواء التوحيد ـ أريوس المصري[6] ـ الذي أنكر

---

(١) هذا النص الذي أورده الجعفري في التخجيل (١/ ٤١٢ ـ ٤١٣)، وورد في الكتاب المقدس مع اختلاف يسير في اللفظ في إنجيل يوحنا، الإصحاح (١٧/ ١١ ـ ٢٣).

(٢) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (١/ ٤١٣).

(٣) انظر: المصدر السابق (١/ ٤١٣).

(٤) سورة المائدة، الآية: (١٧).

(٥) انظر: دور بولس في إفساد النصرانية في ص ٢١٩من هذا المطلب.

(٦) أريوس المصري كان قسيساً في كنيسة الإسكندرية، عاش بين سنتي ٢٥٦م إلى ٣٣٦م، وكان

معتقدات بولس وقرر أن المسيح ليس إلهاً ولا ابن إله. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «... أريوس لم يقل قط إن المسيح خالقاً»[1]. فاشتد الصراع لذلك بين أتباع وثنية بوليس وتوحيد أريوس، حتى دخل قسطنطين حاكم الرومان بالنصرانية فأمر بعقد مجمع ديني ضخم لجميع الكنائس، وذلك للفصل في أمر الخلاف بين أريوس ومعارضيه، حيث عقد مجمع نيقية سنة ٣٢٥م[2] الذي حضره ألف وثمانمائة وأربعون من الأساقفة الذين اشتد الخلاف بينهم في طبيعة المسيح حتى انسحب أكثرهم ولم يبق إلا ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً. وكان قسطنطين لخلفيته الوثنية يميل إلى رأي تأليه المسيح عليه السلام[3]، فأيد هذا الرأي وانتهى هذا المجمع إلى قرارات أهمها القول بألوهية المسيح وتكفير أريوس وأتباعه[4].

ووضح شيخ الإسلام ابن تيمية أن أول ملك أظهر دين النصارى هو قسطنطين وذلك بعد المسيح بأكثر من ثلاثمائة سنة، وأن ما هم عليه من الإيمان صنعه طائفة منهم مع مخالفة آخرين لهم، فليس منقولاً عن المسيح[5].

وقد تصدى العلماء المسلمون في فترة الحروب الصليبية إلى مناقشة دعوى ألوهية المسيح عليه السلام، وتفنيد أدلة النصارى وشبههم التي يعتمدون عليها في ذلك. وكان إبطال هذه العقيدة على النحو التالي:

١ ـ بيان كفر من يؤمن بهذه العقيدة ابتداءً: إذ وضح القرطبي كفر النصارى

يقول بوحدانية الله، ويقر بنبوّة المسيح، وقد كفره وحرمه المجمع النيقاوي سنة ٣٢٥م.

انظر: مجموعة الشرع الكنسي، جمع حنانيا إلياس كساب، ص (٤٠ ـ ٤٣).

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق د. علي بن حسن بن ناصر وآخرين (٤/ ٢٨٠).

(٢) انظر: مجموعة الشرع الكنسي، حنانيا إلياس كساب، ص (٤٢).

(٣) انظر: اليهودية والمسيحية، د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي، مكتبة الدار بالمدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٩٨م، ص (٢٩٩ ـ ٣٠٢).

(٤) انظر: مجموعة الشرع الكنسي، حنانيا إلياس كساب، ص (٤٢ ـ ٤٣).

(٥) انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق د. علي بن حسن بن ناصر وآخرين (٤/ ٣٨٠).

إذ غلوا بالمسيح عليه السلام حتى جعلوه إلهاً[1]. وذكر ابن الجوزي أن الذين كفروا من النصارى هم المقيمون على اعتقاد الألوهية بالمسيح عليه السلام[2]. وقال ابن عطية عن النصارى: «... إنما الحق أنهم على اختلاف أحوالهم كفار من حيث جعلوا في الإلهية عدداً، ومن حيث جعلوا لعيسى عليه السلام حكماً إلهياً»[3].

وقال الجعفري: «... وأما النصارى فإنهم مجمعون على ألوهية المسيح واعتقاد ربوبيته وأنه الإله الذي خلق العالم وجبل بيده طينة آدم»[4]. ثم ناقش فساد هذه العقيدة مبيناً كفرهم وبطلان معتقدهم، ومنزهاً الله عن كفرهم وضلالهم، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً[5].

٢ ـ عدم ذكر عقيدة الألوهية في المسيح من الأنبياء السابقين: حيث وضح القرافي ذلك، وعليه فالنصارى إما أنهم يكفرون بهؤلاء الأنبياء المذكورين في كتبهم لنسبتهم إلى الجهل بخالقهم، وإما أنهم يكذبون بكتبهم؛ إذ ليس فيها حرف واحد يدل على أن أحداً من هؤلاء الأنبياء قال: إن المسيح إله[6].

٣ ـ نفي المسيح عليه السلام الألوهية عن نفسه، وتصريحه بذلك في التوراة والإنجيل، حيث استشهد عدد من العلماء بنقول منهما توضح ذلك، منها ما أورده القرافي من أن الشيطان قال ليسوع: «... اسجد لي وأعطيك ملك الأرض، قال له يسوع: اذهب عني يا شيطان. إن الله أمر في التوراة ألا يسجد

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، المجلد الثالث، الجزء السادس، ص (١٧٦).

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق د. محمد بن عبد الرحمن وزميله (٢/ ٣٠٦).

(٣) المحرر الوجيز، عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (٥/ ١٦١).

(٤) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (١/ ١٦٥).

(٥) انظر: المصدر السابق، (١/ ١٦٥)، وما بعدها.

(٦) انظر: الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٠٦).

لغيره، ولا يعبد إله سواه»[1]. فدل ذلك على أنه كان متعبداً بأحكام التورة، ولا متعبد إلا مكلف مربوب[2].

وأورد الجعفري أيضاً نقولاً من التوراة والإنجيل توضح نفي المسيح الألوهية عن نفسه، منها قوله في الإنجيل: «... إني ذاهب إلى أبيك وأبيكم، وإلهي وإلهكم»[3]. فبين بذلك أن عبد مألوه، له إله يعبد[4]. وقوله: «إلهي أنت الإله الحق الذي أرسلت يسوع المسيح»[5]، وقوله: «لا صالح إلا الله الواحد»[6]، وبعد أن ساق الجعفري هذه النصوص وأمثالها بين أن على النصارى الالتزام بها ونبذ ما هم عليه من الشرك بجعلهم المسيح إلهاً[7].

٤ ـ إبطال ألوهية المسيح عليه السلام بأدلة عقلية منها:

أ ـ حاجة المسيح عليه السلام إلى الأكل والشرب واتصافه بالصفات البشرية الأخرى التي تستحيل على الإله.

قال البوصيري:

أسمعتم أن الإله لحاجة ... يتناول المشروب والمأكولا

---

(١) هذا النص الذي أورده القرافي في أدلة الوحدانية، ص (٦٠)، وقد ورد في الكتاب المقدس مع اختلاف يسير في اللفظ في إنجيل متى، الإصحاح (٤/ ١٠).

(٢) انظر: أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية، أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق د. عبد الرحمن دمشقية، ص (٦٠).

(٣) هذا النص الذي أورده الجعفري في الرد على النصارى، ص (٦١)، وقد ورد في الكتاب المقدس مع اختلاف يسير جداً في اللفظ في إنجيل يوحنا، الإصحاح (٢٠/ ١٧).

(٤) الرد على النصارى، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمد محمد حسانين، ص (٦١).

(٥) هذا النص الذي أورده الجعفري في التخجيل (١/ ١٥٣)، وقد ورد في الكتاب المقدس بهذا المعنى في إنجيل يوحنا، الإصحاح (١٧/ ١ ـ ٣).

(٦) هذا النص الذي أورده الجعفري في التخجيل (١/ ١٣٩)، وقد ورد في الكتاب المقدس مع اختلاف يسير في اللفظ في إنجيل متى، الإصحاح (١٩/ ١٦ ـ ١٧).

(٧) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (١/ ١٥٢ ـ ١٥٣).

وينام من تعب ويدعو ربه ويرود من حر الهجير مقيلا
ويمسه الألم الذي لم يستطع صرفاً له عنه ولا تحويلا[(١)]

وقال نصر بن يحيى المتطبب: «... تقولون ـ أي النصارى ـ إنه بقي مدة الحمل في أحشاء مريم، واغتذى بدم طمثها، ورضع لبنها، وأكل، وشرب، وغاط، وأخذته اليهود وفعلت به ما فعلت... وليس من حق الإله أن يصلي، ويخضع، ويذل، ويمتهن، ويعذب بكل أنواع العذاب، ويتألم... وهذه جميعها من صفات البشر وليس من صفات من يدعى له بالألوهية[(٢)]. وبمثل ذلك احتج الجعفري على النصارى في نفي الألوهية عن المسيح عليه السلام[(٣)].

وفي مناقشة ابن الأنباري للنصارى قال: «... فإن زعموا أن المسيح لم يكن إنساناً بل كان إلهاً. قلنا: فالإله يأكل ويشرب، إن هذا لعجب»[(٤)].

ب ـ عجز المسيح عليه السلام عن المدافعة عن نفسه حينما صلب بزعمهم ينفي عنه الألوهية: حيث وضح الرازي أنه إذا كان إلهاً، أو ابن إله، أو كان جزء من الإله حالاً فيه، فلِمَ لم يدافع عن نفسه، ولِمَ لم يهلك أعداءه المتربصين به مع قدرته على ذلك، وأي حاجة له بإظهار الجزع واحتمال الألم والتعرض للإهانة[(٥)].

وبعد أن ساق القرافي رأي النصارى في المسيح وتعرضه للإهانة والمذلة والقتل والصلب، قال: «... وإن هذا لمن أعظم الشين لهذه الربوبية، وإزالة

---

(١) منظومة البوصيري في الرد على النصارى واليهود، محمد بن سعيد الأبوصيري، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، دار البيان، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩م، ص (٧).

(٢) النصيحة الإيمانية، نصر بن يحيى المتطبب، تحقيق د. محمد الشرقاوي، ص (١١٦).

(٣) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (١/ ١٥٩).

(٤) الداعي إلى الإسلام، عبد الرحمن بن محمد الأنباري، تحقيق د. سيد حسن باغجوان، ص (٣٨٧).

(٥) انظر: عيون المناظرات، عمر السكوني، تحقيق سعد غراب، ص (٢٨٤ ـ ٢٨٥).

بهجتها، وطمس نورها، وإطلاق ألسنة أعدائها بإبطالها»[1]. وقال الجعفري: «... فلا يصلح من هذا حاله للربوبية»[2]. وقال بعد أن عرض الصفات البشرية للمسيح عليه السلام ورأي النصارى في قضية صلبه وما تعرض له من ذلٍ وإهانةٍ في زعمهم: «... فلقد شان الربوبية وأزال بهجتها وطمس نورها وأطلق ألسن السفلة بنقصها وثلبها»[3].

جـ - وقرر الخزرجي النصارى بما يعتقدونه من أن الرب صعد فصار على يمين الرب وآثر الصلب. ثم ناقشهم متسائلاً عن هذين الربين أيهما خلق صاحبه، فالمخلوق إذاً ضعيف عاجز ليس إله. وهل هذان الربان إذا أرادا أمراً فلمن الحكم منهما، فالذي له الحكم هو الرب القادر، والآخر عاجز ليس بإله[4]. ثم خاطب الخزرجي النصارى بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾[5]، وقوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾[6].

د - وعرض الجعفري قول النصارى إن المسيح عليه السلام هو إله العباد وخالقهم ورازقهم وبارئهم ومديرهم في جميع أحوالهم، ثم تساءل: «كيف كان حال الوجود، والإله في اللحود»؟[7]. ومن الذي كان يقوم برزق العباد

---

(١) الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٠٤).

(٢) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (١/ ١٥٠).

(٣) المصدر السابق (١/ ٢٧٧).

(٤) انظر: مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، تحقيق د. محمد شامة تحت عنوان بين الإسلام والمسيحية، ص (١٧٨ - ١٧٩).

(٥) سورة الأنبياء، الآية: (٢٢).

(٦) سورة المؤمنون، الآية: (٩١).

(٧) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (١/ ٣٩٦).

ويدبر شؤونهم وإلههم مصلوب»[1].

هـ ـ وبين الجعفري زعم النصارى أن المسيح خلق آدم وذريته أجمعين، ثم اعترض عليهم بقوله: «... فمريم من خلقها؟ فإن قالوا: ليست مِنْ خَلْقه، نقضوا مقالهم، وإن زعموا أنه خلقها فيقال لهم: ... كيف تلد المسيح وهو خالقها؟ أم كيف ترضعه وهو رازقها؟، أسمعتم يا معشر العقلاء بامرأة ولدت خالقها وأرضعت ثديها رازقها؟»[2].

و ـ وسأل القرافي النصارى، هل الإله يعلم الغيب أم لا؟ فإن قالوا: لا. كذبتهم كتبهم لإثباتها ذلك. وإن قالوا: نعم بطل اعتقادهم الألوهية بالمسيح لأن نصوص الإنجيل توضح عدم علمه بالمغيبات[3].

٥ ـ إبطال ألوهية المسيح عليه السلام من خلال تفنيذ شبه النصارى التي يستدلون بها على ذلك:

أ ـ مما يستدل به النصارى في إثباتهم الألوهية للمسيح عليه السلام، أنه نفخة من روح الله، وقد رد على ذلك الخزرجي مبيناً أنه يلزمهم على هذا الأساس إثباتها لآدم لأنه نفخة من روح الله بعد أن سواه من تراب[4].

ثم قال مخاطباً أحد قساوسة النصارى: ... فلماذا أوجب الألوهية لعيسى ولم توجبها لآدم وأنت تقر له بروح من الله في حجاب من تراب»[5].

ب ـ مما يعتمد عليه النصارى في إثباتهم الألوهية للمسيح عليه السلام معجزاته التي أجراها الله على يديه تأييداً له، وتصديقاً لنبوته، وقد ناقش نصر بن يحيى المتطبب ذلك مبيناً أنه يلزمهم في إثباتهم الألوهية للمسيح بسبب معجزاته إثباتها

---

(١) انظر: المصدر السابق (١/ ٣٩٦).

(٢) المصدر السابق، ص (٢/ ٥٨٢).

(٣) انظر: الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٠٦ ـ ١٠٧).

(٤) انظر: مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، تحقيق د. محمد شامة تحت عنوان بين الإسلام والمسيحية، ص (١٢٩).

(٥) المصدر السابق، ص (١٢٩).

أيضاً لبقية الأنبياء الذين أجرى الله سبحانه وتعالى على أيديهم مثل هذه المعجزات. ثم أورد أمثلةً لمعجزات الأنبياء السابقين لعيسى عليه السلام من التوراة والإنجيل، ومع ذلك لم يكن أحد منهم بها إلهاً أو ينسبه أحد إلى الألوهية، ففي سفر الملوك ورد أن إلياس أحيا ابن الأرمل، واليسع أحيا الإسرائيلية، وحزقيال أحيا خلقاً كثيراً. وأخبرت التوراة أن يوسف أبرأ عين أبيه يعقوب بعد أن ذهبت، وموسى طرح العصا فصارت حية لها عينان تبصران بها. وفي إنجيل لوقا ورد أن اليسع أبرأ أبرصاً وأبرص صحيحاً، وهذا أعظم من فعل المسيح. ولم يكن واحد من هؤلاء الأنبياء بمعجزاته إلهاً. فَلِمَ تثبت الألوهية بها للمسيح فقط؟![1].

ووضح القرافي بطلان جعل المعجزة دليلاً على الألوهية من خلال إيراده مجموعة من معجزات الرسل عليهم السلام ولم يكونوا بها آلهة أو يدعيها أحدٌ لهم[2].

٤ ـ نفي بنوة المسيح لله سبحانه وتعالى:

مما يعتقده النصارى بنوة المسيح عليه السلام لله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾[3]، وأن الابن مساوٍ للأب في الوجود، وأن الأب خلق العالم بواسطة الابن الذي نزل بصورته البشرية فداءً لبني آدم، وهو الذي يتولى محاسبة الناس يوم القيامة. ويصرحون بذلك بأمانتهم التي لا يتم إيمان نصراني إلا بها إذ يقولون: «نؤمن بالله الواحد الأب ضابط الكل، مالك كل شيء، صانع ما يرى وما لا يرى، وبالرب الواحد يسوع المسيح ابن الله الواحد بكر الخلائق كلها، الذي ولد من أبيه قبل العوالم كلها، وليس بموضوع إله حق من إله حق. . .»[4].

---

(١) انظر: النصيحة الإيمانية، نصر بن يحيى المتطبب، تحقيق د. محمد الشرقاوي، ص (١٠٤ ـ ١٠٥).

(٢) انظر: أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية، أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق د. عبد الرحمن دمشقية، ص (١٠٣).

(٣) سورة التوبة، الآية: (٣٠).

(٤) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/ ٥٠١).

وقد دعا أحد القساوسة أبا عبيدة الخزرجي إلى الإيمان بألوهية المسيح وإثبات بنوته لله سبحانه وتعالى بقوله: «فإذا أردت أن يتغمدك الله برحمته، وتفوز بجنته فآمن بالله، وقل: إن المسيح ابن الله الذي هو الله...»[(١)].

وقد ناقش الجعفري أحد رهبان النصارى في مسألة البنوّة، فقرر هذا الراهب أن المسيح ابن لله على الحقيقة[(٢)].

وقد تصدى علماء المسلمين في عصر الحروب الصليبية إلى مناقشة هذه العقيدة الضالة وبيان فسادها. وكان ذلك على النحو التالي:

١ ـ بيان فساد هذه العقيدة وكفر من يعتقدها ابتداءً:

قال القرطبي: «... وظاهر قول النصارى أن المسيح ابن الله إنما أرادوا بنوة النسل، كما قالت العرب في الملائكة... وهذا أشنع الكفر»[(٣)].

وقال الجعفري بعد أن عرض عقيدة النصارى في بنوة المسيح لله: «... واعلم أن هذه دعوى ملفقة، وعقيدة هامتها بسيوف أدلة الإسلام مغلقة والدليل على فسادها المعقول والمنقول...»[(٤)].

وقد بين الرازي: أن نسبة المسيح عليه السلام إلى البنوة لله سبحانه وتعالى أفحش أنواع الكفر، وأن ذلك من دسائس بولس في ديانة النصارى بعد رفع عيسى عليه السلام[(٥)].

---

(١) مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، تحقيق د. محمد شامة تحت عنوان بين الإسلام والمسيحية، ص (٦١).

(٢) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (١/ ٢٥٠).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، المجلد الرابع، الجزء الثامن.

(٤) الرد على النصارى، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمد محمد حسانين، ص (٥٧).

(٥) انظر: التفسير الكبير، محمد بن عمر الرازي، المجلد الثامن، الجزء السادس عشر، ص (٢٨).

٢ ـ ذكر الأدلة من كتب النصارى على نفي بنوة المسيح لله:

حيث أورد بعض العلماء مجموعة من الأدلة من كتب النصارى تدل دلالة صريحة على نفي بنوة المسيح لله كما يدعيها النصارى. ومن ذلك ما أورده الجعفري من إنجيل مرقص حيث قال: «خرج المسيح وتلاميذه إلى البحر وتبعه جمع كثير فأبرأ أعلالهم وشفاهم، فجعلوا يزدحمون عليه ويقولون: أنت ابن الله؟ فكان ينهاهم»(١).

ونص آخر أورده الجعفري وهو أن لوقا قال: «كان كل من له مريض يأتي به إلى يسوع فيضع يده عليه فيبرأ فيقول: أنت ابن الله، فكان ينهرهم ولا يدعهم ينطقون بهذا»(٢). ثم علق الجعفري بعد هذه النصوص بقوله: «. . . فهذا الإنجيل يكذب من يدعي ذلك على السيد المسيح ـ أي أنه ابن الله ـ»(٣).

٣ ـ نفي بنوة المسيح لله سبحانه بأدلة عقلية منها:

أ ـ عجز المسيح عليه السلام عن المدافعة عن نفسه حينما أراد به أعداؤه كيداً. حيث وضح الرازي أنه لو كان إلهاً أو ابن إله، أو كان جزء من الإله حالاً فيه فلِمَ لم يهلك أعداءه المتربصين به مع قدرته على ذلك. وأي حاجةٍ إلى إظهار الجزع واحتمال الألم والتعرض للإهانة(٤).

بل أين والده عنه وهو القادر على كل شيء. حيث ساق القرافي أبيات شعرية ضمن مناقشته للنصارى متسائلاً فيها عن ضعف ابن الإله وعدم مدافعة والده عنه:

---

(١) هذا النص الذي أورده الجعفري في الرد على النصارى، ص (٦٠ ـ ٦١)، وقد ورد في الكتاب المقدس بمعناه في إنجيل مرقس، الإصحاح (٣/ ٧ ـ ١٢).

(٢) هذا النص الذي أورده الجعفري في الرد على النصارى، ص (٦١)، وقد ورد في الكتاب المقدس مع اختلاف يسير في اللفظ في إنجيل لوقا، الإصحاح (٤/ ٤١).

(٣) الرد على النصارى، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمد محمد حسانين، ص (٦١).

(٤) انظر: عيون المناظرات، عمر السكوني، تحقيق سعيد غراب، (٢٨٤ ـ ٢٨٥).

عجبي للمسيح بين النصارى وإلى أي والد نسبوه
أسلموه إلى اليهود وقالوا إنهم بعد قتله صلبوه
وإذا كان ما يقولون حقاً وصحيحاً فأين كان أبوه[(١)]

ب ـ ولعجز المسيح وهو ابن الله بزعم النصارى عن المدافعة عن نفسه، فالأولى لهم عقلاً أن يعبدوا عدوه الذي استطاع بزعمهم قتله وصلبه. فهم يقولون: إن المسيح بعد إيذائه وقتله وقيامه من بين الأموات صعد ليجلس على يمين أبيه يستريح ثم سيعود لمحاربة عدوه[(٢)]. وعلق القرافي على ذلك قائلاً: «... وما أجدرهم بأن يعبدوا الآن عدوه ويتركوه، فإن الغلب الآن لعدوه، والمتوقع في المستقبل لا يدري كيف هو. ولعل الكسرة في النوبة الثانية تكون أعظم...»[(٣)].

جـ ـ أن المسيح وهو ابن الله بزعم النصارى معترض على قضاء الله متبرم من لقائه وهو أولى الناس بالرضا والرغبة في لقاء الله.

إذ وضح القرافي أن النصارى مقرين أن المسيح تألم وتبرم عند قتله وصلبه وقال: «إلهي إلهي لِمَ خذلتني»[(٤)]. ويعتقدون أنه نزل ليصلب إيثاراً للعالم بنفسه تخليصاً لهم من الشيطان ورجسه، ثم تساءل القرافي: كيف لا يرضى ابن الله بقضاء الله، وهو سوف يذهب للقاء والده، فينبغي أن يكون ولد الرب الأثبت عند المصائب، والأكثر رغبة في لقاء والده[(٥)].

د ـ وقد نفى نصر بن يحيى المتطبب بنوة المسيح عليه السلام لله سبحانه باعتراضه على النصارى من خلال أمانتهم التي يعتقدونها؛ إذ يقولون فيها: «إن المسيح مولود من أبيه أزلي... وأنه خالق الخلائق كلها...» فإذا كان الأمر كما يقول

---

(١) انظر: الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (٥٩).
(٢) انظر: المصدر السابق، ص (١١٧).
(٣) المصدر السابق، ص (١١٧).
(٤) هذا النص الذي أورده القرافي في الأجوبة الفاخرة، ص (٥٤)، وورد في الكتاب المقدس مع اختلاف يسير في إنجيل مرقس، الإصحاح (١٥/ ٣٤).
(٥) انظر: المصدر السابق، ص (٥٤ ـ ٥٥).

النصارى فالمسيح ليس أزلياً، لأنه حادث بولادته. وإذا كان هو خالق الخلائق كلها فأي فضل للأب على الابن؟[1].

٤ ـ إبطال بنوة المسيح لله سبحانه من خلال تفنيد أدلة النصارى على ذلك:

أ ـ استدل النصارى على بنوة المسيح لله بكونه ولد من غير أبٍ، وقد رد القرافي على ذلك بأن الأولى إثباتها لآدم لأنه وجد من غير أب، ولم يباشر الأرحام، ولا تطور في أطوار البشر[2].

وقد ذكر القرافي أن أحد رسل المسلمين إلى الصليبيين في صقلية ناظر جماعة من النصارى هناك بطلب من ملكهم، فأبطل حجتهم في إثباتهم بنوة المسيح لله لكونه ولد من غير أبٍ، بأن أتى بقدح من الفول المسوس، فكان يخرج الفولة ويكسرها ويخرج سوستها، ويقول: أين أبو هذه، فبهتوا جميعاً[3].

ب ـ أنه يلزم من كون المسيح ابناً لله بسبب التفسير الخاطىء للبنوة والأبوة في الإنجيل إثباتها لإسرائيل وداود وغيرهم ممن وردت في حقهم مثل هذه الكلمات في الإنجيل.

حيث بين الجعفري أنه على فرض صحة ما يزعمه النصارى في الإنجيل من قول المسيح: «إني ذاهب إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم»[4] وقول الله له: «هذا ابني الحبيب»[5] وغير ذلك من أمثال هذه العبارات، إن هذا ليس معناه البنوة الحقيقية، حيث ورد في التوراة ـ والنصارى يؤمنون بها ـ ألفاظ مشابهة لذلك عن إسرائيل وداود وغيرهما. فقد قال الله لموسى في التوراة «اذهب إلى فرعون وقل

---

(١) انظر: النصيحة الإيمانية، نصر بن يحيى المتطبب، تحقيق د. محمد الشرقاوي، ص (١٣٢).

(٢) انظر: الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٠٢).

(٣) انظر: الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٠٢).

(٤) هذا النص الذي أورده الجعفري في الرد على النصارى ص (٥٩)، وقد ورد في الكتاب المقدس مع اختلاف يسير في اللفظ في إنجيل يوحنا، الإصحاح (٢٠/١٧).

(٥) الكتاب المقدس، إنجيل مرقس، الإصحاح (٣/١٧).

له: قال لك الرب: إسرائيل ابني بكري»[1]. وقال عن داود: «داود ابني حبيبي»[2]. فلِمَ ينكر النصارى البنوة لهؤلاء وغيرهم من صالح الخلق الذين وردت بشأنهم، ويثبتونها لعيسىعليه السلام فقط[3].

٥ ـ إبطال بنوة المسيح من خلال إيضاح المعنى الصحيح للبنوة والأبوة اللتين وردتا في كتب النصارى:

فبعد أن أورد الجعفري مجموعة من النصوص التي فيها لفظة البنوّة كما في النصوص السابقة وضح أنه إن كان النقل لها فاسداً فلا بنوّة، وإن صح فإن معناها العبودية والخدمة والاجتباء والاصطفاء. فقول الله في الإنجيل: «هذا ابني» أي عبدي. والدليل أنها لم ترد في كتب النصارى في الغالب إلا مقرونة بالعبودية والخدمة. وإن وردت مطلقة فيحمل المطلق على المقيد. مثال ذلك من التوراة قول الله تعالى: «يا موسى قل لفرعون: يقول لك الرب الإله: إسرائيل ابني بكري، أرسله يعبدني»[4] ففسر البنوة بالعبودية[5].

ووضح القرافي أن معنى الأبوة لله إحسانه لخلقه إحسان الآباء للأبناء، وهو المراد من قول المسيح: «إني ذاهب إلى أبي وأبيكم، وإلهي وإلهكم». والأبوة على هذا المعنى أمر مشترك بين عيسى وبقية الخلق. وهو معنى قول اليهود في القرآن: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾[6]. ثم إن النصارى يحكمون بأبوة الولادة بصدر

---

(١) هذا النص الذي أورده الجعفري في الرد على النصارى، ص (٥٩)، ووردت قريباً من هذا اللفظ في الكتاب المقدس في التوراة، سفر الخروج، الإصحاح (٤/ ٢٢ ـ ٢٣).

(٢) هذا النص أورده الجعفري في الرد على النصارى ص (٥٩)، وورد في الكتاب المقدس بمعناه في التوراة، المزمور الثاني، ص ٧.

(٣) انظر: الرد على النصارى، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمد محمد حسانين، ص (٥٩ ـ ٦٠).

(٤) الكتاب المقدس، التوراة، سفر الخروج، الإصحاح (٤/ ٢١).

(٥) انظر: الرد على النصارى، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمد محمد حسانين، ص (٦١).

(٦) سورة المائدة، الآية: (١٨).

الكلام وهو قوله: أبي، ويغفلون عن قوله: وأبيكم، وعن قوله: وإلهي وتصريحه عليه السلام بأنه مخلوق مربوب، له إله يعبده[1].

٥ ـ إبطال عقيدة الصلب والفداء:

تعد قضية الصلب والفداء من أهم عقائد النصارى. إذ يعتقدون أن هناك خطيئة ملازمة لكل إنسان يولد على هذه الأرض، وهذه الخطيئة موروثة منذ زمن آدم عليه السلام الذي أخطأ في حق ربه بأكله من الشجرة التي نُهي عن الأكل منها فاستحق لذلك العقوبة، وأورث هذه الخطيئة لذريته من بعده. ومن رحمة الله إنهاء هذه الخطيئة المتوارثة بأن أنزل ابنه ليقتل ويُصلب فداءً للبشرية وتكفيراً لخطيئة أبيهم آدم[2].

قال القرطبي في عرضه لعقيدة الصلوبية عند النصارى: «لا خلاف عند النصارى أن إنكار صلب المسيح كفر، ومن شك فيه فهو كافر...»[3]. وفي رسالة أحد القساوسة إلى أبي عبيدة التي عرض عليه فيها دين النصرانية، ودعاه إلى الدخول فيه وضح له عقيدة الصلب بقوله: «... حمد الله الذي هدانا لدينه، وأيدنا بيمينه، وخصنا بابنه ومحبوبه، ومد علينا رحمته بصلب يسوع المسيح إلهنا الذي خلق السموات والأرض وما بينهن، والذي فدانا بدمه المقدس، ومن عذاب جهنم وقانا، ورفع عن أعناقنا الخطيئة التي كانت في أعناق بني آدم بسبب أكله من الشجرة التي نُهي عنها، فخلصنا المسيح بدمه، وفدانا بدمه ومن عذاب جهنم وقانا...»[4].

---

(١) انظر: الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٠١).

(٢) انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق د. علي بن حسن بن ناصر وآخرين (٢/ ١٠٧ ـ ١٠٨)، ومحاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، ص (١٠٧)، والأمور المتيقنة عندنا، القس كارل س، ص (٣٨) وما بعدها ص (٤٨) وما بعدها.

(٣) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٤١٠).

(٤) مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، تحقيق د.

وقد ناقش العلماء المسلمون هذه القضية موضحين عدم وقوع الصلب على المسيح عليه السلام، ومبطلين أساس هذه العقيدة ـ وهو الفداء بسبب الخطيئة ـ وذلك بتفنيد أدلة النصارى ومزاعمهم حولها.

وفيما يلي عرض لذلك:

أ ـ إبطال الصلب:

وقد كان إبطال هذه العقيدة على النحو التالي:

١ ـ بيان عقيدة المسلمين في أن عيسى عليه السلام لم يُقتل ولم يصلب. فعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾[(١)]، وضح ابن الجوزي أقوال العلماء في ذلك مبيناً فيها أن الذي قتل وصلب ليس المسيح عليه السلام، وإنما هو شخص منهم ألقي عليه شبه المسيح. أما المسيح فقد رفعه الله إليه[(٢)].

وبين القرطبي أن هذه الآية رد على النصارى وأنهم لم يقتلوا المسيح عليه السلام بل ألقي شبهه على غيره[(٣)].

وعند قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[(٤)] وضح القرطبي أن مكر الله هو إلقاء شبه عيسى على غيره، ورفعه عليه السلام إليه، حيث رفعه جبريل إلى السماء وذلك من كوة البيت الذي لجأ إليه، وألقي شبه عيسى على يهوذا الذي دخل في أثره فأخذ وقتل وصلب[(٥)]. وقال أيضاً: «والصحيح أن الله تعالى رفعه

محمد شامة تحت عنوان بين الإسلام والمسيحية، ص (٥٩ ـ ٦٠).

(١) سورة النساء، الآية: (١٥٧).

(٢) انظر: زاد المسير في علم التفسير، علي بن عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق د. محمد بن عبد الرحمن عبدالله (٢/ ٢١٧ ـ ٢١٨).

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، المجلد الثاني، الجزء الرابع، ص (٦٤).

(٤) سورة الأنفال، الآية: (٣٠).

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، المجلد الثاني، الجزء الرابع، ص (٦٥).

إلى السماء من غير وفاة ولا نوم، كما قال الحسن[١] وابن زيد[٢]، وهو اختيار الطبري، وهو الصحيح عن ابن عباس...»[٣].

ومعنى الوفاة في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾[٤] أي قابضك إليَّ[٥][٦].

وفي مناقشة القرطبي لعقيدة الصلب لدى النصارى قال: «... إن عيسى ابن مريم لم يقتله اليهود ولا غيرهم، بل رفعه الله إليه من غير قتل ولا موت»[٧].

وبعد أن عرض الجعفري قصة صلب المسيح عليه السلام في رأي النصارى ختم

---

(١) هو الحسن بن أبي الحسن يسار مولى زيد بن ثابت، ولد سنة ٢١ هـ، وكانت وفاته في البصرة سنة ١١٠ هـ.
انظر: الطبقات الكبرى، محمد بن سعد، (٧/ ١٥٦)، وسير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (٤/ ٥٦٣)، وما بعدها.

(٢) هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العدوي جمع تفسيراً في مجلد وكتاباً في الناسخ والمنسوخ، كانت وفاته سنة ١٨٢ هـ.
انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي، (٨/ ٣٤٩)، وتقريب التهذيب، أحمد ابن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق محمد عوامة، دار الرشيد، حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨م، ص (٣٤٠).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، المجلد الثاني، الجزء الرابع، ص (٦٥).

(٤) سورة آل عمران، الآية: (٥٥).

(٥) الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، المجلد الثاني، الجزء الرابع، ص (٦٤).

(٦) قال الطبري بعد أن عرض معاني الوفاة في هذه الآية: «... وأولى هذه الأقوال بالصحة عندنا من قال: إني قابضك من الأرض ورافعك إلي لتواتر الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الدجال، ثم يمكث في الأرض مدة ثم يموت فيصلي عليه المسلمون ويدفنونه...» جامع البيان، محمد بن جرير الطبري، (٣/ ٢٩١).

(٧) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٤١٢).

بقول الله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾[1][2].

٢ ـ ذكر الأدلة من كتب النصارى على عدم وقوع الصلب:

وهي كثيرة فمن ذلك:

أ ـ ما أورده الجعفري أن متى قال في إنجيله: «إن رئيس الكهنة أقسم بالله الحي على المأخوذ: أما قلت لنا إن كنت المسيح ابن الله الحي؟ فقال له: أنت قلت»[3].

حيث عقب الجعفري على ذلك بقوله: «... وذلك من أدل الدلالة على أن المأخوذ ليس هو السيد المسيح، ولو كان هو المسيح نفسه لم يوار في الجواب... وكيف يكون المسيح ويقسم عليه بالله تعالى: أين المسيح؟ فلا يقول له: أنا المسيح»[4].

ب ـ إن مستند النصارى في إثبات الصلب هو نصوص من الإنجيل، والإنجيل قابل للتحريف والتبديل وفيه من التناقض الشيء الكثير، والأدلة على ذلك أكثر من أن تحصر[5].

جـ ـ إن النصوص التي يستدل بها النصارى على صلب المسيح ليست

---

(١) سورة النساء، الآية: (١٥٧).

(٢) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (١/ ٣٨٠).

(٣) هذا النص الذي أورده الجعفري في الرد على النصارى ص (٧٤)، وورد في الكتاب المقدس مع شيء من الاختلاف في اللفظ في إنجيل متى، الإصحاح (٢٦/ ٦٣ ـ ٦٤).

(٤) الرد على النصارى، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمد محمد حسانين، ص (٧٤).

(٥) انظر: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٤١٢)، وانظر أمثلة على تحريف الإنجيل وتناقضه: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (١/ ٢٨١)، وما بعدها.

قاطعة في ذلك بل يتطرق إليها الاحتمال الكبير في أن المصلوب غير عيسى عليه السلام.

ومن شواهد ذلك:

١ ـ جاء في الإنجيل أن المصلوب استسقى اليهود ماءً فأعطوه خلاً ممزوجاً بمرارة، فذاقه ولم يشربه، فنادى إلهي لِمَ خذلتني؟ والأناجيل كلها مصرحة بأنه كان يطوي أربعين يوماً وليلةً ويقول للتلاميذ: إن لي طعاماً تعرفونه. وبعد أن أورد الخزرجي ذلك عقب عليه متسائلاً كيف بمن يستطيع الصبر أربعين يوماً على الجوع والعطش بأن يظهر الحاجة والمذلة لأعدائه بسبب عطش يوم واحد؟ وهذا لا يفعله أدنى الناس فكيف بخواص الأنبياء؟ لذلك فإن المدعي للعطش غير المسيح عليه السلام؟[1].

٢ ـ إن الإنجيل ناطق بأن عيسى قد نشأ بين اليهود فكان يعظمهم ويدعوهم ويعلمهم، ويعجبون من براعته. فكانوا يعرفونه وهو عندهم لذلك غاية في الشهرة. فيتساءل على ذلك كل من الجعفري والخزرجي أنه إذا كان الأمر كذلك فلِمَ نص الإنجيل أن اليهود ليلة قبضهم على المسيح عليه السلام في زعم النصارى لم يحققوه حتى دفعوا لأحد تلامذته رشوة كي يدلهم عليه، هذا الالتباس العظيم من قبل اليهود في عيسى رغم شهرته عندهم دليل على وقوع الشبه قطعاً[2].

٣ ـ إن المسيح عند صلبه في زعم النصارى قال: إلهي إلهي لِمَ خذلتني، وقد ناقش الخزرجي ذلك بأن هذا القول من عيسى عليه السلام فيه اعتراض على قضاء الله، وهذا مما ينزه عنه. خصوصاً وإن النصارى يذكرون أن الصلب كان لتخليص الناس من الخطيئة. فكيف يفديهم بنفسه راضياً مختاراً وهذا القول منه فيه تبرم وعجز ورغبة في الخلاص من قبضه من أراد به السوء. مع ما يضاف إلى ذلك من أن النصارى يروون في كتبهم أن الأنبياء إبراهيم وإسحاق ويعقوب كانوا

---

(١) انظر: مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، تحقيق د. محمد شامة تحت عنوان بين الإسلام والمسيحية، ص (١٦٤).

(٢) انظر: الرد على النصارى، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمد محمد حسانين، ص (٧٤)، ومقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، تحقيق د. محمد شامة تحت عنوان بين الإسلام والمسيحية، ص (١٦٦ - ١٦٧).

مستبشرين عند الموت بلقاء الله ولم يهابوا مذاقه مع أنهم عبيد الله، والمسيح ابن الله بزعم النصارى فينبغي أن يكون أثبت منهم. ذلك كله يدل على أن المصلوب غير عيسى ابن مريم[1].

ب ـ إبطال أساس عقيدة الصلب وهو الفداء بسبب الخطيئة:

وقد كان ذلك على النحو التالي:

١ ـ إيضاح مبدأ الإسلام في أن الإنسان لا يؤاخذ بذنب غيره. فبعد أن وضح الجعفري أن التوبة تكفر الذنب، وأن الإنسان لا يؤاخذ بخطيئة غيره ثم أورد على ذلك نصوصاً من كتب النصارى عقب بعدها بقوله: «. . . وذلك موافق لقول ربنا جلَّ اسمه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[2]»[3].

٢ ـ ذكر الأدلة من كتب النصارى والتي تنفي أن يعاقب الإنسان بذنب غيره. حيث أورد الجعفري مجموعة من النصوص من كتب النصارى تهدم أساس اعتقادهم بالصلب وأنه كان تكفيراً لخطيئة آدمعليه السلام. فمن ذلك ما جاء في التوراة إن الله قال لقابيل: «إنك إن أحسنت تقبلت منك، وإن لم تحسن فإن الخطيئة رابضة ببابك. . .»[4]. وقوله تعالى: «لا آخذ الولد بخطيئة والده، ولا الوالد بخطيئة ولده، طهارة الطاهر له تكون، وخطيئة الخاطىء عليه تكون. . .»[5][6].

---

(١) انظر: مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، تحقيق د. محمد شامة تحت عنوان بين الإسلام والمسيحية، ص (١٦٤).

(٢) سورة الأنعام، الآية: (١٦٤).

(٣) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (١/ ٣٨٠).

(٤) هذا النص الذي أورده الجعفري في التخجيل (١/ ٣٨٠)، وقد ورد في الكتاب المقدس مع اختلاف يسير في اللفظ في التوراة، سفر التكوين، الإصحاح (٤/ ٧).

(٥) هذا النص الذي أورده الجعفري في التخجيل (١/ ٣٨٠)، وقد ورد في الكتاب المقدس في التوراة، سفر حزقيال، الإصحاح (١٨/ ٢٠) مع اختلاف يسير في اللفظ.

(٦) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (١/ ٣٨٠).

٣ ـ وقد وضح كثير من علماء عصر الحروب الصليبية الذين ناقشوا النصارى ومنهم على سبيل المثال: الخزرجي والقرطبي أن الصلب الذي وقع على عيسى تكفيراً لخطيئة آدم يتنافى مع عدل الله، وأن هذا من الظلم الذي ينزه الله عنه. فلا يأخذ سبحانه وتعالى أحداً بذنب غيره[١].

٤ ـ وعلى زعم النصارى أن البشرية غارقة في خطيئة أبيهم آدم عليه السلام، ثاوية بالجحيم حتى جاء عيسى عليه السلام وخلصهم من ذلك بصلبه. تساءل كل من الخزرجي والقرطبي هل من هؤلاء الثاوين بالجحيم أنبياء الله إبراهيم وموسى وغيرهم. ثم يجيبان على ذلك التساؤل بأن هذا لو كان لصرحت به التوراة ونطقت به الأنبياء السابقين لعيسى عليه السلام[٢].

٥ ـ وبعد أن وضح القرافي أن صلب المسيح على قول النصارى إنما كان لخلاص العالم من خطيئة أبيهم آدم، سألهم ما معنى هذا الخلاص الذي يريدونه؟ هل هو من شرور الدنيا وآفاتها؟ فها هم مشاركون لسائر البشر في الخير والشر. أو من تكاليف العبادة؟ فها هم مخاطبون بالمبادرة. أو من أهوال يوم القيامة؟ فيكذبهم الإنجيل الذي ورد به قول الله: «إني جامع الناس في يوم القيامة عن يميني وشمالي، فأقول لأهل اليمين: فعلتم خيراً فاذهبوا إلى النعيم، وأقول لأهل الشمال: فعلتم شراً فاذهبوا إلى الجحيم»[٣]. وبناء على ذلك فما فائدة الصلب

---

(١) انظر: مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، تحقيق د. محمد شامة تحت عنوان بين الإسلام والمسيحية، ص (١٨٣). والإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٤١٨).

(٢) انظر: مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، تحقيق د. محمد شامة تحت عنوان بين الإسلام والمسيحية، ص (١٧٤ ـ ١٧٥). والإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٤١٧).

(٣) هذا النص الذي أورده القرافي في الأجوبة الفاخرة، ص (١٠٩)، لم أقف عليه في نسخة

والفداء إذن؟[1].

٦ - وبعد أن قرر الجعفري النصارى بقولهم: إن سبب الصلب هو التكفير من خطيئة آدم عليه السلام. ثم قولهم بتوبة آدم من هذه الخطيئة كما تصرح بذلك كتبهم ألزمهم بلازمين لا مفر لهم منها:

فالأول: إن اعترفوا بتوبة آدم فما فائدة الصلب الذي يعتقدونه.

والثاني: إن قالوا بعدم توبته كذبتهم كتبهم. وكلا اللازمين يبطلان عقيدة الفداء من الخطيئة[2].

الكتاب المقدس التي بين يدي، وما وجدته بمعنى ذلك يَنْسب هذا الحساب إلى المسيح لا إلى الله سبحانه. (انظر: الكتاب المقدس، إنجيل متى، الإصحاح (٢٥/ ٣١ ـ ٤٦).

(١) انظر: الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٠٩).

(٢) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (١/ ٣٦٩).

المطلب الثاني

مناقشة شعائر النصارى وطقوسهم

تعد النصرانية فقيرة في تشريعاتها وأحكامها، والعناية الكبرى فيها بالروحانيات التي أهملها اليهود حينما أفرطوا في ماديات الحياة، وهذا ما يؤكد أنها تكملة لأديان بني إسرائيل[1].

وقد عبر أحد العلماء المسلمين في عصر الحروب الصليبية عن ذلك بقوله: «ليس للنصارى شيء من الأحكام والفرائض والسنن المحتاج إليها في المعاملات والمناكحات، والأناجيل التي بأيديهم ليس فيها سوى مواعظ ووصايا قد خلطت بكفر بواح... وأي شيء استحسنوه بعقولهم شرعوه وحكموا به»[2].

وقد كان النصارى الأوائل يوجبون على أنفسهم ما أوجبته التوراة والإنجيل، ويحرمون على أنفسهم ما حرمته، ولا يستثنون من ذلك إلا ما صرح المسيح نفسه بنسخه أو تعديله. واستمروا على ذلك حتى رفع المسيح حيث أخذ بعد ذلك دعاة النصرانية يغيرون ويبدلون في التشريع حسب أهوائهم وكان حجتهم في ذلك جذب أكبر عدد ممكن من الأمميين إلى الدخول في النصرانية[3].

---

(١) انظر: المسيحية، د. أحمد شلبي، ص (٢٣٧).

(٢) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/٦١٦).

(٣) انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق د. علي ابن حسن بن ناصر وآخرين (١/ ٣٤١ ـ ٣٤٤).

ولذلك فغالب الشعائر والطقوس النصرانية اليوم من وضع بولس، ولا ينكر دور المجامع في الإلغاء أو الإضافة فيها، ثم لما أثبتت العصمة للبابا صار له الحق في إصدار القرارات والأحكام، مع ما تسرب للنصرانية من طقوس وعبادات وثنية انتقلت إليها من المناطق والشعوب التي امتدت إليها النصرانية في عهودها الأولى[1].

وقد وضح شيخ الإسلام ابن تيمية ذلك مبيناً أن صلاتهم وصيامهم وحجهم وأعيادهم وغير ذلك من شرائعهم ليس منقولاً عن المسيح عليه السلام، بل هو من وضع كبرائهم[2].

ومما يجدر ذكره أن الطقوس والشعائر النصرانية المبتدعة كثيرة جداً، وتناول العلماء المسلمين في عصر الحروب الصليبية لها ليس على سبيل الحصر، وإنما أمثلة توضح تحريف النصارى لديانتهم وابتداعهم فيها وبطلان ما استندوا عليه في إثباتها.

قال القرطبي في مقدمة مناقشته لبعض عبادات النصارى وطقوسهم: «غرضنا من هذا الفن أن نجمع مسائل من قواعد أديانهم، ونبين فسادها، وأنهم ليسوا على شيء فيها، بل تركوا نصوص التوراة والإنجيل وعملوا بخلافها من غير حجة ولا دليل»[3].

وفيما يلي عرض لبعض جهود علماء المسلمين في عصر الحروب الصليبية في مناقشتهم لبعض عبادات النصارى وطقوسهم:

---

(١) انظر: موقف ابن تيمية من النصرانية، د. مريم عبد الرحمن زامل، نشر جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م، (٢/ ٧٦٤).

(٢) انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق د. علي ابن حسن بن ناصر وآخرين (١/ ٣٦٤ - ٣٦٧).

(٣) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٤٠٢).

أولاً: المعمودية:

المعمودية أو التعميد شعيرة من شعائر النصرانية لا يقبل إيمان نصراني إلا بها. وهو عند النصارى يعني الغطس بالماء باسم الأب والابن وروح القدس إشارة إلى التطهير من أدران الخطيئة بدم يسوع المسيح[1]. وقد حل التعميد عند النصارى محل الختان في اليهودية[2]. ومستندهم فيه قول المسيح عليه السلام: «فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن وروح القدس»[3]. وإن يوحنا عمد المسيح عليه السلام في وادي الأردن فخرج منه روح القدس كالحمامة على الماء[4].

والمعمودية موجودة لدى كثير من الشعوب الوثنية في أمريكا وأوربا وآسيا. وانتقلت إلى النصرانية عن طريق الفرس القدماء الذين كانوا يأخذون أولادهم إلى الهياكل بعد الولادة ببضعة أيام ويسلمونهم للكاهن عند صنم الشمس، والنار هي الرمز عن الشمس، فيغمسهم بإناء مملوء بالماء ثم يسمونه بعد ذلك[5].

ومن علماء المسلمين في عصر الحروب الصليبية الذين ناقشوا المعمودية لدى النصارى القرطبي، حيث وضح صفتها عند نصارى الأندلس بقوله: «إن الذي يريد أن يدخل في دينهم، أو التائب منهم تتقدم الأقسة منه فيمنعونه من اللحم والخمر أياماً ثم يعلمونه اعتقادهم وإيمانهم، فإذا تعلم ذلك اجتمع له القسيسون فتكلم بعقيدة إيمانهم أمامهم، ثم يغطسونه في ماء يغمره، وقد اختلفوا هل يغطسونه مرة واحدة أو مرتين أو ثلاثاً؟ فإذا خرج من ذلك الماء دعا له

---

(١) انظر: حقائق أساسية في الإيمان المسيحي، القس فايز فارس، ص (٢٤٠)، والأمور المتيقنة عندنا للقس كارل س. وزميله ص (١٣٨)، وما بعدها.

(٢) انظر: محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، ص (١١٥).

(٣) الكتاب المقدس، إنجيل متى، الإصحاح (٢٨/ ١٩).

(٤) انظر: حقائق أساسية في الإيمان المسيحي، القس فايز فارس، ص (٢٤٠ ـ ٢٤١)، والأمور المتيقنة عندنا للقس كارل س. وزميله ص (١٣٨)، وما بعدها.

(٥) انظر: موقف ابن تيمية من النصرانية، د. مريم عبد الرحمن زامل (٢/ ٨٠٢).

الأسقف بالبركة ووضع يده على رأسه»[1].

ثم بين القرطبي بعد ذلك أنه ربما اختلفت صفتها، لكنها عندهم عبادة مؤكدة ومن لم يقبلها عندهم فهو كافر[2].

ثم أبطل القرطبي هذه المعمودية التي ابتدعوها على النحو التالي:

١ ـ أنه لم يرد لها ذكر في التوراة ولم يشرعها الله لنبيه موسى عليه السلام[3].

٢ ـ أن مستند النصارى في هذه المعمودية هو فعل يحيى عليه السلام والحواريين، فإذا صح ذلك من يحيى والحواريين فلِمَ لا يكون خصوصية لهم؟ وإن قلتم أيها النصارى إنه ليس بخصوصية فأتوا بالدليل ولن تقدروا[4].

وزاد القرافي على ذلك بقوله: «ولو سلمنا عموم شرعيتها فَلِمَ زدتم العدد، ووضع اليد على الرأس، والنفخ في الوجه ولم يُنقل ذلك عمن تقدم منكم؟ ولِمَ تكفرون مخالفيها من غير دليل؟»[5].

٣ ـ وبين القرطبي أنه لعل يحيى والحواريين عمدوا الناس لأن ماءهم كان مقدساً ودعاءهم متقبلاً، فيحيى نبي، والحواريون أنبياء بزعمكم أيها النصارى، أما أنتم فَلِمَ تعمدونهم؟ فلستم أنبياء وماؤكم ليس مقدساً فلستم إذن مثلهم[6].

٤ ـ وناقش كل من القرطبي والقرافي النصارى في أصل المعمودية لديهم، هل كان عيسى عليه السلام قبل أن يعمده يحيى مقدساً أم لم يكن؟ فإن كان مقدساً فلا فائدة من فعل يحيى. ولماذا لم ينزل عليه روح القدس قبل التعميد؟ وإن كان

---

(١) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٤٠٣).

(٢) انظر: المصدر السابق، ص (٤٠٣).

(٣) انظر: المصدر السابق، ص (٤٠٣).

(٤) انظر: المصدر السابق، ص (٤٠٤).

(٥) الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٥٥).

(٦) انظر: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٤٠٤).

غير مقدس فكيف يكون من ليس بمقدس إلهاً أو ابن إله؟[1].

ثم ختم القرافي مناقشته للنصارى في مسألة المعمودية بقوله: «وهل هذا كله إلا هذيان، وضرب من الخذلان؟ وهذا ـ أي المعمودية ـ على أظهر أحكام شريعتهم وأقواها مستنداً، فكيف بأضعفها»[2].

ثانياً: الاعتراف وصكوك الغفران:

الاعتراف في النصرانية يعني أن يأتي المذنب ويعترف بخطاياه وذنوبه أمام القس أو الكاهن في الكنيسة ثم يمسحه هذا الكاهن فتغفر ذنوبه[3].

وقد استخدمت الكنيسة في أوربا الغفران من الذنوب وسيلة من وسائل التشجيع على الحروب الصليبية ضد المسلمين سواء كان ذلك في المشرق أو في الأندلس[4].

ومن علماء عصر الحروب الصليبية الذين ناقشوا هذه القضية القرطبي إذ وضح أنه لا بدّ للمذنب ليغفر له من كفارة، وتلك الكفارة بحسب ما يظهر لقساوستهم ويرونه موافقاً لغرضهم. فتارة يوجبون على المذنب خدمة الكنيسة،

---

(١) انظر: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٤٠٥)، والأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٥٥).

(٢) انظر: الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٥٥).

(٣) انظر: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٤٠٥ ـ ٤٠٩)، وتخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/ ٥٩٥ ـ ٥٩٦)، واليهودية والنصرانية د. سعود الخلف، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ، ص (٢٣٥).

(٤) انظر: المبحث الرابع من الفصل التمهيدي حول أثر الدافع الديني في إثارة الحروب الصليبية.

وتارةً لا يدخلها بل يقف عندها متذللاً، وتارة يوجبون عليه مالاً لملكهم، أو لهم ولكنائسهم(١).

ثم ضرب القرطبي أمثلة على بعض الذنوب وما شرعه قساوستهم لغفرانها منكراً عليهم أن يجعلوا أنفسهم مشرعين وينزلوا أنفسهم منزلة رب العالمين في التشريع والغفران، على الرغم من أن كثيراً من هذه الذنوب له حكم في التوراة التي يؤمنون بها(٢).

ووضح القرافي أن قسس النصارى أنزلوا أنفسهم منزلة الله سبحانه وتعالى في غفران الذنوب، وهم بهذا الابتداع الذي هو من عند أنفسهم يبعثون العصاة على المجاهرة ويشيعون الفاحشة وينشرون الفضيحة في الذراري والأعقاب وأي مفسدة أعظم من هذه(٣).

ثم ذكر القرافي مشاهدته لذلك وآثاره في المدن الصليبية النصرانية كعكا وغيرها من سائر مدن النصارى(٤).

وبين الجعفري أن هذه البدعة لدى النصارى وسيلة للتحكم في حال المذنب وماله لصالح أكابرهم، ثم أبرز خطرها على الشخص وعلى المجتمع بإشاعة الفاحشة ونشر الفضيحة. مختتماً ذلك بالإشارة إلى أن هذه البدعة لا أصل لها في شريعةٍ، أو نص عليها موسى، لكنها مختلقة من جهلة مشايخ النصارى(٥).

ثالثاً: أعياد النصارى:

أعياد النصارى كثيرة جداً، فكل حدث ذو أهمية بالنسبة لهم يعظمونه

(١) انظر: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٤٠٥).

(٢) انظر: المصدر السابق، ص (٤٠٧).

(٣) انظر: الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٢٧).

(٤) انظر: المصدر السابق، ص (١٢٧).

(٥) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/ ٥٩٥).

ويحتفلون به، ثم يتحول لدى الأجيال اللاحقة إلى عيد يحتفل به إحياءً لذكراه، فابتدعوا لذلك أعياداً كثيرة ما أنزل الله بها من سلطان.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في حديثه عن بدع النصارى التي منها أعيادهم «... وكذلك عامة أعيادهم... التي رتبوها على أحوال المسيح، والأعياد التي ابتدعوها لكبرائهم فإن ذلك كله من بدعهم التي ابتدعوها، بلا كتاب نزل من الله تعالى»[(١)].

ثم وضح ابن تيمية أن من أسباب كثرة البدع في النصرانية ومنها كثرة أعيادهم أنهم ـ أي النصارى يجوزون لأكابر أهل العلم والدين منهم أن يغيروا ما رأوه من الشرائع ويضعوا غيره، فلهذا أكثر شرعهم مبتدع لم ينزل به كتاب ولا شرعه نبي[(٢)].

وفي فترة الحروب الصليبية كان الاحتفال بهذه الأعياد وغيرها منتشراً بين النصارى بل وربما شاركهم بعض المسلمين فيها.

ففي الأندلس مثلاً كان من أعياد النصارى عيد ميلاد عيسى عليه السلام والمحدد بالخامس والعشرين من شهر ديسمبر، ويناير سابع ولادته، ويوم ختنه وهو أول السنة الميلادية، والعنصرة والذي يعتقد أنه يوم مولد يحيى بن زكريا عليه السلام ويوافق اليوم الرابع والعشرين من يونيه، وخميس إبريل الذي يرمز عند النصارى إلى يوم صلب المسيح في اعتقادهم[(٣)].

وفي معرض مناقشة كل من الجعفري والقرافي لأعياد النصارى عدّدا أهمها ومنها:

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق د. علي بن حسن بن ناصر وآخرين، (١/ ٣٦٥ ـ ٣٦٧).

(٢) المصدر السابق (١/ ٣٤١).

(٣) انظر: جهود علماء الأندلس في الصراع مع النصارى خلال عصري المرابطين والموحدين، د. محمد بن إبراهيم بن صالح أبا الخيل، دار أصداء المجتمع، المملكة العربية السعودية، بريدة، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ، ص (٤٤٣ ـ ٤٤٤).

عيد ميكائيل في مصر وتخومها، وكان النصارى في فترة الحروب الصليبية تحتفل به وتعظمه، وسبب إحداث هذا العيد أنه كان في الإسكندرية صنم يعظمه أهلها، ويعدون له عيداً عظيماً، فولي بطركة الإسكندرية الأكصيدروس فرام إبطال هذا العيد فلم يقدر من العوام فصرفهم لذلك بأن يجعلوا هذا العيد لميكائيل الملك وليس للصنم، فيذبحون له ذبائحهم ليشفع لهم عند الله فأجابوه لذلك[١].

وعيد الصليب وسبب إحداثه: أن اليهود اتخذوا المقبرة التي دفن فيها الشبه مزبلة يطرحون فيها الأوساخ تحقيراً لشأن المصلوب، فأقامت على ذلك نحواً من ثلاثمائة سنة إلى أن جاءت زوجة[٢] قسطنطين الملك فأمرت بالكشف عن المقبرة، فظهرت لها فإذا هي ثلاثة صُلُب وهي صليب اللصين والشبه. فقالت: كيف لنا أن نعلم خشبة ربنا التي صلب عليها؟ ـ وكان هناك مريض قد أشرف على الوفاة ـ فأمرت فوضع عليها الصليب الأول فلم يقم، فأمسته الثاني فلم يقم، فأمسته الثالث فقام فعلمت النصارى أنه صليب الرب فعلقته بالذهب وبعثت به إلى الملك[٣].

ومن أعيادهم التي ذكرها القرطبي: يوم بشارة جبريل مريم بالمسيح، ثم يوم ميلاده، ويوم ختنه، ويوم الفصح وهو قيامه من القبر، ثم يوم رقيه إلى السماء وغير ذلك[٤].

---

(١) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/٥٩٨). والأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٣٠).

(٢) الصحيح أنها أم الملك وليست زوجته ويسميها النصارى القديسة هيلانة، انظر: تعليق د. محمود قدح في تحقيقه كتاب تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، (٢/ ٥٩٩).

(٣) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/ ٥٩٩)، والأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٣٠ ـ ١٣١).

(٤) انظر: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٤٢٤).

وبعد ذكر الجعفري والقرافي لبعض أعياد النصارى وضحا أن لا أصل لها في شرعهم البتة، وأنها مما أحدثوه وابتدعوه في دينهم[1].

ثم بين الجعفري أن لا حاجة لإبطال البدعة ببدعة مثلها، وذلك أن هذا الراهب أراد أن يبطل تعظيم العامة لهذا الصنم فابتدع عيد ميكائيل، حيث قال: «والشيء الضعيف لا يزيده الأمر الباطل إلا ضعفاً، والحق مستغن بنفسه عن أن يقوى بأمثال هذه الترهات»[2].

وأشار كل من الجعفري والقرافي إلى أن الأولى للنصارى أن يمقتوا الصليب لا أن يعظموه ويتخذوا له عيداً وذلك أنه صلب عليه إلههم بزعمهم. وإن كان هذا التعظيم من أجل أن الصليب مس المسيح فلماذا لا يعظم النصارى الحمر ويسجدوا لها فقد أخبر لوقا أن المسيح ركب حماراً عند دخوله المدينة[3].

وبين القرطبي أن هذه الأعياد التي يعظمها النصارى ليست واجبة بالشرع بل هي كما قال علماؤهم أيام شريفة اتفقت فيها أمور شريفة من أحوال المسيح. وإذا كان هذا مستندهم فمن أخبرهم من الأنبياء بأن مثل هذه الأحوال تتخذ عيداً إذ ليس في كتبهم شيء من ذلك. ثم إن أيام عيسى كلها شريفة فلا يخلو يوماً له من كرامة يكرمه الله بها. فإذا كان الأمر كذلك فعلى النصارى أن يبحثوا عن أيام عيسى وعن عددها ويتخذوها أعياداً، وإلا لما خصصوا البعض وتركوا البعض الآخر[4].

---

(١) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/٥٩٨)، والأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٣٠).

(٢) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/٥٩٨).

(٣) انظر: المصدر السابق (٢/٦٠١)، والأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٣٠ ـ ١٣١).

(٤) انظر: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٤٢٥).

رابعاً: صلاة النصارى وصيامهم:

أ ـ الصلاة:

الصلاة عند النصارى ركن من أركان الدين، وهي في زعمهم تقربهم إلى الله عن طريق المسيح[١]. ولا تنحصر في صفة معينة ولا زمن معين ولا في موضع محدد، وتؤدى فردية وجماعية، فهي عبارة عن أدعية وترانيم يرددونها، ويؤكدون على بعض الأوقات أكثر من غيرها وهي صلاة الساعة الثالثة والسادسة والتاسعة من النهار وعند بداية الليل ونهايته وعند تناول الطعام[٢].

ومن العلماء المسلمين الذين ناقشوا شعيرة الصلاة لدى النصارى القرافي الذي ذكر أن عدد صلواتهم في اليوم والليلة ثمان صلوات حيث أورد الأدعية التي يرددونها في كل صلاة منتقداً لها ومبيناً تناقضها[٣][٤].

وقد أورد الجعفري أيضاً طرفاً من أدعيتهم في بعض صلواتهم مبيناً تناقضها وفسادها بما تقتضيه من عقيدة التثليث والصلب والخطيئة وغير ذلك من عقائدهم الباطلة[٥][٦].

ب ـ الصوم:

الصوم عبادة قديمة ليس فقط عند أهل الأديان بل وحتى عند الأمم الوثنية،

---

(١) انظر: قاموس الكتاب المقدس، نخبة من علماء اللاهوت النصارى، ص (٥٤٨).

(٢) انظر: المرجع السابق ص (٥٤٩)، وحقائق إيمانية في الإيمان المسيحي، القس فايز فارس، ص (٢٠٠) وما بعدها.

(٣) انظر: الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٣٧ ـ ١٤١).

(٤) النصارى في الوقت الحاضر لا يلتزمون في صلواتهم بأدعية معينة، وربما حكى القرافي ما كان سائداً في وقته عند بعضهم.

(٥) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/ ٦٣٤)، وما بعدها.

(٦) سبق عرض لبعض جهود العلماء المسلمين في إبطال عقائد النصارى في المطلب الأول من هذا البحث.

فهو معروف عند قدماء المصريين في أيام وثنيتهم وكذلك اليونانيين والرومان، ولا زال وثنيو الهند وغيرهم يصومون إلى الآن[1].

وقد افترض الله الصيام على الأمم قبل أمة الإسلام وإن لم يقتض ذلك اتحاد الطريقة، قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[2].

قال الطبري بعد أن عرض أقوال العلماء في قوله تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾: وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: معنى الآية: يا أيها الذين آمنوا فرض عليكم الصيام كما فرض على الذين من قبلكم من أهل الكتاب»[3].

ثم قال: «وأما التشبيه فإنما وقع على الوقت، وذلك أن من كان قبلنا إنما كان فرض عليهم شهر رمضان مثل الذي فرض علينا سواء»[4]. وبين القرطبي أنهم أخذوا بالاحتياط فصاموا يوماً قبله ويوماً بعده قرناً بعد قرنٍ حتى بلغ صومهم خمسين[5].

وقيل: إن التشبيه في الآية راجع إلى أصل وجوب الصوم على من تقدم لا في الوقت والكيفية[6].

والصوم عند النصارى - يعني الامتناع عن الطعام مدة من النهار قد تصل إلى الظهر أو العصر أو الغروب حسب مقدرة الصائم يتناول بعدها الصائم أطعمة خالية من الدسم الحيواني[7].

---

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت (٢/ ١٤٥٠).

(٢) سورة البقرة، الآية: (١٨٣).

(٣) جامع البيان، محمد بن جرير الطبري، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص (١٣٠).

(٤) المصدر السابق، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص (١٣٠).

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص (١٨٤).

(٦) انظر: المصدر السابق، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص (١٨٤).

(٧) انظر: المجتمع القبطي في مصر في القرن التاسع عشر، رياض سوريال، مكتبة المحبة، القاهرة، ص (٢٢٨).

ومن أنواع صوم النصارى صيام يوم الأربعاء وهو يوم المؤامرة على المسيح ويوم الجمعة وهو اليوم الذي صلب فيه المسيح بزعمهم وصوم الميلاد وعدد أيامه ثلاث وأربعون يوماً تنتهي بعيد الميلاد، والصوم المقدس وعدد أيامه خمس وخمسون يوماً، ويُمتنع في هذا الصوم عن أكل لحم الحيوان أو ما يتولد منه، ولا يعقدون في أثنائه سر الزواج، ثم يأتي صيام الرسل وتتراوح أيامه بين خمسة عشر يوماً وتسعة وأربعين يوماً، ثم صوم العذراء ومدته خمس عشر يوماً، والتوجيه في صوم هذه الأنواع اختياري لا إجباري(١).

وفي مناقشة العلماء المسلمين في عصر الحروب الصليبية لصيام النصارى وضحوا أصل وجوبه عندهم ثم ما ابتدعوه فيه زيادة ونقصاً.

حيث بين كل من القرطبي والقرافي في مناقشتهما لذلك أن صيام النصارى حسب قول أحد أكابرهم أنه أربعين يوماً التي صامها موسى ﷺ ثم صامها المسيح وجعلها علماء النصرانية ثلاثة وأربعين يوماً عُشْر أيام السنة كما وضع لهم ذلك بولس(٢).

ثم يوضحان أن هذه الثلاثة أيام التي صاموها زيادة على ما افترض عليهم، إما أن الأنبياء تركوا أمر الله سبحانه وتعالى بعدم صيامها وذلك محال، أو أنهم لا يعرفون وجوب صيامها وأنتم أيها النصارى الذين علمتم ذلك وهذا محال لأن الأحكام إنما تُسند إلى أقوال الأنبياء وكتبهم والذي شرع لكم ذلك إنما هو بولس، وهو الذي أفسد عليكم دينكم، فكيف تأخذون بقوله وتتركون فعل موسى وعيسى وإلياس وغيرهم(٣).

---

(١) انظر: المرجع السابق (٢٢٨)، وحقائق أساسية في الإيمان المسيحي، ص (٢١٦)، وما بعدها، وقاموس الكتاب المقدس، نخبة من علماء اللاهوت النصارى، ص (٥٦٢ - ٥٦٣).

(٢) انظر: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٤٢٢)، والأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٢٨).

(٣) انظر: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي،

وبين الجعفري نماذج من زيادات النصارى وابتداعهم في صيامهم ومن ذلك زيادتهم جمعة في صيامهم الكبير(١) لأجل هرقل حينما قتل اليهود نصرة لهم وذلك تكفيراً لخطيئته(٢).

ثم عقب على ذلك بقوله: «ولا شك أن هذا وشبهه من باب التلاعب بالدين، وقد صار هذا النمط سجية للنصارى وخلقاً»(٣).

وأشار الجعفري إلى ترك النصارى أكل اللحم في صيامهم وتحريمه وذلك مما أحدثوه بالرأي بعد المسيح(٤).

خامساً: تشريع النصارى في الزواج:

ترغب الأناجيل عموماً بالعزوبة وتدعو إلى الزهد وترك الزواج إلا من خاف على نفسه الزنا فله الزواج بواحدة فقط. يقول بولس: «... إذاً من زُوج فحسناً يفعل، ومن لا يزوج يفعل أحسن»(٥). وقال: «فحسن للرجل ألا يمس امرأة»(٦). وقال: «... ولكن أقول لغير المتزوجين وللأرامل إنه حسن لهم إذا لبثوا كما أنا

تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٤٢٢ ـ ٤٢٣)، والأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٢٨).

(١) ويسمى بالصوم المقدس وعدد أيامه خمس وخمسون يوماً، وهي عبارة عن الأربعين يوماً التي صامها المسيح مضافاً إليها أسبوعان: الأول أسبوع الاستعداد قبل الأربعين والثاني أسبوع الآلام وهو بعد الأربعين. انظر: المجتمع القبطي في مصر، رياض سوريال، ص (٢٢٨)، والنصرانية والإسلام، محمد عزت طهطاوي، دار الأنصار، القاهرة، ص (٨٢).

(٢) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/ ٥٩٦ ـ ٥٩٧).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٥٩٧).

(٤) المصدر السابق (٢/ ٦٠٨).

(٥) الكتاب المقدس، رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس، الإصحاح (٧/ ٣٨).

(٦) الكتاب المقدس، رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس، الإصحاح (٧/ ١).

ولكن إن لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا...»[١].

أما القسس والرهبان فمحرم عليهم الزواج اقتداءً بالمسيح بزعمهم[٢].

وقد ناقش بعض العلماء المسلمين في عصر الحروب الصليبية مسألة الزواج عند النصارى ومنهم الجعفري والقرافي وكان ذلك على النحو التالي:

أ ـ بيان ضلالهم في ذلك وأن الأمر بترك الزواج مما لا يصح نسبته إلى المسيح عليه السلام[٣].

ب ـ إن ما تمسك به النصارى من نصوص في الإنجيل ظاهرها الترغيب بترك الزواج من أجل الله كقول المسيح عليه السلام: «... من ترك زوجة من أجلي فإنه يعطى للواحد مائة ضعف ويرث الحياة الدائمة...»[٤]. لا يجوز إجراؤه على ظاهره، إذ المقصود من ذلك ـ إن صح ـ ترك الزوجة إذا طلبت فراقه لعجزه أو لأي سبب آخر[٥]. ثم إن في الإنجيل أيضاً نصوصاً تعارض ذلك منها قول المسيح: «إن الذي زوجه الله لا يقدر أحد على تفريقه»[٦]،

---

(١) الكتاب المقدس، رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس، الإصحاح (٧/ ٨ ـ ٩).

(٢) انظر: قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة محمد بدران، المجلد الرابع، الجزء الثالث، ص (٣٨٣ ـ ٣٨٤).

(٣) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/ ٦١٢).

(٤) هذا النص الذي أورده كل من الجعفري في التخجيل (٢/ ٦١٢)، والقرافي في الأجوبة الفاخرة ص (١٣٢)، وورد في الكتاب المقدس قريباً من هذا المعنى في إنجيل متى، الإصحاح (١٩/ ٢٩).

(٥) انظر: الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٣٢)، وتخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/ ٦١٢).

(٦) هذا النص الذي أورده الجعفري في التخجيل (٢/ ٦١٢)، وورد في الكتاب المقدس مع اختلاف يسير في اللفظ في إنجيل متى، الإصحاح (١٩/ ٦).

وقوله: «من طلق زوجته باطلاً فقد عرضها للزنا...»[1][2].

جـ - والزواج سنة المرسلين وخواص الأولياء ودأب النجباء الأقوياء، ومن رغب عن سنة الأنبياء التحق بالأغبياء[3].

د - إن في ترك الزواج سداً لباب الذرية الصالحة وقطع للتناسل وانقراض لجنس الآدميين[4].

هـ - إن في تركه تعريضاً للرجال والنساء للزنا والفساد والوقوع في الآثام[5].

و - إن الزواج يشتمل على قربات كثيرة منها عفاف الزوجين، والتسبب في حياة عبد صالح يعبد الله ويرغم الشيطان، وغير ذلك[6].

ثم يعقب القرافي موضحاً أن المنافع المترتبة على الزواج أفضل مما انقطع له الرهبان من العبادة والصلوات[7].

سادساً: مناقشة النصارى في تركهم الختان:

كان الختان معروفاً قبل زمن إبراهيم عليه السلام، فإن المصريين القدماء كانوا يختتنون[8]، وقد جاء في إنجيل برنابا ما يدل على أن أصل فرضية الختان منذ

---

(١) هذا النص الذي أورده الجعفري في التخجيل (٢/ ٦١٣)، والنص الذي وقفت عليه قوله: «كل من يطلق امرأته ويتزوج بأخرى يزني، وكل من يتزوج بمطلقة من رجل يزني» الكتاب المقدس، إنجيل لوقا، الإصحاح (١٦/ ١٨).

(٢) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح.

(٣) المصدر السابق (٢/ ٦١٣).

(٤) انظر: المصدر السابق (٢/ ٦١٢)، والأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٣٢).

(٥) انظر: الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٣٢).

(٦) انظر: المصدر السابق، ص (١٣٣).

(٧) انظر: المصدر السابق، ص (١٣٣).

(٨) انظر: معجم الحضارات السامية، هنري س. عبودي، ص (٣٨١).

ابتداء الخليقة. قال برنابا[1]: «قال يسوع لتلاميذه وكانوا كلهم منصتين إليه: إنه لما أكل آدم الإنسان الأول الطعام الذي نهاه الله عنه في الفردوس مخدوعاً من الشيطان عصى جسده الروح فأقسم قائلاً: تالله لأقطعنك، فكسر شظيه من صخر وأمسك جسده ليقطعه بحد الشظية، فوبخه الملاك جبريل على ذلك، فأجاب لقد أقسمت بالله أن أقطعه فلا أكون حانثاً. حينئذٍ أراه الملاك زائدة جسده فقطعها...»[2].

وقد نصت التوراة على أن إبراهيم أمر بالختان هو ونسله فختن هو ابن ثمانين، وجاء في السنة ما يدل على ذلك. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**اختتن إبراهيم عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم**»[3].

وصار الختان في اليهود فرضاً من الفروض الدينية فاختتن موسى عليه السلام وكذلك عيسى عليه السلام لإكماله شريعة التوراة[4]. بل إنه لدى النصارى صلاة يؤدونها تذكرة لختان عيسى عليه السلام[5].

---

(١) برنابا: رجل قبرصي الأصل، اعتنق النصرانية، وبدأ يعمل على نشرها مع بولس، بعد اعتناقه النصرانية، وينسب إليه إنجيل برنابا الذي يختلف كلياً عن بقية الأناجيل في شأن المسيح، حيث يصرّح بنبوّته، ولذلك يعتقد النصارى أن ذلك الإنجيل مكذوب على برنابا.

انظر: قاموس الكتاب المقدس، ص (٢٧٢)، ومقدمة الدكتور خليل سعادة في ترجمته لإنجيل برنابا.

(٢) إنجيل برنابا، ترجمة، د. خليل سعادة، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، الفصل الثالث والعشرون (١ ـ ٨)، ص (٣٠).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ حديث رقم (٣٣٥٦)، ص (٦٤١)، ومسلم، الصحيح، كتاب الفضائل، باب فضائل إبراهيم الخليل، حديث رقم (٢٣٧٠)، ص (٩٦٣).

(٤) انظر: الكتاب المقدس، إنجيل لوقا، الإصحاح (٢/ ٢١).

(٥) انظر: نظرية النسخ في الشرائع السماوية، د. شعبان إسماعيل، مطابع الدجوي، القاهرة، ص (٥٠).

وقد استطاع بولس أن يصرف النصارى عن سنة الختان حتى اتخذوا قراراً بتركه في مجمع أورشليم المنعقد بعد رفع المسيح بثنتين وعشرين سنة[١].

والحجة في ترك الختان جلب الأمم الوثنية في ذلك الوقت من إغريق ومصريين ورومان في الدخول بالنصرانية وكان يشق عليهم الختان[٢].

وفسروا الأمر بالختان في التوراة بأنه نقاوة القلوب وصفاء النية وذهاب الغلوفة من القلوب[٣].

ومن ضمن ما ناقشه العلماء المسلمون من تشريعات النصارى في فترة الحروب الصليبية إبطالهم سنة الختان. إذ بين القرطبي أن هذه السنة ثابتة بالتوراة، وإبطال النصارى لها لا أصل له. ثم وضح أنهم بذلك تركوا حكم الله اتباعاً للهوى، ثم كذبوا على الله بتفسيرهم الختان المأمور به في التوراة بأنه إزالة غلوفة القلوب، وتسفيههم أحكام الله بقولهم إنه لا فائدة من الختان[٤].

ثم شرح القرطبي فوائد هذه السنة بكونها عبادة لله سبحانه، والنظافة المترتبة على القيام بها إذ وجود هذه الغلفة مدعاة لتراكم كثير من الأقذار إلى غير ذلك[٥].

---

(١) انظر: مقررات هذا المجمع في الكتاب المقدس، سفر أعمال الرسل، الإصحاح ١٦، فكان من أقواله: «ها أنا بولس أقول لكم: إن ختنتم لا ينفعكم المسيح شيئاً» (الكتاب المقدس، رسالة بولس إلى أهل أغلاطية، الإصحاح (٥/ ١)، وانظر أيضاً: الإصحاح (٥/ ٣ ـ ٧).

وقد فسر الختان الذي ورد في التوراة بأنه ختان القلب بالإيمان، لا ختان الغرلة (انظر: الكتاب المقدس، رسالة بولس إلى أهل رومية، الإصحاح (٢/ ٢٨ ـ ٢٩).

(٢) انظر: المسيحية نشأتها وتطورها، د. شارل جنيبير، ترجمة د. عبد الحليم محمود، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا وبيروت، ص (١٠٤).

(٣) انظر: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٤٢٠)، والكتاب المقدس، رسالة بولس إلى أهل رومية، الإصحاح (٢/ ٢٨ ـ ٢٩).

(٤) انظر: المصدر السابق، ص (٤٢٠).

(٥) انظر: المصدر السابق، ص (٤٢٠ ـ ٤٢٢).

وبعد أن بين القرافي مشروعية الختان في اليهودية وعند النصارى وضح أثر بولس في إبطال هذه السنة[١].

وبعد أن ذكر الجعفري مشروعية الختان في التوراة وأن تاركه يقتل قال: «فقد وضح كفر من خالفه من النصارى وغيرهم، وقد ترك الروم والفرنج وغيرهم الختان... ولم يزل النصارى يختنون بعد رفع المسيح إلى أن أتاهم رجل يدعى عندهم فولس بعد المسيح بمدة متطاولة فقال لهم: إن الختان ليس بشيء، وإن الغرلة ليس بشيء»[٢].

سابعاً: تعظيم النصارى للصور والتماثيل:

من الشعائر الوثنية التي انتقلت إلى النصرانية عبادة الصور والتماثيل وتبجيلها حتى امتلأت كنائسهم وأديرتهم بتماثيل للمسيح ولأمة وللقديسيين وغيرهم.

وقد وضح ابن تيمية أن اتخاذ الصور والتماثيل مما أحدثه النصارى، فلم يرد ذلك عن أحد من الأنبياء[٣].

وليس في التوراة ما يستند عليه النصارى في اتخاذهم هذه الصور والتماثيل وعبادتها، بل إن فيها النهي الصريح عن ذلك، ومنه ما جاء في سفر التثنية: «لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً صورة مما في السماء من فوق، وما في الأرض من أسفل، وما في الماء من تحت الأرض، لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأني أنا الرب إلهك غيور»[٤].

وقد كانت هذه الشعيرة لدى النصارى محدودة النطاق، ثم ما لبثت أن نمت

---

(١) انظر: الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٢٠).

(٢) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/ ٥٨٩).

(٣) انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق د. علي ابن حسن بن ناصر وآخرين (١/ ٣٤٦ ـ ٣٥٠).

(٤) الكتاب المقدس، التوراة، سفر التثنية، الإصحاح (٥/ ٧ ـ ٨).

تدريجياً وانتشرت انتشاراً واسعاً ثم أصبحت من ضمن الشعائر النصرانية وذلك عن طريق إقرارها في مجامعهم، خاصة في المجمع النيقاوي الثاني نسبةً إلى المدينة التي عقد فيها وهي ـ نيقية ـ عام ٧٨٧م حيث أصدر قراراً أيد فيه تعظيم صور المسيح وأمه والقديسين واتخاذها ليس فقط في الكنائس بل وفي البيوت[١].

ولا شك في خطورة اتخاذ الصور والتماثيل وتعظيمها على عقيدة التوحيد، إذ كانت السبب الأول لانحراف البشرية من التوحيد إلى الشرك. ففي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾[٢]. قال: «أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد. حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت»[٣].

وقد كان من ضمن الشعائر الوثنية النصرانية التي ناقشها العلماء المسلمون في عصر الحروب الصليبية هذه الشعيرة، قال القرافي: «وأكثر النصارى يسجد للتصاوير في الكنائس وهو من كفرهم القبيح، وأي فرق بين عبادة الأصنام والسجود للتصاوير»[٤].

ثم وضح أن ذلك لو كان مشروعاً في النصرانية لسجد التلاميذ للمسيح في حال حياته، والنصارى بتعظيمهم لهذه الصور والتماثيل مخالفون لتعاليم المسيح ومخالفون لكتبهم حيث ليس فيها ما يدل على مشروعية ذلك[٥].

وأشار الجعفري إلى أنه لا تكاد تخلو كنيسة من كنائسهم من الصور

---

(١) انظر: مجموعة الشرع الكنسي، حنانيا إلياس كساب، ص (٦٩ ـ ٧٠).
(٢) سورة نوح، الآية: (٢٣).
(٣) أخرجه البخاري، الصحيح، كتاب التفسير، باب «﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ حديث رقم (٤٩٢٠)، ص (٩٧١).
(٤) الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٣١).
(٥) انظر: المصدر السابق، ص (١٣١).

والتماثيل متسائلاً عن مستند النصارى في ذلك وما هو في الحقيقة إلا العناد وعبادة الأنداد، إذ الأناجيل ليس فيها ما يدل على مشروعية ذلك، بل إن التوراة تكفر عابد الصور والمسيح مصرح بأنه لم يأت لنقض التوراة بل جاء لإكمالها[1].

ثامناً: حقيقة خوارق العادات لدى النصارى والتي يلبسون بها على عامتهم:

النصرانية مليئة بالخزعبلات والأباطيل التي جعلها النصارى من ديانتهم تلبيساً على العامة وجذباً لهم بهذه الخزعبلات الموهمة.

وفي عصر الحروب الصليبية ناقش بعض العلماء المسلمين ذلك لدى النصارى؛ إيقاظاً للعقول الغافلة وكشفاً لتلبيس ضُلاَّلهم؛ أملاً في إزالة عقبة من العقبات المانعة من الهداية وما في ذلك من إقامة للحجة عليهم بزوال ما قد يتعلقون به من هذه الخزعبلات.

حيث قال الخزرجي مبيناً سبب كثرة هذه الخزعبلات لدى النصارى وموجهاً الخطاب لبعض قساوستهم في الأندلس: «إن حذاقكم، وعقلاءكم لما علموا أن دينهم ليس له قاعدة ينبني عليها، ولا أصل يرجع إليه، جمعوا عقول الامة بتخيلات موهمة وأباطيل مزخرفة وضعوها في الكنائس والمزارات»[2].

فمن خزعبلاتهم وحيلهم التي يموهون بها على العامة ما ذكره الجعفري مما كانوا يفعلونه في بعض أعيادهم، ومن ذلك: أن لهم عيداً في بيت المقدس يعرف بعيد النور، ويقصدونه من كل مكان، فإذا اجتمعوا نزلت نار من تجويف القبة فتعلقت بزبالة القنديل فيتقد بسرعة، فتكثر لذلك الأصوات وتعج بالدعاء والابتهال لهذه الآية التي نزلت من السماء[3].

---

(١) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/ ٦٠١ ـ ٦٠٢).

(٢) مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان، أبو عبيدة الخزرجي، تحقيق د. محمد شامة تحت عنوان بين الإسلام والمسيحية، ص (٢٦٧).

(٣) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/ ٥٩١ ـ ٥٩٢).

وقد بين الجعفري وجه هذه الحيلة وذلك بأن رجلاً يختبىء في إفريز القبة من داخلها، وهي مظلمة جداً، فإذا كان وقت اجتماعهم وقرىء الإنجيل والكتب أرسل هذا الرجل قبساً من نار النفط فجرت على خيط مدهون بدهن البلسان فتبتدر الزبالة فيتقد. ثم يوضح أن أحد ولاة بيت المقدس أراد فضحهم فأغروه بالمال فقنع بذلك. ثم إن بيت المقدس آل إلى اليهود ثم المسلمين ولم يروا شيئاً من هذا الجنس، ولو كان هذا النور نازلاً من السماء لرؤي خارج القبة[1].

ومن خزعبلاتهم التي ذكرها الجعفري أن لهم كنيسة ببعض البلاد يقصدونها ويحجون إليها ويزعمون أن يد الله تخرج إليهم من وراء ستر فيها فتصافحهم في يوم من أيام السنة فبلغ ذلك أحد رؤسائهم فجاء لمصافحة يد الله فلما أمسك بها تعلق بها ورفض أن يتركها حتى يرى وجه صاحبها، فخوفه القساوسة بالصاعقة والهلاك والكفر فرفض حتى كُشف الستر وإذا به أحد القساوسة، فكشف زيفهم[2].

وقد ذكر هذه الحكاية الخزرجي مبيناً أن الكنيسة بالأندلس وموضحاً بطلان هذه الحيلة بعد ذلك[3].

ومما ذكره الخزرجي من خزعبلاتهم أنهم وضعوا صوراً من الحجارة إذا قرىء الإنجيل عندها تبكي وتجري دموعها ويشاهدها الخاص والعام، فيعتقد العامة أن ذلك لما علمته من أمر الإنجيل. ثم وضح حقيقة ذلك وهي أن لهذه الصورة مجارٍ دقيقة في أجوافها متصلة من ورائها بزقٍ مملوء بالماء، فيعصره بعض الموكلين بذلك فيندفع الماء في تلك المجاري وتخرج من عيون تلك الأصنام على هيئة دموع[4].

وبعد أن سرد الخزرجي صوراً من هذا القبيل مبيناً أنه شاهد بعضها وسمع

---

(١) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (٢/ ٥٩١ ـ ٥٩٢).

(٢) انظر: المصدر السابق (٢/ ٥٨٩ ـ ٥٩٠).

(٣) انظر: مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان، أبو عبيدة الخزرجي، تحقيق د. محمد شامة تحت عنوان بين الإسلام والمسيحية، ص (٢٦٨).

(٤) انظر: المصدر السابق، ص (٢٦٩).

عن البعض الآخر قرر أن هذه الهذيانات لا تجوز إلا عليكم أيها النصارى، ولا يتعبد بها من جهال العالم غيركم[١].

ومن خزعبلاتهم التي ذكرها القرافي دعواهم أن مريم أم المسيح عليه السلام تنزل على دار المطران بطليطلة في يوم معروف من السنة وهم جازمون بذلك. ثم تساءل القرافي مفنداً ذلك هل نزول أم المسيح بإذن الأب أو بغير إذنه، فإن نزلت بإذنه فلِمَ لا يرسل ملائكته ويوقر أم ولده ويصونها عن التبذل لرجل أجنبي، وإن كان بغير إذنه فكيف اصطفى الأب لنفسه من يتصرف بغير إذنه؟[٢].

وساق وليم الصوري أحد قساوستهم ومؤرخيهم، وأحد المعاصرين بل والمشاركين في كثير من أحداث الحروب الصليبية قصة من هذا القبيل على أنها كرامة من الله مبيناً أثرها على الجيش النصراني الصليبي.

وتتلخص هذه القصة في أنه لما اشتدت الحال بالصليبيين المحاصرين في أنطاكية جاءهم الغوث من السماء بأن رأى أحد قساوستهم أن أحد الحواريين جاءه في المنام ليريه مكان الحربة التي طعن بها السيد المسيح وأنها في كنيسة أمير الحواريين، حيث فتشوا عنها حتى وجدوها[٣]. «فطرحوا عنهم ما كان بهم من الفزع، وتنفسوا الصعداء، وأحسوا أنه قد عاودهم بأسهم من جديد»[٤]. بل إن هناك البعض لأجل هذه الحربة رَأى رَأْي العين أشباح الملائكة والرسل[٥].

وعرض ابن الأثير هذه القصة مبيناً أنها من حيل أحد القساوسة التي لبس بها على العامة وصدقوه بها، ثم وضح أنه مما زاد فتنتهم بهذه الحربة أن ظهروا على المسلمين في هذه الموقعة[٦].

---

(١) انظر: المصدر السابق، ص (٢٧١ ـ ٢٧٢).

(٢) انظر: الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٢٦).

(٣) انظر: الحروب الصليبية، وليم الصوري، ترجمة د. حسن حبشي، (١/ ٣٢٦ ـ ٣٣٧).

(٤) المصدر السابق (١/ ٣٣٧).

(٥) انظر: المصدر السابق (١/ ٣٣٧).

(٦) انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٨/ ٤١٩ ـ ٤٢٠).

وهكذا ناقش علماء هذه الفترة شعائر النصارى وطقوسهم مبينين تحريفها وابتداعهم لها، وبطلان ما استندوا عليه في إثباتها؛ بحيث يتضح لكل عاقلٍ منهم ضلال ما هم عليه بالتمسك بها وممارستها ويدركون مدى تلبيس علمائهم عليهم في تزيينها لهم والادعاء أنها من صلب ديانتهم.

المبحث الثالث

الردود على شبه النصارى

منذ أن بعث النبيّ ﷺ إلى عصرنا الحاضر وأعداء الإسلام يثيرون الشبه حول هذا الدين كأحد أسلحتهم في محاربته والحد من انتشاره، ولن يفلحوا أبداً كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [سورة الصف، الآية: (٨)]

ولذلك فليس غريباً أن يكون هذا الأمر مما حرص عليه النصارى في عصر الحروب الصليبية، ولا سيما أن هذه الفترة كانت من أشد فترات الصراع العسكري بينهم وبين المسلمين.

وكثير من هذه الشبه التي أثارها النصارى في هذه الفترة سبق وأن أثارها أعداء الإسلام قبلهم من المشركين أو اليهود أو غيرهم.

ولا شك أن الشبهة حجاب يمنع من قبول الحق خصوصاً عند قوم مثل النصارى الذين اتخذوا أحبارهم أرباباً من دون الله، فالقول عندهم ما قاله القسيس، لذلك حجب ضلال قساوستهم الحق عن عامتهم. ولهذا فمن أهم طرق إرشادهم إلى الحق هو إزالة هذه الشبه المانعة من قبوله عند الكثيرين منهم.

ولذلك حرص كثير من العلماء في عصر الحروب الصليبية على دحض شبه النصارى حول هذا الدين حماية له من تشويه ضلاّلهم، ورجاء أن يصل إلى عامتهم على الوجه الصحيح فيكون ذلك أدعى في قبوله لديهم.

وفيما يلي عرض لأهم الشبه التي أثارها النصارى في هذه الفترة ونماذج من تفنيد بعض العلماء المسلمين لها.

المطلب الأول

دعوى خصوصية رسالة النبيّ ﷺ بالعرب

مما يتشدق به النصارى قديماً وحديثاً أن محمداً ﷺ نبيّ العرب خاصة، وعلى ذلك فلا تشملهم رسالة الإسلام.

وفي عصر الحروب الصليبية أثيرت هذه الشبهة وتصدى لها بعض العلماء المسلمين مفندين لها ومبينين الحق في عموم رسالة النبيّ ﷺ إلى الناس كافة.

فقد ورد في رسالة لأحد كتاب النصارى موجهة إلى المسلمين في هذه الفترة قوله: «. . . إن محمداً ﷺ لم يبعث إلينا، فلا يجب علينا اتباعه»(١)، حيث استدل هذا النصراني بآيات من القرآن إلى ما ذهب إليه منها قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾(٢)، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾(٣)، وقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾(٤)، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾(٥)، وقوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾(٦)، ثم قال هذا

---

(١) انظر: الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (٩).

(٢) سورة يوسف، الآية: (٢).

(٣) سورة إبراهيم، الآية: (٤).

(٤) سورة القصص، الآية: (٤٦).

(٥) سورة الجمعة، الآية: (٢).

(٦) سورة الشعراء، الآية: (٢١٤).

النصراني: «لا يلزمنا إلا ما جاء بلساننا، وأتانا بالتوراة والإنجيل بلغتنا»[1].

وكان رد القرافي على هذه الشبهة على النحو التالي:

أ - إن الحكمة من إرسال الرسل عموماً بألسنة أقوامهم ليكون ذلك أبلغ في الفهم بينه وبينهم حتى تقوم الحجة، وتزول الشبهات ويحصل البلاغ؛ ليكون ذلك أدعى إلى فهم غيرهم[2].

ب - أن هناك فرقاً بين قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾[3]، وبين أن يقال: «**وما أرسلنا من رسول إلا لقومه**» فالقول الثاني هو المفيد لاختصاص الرسالة بهم لا الأول[4].

جـ - أنه لو صح ما احتج به هذا النصراني من كون القرآن عربياً والنبيّ ﷺ يتكلم العربية فهو مرسل إلى العرب؛ لكان النصارى كلهم مخطئين في اتباع أحكام التوراة، فإنها نزلت بغير لسانهم، وكذلك القبط والحبشة ما علموا التوراة والإنجيل إلا كما يعلم الروم اللسان العربي بطريق التعليم[5].

د - أنه وردت آيات كثيرة تدل على عموم الرسالة، فإذا كان النصارى يعتقدون أصل الرسالة لكنها مخصوصة بالعرب يلزمهم التعميم لهذه الآيات، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[6][7].

وقد بين بعض العلماء المسلمين المعنى الصحيح للآيات التي استدل بها هذا النصراني على خصوصية الرسالة للعرب.

---

(١) الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (٩).
(٢) انظر: الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٠).
(٣) سورة إبراهيم، الآية: (٤).
(٤) انظر: الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٠).
(٥) انظر: المصدر السابق، ص (١٠).
(٦) سورة سبأ، الآية: (٢٨).
(٧) انظر: الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١١).

فكون القرآن باللغة العربية ومحمد أرسل بلسان قومه العرب لا يفهم منه اختصاص رسالته ﷺ، حيث وضح كل من البغوي والرازي أن سبب إرسال الرسل بألسنة أقوامهم ليكون ذلك أدعى للفهم عنهم وأبعد عن الغلط(١).

ثم قال البغوي: «كيف هذا؟ ـ أي إرسال النبيّ ﷺ بلسان قومه ـ وقد بعث إلى كافة الخلق؟ قيل: بعث من العرب بلسانهم، والناس لهم تبع، ثم بث الرسل إلى الأطراف يدعونهم إلى الله عزّ وجلّ، ويترجمون لهم بألسنتهم»(٢).

وبين الرازي أنه لا يفهم من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾(٣) خصوصية رسالة النبيّ ﷺ بالعرب، وذلك للآيات الكثيرة الدالة على إرساله إلى الناس كافة، ولاحتمال أن المراد من ـ قومه ـ في الآية أي أهل بلده وليس أهل دعوته، ولأن التحدي بالقرآن وقع لجميع الثقلين الإنس والجن، ولم يكن للعرب خاصة. قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾﴾(٤)(٥).

وقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾(٦) لا يفهم منه خصوصية رسالته ﷺ بالعرب الذين لم يأتهم نذير قبله، ولا يعني ذلك عدم إرساله لأهل الكتاب الذين جاءتهم الرسل، ففي تفسير قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾(٧)، وبعد أن أورد الرازي هذه الشبهة وضح أن المراد بالآية أي: تنذر

---

(١) انظر: معالم التنزيل الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: د/ محمد عبدالله النمر وآخرين، (٤/ ٣٣٥)، والتفسير الكبير، محمد بن عمر الرازي، المجلد العاشر، الجزء التاسع عشر، ص (٦٣).

(٢) معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: د/ محمد عبدالله النمر وآخرين، (٤/ ٣٣٥).

(٣) سورة إبراهيم، الآية: (٤).

(٤) سورة الإسراء، الآية: (٨٨).

(٥) انظر: التفسير الكبير، محمد بن عمر الرازي، المجلد العاشر، الجزء التاسع عشر، ص (٦٣).

(٦) سورة القصص، الآية: (٤٦).

(٧) سورة يس، الآية: (٦).

قوماً ما أنذروا بعدما ضلوا عن رسالة الرسول المتقدم، فيدخل في ذلك اليهود والنصارى، لأن ذلك دليل على أن النبيّ ﷺ مبعوث إلى الخلق كافة[1].

أما قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾[2]، فبعد أن بين ابن الجوزي أن المراد بالأميين العرب نقل عن بعض العلماء في معنى الآية التي بعدها، وهي قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾[3] أن المراد بهم العجم، وقوله ـ منهم ـ أنهم إذا أسلموا صاروا منهم، إذ المسلمون ملة واحدة. وقيل: جميع من دخل في الإسلام إلى يوم القيامة[4].

فدلت الآية بذلك على عموم الرسالة وليس خصوصيتها للعرب دون غيرهم.

وبعد أن أورد الرازي احتجاج أهل الكتاب بهذه الآية على خصوصية رسالة محمد ﷺ للعرب رد على ذلك بقوله: إنه لا يلزم من تخصيص الشيء بالذكر نفي ما عداه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾[5] أنه لا يفهم منه أنه يخطه بشماله[6]، وللآيات الدالة على عموم الرسالة كقوله تعالى: ﴿كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[7]، ثم إن قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾[8] أن المراد به كل من دخل الإسلام بعد النبيّ ﷺ إلى يوم القيامة، فيكون المراد بالأميين العرب

---

(١) انظر: التفسير الكبير، محمد بن عمر الرازي، المجلد الثالث عشر، الجزء السادس والعشرين، ص (٣٨).

(٢) سورة الجمعة، الآية: (٢).

(٣) سورة الجمعة، الآية: (٣).

(٤) انظر: زاد المسير، عبد الرحمن بن علي الجوزي، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن عبدالله وزميله، (٨/ ١٩ ـ ٢٠).

(٥) سورة العنكبوت، الآية: (٤٨).

(٦) التفسير الكبير، محمد بن عمر الرازي، المجلد الخامس عشر، الجزء الثلاثون، ص (٥).

(٧) سورة سبأ، الآية: (٢٨).

(٨) سورة الجمعة، الآية: (٣).

وبالآخرين سواهم من الأمم[1].

ولا يدل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾[2] على خصوصية الرسالة بهم دون سواهم، حيث وضح القرافي أن تخصيصهم؛ لكونهم أولى الناس بالدعوة لقرابتهم منه ﷺ[3].

وذكر الرازي أن تخصيصهم بالإنذار في هذه الآية بالإضافة إلى قرابتهم منه ﷺ جاء أيضاً لعظم شركهم كتكذيبهم بالحشر الذي تجاوز كفر أهل الكتاب المكذبين بنبوته ﷺ[4].

وختم القرافي رده على استدلال هذا النصراني بهذه الآيات وما شابهها على خصوصية رسالة المصطفى ﷺ بالعرب بقوله: «فهذه الألفاظ ألفاظ لغتنا ونحن أعلم بها، وإذا كان عليه السلام هو المتكلم بها ولم يفهم تخصيص الرسالة ولا إرادته، بل أنذر الروم والفرس وسائر الأمم، والعرب لم تفهم ذلك، وأعداؤه من أهل زمانه لم يدعوا ذلك ولا فهموه، ولو فهموه لأقاموا به الحجة عليه، ونحن أيضاً لم نفهم ذلك فما فهمه إلا هذا النصراني الذي ساء سمعاً فساء إجابة»[5].

وخاطب القرطبي النصارى مبيناً أنه لا يسعهم أن يستدلوا ببعض ما جاء به محمد ﷺ ويتركوا البعض الآخر، فيجب عليهم أن يقبلوا ما جاء به إذا قبلوا بعضه، وذلك باستدلالهم بهذه الآيات وما شابهها على خصوصية الرسالة، وهو القائل ﷺ أنه مرسل إلى الناس كافة وقد ظهر صدقه في قوله[6].

---

(١) انظر: التفسير الكبير، محمد بن عمر الرازي، المجلد الخامس عشر، الجزء الثلاثين، ص (٥).

(٢) سورة الشعراء، الآية: (٢١٤).

(٣) انظر: الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٢).

(٤) انظر: التفسير الكبير، محمد بن عمر الرازي، المجلد الثالث عشر، الجزء الخامس والعشرين، ص (١٤٦).

(٥) الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٢).

(٦) انظر: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: د/أحمد حجازي السقا، ص (٤٤٧).

وعدّ ابن الجوزي هذه الدعوى من النصارى أنها من تلبيس إبليس عليهم، وإلا فمتى أثبتوا لمحمدﷺ أصل الرسالة والنبوّة، فإن النبيّ لا يكذب، وقد بين ﷺ أنه بعث إلى الناس كافة، وكتب إلى قيصر وكسرى وسائر ملوك الأعاجم[1].

وهكذا من خلال ما سبق لم يُبق العلماء المسلمون للنصارى ما يتعلقون به في دعواهم خصوصية رسالة النبيّ ﷺ بالعرب، فلم يبق لهم بعد ذلك إلا قبول الحق، واتباع المصطفى ﷺ وترك العناد والمكابرة وانتحال الحجج.

(١) انظر: تلبيس إبليس، عبد الرحمن بن علي الجوزي، دار الفكر، ص (٧٣).

المطلب الثاني

دعوى أن القرآن
ورد بتعظيم النصارى والثناء عليهم

ففي رسالة لأحد الكتاب النصارى كتبها على لسانهم موجهة إلى المسلمين في عصر الحروب الصليبية كان من ضمن ما أورده من الشبه فيها أن القرآن ورد بتعظيم النصارى والثناء عليهم متمثلاً ذلك فيما يلي:

أ - تقديم بيع النصارى وصوامعهم على مساجد المسلمين في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾[(١)][(٢)].

ب - تعظيم القرآن الكريم للإنجيل كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾[(٣)]. والكتاب هنا هو الإنجيل. وقوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾[(٤)]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ

---

(١) سورة الحج، الآية: (٤٠).

(٢) انظر: الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٧).

(٣) سورة آل عمران، الآية: (١٨٤).

(٤) سورة المائدة، الآية: (٤٦).

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾[1][2].

جـ ـ مدح القرآن للنصارى كما في قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾[3]، وقوله ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ﴾[5][6].

وقد فند القرافي هذه الشبه مبيناً أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أن الله تعالى يدفع المكاره عن الأشرار في كل زمان بوجود الأخيار، فزمن موسى عليه السلام يسلم أهل الأرض من بلاء يعمهم بسبب من فيهم من أهل الاستقامة وإلا لعمهم الهلاك وهدمت صوامع يعبد الله فيها على الدين الصحيح حسب الشريعة الموسوية، وكذلك زمان عيسى وزمان محمد ﷺ[7].

وقال البغوي في معنى الآية: «أي ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدم في شريعة كل نبيّ مكان صلاتهم، لهدم في زمن موسى الكنائس، وفي زمن

---

(١) سورة المائدة، الآية: (٤٨).

(٢) انظر: الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٩ ـ ٢٠).

(٣) سورة المائدة، الآية: (٨٢).

(٤) سورة العنكبوت، الآية: (٤٦).

(٥) سورة العنكبوت، الآية: (٤٦).

(٦) انظر: الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (٢٨).

(٧) انظر: المصدر السابق، ص (١٨).

عيسى البيع والصوامع، وفي زمن محمدﷺ المساجد»[١].

أما وجه تقديم الصوامع والبيع على المساجد فوضح القرافي أن ذلك ليس لأفضليتها بل على العكس، فتأخيرها لأفضليتها ومكانها نظير قول القائل: «فلان يغالب المائة والألف»، وقولهم: «لا أبخل عليك بالدرهم والدينار» فالترتيب من الأدنى إلى الأعلى، وتأخير المساجد لشرفها، وأن هدمها أعظم من هدم غيرها[٢].

ووضح الرازي سبب تقديم الصوامع والبيع في الذكر على المساجد بقوله: «... لأنها أقدم في الوجود، وقيل: أخرها في الذكر كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[٣].

وزاد القرافي أن هذه الآية خصت المساجد بمزيد فضل، إذ بينت أنه يذكر اسم الله فيها كثيراً، حيث إن الضمير في اللغة العربية يعود إلى أقرب مذكور، وأقرب مذكور في الآية إلى هذا الوصف هو المساجد[٤].

ووضح القرطبي أن من أسباب تقديم مساجد أهل الذمة ومصلياتهم على مساجد المسلمين أنها أقدم بناء من المساجد[٥].

أما ما يتعلق بتعظيم القرآن للإنجيل كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُو بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾[٦]، فقد بين

---

(١) معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبدالله النمر وآخرين، (٥/ ٣٨٩).

(٢) انظر: الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٨ ـ ١٩).

(٣) التفسير الكبير، محمد بن عمر الرازي، المجلد الثاني عشر، الجزء الثالث والعشرون، ص (٣٦ ـ ٣٧).

(٤) انظر: الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١٨ ـ ١٩).

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، المجلد السادس، الجزء الثاني عشر، ص (٤٩).

(٦) سورة آل عمران، الآية: (١٨٤).

القرافي أن «أل» لاستغراق الجنس إشارة إلى جميع الكتب المنزلة المتقدمة[1]، أي: الكتب النيرة بالبراهين والحجج[2]، والمقصود بها الكتب المنزلة لا المبدلة التي بأيدي النصارى، إذ هي في غاية الوهن والضعف وسقم الحفظ والرواية وانقطاع السند بحيث لا يوثق بشيء منها[3].

ووضح الرازي أن في هذه الآية زيادة فضل للقرآن على الكتب المتقدمة، وذلك أن المراد بالبينات المعجزات، وعطف الزبر والكتاب عليها يقتضي المغايرة، أي أن معجزات الأنبياء السابقين كانت مغايرة لكتبهم، وذلك يدل على أن أحداً من الأنبياء ما كانت كتبهم معجزة لهم كالتوراة والإنجيل والزبور والصحف بعكس القرآن فهو وحده معجزة، وهذا من خصائص رسول الله ﷺ[4].

أما قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾[5]، فقد بين الرازي معنى هذه الآية بما هو حجة على النصارى، وذلك أن الهدى الذي في الإنجيل هو اشتماله على الدلائل على توحيد الله وتنزيهه عن الصاحبة والولد والند والمثل، أما كونه مصدقاً لما بين يديه أي مبشراً بمبعث محمد ﷺ ومقدمه، كذلك كونه هدى مرة أخرى؛ لاشتماله على البشارة بمحمد ﷺ فيكون بذلك الإنجيل سبباً لاهتداء الناس إلى نبوّة محمد ﷺ، ولا شك أن أشد وجوه المنازعة بين المسلمين وبين اليهود والنصارى هي إنكار نبوّة محمد ﷺ، ولذلك نبه سبحانه وتعالى في هذه الآية أن الإنجيل يدل دلالة ظاهرة على نبوّته ﷺ، فكان الإنجيل هدى في

---

(١) انظر: الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (٢١).

(٢) زاد المسير، عبد الرحمن بن علي الجوزي، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن عبدالله وزميله، (٢/ ٦٦).

(٣) انظر: الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (٢١).

(٤) انظر: التفسير الكبير، محمد بن عمر الرازي، المجلد الخامس، الجزء التاسع، ص (١٠١).

(٥) سورة المائدة، الآية: (٤٦).

هذه المسألة التي هي أشد المسائل احتياجاً إلى البيان والتقرير[١].

ولذلك قال سبحانه بعد هذه الآية: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾[٢] أي ليقر أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه على الوجه الذي أنزله الله فيه من غير تحريف ولا تبديل، ومن ذلك الإيمان بما أنزله الله فيه من الدلائل على نبوّة محمد ﷺ[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[٤] وضح القرافي أن المراد تصديق الكتب المنزلة لا المبدلة وهذا لا يمتري فيه عاقل[٥].

وقال البغوي في معنى هذه الآية: «أي الكتب المنزلة من قبل ـ ومهيمناً عليه ـ قيل: مؤيمن من أمين، ومعنى أمانة القرآن ما قاله ابن جريج[٦]: القرآن أمين على ما قبله من الكتب فما أخبر أهل الكتاب عن كتابهم فإن كان في القرآن فصدقوا وإلا فكذبوا»[٧].

وقال الرازي: «إنما كان القرآن مهيمناً على الكتب لأنه الكتاب الذي لا

---

(١) انظر: التفسير الكبير، محمد بن عمر الرازي، المجلد السادس، الجزء الثاني عشر، ص (١٠).

(٢) سورة المائدة، الآية: (٤٧).

(٣) انظر: التفسير الكبير، محمد بن عمر الرازي، المجلد السادس، الجزء الثاني عشر، ص (١٠).

(٤) سورة المائدة، الآية: (٤٨).

(٥) انظر: الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (٢١).

(٦) هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الأموي، ثقة فقيه فاضل، صاحب التصانيف، وأول من دون العلم بمكة، مولده في مكة سنة ٨٠ هـ، ووفاته فيها سنة ١٥٠ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: (٦/ ٣٢٥) وما بعدها، وتقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني، تحقيق محمد عوامة، ص (٣٤٠).

(٧) معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: د/ محمد عبدالله النمر وآخرين (٣/ ٦٥).

يصير منسوخاً ألبتة ولا يتطرق إليه التبديل والتحريف»[1].

أما ما يتعلق بمدح القرآن للنصارى ففي قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾[2]. قال القرطبي: «هذه الآية نزلت في النجاشي وأصحابه لما قدم عليه المسلمون في الهجرة الأولى»[3]. وذكر الرازي عن جماعة من المفسرين أن المقصود بهذه الآية ليس جميع النصارى لظهور عداوتهم للمسلمين، وإنما هم أصحاب النجاشي الذين قدموا من الحبشة على رسول الله ﷺ وآمنوا به[4]. وقال البغوي: «لم يرد به جميع النصارى لأنهم في عداوتهم المسلمين كاليهود في قتلهم المسلمين وأسرهم وتخريبهم بلادهم وهدم مساجدهم وإحراق مصاحفهم، لا ولاء ولا كرامة لهم، بل الآية فيمن أسلم منهم مثل النجاشي وأصحابه»[5].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[6]، بين القرافي أن في ذلك دليلاً على أنهم على الباطل، ولو كانوا على الحق ما احتاج المسلمون إلى جدالهم[7].

ورجح القرطبي قول مجاهد في معنى هذه الآية وأنه إباحة لمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن على معنى الدعاء لهم إلى الله عزّ وجلّ، والتنبيه على حججه وآياته رجاء إجابتهم إلى الإيمان به، وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾

---

(١) التفسير الكبير، محمد بن عمر الرازي، المجلد السادس، الجزء الثاني عشر، ص (١١).
(٢) سورة المائدة، الآية: (٨٢).
(٣) الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، المجلد الثالث، الجزء السادس، ص (١٦٥).
(٤) انظر: التفسير الكبير، محمد بن عمر الرازي، المجلد السادس، الجزء الثاني عشر، ص (١١).
(٥) معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبدالله النمر وآخرين، (٣/ ٨٥).
(٦) سورة العنكبوت، الآية: (٤٦).
(٧) انظر: الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (٢٩).

أي: ظلموكم وإلا فكلهم ظلمة بكفرهم[1].

وبين الرازي أن الجدال بالتي هي أحسن للذين جاؤوا بكل حسن منهم لكنهم لم يعترفوا بنبوّة محمدﷺ، فوحدوا وآمنوا بإنزال الكتب وإرسال الرسل والحشر، بخلاف المشرك منهم الذي جعل الله ولداً أو جعله ثالث ثلاثة[2]، وهذا هو غالب حال النصارى.

وفي قوله تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾[3] وضح كل من البغوي[4] وابن عطية[5]: معنى هذه الآية بما رواه أبو هريرةرضي الله عنه قال: «كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام»، قال رسول اللهﷺ: **«لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وإليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون»**[6].

وهكذا فند العلماء المسلمون في عصر الحروب الصليبية شبه النصارى حول هذه الآيات وأمثالها والتي تعلقوا بها زعماً منهم أن فيها ثناء عليهم وإقراراً لباطلهم، موضحين المعنى الصحيح لها إزالة للشبهة وإقامة للحجة.

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، المجلد السابع، الجزء الثالث عشر، ص (٢٣٢).

(٢) انظر: التفسير الكبير، محمد بن عمر الرازي، المجلد الثالث عشر، الجزء الخامس والعشرين، ص (٦٧).

(٣) سورة العنكبوت، الآية: (٤٦).

(٤) انظر: معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبدالله النمر وآخرين.

(٥) انظر: المحرر الوجيز، عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (١٢/ ٢٢٩).

(٦) أخرجه البخاري، الصحيح، كتاب التفسير، باب «**قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا**»، حديث رقم (٤٤٨٥)، ص (٨٤٨).

المطلب الثالث

شبهة تعدد الزوجات في الإسلام

تعدد الزوجات تشريع إلهي أباحه الله سبحانه وتعالى لحكم تجل عن الحصر تعود على الفرد والمجتمع بكل ما فيه خير لهما، قال تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾[1]، فمن حكم التعدد ما يرجع إلى طبيعة كل من الرجل والمرأة، حيث إنه من طبيعة الرجل أنه يحتفظ بقوته ونشاطه إلى مراحل متأخرة من عمره إذا سلم من العوارض والأمراض، والمرأة بالإضافة إلى ما يعتريها من حمل وولادة وحيض فإن رغبتها في النكاح تكاد تنقطع بين سن الخامسة والأربعين والخمسين، وحينئذٍ فالرجل يحتاج إلى من يبادله الرغبة بعد انعدامها في زوجته الأولى.

ومن حكم التعدد ما يعود بالخير على المجتمع ويكون علاجاً لكثير من مشكلاته والتي منها زيادة أعداد النساء بشكل عام على أعداد الرجال، وذلك كناحية طبيعية في كثير من المجتمعات، أو بسبب بعض الكوارث التي ضحاياها في الغالب من الرجال كالحروب وبعض الأعمال الخطرة والشاقة.

والتعدد فيه مصلحة لفئة ليست قليلة من نساء المجتمع من ذوات بعض الظروف الخاصة كأن تكون المرأة مريضة، أو عاقراً، أو أرملة، أو مطلقة، أو تجاوزها قطار الزواج لأي سبب من الأسباب، فلا علاج لأوضاع هذه الفئة من

---

(١) سورة النساء، الآية: (٣).

النساء إلا بالتعدد، إلى غير ذلك من المصالح الأخرى المترتبة عليه.

وفي عصر الحروب الصليبية كان من ضمن كتاب لأحد القساوسة النصارى إلى أبي عبيدة الخزرجي الإشارة إلى أن المسلمين خالفوا فعل آدم عليه السلام أبي البشر الذي لم تكن له إلا زوجة واحدة، وخالفوا التوراة، وذلك بإباحة التعدد(١).

وقد أشار القرطبي إلى تعريض أحد كبارهم بإباحة التعدد في الإسلام بقول هذا النصراني عن النبيّ ﷺ: «... ثم أمر بالإكثار من النساء، ورخص في طلاقهن، وأحل تزويج المطلقات الفاجرات...»(٢).

وقد كان رد بعض العلماء المسلمين في عصر الحروب الصليبية على هذه الشبهة على النحو التالي:

أ ـ إن التعدد تشريع إلهي يجب التسليم له، حيث قال الخزرجي: «فإن الذي أمرنا الله به من النكاح، وسن لنا الطلاق ليس لعاقل انتقاده؛ لأن قبولنا لذلك إنما هو بعد ثبوت الأصل»(٣).

وقال القرطبي في رده على أحد قساوسة الأندلس: «فذلك ـ أي التعدد ـ ما لا ينبغي أن ينكره أحد من العقلاء، فإنه من مجوزات العقول وقد ورد بذلك الشرع الصادق المنقول»(٤).

ب ـ أن التعدد كان لدى بني إسرائيل ونصت عليه التوراة، بل إن فيها الجمع بين القريبات المحرم الجمع بينهن في الإسلام، قال القرطبي في رده على

---

(١) انظر: مقامع الصلبان، وواقع رياض أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، حققه: د/محمد شامة بعنوان: بين الإسلام والمسيحية، ص (٧٩).

(٢) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٤٤٨).

(٣) مقامع الصلبان، ومراتع رياض أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، حققه: د/ محمد شامة بعنوان: بين الإسلام والمسيحية، ص (٢٦٢).

(٤) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: د/أحمد حجازي السقا، ص (٤٥٤).

القسيس النصراني: «... ألم يجيء في التوراة أن إبراهيم كانت له سارة وهاجر، وكذلك ورد فيها أن يعقوب جمع بين ليئة وراحيل، وقد ثبت أيضاً أن سليمان كانت له مائة امرأة أو تسعة وتسعون...»[١].

ثم ألزم القرطبي هذا النصراني بما لا مفر له منه، وذلك بقوله: فإن كذبتم شرعنا لأجل أنه اشتمل على جواز نكاح نساء كثيرة فلتكذبوا بنبوّة إبراهيم ويعقوب وسليمان، ولا فرق بين نبيّنا وبين هؤلاء الأنبياء في أن كل واحد منهم رسول يبلغ حكم الله[٢][٣].

وفي رد الخزرجي على هذه الشبهة ضرب أمثلة على وجود التعدد في بني إسرائيل، بل والجمع بين المحرم الجمع بينهن في الإسلام كقوله: «... وهذه يوكابد أم موسى كانت عمة والدة عمران وعمران من فضلاء المؤمنين»[٤]، وكذلك إسرائيل كان لديه عدة زوجات جمع فيها بين الأختين[٥].

جـ ـ أن التعدد ليس فيه مخالفة لفعل آدم أبي البشر، حيث وضح الخزرجي

---

(١) المصدر السابق، ص (٤٥٤).

(٢) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: د/ أحمد حجازي السقا، ص (٤٥٤ ـ ٤٥٥).

(٣) ومن العجيب أن الكنيسة في الوقت الحاضر تبيح التعدد حتى للقساوسة في إفريقيا، وتمنعه في أوروبا، يقول أحد الباحثين: «فهي ـ أي الكنيسة ـ تغض الطرف عن تعدد الزوجات بين المسيحيين في إفريقيا، حتى القسيس في الكنيسة الإفريقية تجوز له أن يتزوج أكثر من امرأة، بينما يحرم هذا على زميله في أوروبا، فأيهما المسيحية؟ أتحريم التعدد على المسيحيين في أوروبا، أم جوازه لشركائهم في العقيدة في إفريقيا؟ لا نجد عندهم جواباً سوى أنهم أحلوا تعدد الزوجات في إفريقيا ليكسبوا أتباعاً، وإلا خسروا المعركة أمام الإسلام».
انظر: تعليق د/ محمد شامة في تحقيقه لكتاب مقامع الصلبان ومراتع أهل الإيمان لأحمد ابن عبد الصمد الخزرجي، ص (٨٤).

(٤) مقامع الصلبان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، حققه محمد شامة تحت عنوان: بين الإسلام والمسيحية، ص (٢٦٢).

(٥) انظر: المصدر السابق، ص (٢٦٣).

أن اقتصار آدم عليه السلام على زوجة واحدة ضرورة لعدم وجود أخرى، ولذلك زوج ابنه بنته[1].

د ـ أن التعدد فيه من الحكم العظيمة ما يجل عن الحصر، حيث أشار القرطبي إلى جانب من هذه الحكم، والتي من أعظمها: تكثير النسل، وعمارة الدنيا بالذرية الصالحة[2].

هـ ـ أن التعدد في الإسلام مشروط بالعدل بين الزوجات، فبعد أن وضح ابن الجوزي بعض أحكام التعدد في تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾[3]، قال: «... فإن خفتم ألا تعدلوا بين هؤلاء الأربع فانكحوا واحدة...»[4].

وهكذا أبرز العلماء المسلمون في هذه الفترة أن تعدد الزوجات تشريع إلهي ليس في الإسلام فحسب بل ولدى الأنبياء السابقين، وأبطلوا كذلك ما تعلق به النصارى من شبه حول هذا الأمر القصد منها تشويه الدين الإسلامي والتنفير منه؛ ليظهر جلياً عناد النصارى في هذا الأمر وانحرافهم عن الفطرة البشرية والسنة الإلهية اتباعاً لأهوائهم وطاعة لكبرائهم.

---

(١) انظر: المصدر السابق، ص (٢٦٣).

(٢) انظر: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: د/أحمد حجازي السقا، ص (٤٥٥).

(٣) سورة النساء، الآية: (٣).

(٤) زاد المسير، عبد الرحمن بن علي الجوزي، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن وزميله، (٢/ ٨٢).

المطلب الرابع

دعوى انتشار الإسلام بالسيف

من أقدم الشبه التي أثارها أعداء الإسلام وما زالوا يثيرونها انتشاره بالسيف، وقد غفلوا عن أهداف الجهاد السامية في الإسلام والتي منها:

أ - رد اعتداء المعتدين على المسلمين، لقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾[1].

ب - إزالة الحجب والحواجز والعراقيل التي تقف أمام الدعوة الإسلامية، كي لا تصل إلى الناس، كما قال سبحانه: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾[2].

جـ - حراسة الدين وحمايته من أهل الباطل لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ﴾[3].

د - تأديب ناكثي العهد من المعاهدين لقوله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢﴾[4].

---

(١) سورة البقرة، الآية: (١٩٠).

(٢) سورة البقرة، الآية: (١٩٣).

(٣) سورة الحج، الآية: (٤٠).

(٤) سورة التوبة، الآية: (١٢).

هـ ـ إغاثة المظلومين والمستضعفين من المسلمين لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾[(١)(٢)].

إذاً فالجهاد في الإسلام إعلاء لكلمة الله سبحانه وتعالى وإيصال لها إلى كل من يمكن أن تصل إليه، وليس من أجل صراع على مناطق نفوذ، أو نزاع على ثروات اقتصادية، أو لأهداف سياسية أو غير ذلك كما هو شأن الحروب في كثير من جهات العالم.

ثم إن الجهاد في الإسلام تظلله الرحمة، فليس هدفه التشفي من العدو، ولذلك كان له أخلاقياته المنبثقة من روح الإسلام، فكان من وصايا رسول الله ﷺ للجيوش الإسلامية قوله: «**... قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً**»[(٣)]، ولقد كان ﷺ ينهى عن قتل النساء والصبيان[(٤)].

هذه هي أبرز أهداف الجهاد في الإسلام، أهداف سامية ليست إلا في مصلحة الإنسانية عموماً، ولا تنكرها إلا العقول المتلبسة بالشبهات أو المريضة بالحقد.

وفي عصر الحروب الصليبية كان من ضمن ما أثاره النصارى ضد الإسلام دعوى انتشاره بالسيف، إذ قال أحد قساوستهم في رسالة له إلى أبي عبيدة الخزرجي: «... ودين الصليب فشا في الأرض دون سيف ولا قهر، ودينكم إنما ظهر بالسيف والقهر في الأرض»[(٥)].

---

(١) سورة النساء، الآية: (٧٥).

(٢) للتوسع في أهداف الجهاد انظر: أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية، د/علي نفيع العلياني، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ، ص (١٥٨ ـ ١٩١).

(٣) أخرجه مسلم، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث، حديث رقم (١٧٣١)، ص (٧٢٠).

(٤) انظر: أحاديث في هذا الباب في صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب، ص (٧٢٣).

(٥) مقامع الصلبان ومراتع أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، حققه د/محمد

وبمثل ذلك تحدث أحد قساوسة النصارى ومؤرخيهم في فترة الحروب الصليبية عن انتشار الإسلام في بلاد الشام، وأن مرد ذلك إلى القوات الكبيرة التي دفع بها المسلمون مقابل ضعف الرومان وتفكك دولتهم[1].

وقد تصدى بعض العلماء المسلمين إلى الرد على النصارى في هذه الدعوى وكان ذلك على النحو التالي:

أ ـ بيان أن انتشار النصرانية ما كان إلا بسبب القتال، ولولا ذلك لما بقي منها أثر.

قال الخزرجي حول ذلك في رده على أحد قساوسة النصارى: «... فكأنك قد غفلت عما كتبه مؤرخوكم وغيرهم من أن ابتداء دينكم إنما كان بأسباب القتال مع اليهود، وكنتم تحرقونهم بالنيران، وتغرقونهم في البحار، وتعملون فيهم جميع أنواع الذل والهوان، ولولا ذلك لم تبق لكم اليهود أثراً»[2].

وقال القرافي حول هذه الشبهة من قبل النصارى: «... فلو التزموا شريعتهم في المسألة لم تقم لهم قائمة، ولم يبق منهم باقية»[3].

ب ـ أن النصارى في واقع أمرهم مخالفون لشريعتهم التي تحثهم عل الصلح، والمسالمة، وعدم القتال، والابتعاد عن المنازعة إلى أن تقوم الساعة.

حيث أورد الخزرجي نصوصاً من الإنجيل في ذلك، منها: «لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً»[4]. وقوله: «ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً، ومن سخرك ميلاً واحداً

شامة تحت عنوان: بين الإسلام والمسيحية، ص (١١٥).

(١) انظر: الحروب الصليبية، وليم الصوري، ترجمة د/ حسن حبشي، (١/ ٦٤).

(٢) مقامع الصلبان ومراتع أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، حققه د/ محمد شامة تحت عنوان: بين الإسلام والمسيحية، ص (٢٨٥).

(٣) الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (٨٩).

(٤) الكتاب المقدس، إنجيل متى، الإصحاح (٥/ ٣٩).

فاذهب معه اثنين... أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم»[1][2].

ثم عقب الخزرجي على ذلك بقوله: «... ومع ذلك فإنا نراكم - أي النصارى - أشد الناس تكالباً وحرصاً على القتل والقتال وبسط الأيدي بالاعتساف في أقطار الأرض، تقتلون النفوس، وتسلبون الأموال... مع تحريم إنجيلكم ذلك عليكم، وإيجابه الاستسلام لأعدائكم، ومن استحل حرمات الله تعالى فهو أشد الناس كفراً بالله وكتبه وأحكامه»[3].

وقال القرطبي في مناقشة لهذه الدعوى: «وأعجب من ذلك - أي دعواهم انتشار الإسلام بالسيف - تلبسهم بالقتال، والإكثار منه أبد الدهر إلى اليوم، وهم مع ذلك يدّعون أن القتال غير مشروع لهم ويذمون الشريعة التي جاءت به، فهم قد ناقضت أفعالهم أقوالهم، وشهدت على كذبهم أحوالهم...»[4].

جـ - إن كان القتال في الإسلام عيباً فهو كذلك في الأمم السابقة.

إذ قال الخزرجي في مناقشة للقسيس النصراني حول هذه الدعوى: «فإن كنت قلت ذلك لتعيب به الإسلام، فإنك عبت موسى بن عمران ويوشع بن نون ومن قبلهما ومن بعدهما من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإنهم حاربوا الأمم الطاغية ببلادهم»[5].

---

(١) هذا النص الذي أورده الخزرجي في مقامع الصلبان، ص ٢٨٦، وورد في الكتاب المقدس مع اختلاف يسير في اللفظ في إنجيل متى، الإصحاح (٥/ ٤٠ - ٤٤).

(٢) انظر: مقامع الصلبان ومراتع أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، حققه د/ محمد شامة تحت عنوان: بين الإسلام والمسيحية، ص (٢٨٦ - ٢٨٧).

(٣) المصدر السابق، ص (٢٨٦ - ٢٨٧).

(٤) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: د/ أحمد حجازي السقا، ص (٤٥٢).

(٥) انظر: مقامع الصلبان ومراتع أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، حققه د/ محمد شامة تحت عنوان: بين الإسلام والمسيحية، ص (٢٨٥).

د ـ إن القتال سنة أهل الحق مع أهل الضلال، والمسلمون على هذه السنة حيث وضح كل من الخزرجي والقرافي ذلك، ومن ثم فالقتال من مناقب المسلمين وحسناتهم، لا من معائبهم وسيئاتهم[1].

وقال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ «أي لولا القتال والجهاد لتغلب على أهل الحق في كل زمان، فمن استبشع من النصارى والصابئين الجهاد فهو مناقض لمذهبه»[2].

هـ ـ إن الجهاد في الإسلام من أسباب حماية الدعوة.

حيث وضح الخزرجي ذلك بأن النبيّ ﷺ ظل في قومه زمناً يدعوهم إلى عبادة الله وحده ونبذ الأصنام والأوثان فحاربه قومه وآذوه وضيقوا عليه وأصحابه، فكان الجهاد رافعاً لهذا الأذى ومكسباً قوة وهيبة للمسلمين، وممكناً لدعوة الحق. وبسبب عدم وجود ذلك في النصرانية فإن الدين الصحيح الذي جاء به المسيح عليه السلام ظل أهله مستضعفين بعده فترة فتلاشى وحرف وبدل، وما عليه النصارى اليوم إنما أفشاه قسطنطين ابن هلانة بالقهر والغلبة[3]، فكان عدم تشريع الجهاد في بداية النصرانية من أسباب ضعفها ومن ثم تحريفها وتبديلها.

و ـ إن القتال في الإسلام لا يكون إلا بعد قيام الحجة.

حيث وضح ابن المتطبب أن جهاد النبيّ ﷺ كان بعد صبر دام أكثر من ثلاث عشرة سنة من الدعوة باللين وإقامة الحجة، ثم كان الأمر بالقتال بعد ظهور

---

(١) انظر: المصدر السابق، ص ٢٨٦، والأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (٩٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، المجلد السادس، الجزء الثاني عشر، ص (٤٧).

(٣) انظر: مقامع الصلبان ومراتع أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، حققه د/ محمد شامة تحت عنوان: بين الإسلام والمسيحية، ص (٢٨٨ ـ ٢٩٠).

المعجزة، وقيام الحجة، ووضوح الدلالة، وما كان إشهار السيف أبداً إلا بعد الإنذار والإعذار[1].

وبين النووي[2] وجوب إنذار من لم تبلغه الدعوة قبل القتال[3]. ثم إن دعوتهم تكون إلى إحدى ثلاث خصال: الإسلام، فإن أبوا فالجزية، فإن أبوا فالقتال[4].

وقال ابن قدامة: «. . . فإن كان المدعو من أهل الكتاب، أو مجوساً، دعاهم إلى الإسلام، فإن أبوا دعاهم إلى إعطاء الجزية، فإن أبوا قاتلهم وإن كانوا من غيرهم دعاهم إلى الإسلام، فإن أبوا قاتلهم»[5].

وهكذا أزال هؤلاء العلماء هذه الدعوى الباطلة من قبل النصارى بإيضاح منهج الإسلام في القتال، وأنه مزية من مزايا هذا الدين، ومن أسباب قوته وظهوره، وأنه العلاج الناجع حين لا يبقى إلا هو مع أعداء الدعوة المتربصين الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم.

---

(١) انظر: النصيحة الإيمانية، نصر بن يحيى المتطبب، تحقيق: د/ محمد الشرقاوي، ص (١٤٢).

(٢) هو يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي النووي، مولده في نوا من قرى حوران بسوريا سنة ٦٣١ هـ، ووفاته بها سنة ٦٧٦ هـ، عالم بالفقه والحديث، له فيهما المصنفات الكثيرة، من كتبه: تهذيب الأسماء واللغات، والمنهاج في شرح صحيح مسلم، والتقريب والتيسير في المصطلح، وحلية الأبرار ورياض الصالحين وغير ذلك.
انظر: طبقات الشافعية الكبرى، لابن السبكي، تحقيق: عبد الفتاح الحلو وزميله، (٨/ ٣٩٥ ـ ٤٠٠)، والبداية والنهاية، لابن كثير، تحقيق: أحمد أبو ملحم وآخرين، (١٣/ ٢٩٤).

(٣) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم، يحيى بن شرف النووي، المطبعة المصرية الأزهرية، الطبعة الأولى، ١٣٤٧ هـ، (١٢/ ٣٧).

(٤) انظر: المصدر السابق، (١٢/ ٣٨).

(٥) المغني، عبدالله بن أحمد بن قدامة، تحقيق د/ عبدالله التركي وزميله، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢م، (١٣/ ٣١).

المطلب الخامس

دعوى عدم جزم المسلمين بصحة القرآن لاختلاف الصحابة في جمعه، وتعدد قراءاته

مما أثاره النصارى حول كتاب الله في هذه الفترة ادعاؤهم عدم جزم المسلمين بصحته لمخالفة عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عثمان بن عفان رضي الله عنه في جمعه[1]، وأن تعد القراءات على سبعة قراء أشد من اختلاف الأناجيل عن أربعة رجال[2].

وقد رد القرافي على هذه الدعوى مبيناً أن خلاف عبدالله بن مسعود رضي الله عنه للصحابة ليس في إثبات شيء ليس من القرآن أو حذف شيء فيه، إذ القرآن معلوم لجميع الصحابة بالتواتر، وإنما الخلاف في أن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه كان يقرأ القرآن ويضم إليه تفسيره كقوله تعالى: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾[3]، كان يقرؤها فصيام ثلاثة أيام متتابعات، فنازعه الصحابة لذلك حرصاً منهم ألا يضاف إلى القرآن مما ليس منه، وكان الصواب معهم، وهذا من حفظ الله عزّ وجلّ لكتابه كما وعد بذلك ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾[4][5].

---

(١) انظر: الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (٩٤ ـ ٩٥).

(٢) انظر: المصدر السابق، ص (٩٧).

(٣) سورة البقرة، الآية: (١٩٦).

(٤) سورة الحجر، الآية: (٩).

(٥) انظر: الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (٩٨).

قال ابن عطية عن خلاف ابن مسعود رضي الله عنه للصحابة في جمع القرآن، وترك الصحابة لمصحفه رضي الله عنه: «... لأنه روي أنه كتب فيه أشياء على جهة التفسير فظنها قوم من التلاوة فتخلط الأمر فيه...»[1].

وقال الرازي: «إن جمعهم ـ أي الصحابة ـ للقرآن كان من أسباب حفظ الله تعالى إياه، فإنه تعالى لما أن حفظه قيضهم لذلك»[2].

وقال القرطبي في جمع القرآن: «وكان هذا من عثمان رضي الله عنه بعد أن جمع المهاجرين والأنصار وجلة أهل الإسلام وشاورهم في ذلك فاتفقوا على جمعه بما صح وثبت في القراءات المشهورة عن النبيّ ﷺ واطراح ما سواها، واستصوبوا رأيه وكان رأياً سديداً موفقاً»[3].

وفيما يتعلق بتعدد القراءات فقد وضح بأنها جميعاً متلقاة عن النبيّ ﷺ بالتواتر، ثم إن هذا التعدد من رحمة الله بعباده، إذ قبائل العرب حين نزول القرآن كانت مختلفة اللهجات بين التفخيم والمد والقصر والإخفاء والإمالة وإعمال العوامل الناصبة والرافعة والجارة، ولو كلفوا كلهم بلهجة واحدة لشق عليهم[4].

وقال القرطبي: «هذه القراءات المشهورة هي اختيارات أولئك الأئمة القراء، وذلك أن كل واحد منهم اختار فيما روى وعلم من وجهه من القراءات ما هو الأحسن عنده والأولى... ولم يمنع واحد منهم اختيار الآخر ولا أنكره بل سوغه وجوزه، وكل واحد من هؤلاء السبعة روي عنه اختياران أو أكثر وكل صحيح.

وقد أجمع المسلمون في هذه الأعصار على اعتماد ما صح عن هؤلاء

---

(١) المحرر الوجيز، عبد الحق بن غالب بن عطية، (١/ ٣١ ـ ٣٢).

(٢) التفسير الكبير، محمد بن عمر الرازي، المجلد العاشر، الجزء التاسع عشر، ص (١٢٧).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، المجلد الأول، الجزء الأول، ص (٣٩).

(٤) انظر: الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (٩٨).

الأئمة... فاستمر الإجماع على الصواب، وحصل ما وعد الله من حفظ الكتاب، وعلى هذا الأئمة المتقدمون والفضلاء المحققون...»[1].

أما فيما يتعلق بتشبيه النصارى اختلاف القرآن باختلاف الأناجيل فقد رد القرافي على ذلك مبيناً الفرق الواضح بين الأمرين، إذ الأناجيل لم تنقل إلينا بالتواتر كالقرآن الكريم، بل نكاد نجزم بأن أكثرها ليس منزلاً وما هو إلا تواريخ وكلام كهنة وملوك كفرة حشرها النصارى في الإنجيل وزعموا أنها من الكتاب المنزل، ولذلك لم يجز المسلمون أن يجعلوا شيئاً من الأحاديث مع صحتها مختلطة بالقرآن، ولا قول أحد من الصحابة[2].

ثم خاطب القرافي النصارى بقوله: «... فلا تشبهوا أنفسكم بنا، فوالله ما اجتمعنا في شيء من هذا، بل أنتم في غاية الإهمال، ونحن في غاية الاحتفال»[3].

وقد أسهب العلماء المسلمون في هذه الفترة في إبراز وجوه إعجاز القرآن وبيان خصائصه التي تفرد بها عن سائر الكتب[4] مع إيضاح تناقض الأناجيل وبيان عدم صحتها[5].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، المجلد الأول، الجزء الأول، ص (٣٥).

(٢) انظر: الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (٩٨ ـ ٩٩).

(٣) انظر: المصدر السابق، ص (٩٩).

(٤) انظر: نماذج من جهود المسلمين في ذلك في المبحث الأول من هذا الفصل، المطلب الثالث.

(٥) انظر: أمثلة على جهود المسلمين في ذلك في المبحث الثاني من هذا الفصل، المطلب الأول.

المطلب السادس

دعوى أن القرآن يشتمل على ما ليس بصحيح

من شبه النصارى التي أثاروها في هذه الفترة دعواهم أن القرآن يشتمل على ما ليس بصحيح، حيث أورد أحد قساوستهم أمثلة على ذلك وجهها إلى أبي عبيدة الخزرجي كجعل أم المسيح ابنة عمران وأخت هارون[1]، وأشار القرافي أيضاً إلى إثارة هذه الدعوى من قبل النصارى واستدلالهم عليها بهذا المثال[2].

وقد تصدى الخزرجي للرد على هذه الشبهة مبيناً فهم النصارى الخاطىء لهذه الآية، ومتسائلاً من أين نسبوا إلى المسلمين اعتقاد أن أم المسيح عليه السلام أخت لهارون وموسى؟ حيث وضح أن أم المسيح هي مريم ابنة عمران بن فتان بن أليود، ومريم الأخرى التي هي أخت موسى وهارون إنما هي ابنة عمران ابن يصهر بن قاهت، وهارون في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾[3] إنما عنوا به رجلاً آخر اسمه هارون اشتهر عندهم بكثرة البغايا، وذلك على وجه السب لها[4].

وأضاف القرافي في رده على هذه الشبهة بأنه قد يكون المراد بقوله تعالى:

---

(١) انظر: مقامع الصلبان ومراتع أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، حققه د/ محمد شامة تحت عنوان: بين الإسلام والمسيحية، ص (٨٧).

(٢) انظر: الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (٦١ ـ ٦٢).

(٣) سورة مريم، الآية: (٢٨).

(٤) انظر: مقامع الصلبان ومراتع أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، حققه د/ محمد شامة تحت عنوان: بين الإسلام والمسيحية، ص (٢٦٠ ـ ٢٦١).

﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ أي: في العبادة، وكان هذا الرجل صالحاً في زمن أم المسيح أو لأنها ـ أي أم المسيح ـ من ذرية موسى وهو أخ لهارون فقيل لها: يا أخت هارون، كما جاء في التوراة قوله: إني سأقيم لبني إسرائيل نبيّاً من إخوتهم.

وإخوة بني إسرائيل بجملتهم هم بنو إسماعيل، فجعل بني أخي أبيهم إخوتهم، فكذلك سميت مريم أخت هارون لأنها من ذرية موسى، وموسى أخ لهارون[1].

وبين ابن عطية أن لها أخاً على الحقيقة اسمه هارون؛ لأن هذا الاسم كان كثيراً في بني إسرائيل تبركاً باسم هارون أخي موسى[2].

وبعد أن عدد الرازي الأوجه التي ذكرها العلماء في ذلك رجح أن لها أخاً على الحقيقة من صلحاء بني إسرائيل يسمى هارون، فذكرت به لا سيما أن أباها وصف بالصلاح فحينئذٍ يكون التوبيخ أشد في وقوعها بهذه الفاحشة ووالدها وأخوها قوم صالحون[3].

---

(١) انظر: الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (٦٣).

(٢) انظر: المحرر الوجيز، عبد الحق بن غالب بن عطية، (١١/٢٦).

(٣) انظر: التفسير الكبير، محمد بن عمر الرازي، المجلد الحادي عشر، الجزء الحادي والعشرين، ص (١٧٧).

المطلب السابع

انتقادهم الطلاق في الإسلام

في كتاب لأحد القساوسة النصارى في الأندلس بعث به إلى المسلمين من مدينة طليطلة إلى قرطبة ينال فيه من الإسلام بما أورده من شبهات فيه، كان من ضمنها انتقاده للطلاق في الإسلام، وكيف أنه إذا بانت المرأة من زوجها لا يحل له أن يراجعها إلا بعد أن تنكح زوجاً غيره، وأن ذلك من الأمر بالزنا وهو مخالف لقول المسيح: «لا ينبغي للرجل طلاق زوجته إلا أن تزني، وإن زنت فلا يحل له مراجعتها، ومن طلق امرأته فقد جعل لها سبيلاً إلى الزنى - أعني من طلقها من دون سبب - ومن زوج مطلق فهو فاسق بها»[(١)(٢)].

وقد رد القرطبي على هذا القسيس مبيناً أن عدم قبوله للطلاق إما يكون من جهة العقل أو من جهة الشرع، فإن كان من جهة العقل فإن العقل لا يحيل وقوع الطلاق، وإذا كان الأمر كذلك فكيف ينبغي لمن ينتسب إلى العقل أن ينكر نبوّة من قامت الأدلة القاطعة على صدقه من حيث إنه حكم بشيء يصح في العقل أن يوجد، وإن كان عدم قبوله من حيث إنه ممنوع من جهة الشرع، فإما أن يكون من جهة الشرائع كلها أو من بعضها، والأول باطل ففي التوراة التصريح بالطلاق،

(١) هذا النص الذي أورده القرطبي في الإعلام ص (٢١٦)، وقد ورد في الكتاب المقدس مع اختلاف في اللفظ في إنجيل متى، الإصحاح (١٩/٩ - ١٠).

(٢) انظر: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: د/أحمد حجازي السقا، ص (٢١٦).

والثاني جائز لجواز اختلاف الشرائع في بعض الأحكام لما يعلمه الله من اختلاف الأحوال والمصالح[1].

ثم وضح القرطبي بعض المصالح التي لا تكون إلا بالطلاق والتي لا سبيل لعلاجها في الحياة الزوجية إلا به[2].

وقال ابن قدامة بعد أن ساق الأدلة من الكتاب والسنة على مشروعية الطلاق: «وأجمع الناس على جواز الطلاق، والعبرة دالة على جوازه، فإنه ربما فسدت الحال بين الزوجين فيصير بقاء النكاح مفسدة محضة، وضرراً مجرداً بإلزام الزوج النفقة والسكنى، وحبس المرأة مع سوء العشرة والخصومة الدائمة من غير فائدة، فاقتضى ذلك شرع ما يزيل النكاح، لتزول المفسدة الحاصلة منه[3].

وكونه بيد الرجل ولم يعط المرأة الحق في ذلك لما علمه الشارع من ضعف المرأة وتقديمها العاطفة على العقل في كثير من الأحيان وما يحصل من جراء ذلك من الضرر الذي لا ينسى ولا يتدارك[4].

ووضح ابن قدامة أن للمرأة الحق في مفارقة زوجها إن خشيت ألا تؤدي حق الله في طاعته، فتخالعه بعوض تفتدي به نفسها منه وقد ورد في الحديث أنه جاءت امرأة ثابت بن قيس إلى النبيّ ﷺ فقالت: يا رسول الله ما أنقم على ثابت في دين ولا خلق، إلا أني أخاف الكفر، فقال رسول الله ﷺ: «**أتردين عليه حديقته؟**» قالت: نعم فردتها عليه وأمره أن يفارقها[5][6].

---

(١) انظر: المصدر السابق، ص (٢٢٢).

(٢) انظر: المصدر السابق، ص (٢٢٢).

(٣) المغني، عبدالله بن أحمد بن قدامة، تحقيق: د/ عبدالله بن عبد المحسن التركي وزميله، (١٠/ ٣٢٣).

(٤) انظر: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: د/أحمد حجازي السقا، ص (٢٢٢ ـ ٢٢٣).

(٥) أخرجه البخاري، الصحيح، كتاب الطلاق، باب الخلع وكيف الطلاق، حديث رقم (٥٢٧٦)، ص (١٠٤٤).

(٦) انظر: المغني، عبدالله بن أحمد بن قدامة، تحقيق: د/ عبدالله بن عبد المحسن التركي وزميله، (١٠/ ٢٦٧).

وبين القرطبي أنه مع تشريع الطلاق في الإسلام إلا أنه مكروه، فعلى المسلم أن يتحاشاه قدر استطاعته، وإذا كان لا بدّ منه فلا يكثر ويتمادى فيه[1].

أما كون المطلقة ثلاثاً لا تحل لزوجها الأول إلا بعد زوج فوضح القرطبي في رده على هذه الشبهة: أن ذلك من رحمة الله إذ جعله عقوبة للرجل الذي يتمادى في إيقاع الطلاق، فإذا علم الزوج أنه إذا أكثر من هذا المكروه الذي هو الطلاق عوقب بتفويت زوجته عليه ارتدع عن التمادي فيه[2].

واشتد القرطبي في رده على القسيس النصراني في تشبيه نكاح المرأة من الزوج الثاني بالزنا بوصفه بالكذب والافتراء، والجهل وذلك بقوله: واعلم يا هذا المفتري الكذاب، والمشنع المرتاب، أن العقلاء لا يرضون بما فعلت، ولا يأتون بمثل ما أتيت به، وذلك أنك جهلت شرعنا وكذبت عليه، وعميت عليك مقاصده فنسبت الزور والفحش إليه[3].

ثم وضح القرطبي بعد ذلك الفرق بين الزنا والنكاح وأن نكاحها من الزوج الثاني صحيح وفق شريعة صحيحة، وأنه نكاح اكتملت شروطه وأركانه وانتفت موانعه، وتشبيه هذا القسيس له بالزنا من العناد والتمويه والتزوير الذي قصد به استزلال العامة وتنفيرهم من دين الإسلام. وإلا لم يقل أحد من المسلمين بإجبار الزوج الثاني على طلاقها حتى يرجع إليها الأول، بل إنه يملك منها ما يملكه الأول فإن شاء طلقها وإن شاء أمسكها، وإن كان زواجه منها لأجل أن يحللها للزوج الأول كان نكاحاً فاسداً[4].

وفي تفصيل ابن قدامة لشروط عودتها إلى زوجها الأول أكد فساد النكاح من الزوج الثاني إذا كان القصد منه تحليلها للزوج الأول[5].

---

(١) انظر: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: د/أحمد حجازي السقا، ص (٢٢٤).

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) انظر: المصدر السابق، ص (٢٢٥).

(٤) انظر: المصدر السابق، ص (٢٢٤ ـ ٢٢٥).

(٥) انظر: المغني، عبدالله بن أحمد بن قدامة، تحقيق: د/عبدالله بن عبد المحسن التركي وزميله، (١٠/ ٥٥١).

المطلـــب الثامـــن

دعوى أن المسلمين وثنيون وكفار

مما أثاره النصارى واتخذوه دعاية في حربهم للمسلمين في هذه الفترة ادعاؤهم أن المسلمين وثنيون كفار تستعبدهم الشياطين، وأن النصارى هم الذين يتحلون بالإيمان العظيم بالرب.

قال أكبر دعاة الحروب الصليبية في أوربا البابا أوربان الثاني في خطابه أمام مجمع كليرمونت في فرنسا والذي دعا فيه إلى القيام بالحروب الصليبية: «... إني أخاطب الحاضرين، وأعلن لأولئك الغائبين، كما أن المسيح يأمر بهذا، إن ذنوب أولئك الذاهبين إلى هناك سوف تغفر إذا انتهت حياتهم بأغلالها الدنيوية سواء أثناء مسيرتهم على الأرض أو عند عبورهم البحر، أو في خضم قتالهم ضد الوثنيين... يا له من عار إذ قام جنس خسيس مثل هذا، جنس تستعبده الشياطين بهزيمة شعب يتحلى بإيمان عظيم بالرب...»[(١)].

ووصف فوشيه شارتر أحد مؤرخي الحروب الصليبية الفرنج وأبرز قساوستهم وممن اشترك في كثير من أحداث هذه الحروب وصف المسلمين بهذه الصفة في كتابته لتاريخ حملات النصارى الأولى في هذه الحروب.

ففي ثنائه على البابا أوربان الثاني الداعي الأول للحروب الصليبية قال:

---

(١) الوجود الصليبي في الشرق العربي، فوشيه الشارتي، ترجمة: د/ قاسم عبده قاسم، ص (٩٣).

«. . . كذلك بذل جهوداً قوية لطرد الوثنيين من أراضي المسيحيين»[1].

ومؤرخ صليبي آخر عاصر أحداث الحروب الصليبية وتولى بعض المهام الدينية للصليبيين في فترة هذه الحروب وصف المسلمين وهو يكتب تاريخ الحروب الصليبية بالكفر، ومن ذلك: قوله وهو يتحدث عن بعض المواقع العسكرية بين المسلمين والصليبيين: «. . . ورغم ما كان يبدو من تأهب الكفار للقتال إلا أن أملهم في النصر أو حتى الصمود طويلاً كان أملاً واهياً، ومن ثم كان هدفهم الوحيد هو شغل الصليبيين بالقتال. . .»[2].

وها هو أحد قادتهم وهو بلدوين أمير الرها في أحد خطاباته يصف المسلمين بهذه الصفة وذلك بقوله: «. . . لقد استطاع شعب الفرنجة بإيحاء وتوجيه علويين أن يحرر مدينة القدس الطاهرة من انتهاكات الكفار. . .»[3].

واتهام النصارى للمسلمين بالوثنية ليس إلا كما ورد في المثل: رمتني بدائها وانسلت، إذ الوثنية الصريحة والكفر بالله سبحانه وتعالى هو دين النصارى، فهي تهمة ظاهرة البطلان، وكتب العلماء المسلمين في العقيدة بشكل عام تضمنت الكثير مما يبطل هذه الدعوى.

ومن خلال الجهود الدعوية للمسلمين تجاه النصارى في فترة الحروب الصليبية ومناقشتهم للعقائد النصرانية الباطلة والردود على شبههم يمكن استخلاص تفنيد هذه الدعوى على النحو التالي:

١ - إن الدين الإسلامي دين التوحيد، والنصرانية أساسها الشرك والكفر بالله.

وتوحيد الله سبحانه وتعالى وتنزيهه عن الشرك والمثل والصاحبة والولد من مسلمات الدين الإسلامي الذي بعث النبيّ ﷺ لتقريره والدعوة إليه، وهو

---

(١) المصدر السابق، ص (٩٦).
(٢) الحروب الصليبية، وليم الصوري، ترجمة: د/ حسن حبشي، (٢/ ٢٥١).
(٣) المصدر السابق، ص (٢/ ٢٨٣).

عقيدة المسلمين الراسخة التي لا يتطرق إليها الشك، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾[١].

لذلك انطلق العلماء المسلمون في ردودهم ودعوتهم ونقاشاتهم مع النصارى في هذه الفترة من مبدأ مسلم به لديهم، وهو أن الإسلام دين التوحيد والنصرانية دين الكفر والشرك مع الله، ففي مستهل كل كتاب أورد أو نقاش للعلماء المسلمين في هذه الفترة مع النصارى تكون بدايته تقرير توحيد الله جلّ وعلا، وتنزيهه عن شرك النصارى فيه.

ومن ذلك قول الجعفري في بداية كتاب التخجيل: «الحمد لله الذي لا يتكثر بالأعداد، الماجد الذي لا تضارعه الأشكال والأنداد، المقدس عن الشريك والصاحبة والأولاد المنزه الذات والصفات عما يقول أهل الإلحاد...»[٢].

وفي مستهل رد أبي عبيدة الخزرجي على رسالة أحد القساوسة قال: «بسم الله الرحمن الرحيم إله فرد صمد لم يولد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، سلام على المهتدين، والحمد لله ربّ العالمين... فضلنا على جميع الأجناس... نوحد الله بموجبات توحيده. ونمجده سبحانه حق تمجيده...»[٣].

وقال القرطبي في رده على رسالة من أحد النصارى: «الحمد لله العظيم من غير عدد، المنزه عن الصاحبة والولد، المتعالي في ذاته وصفاته عما يقوله من عنّد وجحد، الواحد الفرد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»[٤].

---

(١) سورة الإخلاص، الآيات: (١ ـ ٤).

(٢) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق: د/ محمود قدح، (١/ ٨٧).

(٣) مقامع الصلبان ومراتع أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، حققه د/ محمد شامة تحت عنوان: بين الإسلام والمسيحية، ص (١٢).

(٤) الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (٣).

٢ ـ بيان تأكيد الإسلام على لزوم التوحيد ونبذ الشرك.

ومن اهتمام بعض علماء عصر الحروب الصليبية بهذا الأمر: قول القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[١] أجمع العلماء على أن هذه الآية من المحكم المتفق عليه، ليس منها شيء منسوخ، وكذلك هي في جميع الكتب، ولو لم يكن كذلك لعرف ذلك من جهة العقل وتصفيتها من شوائب الرياء وغيره، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾[٢][٣].

وقال البغويّ: «اعبدوا الله أي وحدوه»[٤] ثم وضح أن حق الله على عباده توحيده وعدم الإشراك به وأن جزاء ذلك النجاة من عذابه، حيث ساق حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال: «كنت ردف النبيّ ﷺ على حمار يقال له: عفير، فقال: يا معاذ هل تدري ما حق الله على عباده، وما حق العباد على الله» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً، فقلت: يا رسول الله أفلا أبشر به الناس؟ قال: لا تبشرهم فيتكلوا»[٥][٦].

٣ ـ بيان أن الشرك محبط للعمل.

ففي تفسير قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٧]،

---

(١) سورة النساء، الآية: (٣٦).

(٢) سورة الكهف، الآية: (١١٠).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، المجلد الثالث، الجزء الخامس، ص (١١٨).

(٤) معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: د/ محمد عبدالله النمر وآخرين، (٢/ ٢١٠).

(٥) أخرجه البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب اسم الفرس والحمار، حديث رقم (٢٨٥٦)، ص (٥٥٠)، ومسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة، حديث رقم (٤٩)، ص (٤٦).

(٦) انظر: معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: د/ محمد عبدالله النمر وآخرين، (٥/ ٢١٠).

(٧) سورة الزمر، الآية: (٦٥).

قال القرطبي: «لئن أشركت يا محمد ليحبطن عملك وهو خطاب للنبيّ ﷺ خاصة، وقيل: الخطاب له والمراد أمته. . . والإحباط الإبطال والفساد»[1].

وقال ابن الجوزي: «خاطبه بذلك ليعرف من دونه أن الشرك يحبط الأعمال المتقدمة كلها ولو وقع من نبي»[2].

٤ ـ بيان أن الشرك أعظم الذنوب وأن الله لا يغفره.

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾[3]. . . هذا من المحكم المتفق عليه الذي لا اختلاق فيه بين الأمة[4].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[5] بين البغوي أن الشرك موجب للنار حيث أورد حديث جابر رضي الله عنه قال: أتى النبيّ ﷺ رجل فقال: يا رسول الله ما الموجبتان؟ قال: من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئاً دخل النار»[6][7].

٥ ـ إظهار نبذ الإسلام لكل مظاهر الوثنية من أصنام وصور وتماثيل وبناء على القبور وكل ما هو وسيلة للشرك.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، المجلد الثامن، الجزء الخامس عشر، ص (١٨٠).

(٢) زاد المسير، عبد الرحمن بن علي الجوزي، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن عبدالله وزميله، (٧/ ٢٦).

(٣) سورة النساء، الآية: (١١٦).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، المجلد الثالث، الجزء الخامس، ص (١٥٩).

(٥) سورة النساء، الآية: (٤٨).

(٦) أخرجه مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، حديث رقم (٩٣)، ص (٦٤).

(٧) انظر: معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: د/ محمد عبدالله النمر وآخرين، (٢/ ٢٣٣).

ففي تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾[1]، قال القرطبي: «الرجس الشيء القذر، الوثن: التمثال من خشب أو حديد أو ذهب أو فضة والنصارى تنصب الصليب وتعبده وتعظمه فهو كالتمثال أيضاً... وسمي الصنم وثناً لأنه ينصب ويركز في مكان فلا يبرح عنه، يريد اجتنبوا عبادة الأوثان»[2]، وقد أمر النبيّ ﷺ عدي أن يزيل الصليب عنه، وقال: «أطرح هذا الوثن عنك»[3][4].

وقال الرازي: «ثم إنه لما حث سبحانه وتعالى على تعظيم حرماته، وحمد من يعظمها أتبعه بالأمر باجتناب الأوثان»[5]، وسمىٰ الأوثان رجساً للتأكيد على وجوب تجنبها لأن عبادتها أعظم من التلوث بالنجاسات[6].

وقد أبرز كثير من العلماء في هذه الفترة موقف النبيّ ﷺ من أصنام المشركين التي كانت عند الكعبة عند فتح مكة حيث كان يكسرها ﷺ وهو يتلو قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾[7]، فبعد أن عرض القرطبي ذلك بين أن معنى مجيء الحق أي الإسلام وزهوق الباطل أي

---

(١) سورة الحج، الآية: (٣٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، المجلد السادس، الجزء الثاني عشر، ص (٣٧).

(٣) أخرجه الترمذي، سنن الترمذي، أبواب تفسير القرآن، تفسير سورة الأنعام، حديث رقم (٥٠٩٣) (٤/ ٣٤٢)، وقال: حديث غريب، قال الألباني: حديث حسن. صحيح سنن الترمذي، حديث رقم (٣٠٩٥).

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، المجلد السادس، الجزء الثاني عشر، ص (٣٧).

(٥) التفسير الكبير، محمد بن عمر الرازي، المجلد الثاني عشر، الجزء الثالث والعشرون، ص (٢٨).

(٦) انظر: المصدر السابق، المجلد الثاني عشر، الجزء الثالث والعشرين، ص (٢٨).

(٧) سورة الإسراء، الآية: (٨١).

الشرك، وأضاف أن في معنى الأصنام الصور فلا يجوز اتخاذها[1].

وبعد أن أشار ابن الجوزي إلى إزالة النبيّ ﷺ للأصنام التي كانت حول الكعبة عند فتح مكة بين أن معنى زهوق الباطل الذي هو الشرك وعبادة الأصنام، أي وضوح عيبه بمجيء الحق الذي هو الإسلام وعبادة الله وحده[2].

ومن نماذج سد الإسلام لذرائع الشرك التي أوردها بعض علماء هذه الفترة ما يتعلق بالأمر بطمس الصور، وتسوية القبور، والنهي عن تجصيصها وإيقاد السرج فيها؛ استشهاداً بما ورد عن أبي الهياج الأسدي[3] أنه قال: قال لي علي بن أبي طالب: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ألا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته»[4].

قال الإمام النووي: «فيه أن السنة أن القبر لا يرفع على الأرض رفعاً كثيراً ولا يسنم... ونقل القاضي عياض عن أكثر العلماء أن الأفضل تسنيمها...»[5] ثم ساق أقوال كثير منهم في الأمر بهدم ما بني عليها عملاً بهذا الحديث[6].

وهذا سد للذريعة وما قد يفضي إليه الاهتمام بها وتعظيمها.

وقد فصل ابن قدامة الأحكام الشرعية المتعلقة بالقبور والتي من أهمها ألا ترفع عن الأرض بأكثر من ترابها، وألا تسنم، وألا يدخلها شيء مسته النار»[7]،

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، المجلد الخامس، الجزء العاشر، ص (٢٠٤).

(٢) انظر: زاد المسير، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق: د/محمد بن عبد الرحمن عبدالله وزميله، (٥/ ٥٦).

(٣) هو حيان بن حصين الكوفي (أبو الهيّاج الأسدي، كان كاتب عمار بن ياسر، تابعي. انظر: تهذيب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، (٣/ ٦٧).

(٤) أخرجه مسلم، الصحيح، كتاب الجنائز، باب الأمر بتسوية القبر، رقم (٩٦٩)، ص (٣٧٤).

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم، (٧/ ٣٦).

(٦) المصدر السابق، (٧/ ٣٧).

(٧) انظر: المغني، عبدالله بن أحمد بن قدامة، تحقيق: د/عبدالله بن عبد المحسن التركي وزميله، (٣/ ٤٣٥ ـ ٤٣٦).

والنهي عن البناء عليها لما فيه من تعظيمها وما في ذلك من المشابهة بتعظيم الأصنام[(١)]، والنهي عن اتخاذ المساجد عليها لتحذير النبيّ ﷺ من ذلك، ولعن اليهود والنصارى عليه في قوله ﷺ: «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[(٢)]، ولأن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها، والتقرب إليها وقد كان ابتداء الشرك بتعظيم الأموات واتخاذ صورهم والصلاة عندها[(٣)].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾[(٤)]، فبعد أن بين القرطبي أن السبب في شرك بني آدم هو من جهة اتخاذهم الصور لصالحيهم حتى تقادم العهد فعبدوهم.

ذكر نهي الإسلام عن اتخاذ الصور من خلال سياقه لحديث عائشة رضي الله عنها أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها مارية، فذكرت له ما رأت فيها من الصور، فقال رسول الله ﷺ: «**أولئك قوم إذا مات فيها العبد الصالح، أو الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله**»[(٥)][(٦)].

---

(١) انظر: المصدر السابق (٣/ ٤٣٩).

(٢) أخرجه البخاري، الصحيح، كتاب الجنائز، باب ما جاء في قبر النبيّ ﷺ وأبي بكر وعمر، حديث رقم (١٢٩٠). ص (٢٧٠)، ومسلم، الصحيح، كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، حديث رقم (٥٢٩)، ص (٢١٤).

(٣) انظر: المغني، عبدالله بن أحمد بن قدامة، تحقيق: د/ عبدالله بن عبد المحسن التركي وزميله، (٣/ ٤٤١).

(٤) سورة نوح، الآية: (٢٣).

(٥) أخرجه البخاري، الصحيح، كتاب الصلاة، باب الصلاة في البيعة، حديث رقم (٤٣٤)، ص (١٠٥)، ومسلم بنحوه، كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، حديث رقم (٥٢٨)، ص (٢١٣).

(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، المجلد التاسع، الجزء الثامن عشر، ص (١٩٩).

ومن إيضاح علماء هذه الفترة لتحريم الإسلام للتصوير واتخاذ الصور سداً لذريعة الشرك قول النووي: «قال أصحابنا: صورة الحيوان حرام شديد التحريم وهو من الكبائر»[1]، وفي وعيد النبيّ ﷺ للمصورين في قوله: «**إن أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة المصورون**»[2].

قال النووي: «... من فعل الصورة لتعبد وهو صانع الأصنام ونحوها فهذا كافر وهو أشد عذاباً»[3].

٦ ـ فضح النصارى بإبراز مظاهر الوثنية والشرك لديهم، وذلك بتبجيلهم الصور والتماثيل والصلبان وإشراكهم في عبادة الله.

ففي مناقشة بعض العلماء المسلمين لعقائد النصارى وشعائرهم كان من ضمن ما ناقشوه تبجيلهم للصور والتماثيل مبينين أن ذلك ما هو إلا وثنية انتقلت إلى النصرانية واتخذها النصارى في مجامعهم ديناً وعبادة محرفين بذلك ما نزل عليهم من الحق، حيث وضح هؤلاء العلماء أن هذا من كفرهم القبيح الذي ابتدعوه في ديانتهم[4]، مع إبرازهم لشركيات النصارى وكفرهم بالله من خلال نقض قانون الأمانة لديهم الذي هو أصل إيمانهم، وإبطال عقيدة التثليث وتفنيد ما اعتقدوه من الألوهية في عيسى عليه السلام[5].

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم، (١/ ٨١).

(٢) أخرجه البخاري، الصحيح، كتاب اللباس، باب عذاب المصورين يوم القيامة، حديث رقم (٥٩٥٠)، ص (١١٥٥)، ومسلم بنحوه، الصحيح، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان، حديث رقم (٢١٠٩)، ص (٨٧٥).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم، (١٤/ ٩١).

(٤) انظر: تفاصيل ذلك في موضوع تعظيم النصارى للصور والتماثيل في المطلب الثاني من المبحث الثاني في هذا الفصل.

(٥) انظر: نماذج من بيان بعض العلماء لشرك النصارى وكفرهم بالله في المطلب الأول من المبحث الثاني في هذا التفصيل.

الفصل الثاني

القائمون بدعوة المسلمين للنصارى
في
عصر الحروب الصليبية

المبحــث الأول

القائمون بدعوة المسلمين
للنصارى من الولاة والقادة

تمهيد

لا شك أن إقامة الوالي أو الأمير من أهم الواجبات الدينية في الأمة، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾[1]، فالأمر بإقامة هذه الأحكام من وجوب العدل ووجوب طاعة أولي الأمر دليل على وجوب إقامة من تتعلق به وهو الأمير، وجاء في السنة قوله ﷺ: «**لا يحل لثلاثة نفر يكونون بأرض فلاة إلا أمروا عليهم أحدهم**»[2]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ: «أوجب ﷺ تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر تنبيهاً بذلك على سائر أنواع الاجتماعات... فالواجب اتخاذ الإمارة ديناً وقربةً يتقرب بها إلى الله»[3]، وقد وردت أحاديث كثيرة تبين فضل الإمام العادل ووجوب طاعته وحقوقه وواجباته.

ثم إن فعل النبيّ ﷺ في المدينة وكونه رئيس المسلمين وأميرهم يولي الولاة ويعقد الألوية ويقيم الحدود ويحكم بين الناس دليل على وجوب إقامة من يتولى هذه المهام، وهذا ما أدركه الصحابة ﷺ حيث سارعوا بعد وفاته ﷺ إلى اختيار خليفة يقوم بهذه المهام من بعده.

---

(١) سورة النساء، الآية: (٥٩).

(٢) أخرجه أحمد، المسند، حديث رقم (٦٦٤٧)، (١١/ ٢٢٧)، وقال محققوه: صحيح لغيره، وروى أبو داود (إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم)، سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب القوم يسافرون يؤمرون أحدهم حديث رقم (٢٦٠٨)، (٣/ ٨١). قال الألباني: حسن صحيح. صحيح سنن أبي داود (٢/ ١٢٥).

(٣) السياسة الشرعية، شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، تحقيق: محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور، القاهرة، ١٩٧٠ م، ص (١٨٤ ـ ١٨٥).

ولا شك أن وجوب إقامة الوالي في الإسلام جاء لما يترتب على إقامته من المصالح للأمة في أمور دينها ودنياها.

فالوالي الصالح هو الأساس لتحقيق الأمة أفضل النتائج في كافة الميادين، ففي ظله تنتظم أحوال البلاد، وتتحقق مصالح الناس، وتزدهر مرافق الدولة في مختلف المرافق، ولا شك أن هذا الازدهار الداخلي له أثره في قوة الدولة وتقدمها وظهورها على المستوى الخارجي، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾[1] والمراد بالتمكين السلطنة ونفاذ الأمر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ «فالمقصود الواجب بالولايات إصلاح دين الخلق الذي متى فاتهم خسروا خسراناً مبيناً. . .»[2].

وقال: «وجميع الولايات الإسلامية إنما مقصودها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سواء في ذلك ولاية الحرب الكبرى: مثل نيابة السلطنة، والصغرى مثل ولاية الشرطة، وولاية الحكم أو ولاية المال وهي ولاية الدواوين المالية وولاية الحسبة[3].

وإذا استشعر الولاة هذا الهدف السامي للولاية سخروا جميع الإمكانات لتحقيقه، ومن هنا صار الوالي الصالح أهم عوامل نجاح الدعوة وتحقيقها لأفضل النتائج.

وفي التاريخ الإسلامي أمثلة كثيرة لأثر الوالي الصالح في ازدهار الأمة وقوتها ووحدتها ومن ثم قيامها بواجب الدعوة إلى الإسلام خير قيام.

فالوالي الأول رسول الله ﷺ كانت مهمته الأولى الدعوة إلى دين الله سبحانه

---

(١) سورة الحج، الآية: (٤١).

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد (٢٨/٢٦٢).

(٣) المصدر السابق (٢٨/٦٦).

وتعالى، وكانت كل حياته ﷺ لأجل هذا الغرض، فكوّن البذرة الأولى للمجتمع المسلم في مكة ثم هاجر إلى المدينة وعمل على إكمال بناء هذا المجتمع بتشريعاته ونظمه المختلفة التي تميز بها عن غيره، وكلها من أجل تحقيق الهدف الأول لمبعثه ﷺ وهو الدعوة إلى دين الله.

وبعد أن تكوّن المجتمع المسلم المتميز القادر على حمل هذه الدعوة اتجه لنشرها في الآخرين بالوسائل المختلفة، فما مات ﷺ إلا وقد انتشر الإسلام في أنحاء الجزيرة العربية.

ثم جاء خلفاؤه الراشدون من بعده رضوان الله عليهم ليكملوا هذه المهمة، فكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه بمواقفه المشهودة في الردة وإعادة الجزيرة العربية إلى الإسلام ثم فتوحاته في العراق والشام؛ ليكمل بعده الفاروق رضي الله عنه هذه الفتوحات ويواصل الجهود في نشر هذا الدين وإعلاء كلمة الله، حيث عمل على تدعيم الدولة الإسلامية بمختلف الأنظمة والإصلاحات لخدمة هذا الهدف. ثم توسع عثمان رضي الله عنه في ذلك مكملاً ما بُدىء قبله في هذا المجال.

وفي عصر الحروب الصليبية كان لكثير من الولاة والقادة دور مهم في هذا المجال، فعملوا على تهيئة الأمة وحشد إمكانياتها لما يخدم هذا الهدف، وكان لهم جهود واضحة في دعوة النصارى من خلال اتصالاتهم المباشرة سواءً عن طريق الرسل، أو المكاتبات، أو المحادثات، أو الجهاد، أو من خلال جهودهم غير المباشرة المتمثلة في تهيئة الأمة للقيام بهذا الواجب من خلال توطيد الأمن، وبناء المدارس، ونشر العلم، ومحاربة البدع وما أدى إليه ذلك من قوة في الأمة مكنها من المواجهة.

وفيما يلي عرض لأبرز قادة الأمة في هذه الفترة، والذين كانت لهم جهود واضحة في مواجهة النصارى ودعوتهم خاصة في ميدان الجهاد.

وسيكون الكلام فيه على مطلبين:

المطلب الأول: أبرز الولاة والقادة في شرق الدولة الإسلامية.

المطلب الثاني: أبرز الولاة والقادة في غرب الدولة الإسلامية.

المطلـــب الأول

أبرز الولاة والقادة في شرق الدولة الإسلامية

ومن أبرزهم زنكي بن آقسنقر بن عبدالله التركي[1] الذي كان قد تولى شحنكية البصرة[2] وواسط سنة ٥١٦ هـ ثم بغداد، وأظهر في عمله مقدرة فائقة، فولاه السلطان السلجوقي محمود بن محمد بن ملكشاه[3] الموصل[4] سنة

---

(١) انظر: الروضتين في أخبار الدولتين، عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، (١/ ٢٩)، وسير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (٢٠/ ١٨٩).

(٢) البصرة: هي الأرض الغليظة، وهي اسم مدينة في جنوب العراق حالياً قرب الخليج العربي، بناها المسلمون خلال فتوح العراق في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، (١/ ٥١٠ ـ ٥١١)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس، ص (٤١٢).

(٣) هو محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي، تولى السلطنة وهو لم يتجاوز الحادية عشر من عمره وتوفي وهو لم يتجاوز الحادية والعشرون سنة ٥٢٥ هـ. كان حليماً عاقلاً يسمع ما يكره ولا يعاقب.
انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري، (٩/ ٢٩ ـ ٣٠)، وسير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (١٩/ ٥٢٤).

(٤) الموصل: مدينة قديمة في أقصى شمال العراق حالياً على نهر دجلة، حكمها الحمدانيون ثم صارت مركزاً لدولة الأتابكة سلالة زنكي.
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٥/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس، ص (٤١٢).

٥٢١هـ[١]، وجعله مربياً لولده «أتابكا»[٢].

عظم أمره بعد ذلك وتوسعت دولته لشجاعته وإقدامه وحرصه على جمع كلمة المسلمين في مواجهة النصارى، قال عنه الذهبي[٣]: «كان بطلاً شجاعاً مقداماً كأبيه»[٤].

وقد كان من أبرز جهوده في مواجهة الفرنج ودعوتهم وضعه أساس الوحدة الإسلامية في الموصل والشام والتي كانت من أهم الأسباب التي مكنت المسلمين من المواجهة وصد زحف النصارى على البلاد الإسلامية؛ حيث دخلت في طاعته مجموعة من المدن المستقلة والمتناحرة فيما بينها. وكان قد بدأ بجزيرة ابن عمر[٥][٦] سنة ٥٢١ هـ ثم نصيبين[٧] ....

(١) انظر: الروضتين في أخبار الدولتين، عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (١/ ٢٩ ـ ٣٠).
(٢) انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (٢٠/ ١٩٠).
(٣) هو محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، تركماني الأصل، حافظ، مؤرخ، محقق، ولد بدمشق سنة ٦٧٣ هـ، ومات بها سنة ٧٤٨ هـ له تصانيف كثيرة تقارب المائة، منها: دول الإسلام، وتاريخ الإسلام، سير أعلام النبلاء، والكاشف في تراجم رجال الحديث، وتذكرة الحفاظ وغير ذلك.
انظر: طبقات الشافعية الكبرى، عبد الوهاب بن علي السبكي، تحقيق عبد الفتاح الحلو وزميله (٩/ ١٠٠ ـ ١٢٣)، والوفيات، محمد بن رافع السلامي، تحقيق: صالح مهدي عباس ود. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢م (٢/ ٥٥ ـ ٥٦).
(٤) انظر: الروضتين في أخبار الدولتين، عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، (١/ ٢٩)، وسير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (٢٠/ ١٨٩).
(٥) المصدر السابق (٢٠/ ١٩٠).
(٦) جزيرة ابن عمر: مدينة تركية قديمة، تقع في أقصى جنوب شرق تركيا على الحدود السورية على نهر دجلة.
انظر: المنجد في اللغة والأعلام، ص (٢٠٢)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٣٩).
(٧) نصيبين: مدينة قديمة في جنوب شرق تركيا على الحدود السورية.
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٥/ ٢٣٣)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر

ثم سنجار[1][2]، ثم حلب في الشام سنة ٥٢٢ هـ[3] وغير ذلك.

وبعد أن حقق هذه الوحدة بدأ بجهاد الصليبيين حيث هزمهم في مواقع كثيرة، وكان من أبرز إنجازاته في ذلك فتحه لإمارة الرها الصليبية سنة ٥٣٩ هـ[4].

وقد قال أحد الكتاب الأوربيين عن أهمية هذا الفتح: «وسقوط الرها في يد زنكي يعتبر نقطة تحول في الشرق اللاتيني، كما يعتبر بداية النهاية»[5].

كان زنكي مشهوراً لدى الفرنج لكثرة وقائعه معهم، حيث يعرف في عساكرهم بـ«زنكي الشامي»[6].

وقد كانت نهايته ـ رحمه الله ـ على يد أحد مماليكه الذي اغتاله في قلعة جعبر على نهر الفرات قرب مدينة الرقة سنة ٥٤١ هـ[7]، ولما قتل كتب بعض قادة الفرنج إلى حاكم دمشق المسلم يقول له: «إن أمة قتلت عميدها في يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها»[8].

وآخرون، ص (٣٨ ـ ٣٩).

(١) سنجار: مدينة عراقية في أقصى الشمال الغربي على الحدود السورية، اشتهرت في العصر العباسي.
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٣/ ٢٩٧)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس، ص (٤١٢).

(٢) انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٩/ ٨ ـ ٩).

(٣) انظر: المصدر السابق (٩/ ١١).

(٤) انظر: المصدر السابق (٩/ ١٣١)، والروضتين في أخبار الدولتين، عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (١/ ٣٦).

(٥) الحروب الصليبية، أرنست باركر، ترجمة: د. السيد الباز العريني، ص (٥٢).

(٦) الروضتين في أخبار الدولتين، عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (١/ ٢٨).

(٧) المصدر السابق (١/ ٤٢)، والكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٩/ ١٤٢).

(٨) الروضتين في أخبار الدولتين، عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (١/ ٢٨).

ثم أتى بعد زنكي ليكمل هذه المهمة الجليلة في جهاد الفرنج ودعوتهم ابنه الملك نور الدين محمود زنكي بن آقسنقر التركي السلطاني الملكشاهي، الذي ولد سنة ٥١١ هـ في شهر شوال[١]. ونشأ في رعاية والده حينما كان على إمرة الموصل وديار بكر وشمال الشام. وعندما اغتيل والده سنة ٥٤١ هـ تملك أخوه غازي على الموصل وتملك هو على حلب حيث توسعت إمارته بعد ذلك لتشمل الشام ومصر والموصل[٢] في دولة واحدة استطاعت أن تواجه الصليبيين.

كان ـ رحمه الله ـ ذا ديانة وورع ومداومة للجهاد، محباً للسنة، مظهراً لها، مزيلاً للمناكير ممكناً لأهل الخير في دولته.

قال عنه ابن الأثير: «طالعت السير فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته ولا أكثر تحرياً منه للعدل»[٣].

وقال ابن كثير: «كان آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر محباً للعلماء، والفقراء والصالحين، مبغضاً للظلم، صحيح الاعتقاد... وكان قد قمع المناكر وأهلها، ورفع العلم والشرع، وكان مدمناً لقيام الليل...»[٤].

وقال أبو شامة المقدسي: «... كان يعظم العلماء ويجمعهم عنده للبحث والنظر، واستقدمهم إليه من البلاد الشاسعة»[٥]، فكان يستعملهم في كثير من المهمات، ومن أبرزهم في دولته القاضي كمال الدين محمد بن عبدالله

---

(١) انظر: المصدر السابق (١/ ٥)، والكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٩/ ٣٩٤).

(٢) انظر: الروضتين في أخبار الدولتين، عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (١/ ٤) وسير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (٢٠/ ٥٣١ ـ ٥٣٢).

(٣) انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٩/ ٣٩٤).

(٤) البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين، (١٢/ ٣٠٦).

(٥) الروضتين في أخبار الدولتين، عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (١/ ٩).

الشهروزي[١] قاضي القضاة في دولته، والشيخ علي بن إبراهيم الحنبلي الذي كان رسوله إلى الديوان العزيز في بغداد سنة ٥٦٤ هـ[٢]. والقاضي عبدالله بن محمد بن أبي عصرون الذي بنى له نور الدين المدارس في حلب وحماه وحمص ودمشق[٣]، وكان الأصبهاني قد تولى الوزارة له ـ رحمه الله ـ وديوان الإنشاء[٤].

قال ـ رحمه الله ـ مبيناً دور الفقهاء والعلماء في ظهور دولته ونصره على أعدائه الفرنج: «. . . هؤلاء جند الله وبدعائهم ننصر على الأعداء، ولهم في بيت المال حق أضعاف ما أعطيهم، فإذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنة علينا»[٥].

كان ـ رحمه الله ـ متمسكاً بالسنة وقافاً عند حدود الله، «أظهر في بلاده السنة وأمات البدعة»[٦]. كتب إليه أحد القضاة بأن المفسدين قد كثروا في البلاد

---

(١) هو محمد بن عبدالله بن القاسم بن مظفر بن الشهرزوري الموصلي، تولى قضاء دمشق لنور الدين محمود وأقره صلاح الدين على ذلك، كان أديباً شاعراً خبيراً بالسياسة وتدبير الملك، كان مولده سنة ٤٩١ هـ، ووفاته بدمشق سنة ٥٧٢ هـ.
انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٩/ ٤٢٧)، وسير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (٢١/ ٥٧ ـ ٦٠).

(٢) هو علي بن إبراهيم بن نجا بن غنائم الأنصاري الدمشقي الحنبلي. مولده بدمشق سنة ٥٠٨ هـ ووفاته في مصر سنة ٥٩٩ هـ، كان ذا جاه ورياسة واتصال بالدولة في عهد نور الدين وصلاح الدين وهو الذي كشف مخططاً لبعض الباطنية في مصر ضد صلاح الدين.
انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن محمد الذهبي (٢١/ ٣٩٣ ـ ٣٩٦) والبداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين (١٣/ ٣٩ ـ ٤٠).

(٣) هو عبدالله بن محمد بن هبة الله بن علي بن المطهر بن أبي عصرون، نزيل دمشق وقاضي القضاة بها، وكان من أعيان الفقهاء الشافعية، من تصانيفه: صفوة المذهب، والذريعة في معرفة الشريعة، وغير ذلك. كان مولده سنة ٤٩٣ هـ، ووفاته سنة ٥٨٤ هـ.
انظر: طبقات الشافعية الكبرى، عبد الوهاب بن علي السبكي، تحقيق عبد الفتاح الحلو وزميله (٧/ ١٣٢ ـ ١٣٧)، والبداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين (١٢/ ٣٥٥ ـ ٣٥٦).

(٤) البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين (١٢/ ٣٣).

(٥) المصدر السابق (١٢/ ٣٠١).

(٦) المصدر السابق (١٢/ ٢٩٨).

وأن الأمر يحتاج إلى مكافحتهم بالصلب والقتل، فكتب نور الدين على ظهر كتابه: «إن الله تعالى خلق الخلق وهو أعلم بمصلحتهم، وشرع لهم شريعة وهو أعلم بما يصلحهم وإن مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال فيها، ولو علم أن على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه، فما لنا حاجة إلى زيادة على ما شرعه الله تعالى، فمن زاد فقد زعم أن الشريعة ناقصة فهو يكملها بزيادته، وهذا من الجرأة على الله وعلى ما شرعه والعقول المظلمة لا تهتدي، والله سبحانه يهدينا وإياك إلى صراط مستقيم»(١).

وقد كان ـ رحمه الله ـ من أكثر القادة المسلمين في هذه الفترة مواجهة النصارى، فمن جهوده المباشرة في دعوتهم مراسلاته مع بعض قادتهم بشأن العلاقات بينهم وبين المسلمين وما تحقق من جراء ذلك للأمة من المصالح، كمراسلاته مع ملك الروم، والتي تمخضت عن هدنة مكنت المسلمين من مواجهة أعداء آخرين(٢). ومراسلاته مع ملك الأرمن حيث أدت هذه المراسلات إلى استمالته في صف المسلمين ضد أبناء ملته(٣).

ومن جهوده المباشرة أيضاً في دعوتهم جهاده المستمر لهم والذي أثمر عن تقلص نفوذهم في بلاد الشام وظهور دولة المسلمين بعد ضعف وفرقة. وقد قال ابن الجوزي عن ذلك: «. . . جاهد وانتزع من الكفار نيفاً وخمسين مدينةً وحصناً»(٤)، بل وأسر بعض قادتهم كصاحب طرابلس وصاحب الروم وابن جوسلين(٥) وغيرهم.

ولهذه الانتصارات الكبيرة على الفرنج والتمكين للمسلمين بعد ضعفهم في الشام مع قلة العسكر في مواجهة تكالب النصارى على المسلمين أدرك بعض

---

(١) الروضتين في أخبار الدولتين، عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (١/ ١٣ ـ ١٤).

(٢) انظر: المصدر السابق (١/ ٨).

(٣) انظر: المصدر السابق (١/ ٨).

(٤) المنتظم، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق محمد عبد القادر عطا وزميله (١٨/ ٢٠٩).

(٥) انظر: البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين (١٢/ ٢٦٦).

النصارى سبب هذه الانتصارات وأنه لا يرجع إلى القوة العسكرية فحسب بل إلى صبر نور الدين واحتسابه وصدقه وإنابته إلى الله سبحانه مع الأخذ بالأسباب، حيث قال بعضهم: «... ابن القسيم له مع الله سر، فإنه لا يظفر علينا بكثرة جنده وعسكره، وإنما يظفر علينا بالدعاء وصلاة الليل؛ فإنه يصلي بالليل ويرفع يده إلى الله ويدعو فالله سبحانه وتعالى يستجيب له دعاءه ويعطيه سؤاله وما يرده خائباً فيظفر علينا»[١].

ومن جهوده ـ رحمه الله ـ غير المباشرة في دعوة النصارى تحقيقه للوحدة بين المسلمين في الموصل والشام ومصر مما كان له أثره الكبير في نجاح عملية الجهاد[٢].

يضاف إلى ذلك اهتمامه بالعلم والعلماء؛ حيث بنى المدارس في حلب وحماة ودمشق، وشيد دار الحديث في دمشق[٣]، ولا يخفى أثر ذلك في نشر العلم وتثقيف المسلمين مما ساعد على مواجهة شبه النصارى بل ودعوتهم.

وهكذا كان نور الدين عزاً للمسلمين في الشام ومصر بعد ضعف وظهور للنصارى، وكانت جهوده في مواجهة النصارى ودعوتهم الأساس لنجاح جهود من بعده من الولاة والقادة كصلاح الدين، والظاهر بيبرس وغيرهما.

قال ابن كثير موضحاً أثر نور الدين في قوة المسلمين بالشام في مواجهة النصارى: «... وفيها ـ أي سنة ٥٥٢ هـ مرض نور الدين فمرض الشام بمرضه، وعوفي ففرح المسلمون فرحاً شديداً»[٤].

وبعد حياة حافلة بالجهاد والدعوة توفي نور الدين سنة ٥٦٩ هـ ودفن في دمشق[٥] رحمه الله رحمة واسعة.

---

(١) الروضتين في أخبار الدولتين، عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (١/ ١٤).

(٢) انظر: المطلب الثاني من الفصل الرابع.

(٣) انظر: الروضتين في أخبار الدولتين، عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (١/ ٩ ـ ١٠).

(٤) انظر: البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين (١٢/ ٢٥٤).

(٥) انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٩/ ٣٩٣).

وأبرز من كان لهم جهود في دعوة النصارى وجهادهم في المشرق في هذه الفترة صلاح الدين الأيوبي ـ رحمه الله ـ.

واسمه يوسف بن شاذي بن مروان بن يعقوب التكريتي[(١)]، وولد سنة ٥٣٢ هـ بقلعة تكريت[(٢)]، وكان والده حينها والياً عليها[(٣)]، فلما انتقل والده إلى الشام إثر إقطاعه بعلبك انتقل معه وترعرع هناك. ثم اتصل بنور الدين محمود الذي قدمه فأنفذه مع عمه أسد الدين شيركوه[(٤)] إلى مصر سنة ٥٥٥ هـ وكان على مقدمة عساكره[(٥)].

ولما مات عمه في مصر سنة ٥٦٤ هـ قام بالأمر من بعده[(٦)]، حيث عمل ـ رحمه الله ـ على إصلاح البلد وتطهيره من مناكير بني عبيد، فكان على يده القضاء على ولايتهم في مصر والخطبة لبني العباس، وذلك بأمر من نورالدين محمود سنة ٥٦٧ هـ[(٧)].

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (٢١/٢٧٨).

(٢) تكريت: مدينة تقع حالياً في شمال العراق على نهر دجلة، شمال مدينة سامراء، أول من بنى قلعتها أحد قواد الفرس وهو سابور بن أردشير.
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، (٢/ ٤٥)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس، ص (٤١٢).

(٣) انظر: النوادر السلطانية، يوسف بن رافع بن شداد، تحقيق: د. جمال الدين الشيال، ص (٣١).

(٤) هو أسد الدين شيركوه بن شادي عم صلاح الدين ومن أبرز قواد نور الدين محمود، أرسله إلى مصر لقتال الإفرنج فيها، حيث هزمهم ثم عاد إلى الشام، ورجع مرة أخرى إلى مصر، وتولى الوزارة فيها لنور الدين، ولم يلبث طويلاً حيث مات سنة ٥٦٤ هـ.
انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٩/ ٣٣٧ ـ ٣٤٣)، والبداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين (١٢/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩).

(٥) انظر: النوادر السلطانية، يوسف بن رافع بن شداد، تحقيق: د. جمال الدين الشيال، ص (٣١).

(٦) انظر: المصدر السابق، ص (٨٠).

(٧) انظر: المصدر السابق، ص (٨٦).

ثم بعد وفاة نور الدين واختلاف الأمر في الشام من بعده وطمع الفرنج في البلاد بسط نفوذه عليها إنقاذاً لها منهم، ثم امتد نفوذه ليشمل الحجاز واليمن.

قال الذهبي في صفته: «كان خليقاً للإمارة، مهيباً، شجاعاً، حازماً، مجاهداً، كثير الغزو، عالي الهمة»(١).

أمضى حياته - رحمه الله - في جهاد الفرنج النصارى، ودعوتهم إلى الإسلام.

فكان خلال لقاءاته بقادتهم ومحادثاته معهم يستغلها في إبراز محاسن الإسلام لهم ودعوتهم إليه، ومن ذلك مثلاً ما فعله مع صاحب صيدا الإفرنجي حيث قال ابن شداد عن ذلك: «... ولقد رأيته وقد دخل عليه صاحب صيدا بالناصرة فاحترمه وأكرمه وأكل معه الطعام، ومع ذلك عرض عليه الإسلام فذكر له طرفاً من محاسنه وحثه عليه»(٢).

وكان يستغل علاقاته الحسنة مع بعض قادتهم من أجل التمكين للدعوة. ومن ذلك تفاهمه مع صاحب طرابلس الصليبي بأن يوعز الأخير لأتباعه باعتناق الإسلام، حيث أدركته المنية قبل إتمام ذلك(٣).

ولأجل هذا الغرض النبيل كان يتألف كثيراً من قادتهم بالمال والهدايا طمعاً في إسلامهم(٤).

وكان نبله وحسن خلقه من أبرز الأسباب التي جعلت الكثير من النصارى في هذه الفترة يغيرون ما علق بأذهانهم عن الإسلام من صورة مشوهة بل ويعتنق أعداد كبيرة منهم الإسلام.

---

(١) سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (٢١/ ٢٧٩).

(٢) النوادر السلطانية، يوسف بن رافع بن شداد، تحقيق: د. جمال الدين الشيال، ص (٦٦).

(٣) انظر: الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد، ترجمة د. حسن إبراهيم حسن، وآخرين، ص (١١١).

(٤) انظر: البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين (١٢/ ٣٧٣).

ومن ذلك مثلاً ما حدث بعد معركة حطين ومنّه على كثير من أسرى الصليبيين، ورحمته لنسائهم وضعفائهم مما جعل أعداداً كبيرة منهم يعتنقون الإسلام(١).

ولنبله في كثير من المواقع انضمت أعداد كبيرة منهم إلى معسكر المسلمين بعد إسلامهم لتقاتل معه ضد أقوامهم(٢).

بل إن كثيراً منهم كانوا على نصرانيتهم ومع ذلك انضموا إليه ضد بني ملتهم(٣).

أما الجهاد في سبيل الله ـ أهم وسائل الدعوة ـ فله اليد الطولى فيه، ووقعاته مشهورة معهم، وعلى يده كان طردهم من الغالبية العظمى من بلاد الشام.

ومن أعظم ذلك استرداده بيت المقدس من أيديهم بعد معركة حطين المشهورة عام ٥٨٣ هـ(٤).

وكان ـ رحمه الله ـ حريصاً في كل وقائعه معهم أن يعرض الإسلام عليهم.

فبعد كل معركة كان يعرض الإسلام على الأسرى قبل اتخاذ أي إجراء معهم، ومن ذلك مثلاً ما حدث بعد معركة حطين(٥).

---

(١) انظر: الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد، ترجمة د. حسن إبراهيم حسن، وآخرين، ص (١٠٨ ـ ١٠٩).

(٢) انظر: المرجع السابق، ص (١٠٨ ـ ١٠٩).

(٣) انظر: الروضتين في أخبار الدولتين، عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (٢/ ٧٤)، النوادر السلطانية، يوسف بن رافع بن شداد، تحقيق: د. جمال الدين الشيال، ص (٢٣٣ ـ ٢٣٨)، والحروب الصليبية، وليم الصوري، ترجمة د. حسن حبشي (٢/ ٣٠٢)، وانظر: المطلب الثالث من المبحث الثاني في الفصل الرابع.

(٤) انظر أخبار هذه المعركة في: النوادر السلطانية، يوسف بن رافع بن شداد، تحقيق: د. جمال الدين الشيال، ص (١٢٦)، والكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (١٠/ ٢٤ ـ ٣٣).

(٥) انظر: شفاء القلوب في أخبار بني أيوب، أحمد بن إبراهيم الحنبلي، تحقيق ناظم رشيد، وزارة الثقافة والفنون، العراق، ١٩٧٨م، ص (١٢١).

وقد كان طموحه ـ رحمه الله ـ تتبع النصارى ليس فقط في البلاد الإسلامية بل في بلادهم حتى لا يبقى منهم من يكفر بالله، وهذا ما صرح به لقاضي عسكره ابن شداد، وذلك بقوله: «أما أحكي لك شيئاً؟ قلت: بلى، قال: في نفسي أنه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتتبعهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت...»(١).

وبالإضافة إلى هذه الجهود المباشرة له ـ رحمه الله ـ في دعوة النصارى كانت له أيضاً جهود غير مباشرة كان لها أثرها الكبير في نجاح الدعوة الموجهة إليهم بشكل عام.

ومن ذلك حرصه على تحقيق الوحدة بين المسلمين، والعمل على ذلك لتقوية الجبهة الإسلامية ضد النصارى، وجهوده في مجال تحقيق الأمن والضرب على أيدي العابثين.

ومما يعد من جهوده غير المباشرة في هذا المجال تشجيعه للعلماء واتخاذهم بطانة له، بل وإسناد كثير من المهمات الإدارية والقيادية إليهم وهم قادة الرأي في الأمة وهداتها إلى طريق الحق وحراسها من الغواية والضلال ودعاتها بعلمهم وعملهم.

ومن أبرز هؤلاء العلماء القاضي ابن شداد الذي تولى قضاء عسكره وقام بكثير من السفارات له(٢).

وكان صاحب ديوان الإنشاء لديه وأحد أهم مستشاريه القاضي الفاضل(٣)،

---

(١) النوادر السلطانية، يوسف بن رافع بن شداد، تحقيق: د. جمال الدين الشيال، ص (٥٥).

(٢) انظر: المصدر السابق، ص (١٣٩).

(٣) هو عبد الرحيم بن علي بن السعيد اللخمي، المعروف بالقاضي الفاضل، وزير من أئمة الكتاب، كان من وزراء صلاح الدين وكتابه، والمقربين منه، مولده بعسقلان سنة ٥٢٩هـ ووفاته بالقاهرة سنة ٥٩٦ هـ.
انظر: الروضتين في أخبار الدولتين، عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (٢/ ٢٤١)،

قال ابن كثير: «ولما استقر الملك لصلاح الدين بمصر جعله كاتبه وصاحبه ووزيره وجليسه وأنيسه... وتساعدا حتى فتحا الأقاليم والبلاد، هذا بحسامه وسنانه وهذا بقلمه ولسانه وبيانه»[1].

ومن علماء عصره الذين كانوا على صلة به ولهم أثرهم في المجتمع وعظاً وتعليماً الشيخ أبو طاهر السِّلفي الذي كان صلاح الدين يحضر دروسه[2].

وكان ابن قدامة صاحب المغني كثير المشاركة في الجهاد معه[3] إلى غير ذلك.

ومما يضاف إلى جهوده ـ رحمه الله ـ غير المباشرة في دعوة النصارى توسعه في إنشاء المدارس، خصوصاً في مصر، والتي كان لعلمائها والدارسين فيها دور كبير في دعوة النصارى في هذه الفترة[4].

وطبقات الشافعية الكبرى، عبد الوهاب بن علي السبكي، تحقيق عبد الفتاح الحلو وزميله (٧/ ١٦٦ ـ ١٦٨).

(١) البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين، (١٣/ ٢٧).

(٢) هو أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الإصبهاني السلفي، أبو طاهر، محدث، حافظ، فقيه، ولد سنة ٤٧٨ هـ ورحل في طلب الحديث وكانت وفاته في الإسكندرية سنة ٥٧٦ هـ.

انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (٢١/ ٥) وما بعدها. والبداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين (١٢/ ٣٢٨ ـ ٣٢٩).

(٣) هو عبدالله بن أحمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي الحنبلي، من أكابر الحنابلة، له التصانيف الكثيرة في الفقه وأصوله، منها: المغني، وروضة الناظر، والكافي، والعمدة، وغير ذلك، كان مولده في قرية جماعيل قرب نابلس في فلسطين سنة ٥٤١ هـ، ووفاته في دمشق سنة ٦٢٠ هـ.

انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (٢٢/ ١٦٥) وما بعدها. والبداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين (١٣/ ١٠٧ ـ ١٠٨).

(٤) انظر: رحلة ابن جبير، محمد بن أحمد الكناني، ص (٢٧)، والبداية والنهاية، إسماعيل ابن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين (١٢/ ٢٨٢)، و(٣١٦)، والمدارس في بيت المقدس في العصر الأيوبي والمملوكي، عبد الجليل حسن عبد المهدي، مكتبة

ولهذه الجهود المباركة من صلاح الدين في دعوة النصارى وجهادهم، ولاتصالاته المختلفة والكثيرة معهم والتي كان يتحلى فيها بصفات القائد المسلم الملتزم بأحكام الإسلام وآدابه تبوأ مكانة عالية لديهم، وكان كثير من قادتهم يهابونه وفي الوقت نفسه أحبوه وأعجبوا به على الرغم من حالة الحرب السائدة بينه وبينهم، والضربات الموجعة التي تلقوها على يديه[1].

فمن إعجاب بعض قادتهم به: إقسام عدد منهم ألا يواجهونه في قتال نظير عطفه وصفحه وأخلاقه النبيلة[2].

وقد بين صاحب قصة الحضارة بعد أن نقل نماذج من نبل صلاح الدين وكرمه وأخلاقه إعجاب كثير من المؤرخين النصارى بهذا البطل المسلم بل ودهشتهم «كيف يخلق الدين الإسلامي ـ الخاطىء في ظنهم ـ رجلاً في العظمة إلى هذا الحد»؟[3].

وإذا كان هذا هو رأي النصارى فيه ـ رحمه الله ـ وهم أعداؤه فما الحال بالمسلمين الذين جعل حياته لخدمتهم ورفعة شأنهم وجهاد أعدائهم؟.

حيث لمس المحبة العظيمة في قلوبهم له ابن جبير من خلال تجواله في الحجاز والشام ومصر.

فمن ذلك مثلاً إيضاحه لموقف الناس عند ذكر صلاح الدين في خطبة الحرم المكي التي حضرها ابن جبير حيث قال: «. . . وعند ذكر صلاح الدين بالدعاء تخفق الألسنة بالتأمين عليه من كل مكان.

الأقصى، عمان، ١٩٨١م، (١/ ١٨١)، وما بعدها، والحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية، أحمد بدوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ص (٤٢).

(١) انظر: المطلب الثالث من المبحث الثاني في الفصل الرابع.

(٢) قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة: محمد بدران، المجلد الرابع، الجزء الرابع، ص (٣٨). وانظر: عبارات التودد والتلطف من بعض قادتهم لصلاح الدين في المطلب الثالث من المبحث الثاني في الفصل الرابع.

(٣) انظر: المصدر السابق، المجلد الرابع، الجزء الرابع، ص (٤٤ ـ ٤٥).

وإذا أحب الله يوماً عبده ألقى عليه محبة الناس

وحق ذلك عليهم لما يبذل من جميل الاعتناء بهم وحسن النظر لهم، ولما رفعه من وظائف المكوس عنهم»[1].

وبعد حياة حافلة بالجهاد والدعوة توفي ـ رحمه الله ـ في صفر سنة ٥٨٩ هـ ولم يتجاوز الخامسة والخمسين من عمره ودفن في دمشق[2].

وممن له جهود واضحة في مواجهة النصارى ودعوتهم في هذه الفترة من الولاة والقادة الملك العادل محمد بن أيوب بن شادي بن مروان بن يعقوب الدويني التكريتي أخو صلاح الدين، الذي ولد سنة ٥٣٤ هـ في بعلبك[3]؛ إذ كان والده نائباً فيها لزنكي بن آقسنقر[4].

وعندما شب خدم أخاه صلاح الدين في كثير من المهام فولاه نيابة مصر ثم دمشق، وبعد موت صلاح الدين ملك بعده فتقدم إلى الشام وضمها إليه[5].

قال ابن كثير: «كان العادل حليماً صفوحاً صبوراً على الأذى كثير الجهاد بنفسه، ومع أخيه، حضر معه مواقفه كلها أو أكثرها في مقاتلة الفرنج»[6].

وقال: «... من خيار الملوك وأجودهم سيرةً، ديناً، عاقلاً، صبوراً، وقوراً، أبطل المحرمات، والخمور، والمعازف من مملكته، وقد كانت ممتدة من

---

(١) رحلة ابن جبير، محمد بن أحمد الكناني، ص (٣٧).

(٢) انظر: النوادر السلطانية، يوسف بن رافع بن شداد، تحقيق: د. جمال الدين الشيال، ص (٣٦٣).

(٣) بعلبك: مدينة تاريخية قديمة غنية بآثارها تقع في شرق لبنان قرب الحدود السورية.
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (١/ ٥٣٧ ـ ٥٣٨)، وأطلس في تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس، ص (٤١٣).

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (٢٢/ ١١٦).

(٥) انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك، أحمد بن علي المقريزي، تحقيق محمد مصطفى زيادة، الجزء الأول، القسم الأول، ص (١٥٢).

(٦) البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحخقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين (١٣/ ٨٦ ـ ٨٧).

أقصى بلاد مصر واليمن والشام والجزيرة إلى هَمْدان[1] كلها...»[2].

كانت له جهود واضحة في مواجهة الفرنج ودعوتهم، قال ابن كثير عن ذلك: «فقد كان كثير الجهاد بنفسه ومع أخيه»[3].

فمن جهوده في هذا المجال حفظ البلاد بعد موت أخيه واضطرابها وطمع الإفرنج فيها حيث زحف على مملكة أخيه وقضى على تناحر أبنائه محافظاً بذلك على وحدة البلاد وقوتها وتماسكها في مواجهة النصارى المتربصين بها[4].

ثم جهاده بعد ذلك النصارى وهزيمته لهم في عدة مواقع كما في مرج عكا، وفتح يافا سنة ٥٩٣ هـ[5]. وغير ذلك.

يضاف إلى جهوده في هذا المجال محادثاته ومراسلاته واجتماعاته الكثيرة مع قادة الفرنج ورسلهم، خصوصاً في فترة حكم أخيه صلاح الدين وما أسفرت عنه هذه الجهود من نتائج ليست إلا في صالح الإسلام والمسلمين.

ومن ذلك مثلاً: لقاءاته الكثيرة بملك الإنجليز[6] ممثلاً لأخيه صلاح الدين وقيامه بمساعي الصلح معه وفق الشروط التي وضعها المسلمون[7].

---

(١) هَمدان: بتسكين الميم مدينة في اليمن في شماله الغربي قرب مدينة صعدة.
انظر: المنجد في اللغة والأعلام، ص (٥٩٧).

(٢) المصدر السابق (١٣/ ٨٦).

(٣) المصدر السابق (١٣/ ٨٦).

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (٢٢/ ١١٧).

(٥) انظر: المصدر السابق (١٣/ ١٦). وانظر بعض وقائعه معهم في السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الأول، القسم الأول، ص (١٥٢)، وص (١٦٣) وما بعدها.

(٦) ملك الإنجليز: هو ريتشارد قلب الأسد الذي تولى الحكم في بريطانيا بين سنتي (٥٨٤ هـ ـ ١١٨٩م ـ ٥٩٥ هـ ـ ١١٩٩م خلفاً لأبيه، وقد تميز هذا الملك بالقوة والعنف، وبعد توليه الحكم بسنة شارك بالحملة الصليبية الثالثة على البلاد الإسلامية.
انظر: أوربا العصور الوسطى، د. سعيد عاشور (١/ ٤٧٣)، وتاريخ الحروب الصليبية، د. محمود سعيد عمران، ص (١٤٨).

(٧) انظر: النوادر السلطانية، يوسف بن رافع بن شداد، تحقيق: د. جمال الدين الشيال، ص (٢٧٤).

حيث أسفرت هذه اللقاءات والمحادثات عن تنازل الصليبيين عن القدس وعدم مطالبتهم بها والاكتفاء بالزيارة والحج إلى بعض الأماكن المقدسة لديهم فيها[1].

وكذلك لقاؤه بابن الهنفري[2] وغيره من قادتهم، ومحادثاته الكثيرة مع رسلهم وما أسفرت عنه مجموعة هذه اللقاءات والمراسلات والمحادثات من تغيير فكرة كثير من النصارى الفرنج للمسلمين، والتخفيف من روحهم العدائية الشديدة تجاه المسلمين مما كان له أثره في إزالة بعض عوائق الدعوة الموجهة إليهم.

وكانت وفاة الملك العادل ـ رحمه الله ـ سنة ٦١٥ هـ حيث دفن في دمشق[3].

وممن كان له جهود في هذا المجال الملك الكامل بن العادل وهو محمد ابن أبي بكر بن أيوب، والذي له مساهمات كبيرة في جهاد النصارى ودعوتهم.

ولد الملك الكامل سنة ٥٧٦ هـ[4]، ونشأ في كنف والده، وكان محباً للعلم والعلماء، حريصاً على حفظ الحديث[5]، وله كلام جيد على صحيح مسلم[6]. تولى مصر لوالده الملك العادل، واستقل بها بعد وفاته، ثم امتد نفوذه إلى الشام واليمن والحجاز بعد ذلك.

---

(١) انظر: المصدر السابق، ص (٢٩٠).

(٢) انظر: المصدر السابق، ص (٣٠٦)، وقد قال عنه ابن شداد: «وهو من أكابرهم وملوكهم ومن أولاد ملوكهم «وكان يجيد اللغة العربية، النوادر السلطانية، يوسف بن رافع بن شداد، تحقيق: د. جمال الدين الشيال، ص (٣٠٢).

(٣) انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك، أحمد بن علي المقريزي، تحقيق محمد مصطفى زيادة، الجزء الأول، القسم الأول، ص (١٩٠).

(٤) انظر: المصدر السابق، الجزء الأول، القسم الأول، ص (٢٥٨).

(٥) انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (١٢٨/٢٢).

(٦) انظر: البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين (١٦/١٣).

من أبرز أعماله في جهاد النصارى ودعوتهم اختطاطه مدينة المنصورة شمال مصر، في مقابل دمياط إثر استيلاء الفرنج عليها، وذلك للمرابطة مدافعة لهم عن مصر وإظهاراً لعزم المسلمين على طردهم؛ حيث كافحهم براً وبحراً حتى أعز الله الإسلام وخذل الكفر.

حيث كانت هذه الوقعة سنة ٦١٨ هـ والتي انتصر فيها المسلمون وأسر عدد من قادة الفرنج وغنم المسلمون فيها الغنائم العظيمة(١).

وبعد خضوع الفرنج للمسلمين بعد دمياط وسيطرة المسلمين عليها حضر مجموعة من مقدميهم وقادتهم عند الملك الكامل الذي أعد لهم سماطاً عظيماً فاجتمع عليه المؤمن والكافر والبر والفاجر»(٢).

حيث قام أحد شعراء الملك الكامل أثناء ذلك وهنأه بقصيدته ثم وجه الكلام فيها إلى قادة الفرنج الموجودين على سفرة الملك قائلاً:

أعباد عيسى إن عيسى وحزبه وموسى جميعاً يخدمون محمداً(٣)

وفي ذلك الموقف دعوة مباشرة لقادة النصارى وانتقاد لما هم عليه من اتخاذهم عيسى عليه السلام إلهاً، ووجوب إيمانهم بنبوّة محمد ﷺ، وبيان أن ذلك هو الحق الذي يجب أن يتبعوه ويقروا به؛ إذ لو كان موسى وعيسى عليهما السلام أحياء لما وسعهم إلا اتباع محمد ﷺ.

وللملك الكامل مراسلات عديدة مع بعض قادة الفرنج في شؤون مختلفة،

---

(١) انظر تفاصيل هذه الواقعة في: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (١٠/ ٣٠٧ ـ ٣١١)، والبداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين (١٣/ ١٠٢). والسلوك لمعرفة دول الملوك، أحمد بن علي المقريزي، تحقيق محمد مصطفى زيادة، الجزء الأول، القسم الأول، ص (١٩٤) وما بعدها.

(٢) البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين (١٣/ ١٠٢).

(٣) انظر: المصدر السابق (١٣/ ١٠٢).

وكان من أهمها مراسلاته وسفاراته المتعددة مع فريدريك الثاني ملك صقلية.

حيث أرسل هذا الملك بعدة أسئلة إلى الملك الكامل تصدى للإجابة عنها أحد علمائه ثم أرسلت إليه(١).

وقد أوفد إليه الملك الكامل عدة سفارات منها ما قام به أحد علماء مصر في ذلك الوقت حيث دارت بين هذا العالم وبين الملك الصقلي عدة محاورات علمية(٢). تخللها بعض المفاوضات حول العلاقات مع المسلمين، فعندما طلب فريدريك من الملك الكامل عن طريق الشيخ أن يعيد إليه البلاد التي افتتحها صلاح الدين أفاد بأنه ليس على استعداد بأن يسيء للمسلمين إلى هذا الحد(٣).

ويظهر أثر الجهود المبذولة في الدعوة بشكل عام على هذا الملك، ومنها جهود الملك الكامل في إبداء الملك الصقلي إعجابه بالمسلمين خلال زيارته للقدس وتجوله بالأماكن المقدسة الإسلامية، وكان من قوله: «والله إنه كان أكبر غرضي في المبيت بالقدس أن أسمع أذان المسلمين وتسبيحهم في الليل»(٤).

وخلال وجوده في قبة الصخرة نظر إلى نافورة بأعلى الحائط فسأل عنها

---

(١) انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك، أحمد بن علي المقريزي، تحقيق محمد مصطفى زيادة، الجزء الأول، القسم الأول، ص (٢٣٢).

(٢) ويقال لهذا العالم: فخر الدين بن شيخ الشيوخ يوسف بن حمويه.

انظر: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، محمد بن سالم بن واصل، تحقيق د. جمال الدين الشيال (٤/ ٢٤٣)، والسلوك لمعرفة دول الملوك، أحمد بن علي المقريزي، تحقيق محمد مصطفى زيادة، الجزء الأول، القسم الأول ص (٢٣٠ ـ ٢٣١)، وتاريخ الحضارة الإسلامية في صقلية وأثرها على أوربا، د. حامد زيان غانم، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٧م، ص (١٢٠).

(٣) انظر: تاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رانسيمان، ترجمة: د. السيد الباز العريني (٣/ ٣٢٧).

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك، أحمد بن علي المقريزي، تحقيق محمد مصطفى زيادة، الجزء الأول، القسم الأول، ص (٢٣١)، وتاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رانسيمان، ترجمة: د. السيد الباز العريني (٣/ ٣٣٥).

فقيل له: لكي ترد العصافير، فقال: «والآن قد بعث الله لكم الخنازير»[1] يقصد بذلك الفرنج النصارى.

ومن جهود الملك الكامل في الدعوة الموجهة إلى النصارى بشكل غير مباشر اهتمامه بالعلم وتشجيع العلماء، وبناء المدارس[2]، ولا يخفى أثر ذلك في قوة الأمة وتماسكها وصمودها أمام شبه النصارى، وكذلك قيام علمائها بفضح افتراءات النصارى بل ودعوتهم إلى الإسلام وإزالة الشبهات المانعة من ذلك لديهم.

وقد كانت وفاة الملك الكامل ـ رحمه الله ـ بقلعة دمشق سنة ٦٣٥ هـ حيث دفن فيها[3].

ومن أبرز الولاة في المشرق الذين كانت لهم جهود كبيرة في دعوة النصارى وجهادهم الملك الظاهر بيبرس العلائي البندقداري الصالحي.

ولد الملك الظاهر سنة ٦٢٥ هـ، وكان من مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب[4]، تربى في خدمته، واستفاد من أخلاقه، وبعد وفاته خدم ابنه المعظم[5]، ثم أخذ يترقى في القيادة إلى أن تولى السلطنة بمصر والشام سنة

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رانسيمان، ترجمة: د. السيد الباز العريني (٣/ ٣٣٥).

(٢) انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك، أحمد بن علي المقريزي، تحقيق محمد مصطفى زيادة، الجزء الأول، القسم الأول، ص (٢٥٨ ـ ٢٥٩).

(٣) انظر: المصدر السابق، الجزء الأول، القسم الأول، ص (٢٥٨).

(٤) هو أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب (نجم الدين) من كبار ملوك الأيوبيين بمصر، ولد بالقاهرة سنة ٦٠٣ هـ، وولي بعد أن أخلع أخيه العادل سنة ٦٣٧ هـ، كان مهيباً شجاعاً. كانت وفاته بالقاهرة سنة ٦٤٧ هـ.
انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (٢٢/ ١٣١)، والبداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين (١٣/ ١٨٨ ـ ١٨٩).

(٥) هو تورانشاه بن أيوب بن محمد (الملك العظيم) تولى بعد أبيه وكان على حصن كيفا في الشام فقدم إلى مصر وقاتل الفرنج وهزمهم ثم تنكر له المماليك بإيعاز من زوجة أبيه شجرة الدر فقتلوه سنة ٦٤٨ هـ وكانت ولايته أربعين يوماً فقط، وبه انتهت دولة الأيوبيين في مصر.

٦٥٨ هـ بعد قتله المظفر قطز[١] أثناء عودته من معركة عين جالوت التي انتصر فيها على المغول[٢].

كان للملك الظاهر نشاط بارز في جهاد النصارى ودعوتهم، ومن ذلك مهاجمة أنطاكية[٣]، ثم مهاجمة الجليل[٤]، واقتحام عكا[٥]، ثم فتحه غزة[٦]، وعدد من مدن الساحل، ثم مهاجمته عكا مرة أخرى[٧] وغير ذلك. حتى أنه لم يبق في يد الفرنج حين وفاته سوى عكا وطرابلس.

ومن جهوده في هذا المجال رسائله إليهم، ومعاهداته معهم وكلها خدمة للإسلام وإعلاءً لكلمة الله.

ومن الأمثلة على ذلك محادثاته معهم ورسائله إليهم في بعلبك سنة ٦٥٩

انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (٢٣/ ١٩٣)، والبداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين (١٣/ ١٩٢).

(١) هو قطز بن عبدالله من مماليك المعز أيبك، تسلطن في مصر سنة ٦٥٧ هـ بعد خلع ابن المعز أيبك، وقرب بيبرس فقتله بعد منصرفه من معركة عين جالوت ضد التتار واستلم السلطة مكانه. كان مقتله سنة ٦٥٨ هـ.

انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (٢٣/ ٢٠٠)، والسلوك لمعرفة دول الملوك، أحمد بن علي المقريزي، تحقيق محمد مصطفى زيادة، الجزء الأول، القسم الأول، ص (٤٣٦).

(٢) انظر: المصدر السابق، الجزء الأول، القسم الثاني، ص (٤٨٣).

(٣) الجليل: كتلة جبلية تقع في شمال فلسطين من أهم مدنها حيفا وعكا والناصرة.

(٤) انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٢/ ١٨٣)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٤٧).

(٥) انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك، أحمد بن علي المقريزي، تحقيق محمد مصطفى زيادة، الجزء الأول، القسم الثاني، ص (٤٨٧).

(٦) مدينة غزة: مدينة فلسطينية تقع في أقصى الجنوب الغربي لفلسطين على الحدود المصرية.

انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٤/ ٢٢٩)، وأطلس تاريخ الإسلام،، د. حسين مؤنس، ص (٤١٥).

(٧) انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك، أحمد بن علي المقريزي، تحقيق محمد مصطفى زيادة، الجزء الأول، القسم الثاني، ص (٥٦٨).

هـ[١]، وسنة ٦٦١ هـ[٢]. ثم رسالته إلى أحد قوادهم إثر نقضهم معاهدة عقدوها معه بشأن عدم تجديدهم بعض الأبنية من حصون ودور عبادة، وكان مما قال في ذلك: «. . . أما تجديد الربض لحفظ الصعاليك فالبلاد ما تحفظ بالأسوار، ولا تحفظ الرعية بالخنادق، ولا تحفظ إلا بأحد أمرين: إما بالسيوف العزائم وإما بإحسان الجيرة وكف الأذى. . . أما قولكم إن قلاعكم لا تخاف إلا الله ولا يجسر أحد أن يصل إليها فسوف ترون كيف يكون الوصول إليها إن شاء الله تعالى»[٣].

وفي رسالته له إلى بوهيمند أمير أنطاكية وطرابلس بعد فتحه أنطاكية ناصحاً له بعدم الاستمرار في المعاندة، ومخبراً إياه باسترجاع المسلمين منه كثيراً من الحصون التي سبق أن استولى النصارى عليها، وداعياً له بالهداية، ومن قوله فيها: «. . . ألهمه الله رشده، وقرن بالخير قصده، وجعل النصيحة محفوظة عليه»[٤].

وفي هذا المجال أيضاً مراسلاته مع صاحب القسطنطينية التي كانت إحداها في شأن جامع تمّ بناؤه هناك، وكيف تكون رعايته والقيام عليه[٥]، كذلك مفاوضاته مع بعض قادتهم، واستقبال رسلهم وإكرامهم بما يعود بالخير على المسلمين، ومن ذلك قدوم رسل الجنيوية إليه سنة ٦٦١ هـ، ورسل ملك القسطنطينية سنة ٦٦٤ هـ. وغير ذلك.

ولهذه الجهود الكبيرة منه في جهاد النصارى ودعوتهم أسلم الكثيرون منهم كما حدث سنة ٦٦٢ هـ[٦]. وتودد بعض قادتهم إليه مبدين خضوعهم للمسلمين،

---

(١) انظر: المصدر السابق، الجزء الأول، القسم الثاني، ص (٤٦٣ ـ ٤٦٤).

(٢) انظر: المصدر السابق، الجزء الأول، القسم الثاني، ص (٤٨٥ ـ ٤٨٦).

(٣) انظر نص الرسالة كاملة في: ملاحق السلوك لمعرفة دول الملوك، أحمد بن علي المقريزي، تحقيق محمد مصطفى زيادة، الجزء الأول، القسم الثالث، ص (٩٦٥).

(٤) انظر نص الرسالة كاملة في: المصدر السابق، الجزء الأول، القسم الثالث، ص (٩٦٦).

(٥) انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك، أحمد بن علي المقريزي، تحقيق محمد مصطفى زيادة، الجزء الأول، القسم الثاني، ص (٤٧١).

(٦) انظر: المصدر السابق، الجزء الأول، القسم الثاني، ص (٤٩٥).

ومن ذلك قدوم رسول ملك صقلية بهدية إلى الملك الظاهر ومعه رسالة إليه، وفيها قول الرسول على لسان سيده الملك الصقلي: «إن مخدومه أمره أن يكون الملك الظاهر نافذاً في بلاده وأن أكون نائب الملك الظاهر كما أنا نائبه»[1]. كما طلب البعض الآخر من قادتهم عطف السلطان ورحمته وتعهدوا بكف أذاهم عن المسلمين واستعدوا بالخدمة والطاعة ومن قول بعض رسل هؤلاء: «نحن لا ننقض الهدنة، وإنما نطلب مراحم السلطان في استدامتها، ونحن نزيل شكوى النوّاب، ونخرج جميع الدعاوى، ونفك الأسرى، ونستأنف الخدمة»[2].

وبالإضافة إلى هذه الجهود المباشرة منه ـ رحمه الله ـ تجاه النصارى؛ فإن حفاظه على تماسك الدولة الإسلامية، والضرب على أيدي العابثين، وتحقيق الأمن من أهم أسباب نجاح جهوده الموجهة إليهم.

ومن ذلك حفظه للطرق وتأمين الدروب ولهذا الغرض أحضر بعض أمراء الأعراب وأقطعهم الإقطاعات، وأجرى لهم الأموال مقابل حفظهم الطرق إلى حدود العراق[3].

وفي هذا المجال كان الظاهر شديداً على العابثين بالأمن خصوصاً إذا كانوا ممن يستغلون نفوذهم وسلطتهم في ذلك.

ومما قام به في هذا الشأن أنه نزل ذات ليلة من القلعة لتفقد أحوال الناس متنكراً فرأى أحد قواده اعتدى على امرأة ولم يتجاسر أحد الإنكار عليه، فلما أصبح استدعاه وقطع يده وجماعة من أعوانه[4].

وفي هذا المجال أيضاً عمل الظاهر على تطهير البلاد من المنكرات، ففي أحداث سنة ٦٤٤ هـ: «اشتد إنكار السلطان للمنكر وإراقة الخمور، وعفَّى آثار المسكرات، ومنع الحانات والخواطيء بجميع أقطار مملكته بمصر والشام،

---

(١) انظر: المصدر السابق، الجزء الأول، القسم الثاني، ص (٥١٣).
(٢) المصدر السابق، الجزء الأول، القسم الثاني، ص (٤٨٧).
(٣) انظر: المصدر السابق، الجزء الأول، القسم الثاني، ص (٤٦٥).
(٤) انظر: المصدر السابق، الجزء الأول، القسم الثاني، ص (٥٤٠).

فطهرت البقاع من ذلك»[1].

وفي سنة ٦٦٧ هـ «... كتب السلطان بإزالة الخمور وإبطال الفساد والخواطىء من القاهرة ومصر وجميع أعمال مصر، فطهرت كلها من المنكر... ونفى كثير من المفسدين وكتب السلطان إلى جميع البلاد بمثل ذلك»[2].

وفي هذا الصدد كتب إلى صاحب تونس ينكر عليه المجاهرة بالمنكرات واستخدام الفرنج وعدم قيامه بجهادهم[3].

وبعد حياة حافلة بالجهاد والدعوة توفي الملك الظاهر ـ رحمه الله ـ في دمشق سنة ٦٧٦ هـ[4]. وقد قال أحد الباحثين النصارى: «... وزال بوفاته أكبر عدو للعالم المسيحي منذ صلاح الدين»[5].

وقال: «... ولم يعش بيبرس ليشهد اختفاءها التام ـ أي المدن المتبقية للصليبيين ـ غير أنه جعل ذلك أمراً لا مفر منه»[6].

وهكذا كان لجهود هؤلاء الولاة وأمثالهم في شرق الدولة الإسلامية الأثر الواضح في توحيد كلمة المسلمين وتهيئة الأمة للقيام بواجب الجهاد والدعوة للنصارى، حتى أثرت هذه الجهود المباركة عن توحيد الأمة وتمكينها من رد اعتداء النصارى، وإسلام الكثيرين منهم، وبقاء أعداد كبيرة أخرى تحت حكم المسلمين.

---

(١) المصدر السابق، الجزء الأول، القسم الثاني، ص (٥٥٣).
(٢) انظر: المصدر السابق، الجزء الأول، القسم الثاني، ص (٥٧٨).
(٣) انظر: المصدر السابق، الجزء الأول، القسم الثاني، ص (٦٠١).
(٤) انظر: المصدر السابق، الجزء الأول، القسم الثاني، ص (٦٣٥).
(٥) الحروب الصليبية، ستيفن رانسيمان، ترجمة د. السيد الباز العريني (٣/٥٩٦).
(٦) المصدر السابق (٣/٥٩٦).

المطلب الثاني

أبرز الولاة والقادة في غرب الدولة الإسلامية

وكما كانت هناك جهود كبيرة لبعض الولاة والقادة في المشرق في جهاد النصارى ودعوتهم فقد كانت لكثير منهم أيضاً جهود مماثلة في غرب الدولة الإسلامية في هذا المجال.

ومن أبرز هؤلاء الذين كان لهم جهد في مواجهة النصارى ودعوتهم يوسف بن تاشفين بن إبراهيم الصنهاجي[١].

كان مولده في الصحراء سنة ٤٠٠ هـ[٢]. ونشأ بها وعاصر نشأة الدولة المرابطية إلى أن تولى إمارتها إثر تنازل ابن عمه أبي بكر بن عمر اللمتوني. وهو الذي اختط مدينة مراكش[٣] عاصمة للمرابطين سنة ٤٦٥ هـ[٤].

قال عنه ابن الأثير: «... وكان يوسف بن تاشفين حليماً، كريماً، ديناً،

---

(١) انظر: الأنيس المطرب، علي بن أبي زرع الفاسي، ص (١٣٦).

(٢) انظر: المصدر السابق، ص (١٣٧).

(٣) مراكش: تقع حالياً في وسط دولة المغرب بسفح جبال الأطلس الأوسط. وهي مدينة غنية بآثارها من عصر المرابطين والموحدين والسعديين.

انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٥/ ١١١)، والمنجد في اللغة والأعلام، ص (٥٢٨)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٦٣).

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (١٩/ ٢٥٢).

خيراً، يحب أهل العلم والدين، ويحكمهم في بلاده»[1].

كان من أبرز أعماله في مواجهة النصارى نجدته للمسلمين في الأندلس إثر زحف النصارى على الممالك الإسلامية هناك نتيجة لتناحر دول الطوائف، وضعف المسلمين. فكان له مع النصارى الوقائع المشهورة. وكان على يديه إعادة توحيد الأندلس ودفع الخطر النصراني الزاحف.

ومن أشهر وقائعه معهم «معركة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ التي هزم فيها الأذفونش ملك الإفرنج في الأندلس[2]، وأظهر الله الإسلام وأعز أهله»[3].

قال الذهبي عن هذه المعركة: «... ثارت الفرنج بالأندلس فعبر ابن تاشفين ينجد المسلمين فطعن العدو»[4].

ثم تتالت بعد ذلك معاركه مع النصارى، والتي وحد بها الأندلس وأعاد بها هيبة المسلمين هناك.

ولتأكيد عزمه على إعادة نشر الإسلام في الأندلس وجهاد الإفرنج هناك كتب على عملته قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾[5][6].

كانت وفاته ـ رحمه الله ـ في مراكش سنة ٥٠٠ هـ[7].

---

(١) الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٩/ ٥٣١).

(٢) انظر: المصدر السابق (٨/ ٣٠٧)، وما بعدها، والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، علي ابن بسام الشنريني، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩م، القسم الثاني، المجلد الأول، ص (٢٥٤ ـ ٢٥٥).

(٣) الأنيس المطرب، علي بن أبي زرع الفاسي، ص (١٤٥)، وما بعدها.

(٤) سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (١٩/ ٢٥٣).

(٥) سورة آل عمران، الآية: (٨٥).

(٦) انظر: الأنيس المطرب، عليه بن زرع الفاسي، ص (١٥٧).

(٧) انظر: المصدر السابق، ص (١٣٧).

وبعد وفاته تولى ابنه علي الذي قال فيه المراكشي: «سار على سنة أبيه في نشر الإسلام والجهاد في سبيل الله وحماية البلاد وضبط الثغور»[١].

ولد سنة ٤٧٧ هـ في سبتة، ونشأ في رعاية والده حيث تولى العديد من المهام والمسؤوليات في الدولة المرابطية إلى أن بويع بالإمارة بعد وفاة أبيه سنة ٥٠٠ هـ[٢].

قال عنه الذهبي: «كان شجاعاً، مجاهداً، عادلاً، معظماً للعلماء مشاوراً لهم...»[٣].

«وفي عصره أهينت الفلسفة، ومج الكلام ومقت، واستحكم في ذهن علي أن الكلام بدعة، ما عرفه السلف فأسرف في ذلك وكتب يتهدد ويأمر بإحراق الكتب...»[٤].

وللعلماء في دولته شأن كبير، إذ كان يوليهم المهام، ويشاورهم في سياسة الدولة، «وكان لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء، فكان إذا ولّى أحداً من قضاته كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمراً، ولا يبت حكومةً في صغير من الأمور ولا كبير إلا بحضور أربعة من الفقهاء، فبلغوا في أيامه مبلغاً عظيماً لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس»[٥].

وكان الأمير علي بن يوسف ـ رحمه الله ـ بالإضافة إلى حرصه على نشر العلم وتشجيع العلماء في دولته الذين لا يخفى دورهم في التصدي لشبه النصارى

---

(١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد بن علي المراكشي، تحقيق محمد سعيد العريان، وزميله، مطبعة دار الاستقامة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٦٨ هـ ـ ١٩٤٩م، ص (١٧١).

(٢) انظر: الأنيس المطرب، علي بن أبي زرع الفاسي، ص (١٥٧).

(٣) سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (٢٠/ ١٢٤).

(٤) المصدر السابق (٢٠/ ١٢٤).

(٥) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي، تحقيق: محمد سعيد العريان، ص (١٧١).

بل ودعوتهم إلى الإسلام، وقيامه بمحاربة البدع وحفظ البلاد؛ فإن له جهوداً كبيرةً في جهاد النصارى بالأندلس، ومن ذلك مثلاً قيامه بغزو مملكة قشتالة النصرانية، وذلك عن طريق أحد قواده، حيث تمكن من اقتحام قلعة إقليج، وتحقيق النصر الحاسم على هذه المملكة النصرانية القوية(١).

ثم عبوره بنفسه للجهاد في الأندلس سنة ٥٠٣ هـ واقتحام طليطلة(٢).

وكذلك فتوحاته الكثيرة في الأندلس عن طريق بعض ولاته ونوابه فيها، كفتح بعض الحصون القريبة من طليطلة سنة ٥٠٧ هـ(٣)، وتأديب أحد قادة النصارى قرب سرقسطة(٤)، ثم جواز الأمير علي بنفسه مرة أخرى إلى الأندلس سنة ٥١٣ هـ، وكذلك سنة ٥١٥ هـ، وكل ذلك من أجل الجهاد وتنظيم البلاد في مواجهة النصارى(٥).

وقد كانت وفاة الأمير علي ـ رحمه الله ـ سنة ٥٣٧ هـ في مراكش(٦).

ومن الولاة في غرب الدولة الإسلامية الذين كان لهم جهد في دعوة النصارى وجهادهم الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي بن يملي بن مروان من قيس عيلان(٧).

---

(١) انظر: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، أحمد بن محمد بن عذاري، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م، (٤/ ٤٤ ـ ٤٥)، والأنيس المطرب، علي بن أبي زرع الفاسي، ص (١٥٩).

(٢) انظر: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، أحمد بن محمد بن عذاري، تحقيق د. إحسان عباس (٤/ ٥٢).

(٣) انظر: الأنيس المطرب، علي بن أبي زرع الفاسي، ص (١٦٢).

(٤) انظر: المصدر السابق، ص (١٦٢).

(٥) انظر: المصدر السابق، ص (١٥٣ ـ ١٥٤).

(٦) انظر: البيان المغرب، أحمد بن محمد بن عذاري، قسم الموحدين، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني وآخرين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ، ص (٧٩ ـ ٨٠).

(٧) انظر: الأنيس المطرب، ص (١٦٢).

والذي تولى الخلافة سنة ٥٢٤ هـ[١]، «وكان عاقلاً، حازماً، سديد الرأي، حسن السياسة للأمور، كثير البذل للأموال»[٢].

كان له اهتمام كبير في مراقبة عماله ونصحهم ومعاقبة المسيىء منهم، مع حثه إياهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأخذ على أيدي السفهاء حتى أنه عزل ابنه عن ولاية العهد لما ظهر عليه من أمور مخلة بالكرامة[٣].

ومن جهوده في مواجهة الفرنج ودعوتهم مهاجمته بعض حصونهم في الأندلس على يد أحد قواده سنة ٥٥٠ هـ واسترداده للمرية[٤] من أيديهم بعد زحفهم عليها إثر تضعضع أحوال المرابطين في الأندلس، وذلك سنة ٥٥٢ هـ[٥]. كذلك طرد الفرنج من المهدية سنة ٥٥٨ هـ، وإحسانه إلى أسراهم وترغيبهم بالإسلام ودعوتهم إليه[٦].

وقد كانت وفاته في سلا[٧] سنة ٥٥٤٨ هـ حيث حمل إلى تيفل[٨]

---

(١) انظر: المصدر السابق، ص (٨٠).

(٢) انظر: الكامل في التاريخ (٩/ ٢٩٩).

(٣) انظر: البيان المغرب، أحمد بن محمد بن عذاري، قسم الموحدين، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني، ص (٧٨).

(٤) المرية: مدينة في جنوب شرق إسبانيا على البحر المتوسط.
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٥/ ١٤٠)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٧٨).

(٥) انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٩/ ٢٤١).

(٦) انظر: المصدر السابق (٩/ ٢٥٧ ـ ٢٦١).

(٧) سلا: مدينة مغربية، تقع حالياً على ساحل المحيط الأطلسي، مجاورة لمدينة الرباط عاصمة المغرب.
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٣/ ٢٦٢)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس، ص (١٦٦).

(٨) تيفل وتسمى حالياً تافليت، مدينة تقع في الوسط الشمالي لدولة المغرب بين مدينتي مكناس الداخلية وسلا الساحلية على المحيط الأطلسي.

ودفن بها[1].

وكان لحفيده يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الذي ولد سنة **٥٥٣** هـ[2] جهود واضحة في هذا المجال.

حيث حرص على دعم الجبهة الداخلية للدولة وتقويتها وتماسكها من خلال قيامه بمحاربة المنكرات والبدع، ولا يخفى أثر ذلك في قوة المجتمع في مواجهة شبه النصارى ونجاحه بالقيام بواجب الجهاد والدعوة.

فقد كان في دولته شديداً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يباشره بنفسه ويكتب إلى عماله في ذلك، فحينما أخبر مثلاً بفشو المنكرات وشرب الخمر وظلم بعض ولاته لرعاياهم «تنكر وغضب لذلك المنكر... فأمر بإراقة المسكرات وقطعها والتحذير بعقاب الموت على استعمالها وأنفذ المخاطبات بذلك إلى كافة ولاته بالأمصار... وضمنت الكتب النافذة بذلك فصولاً في بسط العدل والتأكيد على العمال والولاة بتأنيس الرعية وتوخي رضاهم... وكف أيدي الظالمين منهم»[3].

ومن جهوده في هذا المجال أنه «أمر أصحاب الشرطة بقطع الملهين، والقبض على من شهر من المغنين فثقف من وجد منهم بكل مكان؛ فغيروا هيئاتهم وتفرقوا على الأوطان وبارت سوق القيان»[4].

وكان ـ رحمه الله ـ شديداً أيضاً في محاربة البدع، ومن جهوده في ذلك

انظر: أطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس، ص (١٦٦)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٦٣).

(١) انظر: البيان المغرب، أحمد بن محمد بن عذاري، قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني، وآخرين، ص (٧٩).

(٢) انظر: المصدر السابق، ص (١٦٦).

(٣) الأنيس المطرب، علي بن أبي زرع الفاسي، ص (١٧٣).

(٤) المصدر السابق، ص (١٧٤).

حبسه لأبي الوليد بن رشد ـ الحفيد[1] ـ لما رفع بعض العلماء ـ في قرطبة له شيئاً من فلسفته وخروجه بذلك عن سنن الشريعة «فلم يمكن المنصور عند اتفاق الطلبة إلا المدافعة عن شريعة الإسلام، والقصد لسنة الرسول عليه الصلاة والسلام، فأمر بحبس أبي الوليد وتفرقة تلاميذه أيدي سبأ، وطلبوا نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء»[2].

أما جهوده في جهاد النصارى ودعوتهم، فمنها قدومه بنفسه إلى الأندلس سنة ٥٩١ هـ ومواجهة النصارى في عدة مواقع[3]، ثم هزيمته للفرنج في معركة الآراك التي شبهها بعض المؤرخين بمعركة الزلاقة لقوتها وأهميتها وأثرها في إعادة هيبة المسلمين في الأندلس. ثم ما تلاها من غزوات قام بها ـ رحمه الله ـ سنة ٥٩٢ هـ[4].

قال صاحب البيان المغرب عن أثر بعض جهود المنصور في نشر الإسلام بالأندلس: «. . . واصطكت في هذه الحصون المذكورة دعوة الإسلام، وتقوضت في أسبوع واحد ملة الكفر بشريعة محمد عليه الصلاة والسلام»[5].

---

(١) هو محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي ـ الحفيد ـ قاضي الجماعة، برع في الفقه والأصول وعلم الكلام، والفلسفة، وغيرها، وألف في هذه الفنون، منها: بداية المجتهد ومختصر المستصفى، والمقدمات، ومجموعة كتب في الفلسفة والمنطق، كان ميلاده سنة ٥٢٠ هـ ووفاته محبوساً لمؤلفاته الفلسفية في دارخ بمراكش سنة ٥٩٥ هـ
سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (٢١/٣٠٧ ـ ٣١٠)، والديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، إبراهيم بن علي بن فرحون، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرين، ص (٢١٨).

(٢) البيان المغرب، أحمد بن محمد بن عذاري، قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرين ص (٢١٨).

(٣) انظر: الأنيس المطرب، علي بن أبي زرع الفاسي، ص (٢١٨ ـ ٢١٩).

(٤) انظر: البيان المغرب، أحمد بن محمد بن عذاري، قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرين، ص (٢١٨).

(٥) انظر: المصدر السابق، ص (٢٢٣).

ولذلك لما رأى فرنج الأندلس تقدم أبي يوسف واكتساحه لكثير من حصونهم وعدم توانيه في ذلك كفوا أذاهم عن المسلمين، بل طلبوا الصلح على ما اشترطه أبو يوسف[1].

ولشعوره ـ رحمه الله ـ بحال المسلمين في الأندلس في مقابل النصارى، وخشيته على الأندلس من زحفهم عليها، وحرصه على مجاهدتهم فيها أوصى مَنْ بعده في مرض وفاته بالاهتمام بذلك وإيلائه القدر الأكبر من العناية، فكان من قوله: «. . . أوصيكم بالأيتام واليتيمة»[2]. واليتيمة: الأندلس، والأيتام: هم المسلمون فيها مقابل النصارى.

وقد كانت وفاته ـ رحمه الله ـ في مراكش سنة ٥٩٥ هـ حيث دفن فيها ثم نقل إلى تينمل حيث قبور الموحدين[3].

ومن ولاة الموحدين الذين كان لهم جهد في جهاد النصارى ودعوتهم عمر بن إسحاق بن يوسف بن عبد المؤمن، الذي كان والياً على رباط الفتح وبعد وفاة الخليفة الموحدي علي بن إدريس تولى بعده سنة ٦٤٦ هـ[4].

«كانت أيامه أيام رخاء ورغد مفرط لم ير أهل مراكش مثلها[5]. وقال صاحب البيان المغرب: «كان ـ رحمه الله ـ إماماً عادلاً، وملكاً فاضلاً، وفقيهاً عالماً، بالسنة والكتاب حاكماً، لم تُعلم له صبوة في صباه»[6].

من جهوده في جهاد النصارى ودعوتهم انتزاعه مدينة سلا منهم بعد زحفهم عليها سنة٦٥٨ هـ[7].

---

(١) انظر: المصدر السابق، ص (٢٢٨).

(٢) المصدر السابق، ص (٢٣١).

(٣) انظر: المصدر السابق، ص (٢٣٤).

(٤) انظر: الأنيس المطرب، علي بن أبي زرع الفاسي، ص (٢٥٨).

(٥) المصدر السابق، ص (٢٥٩).

(٦) البيان المغرب، أحمد بن محمد بن عذاري، قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرين، ص (٤٤٥).

(٧) انظر: المصدر السابق، ص (٤٢٠) وما بعدها.

ومن جهوده كذلك رسائله الكثيرة للبابا إنوصان الرابع، والتي منها رسالته إليه سنة ٦٤٨ هـ.

حيث دحض في هذه الرسالة عقيدة التثليث، ودعا للبابا أن ينير الله بصيرته ويهديه إلى الحق، ثم طلب منه أن يكون الحبر المكلف بالنظر في شؤون النصارى بالمغرب من ذوي العقل الراجح والأخلاق الحميدة والنزاهة الوافرة[1].

قتل - رحمه الله - سنة ٦٦٥ هـ قرب مراكش[2].

وهكذا كان لبعض الولاة والقادة في غرب الدولة الإسلامية دور مهم في الحفاظ على الكيان الإسلامي وتوحيد كلمة المسلمين هناك، ودعم المسلمين في الأندلس وإيقاف زحف النصارى عليها، إضافة إلى جهودهم غير المباشرة والمتمثلة في التمكين للعلماء ونشر العلم، ولا يخفى أثر ذلك في نجاح الجهود الدعوية بشكل عام، ومنها الجهود الموجهة إلى النصارى.

---

(١) انظر: دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبدالله عنان، ص (٧٧٩).

(٢) انظر: البيان المغرب، أحمد بن محمد بن عذاري، قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرين، ص (٤٤٤).

المبحث الثاني

القائمون بدعوة المسلمين للنصارى من العلماء

تمهيد

مما لا شك فيه أن الإسلام قد اعتنى بالعلماء وأعلى مرتبتهم ورفع شأنهم، وما ذلك إلا لمهمتهم الجليلة والعظيمة في إرشاد الأمة إلى الخير، ولقيامهم بالدعوة إلى دين الله جلّ وعلا بما استحفظوا من العلم والهدى.

ومما يوضح مكانة العلماء في الإسلام وفضلهم أن الله سبحانه أشهدهم مع شهادته وشهادة ملائكته على أجلِّ مشهود به وهو التوحيد، قال سبحانه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨﴾[1].

وفضَّلهم على غيرهم، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2].

وبين نبيّه ﷺ شرف العالم على غيره بقوله: «.... **وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب**»[3].

وأخبر سبحانه وتعالى أن العلماء هم أهل الخشية لله، لتمام معرفتهم به جلّ

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (١٨).

(٢) سورة الزمر، الآية: (٩).

(٣) أخرجه أبو داود، سنن أبي داود، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، (٤/ ٥٧ ـ ٥٨)، وأخرجه الترمذي، سنن الترمذي، كتاب العلم، باب ماجاء في فضل الفقه على العبادة، (٥/ ٤٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، (٢/ ٦٩٤)، وفي صحيح سنن الترمذي (١/ ٣٤٢).

وعلا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[1].

وأي شرف وفضل للعالم الداعية من صلاة الله وملائكته وأهل السموات والأرض عليه، كما قالﷺ: «**... إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلمي الناس الخير**»[2].

وما هذه المنزلة الرفيعة للعلماء في الإسلام وهذه الفضائل التي خصوا بها إلا لعلمهم الذي استحقوا به وراثة الأنبياء، كما قالﷺ: «**... وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر**»[3]؛ وكذلك لأثرهم الكبير في حياة الأمة، إذ إنهم بعلمهم من أهم أسباب هدايتها والمحافظة على عقيدتها من البدع والمحدثات.

ولكون العلماء هم حراس الديانة من البدعة والضلالة، وسبب هيأه الله للهداية للأمة في كل عصر ومصر، فقد أمر سبحانه وتعالى بتخصيص من يتفرغ لتحصيل العلم وتقوم به الكفاية حيث قال جلّ وعلا: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[4].

وكما أن العلماء قد ورثوا العلم من الأنبياء ونالوا الشرف العظيم بذلك فإنهم أيضاً ورثوا مهمة أخرى عظيمة لا تقل عن وراثة العلم، ألا وهي مهمة الدعوة إلى هذا العلم كما قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾[5].

---

(١) سورة فاطر، الآية: (٢٨).

(٢) أخرجه الترمذي، سنن الترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، (٥/ ٥٠)، وقال: هذا حديث غريب، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢/ ٣٤٣).

(٣) سبق تخريجه في الصفحة السابقة هامش رقم ٣.

(٤) سورة التوبة، الآية: (١٢٢).

(٥) سورة يوسف، الآية: (١٠٨).

ولهذا فقد أدرك سلف الأمة هذا الدور العظيم للعلماء، وشعروا بمسؤوليتهم الكبيرة في طلب العلم والدعوة إليه فقاموا بهذه المهمة الجليلة خير قيام فحرصوا على اكتساب العلم وتحصيله وانطلقت جحافلهم دعاة ومجاهدين من المدينة النبويّة إلى سائر أنحاء الجزيرة العربية في عهد النبيّ ﷺ ثم انتشرت إلى أنحاء المعمورة بعد ذلك في عهد الخلفاء ومن بعدهم.

ولا تزال هذه المهمة العظيمة للعلماء قائمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وفي عصر الحروب الصليبية كان العلماء يقومون بهذه المهمة خير قيام، فنبغ الكثير من العلماء في مختلف العلوم وشعروا بمسؤوليتهم في الدعوة بشكل عام ودعوة النصارى على وجه الخصوص، فبذلوا جهوداً مشكورةً في سبيل ذلك من خلال الجهاد، والتعليم، والتأليف، والكتابة، والردود، وغير ذلك. والصفحات التالية تعريف بأبرز علماء الأمة في هذه الفترة الذين كانت لهم جهود واضحة في دعوة النصارى.

المطلب الأول

ابرز العلماء في شرق الدولة الإسلامية

كان لكثير من العلماء في شرق الدولة الإسلامية جهود واضحة في الجهود الدعوية الموجهة إلى النصارى في فترة الحروب الصليبية.

ومن هؤلاء العلماء الإمام محمد بن الوليد بن خلف بن سليمان الطرطوشي، عالم الإسكندرية[1].

نشأ أبو الوليد بالأندلس في بلدة طرطوشة ثم تحول لغيرها من بلاد الأندلس، وأخذ عن عدد من علمائها[2]، ثم رحل إلى المشرق فحج وزار العراق والشام ومصر حيث استقر بالإسكندرية إلى أن توفي بها سنة ٥٢٠ هـ[3].

قال عنه صاحب كتاب الصلة: «كان إماماً، عالماً، زاهداً، ديناً، متواضعاً، متقشفاً، متقللاً من الدنيا، راضياً باليسير[4]. وكانت له الكثير من المؤلفات القيمة منها: سراج الملوك، والتعليقة في الخلافيات، وردٌّ على كتاب إحياء علوم

---

(١) انظر: الديباج المذهب، إبراهيم بن علي بن فرحون، تحقيق د. محمد الأحمدي أبو النور (٢/ ٢٤٤).

(٢) انظر: المصدر السابق (٢/ ٢٤٤).

(٣) انظر: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن محمد مخلوف، القاهرة، ١٣٤٩ هـ، ص (١٢٤ ـ ١٢٥).

(٤) الصلة، خلف بن عبدالله بن بشكوال، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦م، (٢/ ٥٧٥ ـ ٥٧٦).

الدين، وكتاب الحوادث والبدع، وغيرها[1].

ومن جهوده - رحمه الله - في دعوة النصارى كتابه: «الرد على النصارى»[2].

وكان كثير التحذير من كيدهم ومكرهم وشبههم خصوصاً لدى القادة المسلمين، ومن ذلك: أنه دخل ذات يوم على الأفضل[3] ابن أمير الجيوش في مصر، وكان بجانبه نصراني يعتمد عليه في بعض المهمات، فلما وعظ الطرطوشي الأفضل أنشد بيتين يعرض فيهما بالنصراني ومحذراً الأفضل من تقريبه والاعتماد عليه، وهي:

يا ذا الذي طاعته قربة   وحقه مفترض واجب
إن الذي شرفت من أجله   يزعم هذا أنه كاذب

وأشار إلى النصراني، أي أن هذا النصراني يزعم أن محمداً ﷺ كاذب فيما جاء به. فأقام الأفضل النصراني من مجلسه[4].

ومن جهوده غير المباشرة في دعوة النصارى مساهمته في علمه وتدريسه ووعظه حماية للمجتمع من البدع والتحذير منها، ولا يخفى أثر ذلك في قوة المجتمع المسلم وصموده أمام الشبهات والشهوات وما يؤدي إليه ذلك من دعم

---

(١) انظر: المصدر السابق (٢/ ٥٧٦)، وسير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (١٩/ ٤٩٤).

(٢) ذكره المستشرق الألماني مورتز شتاينشنيدر في الأدب الجدلي والدفاعي في اللغة العربي بين المسلمين والنصارى واليهود، ص (١٤٤)، انظر: علم دراسة الأديان عند المسلمين، د. محمود قدح، نشر دار البخاري، المدينة النبويّة، ص (٦٢).

(٣) هو الملك الأفضل أبو القاسم شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالي الأرمني، قدم مع أبيه من عكا حيث تولى وزارة العبيديين بمصر بعد والده فسددها بعد فسادها. كان وافر الهيبة عظيم الرتبة. اغتيل سنة ٥١٥ هـ عن سبع وخمسين سنة.
انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (١٩/ ٥٠٧ - ٥١٠)، والبداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق أحمد أبو ملحم وآخرين، ص (١٣/ ٢٠٢).

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (١٩/ ٤٩٢).

الجهود المبذولة في جهاد النصارى ودعوتهم[(١)(٢)].

ومن له جهود في دعوة النصارى في هذه الفترة نصر بن يحيى بن عيسى بن سعيد المتطبب[(٣)]، والذي عاش بعد سنة ٤٤٩هـ.

ومن خلال كتابه ـ النصيحة الإيمانية ـ وبعض الترجمات اليسيرة عنه يتضح أنه نصراني يعمل بالطب، ثم أسلم بعد بحث ونظر[(٤)].

ويرجح أحد الباحثين[(٥)] أن نصر هذا هو نفسه الذي ترجمت له بعض المصادر باسم يحيى بن يحيى بن سعيد المتطبب النصراني، المتوفّى في البصرة سنة ٥٨٩هـ.

وقد تمثل جهد نصر بن يحيى بعد إسلامه في دعوة النصارى شعوره بمسؤوليته في دعوة قومه، فاستغل معرفته بديانتهم واطلاعه على تحريفاتهم وشبهاتهم فألف كتاباً في ذلك، «وحيث أنقذني الله من الشريعة التي نسخت، والملة التي طمست، وشرفني الله بدين الإسلام. . . أحببت أن أذكر نبذاً من أحوال النصارى. . .»[(٦)].

حيث ذكر في هذا الكتاب نبذاً من أحوال النصارى وفرقهم ومذاهبهم

---

(١) انظر: المبحث الثاني من الفصل الرابع.

(٢) للاستزادة في ترجمة الطرطوشي انظر: الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، إبراهيم بن علي بن فرحون، تحقيق د. محمد الأحمدي أبو النور (٢/ ٢٤٤ ـ ٢٤٨). والصلة، خلف بن بشكوال (٢/ ٥٧٥ ـ ٥٧٦)، وسير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (١٩/ ٤٩٠ ـ ٤٩٦).

(٣) انظر: كشف الظنون، حاجي خليفة، دار العلوم الحديث، بيروت، ١٣٦٩ هـ ـ ١٩٤١م، (٢/ ١٩٥٧ ـ ١٩٥٨)، وهدية العارفين بأسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إسماعيل باشا البغدادي، دار العلوم الحديث، بيروت (٦/ ٤٩٢).

(٤) انظر: المصدرين السابقين، والنصيحة الإيمانية، نصر بن يحيى المتطبب، تحقيق د. محمد الشرقاوي، ص (٤٨)، وما بعدها، وكذلك مقدمة المحقق، ص (١٥) وما بعدها.

(٥) وهو د. محمد الشرقاوي في مقدمة تحقيقه لكتاب النصيحة الإيمانية، ص (١٧).

(٦) النصيحة الإيمانية، نصر بن يحيى المتطبب، تحقيق د. محمد الشرقاوي، ص (٥١).

وأناجيلهم وأبرز معتقداتهم التي أوضح أنه لا يعول عليها وليس لها أصل أو برهان أو حجة تقوم عليها[1]. ثم وجه هذا الكتاب ابتداءً إلى علمائهم ومقدميهم لعلهم يرجعون عن ضلالهم وغيهم وطغيانهم.

ومن أبرز العلماء الذين لهم جهود في دعوة النصارى في شرق الدولة الإسلامية العلامة عبد الرحمن بن علي بن محمد بن جعفر الجوزي نسبة إلى محلة في البصرة يقال لها جوزة[2].

ولد ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ سنة ٥١٠ هـ في بغداد ونشأ بها يتيماً[3]، ولما بلغ سن التمييز بدأ بطلب العلم حتى استسهل كل صعب واستحلى كل مر في سبيل تحصيله حيث قال عن ذلك: «. . . ولقد كنت في حلاوة طلبي العلم ألقي من الشدائد ما هو عندي أحلى من العسل لأجل ما أطلب وأرجو»[4].

ولم يقتصر ابن الجوزي على فن واحد من فنون العلم بل كان له في كل فن مشاركة بل نبوغ في كثير منها، وقد قال عن نفسه: «. . . ولم أقنع بفن واحد، بل كنت أسمع الفقه والحديث، وأتبع الزهاد، ثم قرأت العربية، ولم أترك أحداً ممن يروي ويعظ، ولا غريباً يقدم، إلا وأحضره وأتخير الفضائل»[5].

قال عنه الذهبي: «وله في كل علم مشاركة، لكنه كان في التفسير من الأعيان، وفي الحديث من الحفاظ، وفي التاريخ من المتوسعين، ولديه فقه كاف، وأما السجع الوعظي فله فيه ملكة قوية»[6]. ووصفه بـ«الإمام العلامة

---

(١) انظر: المصدر السابق (٥١ ـ ٥٢).

(٢) انظر: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، يوسف بن قزأوغلي «سبط ابن الجوزي»، حيدرآباد، ١٩٥١م، (٨/ ٣١٠).

(٣) انظر: المصدر السابق (٨/ ٣١٠).

(٤) صيد الخاطر، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص (٢٣٥).

(٥) المنتظم، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق محمد عبد القادر عطا وزميله، (١/ ١٧).

(٦) تذكرة الحفاظ، محمد بن أحمد الذهبي، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد، الهند، ١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٨م، (٤/ ١٣٤٦ ـ ١٣٤٧).

الحافظ المفسر شيخ الإسلام»[1]، وقال عنه: «كان ذا حظ عظيم، وصيت بعيد في الوعظ، يحضر مجالسه الملوك والوزراء وبعض الخلفاء والأئمة والكبراء»[2].

كان ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ كثير التصانيف؛ حيث أوصلها بعضهم إلى ٥١٩ كتاباً مما أوردته المصادر منسوباً إليه[3].

فمن تصانيفه في الوعظ: التبصرة، والمنتخب، وصيد الخاطر.

وفي الفقه: الإنصاف في مسائل الخلاف، وعمدة الدلائل في مشهور المسائل.

وفي التاريخ: المنتظم، ومناقب الإمام أحمد، ومناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومناقب عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ.

وفي التفسير: زاد المسير في علم التفسير، والمغني.

وفي الحديث: جامع المسانيد، والموضوعات[4].

ولابن الجوزي جهود بارزة في الدعوة بشكل عام في عصره، وقد كان لجهوده الأثر الكبير في مجتمعه في ذلك الوقت، وذلك من خلال مجالس وعظه ودروسه وتصانيفه واحتسابه، وقد قال عن ذلك: «... ولقد جلست يوماً فرأيت حولي أكثر من عشرة آلاف ما منهم إلا وقد رق قلبه، أو دمعت عينه»[5].

وقال: «... ولقد تاب على يدي في مجالس الذكر أكثر من مائتي ألف»[6][7].

---

(١) سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (٢١/ ٣٦٥).

(٢) المصدر السابق (٢١/ ٢٧٠).

(٣) انظر: بيبلوجرافيا عن مؤلفات ابن الجوزي، عبد الحميد العلوجي، بغداد، ١٩٦٥م.

(٤) انظر: المرجع السابق.

(٥) صيد الخاطر، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، ص (٢٣٦).

(٦) المصدر السابق، ص (٢٣٦).

(٧) قد يكون قصد ابن الجوزي قد ذكر هذا الرقم التعبير عن كثرة من اهتدى على يديه وليس الحصر.

وكان شديداً على المبتدعة والمتصوفة وله الجهود الكثيرة في محاربتهم والرد عليهم. ولا يخفى أثر هذه الجهود في دعم الجهد الدعوي الموجه إلى النصارى، إذ إن ذلك مما يؤدي إلى تماسك المجتمع والحفاظ عليه من خطر البدعة وضعف اليقين الذي قد يفضي إلى تقبل شبه النصارى والضعف أمامهم فكرياً وعسكرياً.

أما جهود ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ المباشرة في دعوة النصارى فقد كان منها بيانه لضلالهم، ونقده لبعض عقائدهم والتحذير منها(١).

وقد قال عن آثار دعوته للنصارى مبيناً اهتداء الكثيرين منهم على يديه: «. . . وأسلم على يدي نحو مائتين من أهل الكتاب»(٢).

وكانت وفاة ابن الجوزي بعد حياة حافلة بالعلم والدعوة في رمضان من سنة ٥٩٧ هـ في بغداد(٣). ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ.

ومن علماء هذه الفترة الذين لهم جهود في دعوة النصارى الشيخ محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي الرازي نسبة إلى الري، حيث ولد بها سنة ٥٤٤ هـ، ونشأ هناك ثم ارتحل في طلب العلم(٤). وكان متكلماً على مذهب الأشعري وصنف في ذلك ثم رحل في آخر حياته.

---

(١) انظر على سبيل المثال: كتابه: تلبيس إبليس، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، ص (٧٣)، وكتابه: كيد الشيطان، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، ص (٨٨).

(٢) انظر: لفتة الكبد إلى نصيحة الولد، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق مروان العبد، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٤٠٥ هـ، ص (٣٢).

(٣) انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (١٠/ ١٨١ ـ ١٨٢)، وانظر للتوسع في ترجمته: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (٢١/ ٣٦٥)، وما بعدها، والبداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين (١٣/ ٣١ ـ ٣٣)، ومقدمة تحقيق كتابه المنتظم.

(٤) انظر: طبقات الشافعية الكبرى، عبد الوهاب بن علي السبكي، تحقيق عبد الفتاح الحلو وزميله، (٨/ ٨٥).

قال عنه الذهبي: «وقد بدت منه في تواليفه بلايا وعظائم وسحر وانحرافات عن السنة والله يعفو عنه، فإنه توفي على طريقة حميدة...»[(١)].

وقال عنه ابن الأثير: «... كان إمام الدنيا في عصره...»[(٢)].

وقد قال الرازي مبيناً ندمه على الخوض في علم الكلام: «... لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن»[(٣)].

وكان الرازي كثير التصانيف، ومن أشهرها: مفاتيح الغيب في التفسير، والمحصول في أصول الفقه، وله مؤلفات كثيرة في علم الكلام والفلسفة ولكنه تاب من ذلك ورجع عنه وندم عليه.

وكان من جهوده في دعوة النصارى في هذه الفترة مناظراته الكثيرة معهم والتي منها مناظرته المشهورة مع أحد قساوسة أصبهان[(٤)(٥)].

وكان في مناظراته مع النصارى ظاهر الحجة واضح البرهان، لا يجرؤ كثير منهم لذلك على التصريح بمعتقده أمامه.

حتى قيل عنه: «وما من نصراني رآه إلا وقال: أيها الفرد لا نقول بالتثليث بين يديك»[(٦)].

---

(١) سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (٢١/ ٥٠١).

(٢) الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (١٠/ ٢٧٥).

(٣) سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (٢١/ ٥٠١).

(٤) أصبهان أو أصفهان: مدينة تقع حالياً في وسط إيران بين طهران وشيراز.
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (١/ ٢٤٤)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٦٩).

(٥) انظر: عيون المناظرات، عمر السكوني، تحقيق سعد غراب، منشورات الجامعة التونسية، ١٩٧٦م، ص (٢٨٣ ـ ٢٨٧).

(٦) طبقات الشافعية الكبرى، عبد الوهاب بن علي السبكي، تحقيق عبد الفتاح الحلو وزميله (٨/ ٨٤).

ومما يضاف إلى جهوده في هذا المجال عرضه لعقائد النصارى وبيانها والرد عليها وذلك في بعض كتبه[١].

وإسهابه في ذلك في تفسيره عند الآيات التي تتحدث عن النصارى حيث يعرض الكثير من عقائدهم وشبهاتهم مبطلاً ومفنداً لها.

وقد كانت وفاة الرازي بهراة[٢] يوم عيد الفطر سنة ٦٠٦ هـ[٣].

ومن علماء المشرق الذين كان لهم جهد في مواجهة النصارى خصوصاً في مجال التأليف الشيخ عبد القادر بن عبدالله الفهري الرهاوي الحراني، والذي كان مولده بالرها سنة ٥٣٦ هـ، وكان من حفاظ الحديث ومن علماء التراجم[٤].

كان من جهوده في دعوة النصارى كتابه: «الرد على النصارى»[٥]. وكانت وفاته ـ رحمه الله ـ سنة ٦١٢ هـ[٦].

---

(١) انظر مثلاً: كتابه اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، ص (١١٥).

(٢) هراة تقع حالياً في شمال غرب أفغانستان، قرب الحدود الإيرانية، وهي من أهم محطات القوافل التجارية قديماً. انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، (٥/ ٤٥٦)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون (٧٣).

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (٢١/ ٥٠١)، وانظر للتوسع في ترجمته: وفيات الأعيان، أحمد بن محمد بن خلكان، تحقيق د. إحسان عباس، (٤/ ٢٤٨) وما بعدها. وطبقات المفسرين، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧٦م، ص (١٠٠ ـ ١٠١)، وطبقات الشافعية الكبرى، عبد الوهاب بن علي السبكي، تحقيق عبد الفتاح الحلو وزميله (٨/ ٨١) وما بعدها.

(٤) انظر: الذيل على طبقات الحنابلة، عبد الرحمن بن أحمد الحنبلي «ابن رجب»، دار المعرفة، بيروت، (٢/ ٨٢).

(٥) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ٨٣٨).

(٦) انظر: الذيل على طبقات الحنابلة، عبد الرحمن بن أحمد الحنبلي، «ابن رجب» (٢/ ٨٦).

ومن ألف في الرد على النصارى من علماء المشرق علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني القفطي الذي ولد بقفط من صعيد مصر وسكن حلب إلى أن مات بها حيث تولى قضاءها أيام الملك الظاهر ثم تولى الوزارة للملك العزيز[١].

قال عنه الذهبي: «جمع من الكتب شيئاً كثيراً يتجاوز الوصف»[٢]. وكان من تصانيفه: تاريخ النحاة، وأخبار المصنفين وما صنفوه، وتاريخ مصر وغيرها[٣].

ومن مشاركته في الجهود المبذولة في دعوة النصارى كتابه: «الرد على النصارى»[٤].

وكانت وفاة القفطي ـ رحمه الله ـ في حلب سنة ٦٤٦ هـ[٥].

وفي خوارزم في شرق الدولة الإسلامية كان للمختار بن محمود بن محمد الزاهدي جهود في مواجهة النصارى، والتي كان منها: «رسالة في المناظرة بين المسلمين والنصارى» و«رسالة في ذكر المخالفين لنبوّة نبيّنا محمدﷺ والجواب عن شبههم وإثبات نبوّة محمدﷺ»[٦].

وكان للزاهدي مناظرات مع علماء النصارى أمام الملك بركة خان[٧]

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (٢٣/ ٢٢٧)، وحسن المحاضرة، عبد الرحمن السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (١/ ٥٥٤).

(٢) المصدر السابق (٢٣/ ٢٢٧).

(٣) انظر: المصدر السابق (٢٣/ ٢٢٧).

(٤) مخطوط ذكره المستشرق الألماني مودتز في الأدب الجدلي، ص (١٣٦)، انظر: علم دراسة الأديان عند المسلمين، د. محمود قدح، ص (١٢٩).

(٥) انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (٢٣/ ٢٢٧).

(٦) هذان الكتابان مخطوطان ذكرهما المستشرق الألماني مورتز في الأدب الجدلي، ص (٥٧ ـ ٦٣)، انظر: علم دراسة الأديان عند المسلمين، د. محمود قدح، ص (٦٥).

(٧) بركة خان كبير الخوارزمية مات سنة ٦٤٤ هـ لما هزم أصحابه عند بحيرة حمص من قبل الأيوبيين.

انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (٢٣/ ١٤٨)، والبداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين (١٣/ ١٨٤).

المغولي، حيث جمع بعض ما ألفه في هذا المجال بكتاب أسماه: «الرسالة الناصرية» وأهداه للملك المغولي دعماً منه في مواجهة النصارى ودعوتهم[١].

وقد كانت وفاة الزاهدي ـ رحمه الله ـ سنة ٦٥٨ هـ[٢].

ومن العلماء البارزين في دعوة النصارى في المشرق في هذه الفترة الشيخ صالح بن الحسين بن طلحة بن الحسن بن محمد الهاشمي الجعفري[٣] الذي كان مولده بمصر سنة ٥٨١ هـ[٤].

قال عنه الذهبي: «صالح بن الحسين القاضي الجليل، الإمام تقي الدين أبو البقاء الهاشمي، كان رئيساً نبيلاً عارفاً بالأدب، ولي قضاء قوص مدة، وله خطب ونظم ونثر وتصانيف»[٥].

كان الجعفري كثير المناظرة لرهبان النصارى، حيث يدل على ذلك بعض الإشارات في كتبه، ومن ذلك مثلاً قوله: «... ولقد فاوضني بعض الرهبان ممن يدعي بناناً في البيان[٦]. وقوله: «لقد فاوضت بعض النصارى فيما يتعلق بألفاظ البنوة...»[٧]، وقوله: «... قلت لنصراني من عقلائهم...»[٨].

(١) انظر: الرسالة الناصرية، مختار بن محمود الزاهدي، تحقيق محمد المصري، منشورات مركز المخطوطات والتراث، الكويت، ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤م.

(٢) انظر: الفوائد البهية في تراجم الحنفية، محمد عبد الحي اللكهنوي، مصر، ١٣٢٤ هـ، ص (٢١٢)، والأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة التاسعة، ١٩٩٠ م (٧/ ١٩٣).

(٣) انظر: ذيل مرآة الزمان، موسى بن محمد اليونيني، مطبعة محاسن دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد، الهند، الطبعة الأولى، ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٤م (٢/ ٤٣٨).

(٤) انظر: النجوم الزاهرة، يوسف بن تغري بردي (٦/ ٩٨).

(٥) تاريخ الإسلام، محمد بن أحمد الذهبي، مخطوطة بمكتبة الجامعة الإسلامية، ورقة ٧٤/أ.

(٦) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (١/ ٢٥٠).

(٧) المصدر السابق (١/ ٢٣٣).

(٨) المصدر السابق (١/ ٣٥٣).

ومن جهود الجعفري في هذا المجال اهتمامه بما يصدر عن نصارى الفرنج تجاه المسلمين وتصديه لشبههم والرد عليها وتفنيدها. ففي كتابه «الرد على النصارى» أشار إلى أن الدافع له لتأليفه أسئلة وردت من الفرنج يمتحنون بها المسلمين إذ يقول: «... وقفت على مسائل ذكر أن الفرنج بعثوا بها يمتحنون أهل الإسلام، فنظرت فيها فإذا هي خالية من الفوائد الدينية عاطلة عن المنافع الدنيوية»[1].

أما التأليف في هذا المجال فكان للجعفري الجهد الواضح فيه دعوةً لهم، ورداً على شبههم، وبياناً للحق الذي اشتبه على كثير من عامتهم؛ حيث استشعر هذه المهمة الجليلة في دعوة النصارى، فبين أن من أسباب تأليفه مثلاً لكتاب تخجيل من حرف التوراة والإنجيل هو رجاء هدايتهم «فعسى الله أن يقدر هداية بعضهم، ونحن مأمورون بدعائهم إلى سبيل ربنا بالحكمة والموعظة الحسنة»[2]. إضافة إلى طلب بعض أهل العلم أن يؤلف لهم كتاباً يعينهم في مواجهة النصارى «فزعم جماعة أني عارف بكتبهم، خبير بمخاريقهم وكذبهم... وقالوا: لو أبرزت لُمَعاً تكون على الحق علماً؟ فأجبتهم لوجوب حقهم، ورجوت الحياء عند وميض برقهم»[3].

ومما دفعه إلى التأليف أيضاً تعليم الحجة في الرد عليهم، وإلزامهم بمقتضى أصولهم «وهذا مما يعين على دعوتهم»[4]. مع ما في ذلك من ترسيخ لإيمان المسلم بإظهار الآيات من كتبهم التي توافق القرآن، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾[5].

---

(١) الرد على النصارى، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق: د. محمد محمد حسانين، ص (٥٦).

(٢) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (١/ ١٠٣).

(٣) المصدر السابق (١/ ١٠٣).

(٤) المصدر السابق (١/ ١٠٣).

(٥) سورة الأعراف، الآية: (١٥٧).

«وكثرة الأدلة توجب الطمأنينة وتثلج الصدور»[1].

ولهذا الغرض الجليل المتمثل في دعوة النصارى إلى الإسلام وردّ شبههم وكشف باطلهم ليتسنى لمن حجب عنه الحق منهم أن يعرفه قام الجعفري بتأليف عدد من الكتب منها: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، وكتاب الرد على النصارى، وكتاب الواضح المشهود في فضائح النصارى واليهود.

ومما يضاف إلى جهود الجعفري في دعوة النصارى إلى الإسلام اعتماد الملك الكامل عليه في بعض الأحيان للرد على أسئلة النصارى ومناقشتهم.

فعندما أرسل ملك الروم رسالة إلى الملك الكامل سنة ٦١٨ هـ متضمنة بعض الأسئلة للمسلمين كان ممن كلف بالإجابة عليها الجعفري[2].

وقد كانت وفاته ـ رحمه الله ـ سنة ٦٦٨ هـ بالقاهرة حيث دفن بالمقطم[3].

وممن كان كثير المخالطة لأهل الذمة من العلماء في المشرق، ومن شعر بخطورة التفرق على الأمة والأثر السيىء للفرق المختلفة على المسلمين، ومنهم النصارى الشيخ عباس بن منصور الترعي السكسكي الحنبلي المولود سنة ٦١٦ هـ في تعز باليمن حيث نشأ فيها حتى عُدَّ من علمائها وتولى القضاء فيها[4].

ومن جهود السكسكي في دعوة النصارى تأليفه كتاباً أبرز فيه معتقدات بعض الفرق السائدة في عصره على سبيل التحذير منها، ومن هذه الفرق: النصارى.

وقد بين السبب الذي دفعه إلى ذلك بقوله: «لما رأيت أهل العلم والسنة يأخذون في النقصان، وأهل الأهواء والمذاهب يكثرون في الأقطار والبلدان، ويهدمون بتلبيسهم قواعد الإسلام؛ أحببت أن أجمع مختصراً أذكر فيه قواعد

---

(١) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق د. محمود قدح (١/١٠٢ ـ ١٠٣).

(٢) انظر: الواضح المشهود ورقة ٢.

(٣) انظر: ذيل مرآة الزمان، موسى بن محمد اليونيني (٢/٤٣٨).

(٤) انظر: هدية العارفين، إسماعيل باشا البغدادي (١/٤٣٨).

الثلاث وسبعين فرقة التي ذكرها رسول الله ﷺ. . . وأذكر بعض عقائدها الفاسدة وتأويلاتها الباردة على طريق الاختصار؛ ليعرفهم بذلك من جهلهم، ويتحفظ عنه من سألوه أو سألهم، ثم أذكر بعد ذلك نُبذاً من اعتقاد بعض ضلال الأمم السالفة»[1].

حيث أفرد السكسكي مبحثاً عن النصارى وضح فيه بعض معتقداتهم وفرقهم على سبيل التحذير منهم وبيان باطلهم[2].

وقد كانت وفاة السكسكي ـ رحمه الله ـ سنة ٦٨٣ هـ[3].

ومن أبرز علماء المشرق الذين لهم جهود كبيرة في دعوة النصارى الشيخ أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المصري الصنهاجي القرافي المولود سنة ٦٢٦ هـ بمصر[4].

والصنهاجي نسبة إلى قبيلة صنهاجة البربرية، والقرافي نسبة إلى القرافة[5]، وهي المحلة المجاورة لقبر الشافعي ـ رحمه الله ـ.

ولمكانة القرافي العلمية في مصر فقد أثنى عليه كثير من العلماء، فمن ذلك قول صاحب الديباج عنه «. . . أحد الأعلام المشهورين، انتهت إليه رئاسة الفقه على مذهب مالك»[6].

---

(١) البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان، عباس بن منصور السكسكي الحنبلي، تحقيق د. بسام العموش، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، الطبعة الثانية، ١٤١٧ هـ، ص (١٣ ـ ١٤).

(٢) انظر: المصدر السابق، ص (٩١ ـ ٩٢).

(٣) انظر: هدية العارفين، إسماعيل باشا البغدادي (١/ ٤٣٨).

(٤) انظر: الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، إبراهيم بن علي بن فرحون، تحقيق د. محمد الأحمدي أبو النور (١/ ٢٣٦).

(٥) انظر: المصدر السابق (١/ ٢٣٨).

(٦) انظر: المصدر السابق (١/ ٢٣٦).

وعده السيوطي[1] من طبقة المجتهدين بمصر[2].

وللقرافي العديد من المصنفات في كثير من الفنون خاصةً في الفقه وأصوله، فمن مصنفاته: الذخيرة في الفقه المالكي، واليواقيت في أحكام المواقيت، والأحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام، والبروق في أنواع الفروق في القواعد الفقهية، والاستغناء في أحكام الاستثناء[3]. إلى غير ذلك.

أما جهوده في دعوة النصارى فتتمثل في مناظراته الكثيرة معهم والرد على شبههم، ودعمه للسلطة في قوته في مواجهتهم.

فمما يدل على كثرة مناظراته مع النصارى قوله في أحد كتبه: «... اتفق لي مع كثير منهم في المناظرة أني أطالبه بتصوير مذهبه كيف يمكن إقامة الدليل عليه...»[4].

وقد اعتنى ـ رحمه الله ـ في الرد على شبههم، ومن ذلك تخصيص الباب الثاني في كتابه الأجوبة الفاخرة في الرد عليها وتفنيدها حيث قال: «الباب الثاني في أسئلة لأهل الكتاب النصارى واليهود عادتهم يتولوعون بإيرادها... والجواب عنها...»[5].

---

(١) هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين السيوطي، جلال الدين، إمام حافظ، مؤرخ، أديب، له نحو ستمائة مصنف، كان مولده في القاهرة سنة ٨٤٩ هـ ووفاته فيها سنة ٩١١ هـ. من كتبه: تفسير الجلالين، والأشباه والنظائر، وتاريخ الخلفاء، وحسن المحاضرة، والإتقان وغير ذلك.
انظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن عماد الحنبلي، تحقيق محمد الأرناؤوط، (١٠/ ٧٤ ـ ٧٩)، والكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة، نجم الدين محمد الغزي، تحقيق جبرائيل سليمان جبور، نشر محمد أمين دمج وشركائه، بيروت، (١/ ٢٢٦ ـ ٢٣١).

(٢) انظر: حسن المحاضرة، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (١/ ١٢٧).

(٣) الديباج المذهب، إبراهيم بن علي بن فرحون، تحقيق د. محمد الأحمدي أبو النور (١/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨).

(٤) الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص (١١١).

(٥) المصدر السابق، ص (٣).

ومن مشاركته ودعمه للسلطة في وقته في مواجهة النصارى ودعوتهم تأليفه كتاب «أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية» وإهدائه للملك الكامل الذي كان الصراع العسكري والفكري في وقته على أشده مع الصليبيين، وقد قال القرافي في ذلك: «... فرأيت أن أؤلف لمولانا السلطان أعزه الله تعالى في الرد عليهم كتاباً أتحفه فيه بغريبه، وانفرد فيه بطريقة عجيبة، أجمع فيه مذاهبهم على جليتها، وأخاطبهم بفصوص نصوصهم، وأجادلهم بها مجادلة الأقران، وأبارزهم على نقضها مبارزة الشجعان...»(١).

والقرافي كان مستشعراً لأهمية الدعوة إلى الإسلام بشكل عام وأن الذب عن الدين والدعوة إليه أسمى ما تصرف فيه الهمم حيث قال: «أجلت طرف الفكر ميدان النظر أي فن أقصد إليه، وأرجو من الله أن يثيبني عليه، فظهر لي أن أولى ما تصرف إليه الهمم، وتتفاوت فيه القيم، وتتنافس فيه الأفاضل، وتتميز به المفضول من الفاضل الذب عن حوزة الدين وحراسة بيضة المسلمين بالبحث في الملل والأديان، وإقامة الدليل على وحدانية الملك الديان...»(٢). ثم وضح القرافي أن أولى من يدعى إلى ذلك هم النصارى حيث قال: «فنظرت في أهل الشرائع والمذاهب، وتفكرت فيمن هو فيها عن التوحيد ذاهب، فلم أجد سوى مذهب النصارى الضالين الحيارى...»(٣).

ومن الكتب أيضاً التي ألفها القرافي في هذا المجال كتاب «الأقوال القديمة في حكم النقل من الكتب القديمة».

وبعد حياة حافلة بالعلم والدعوة توفي القرافي في جمادى الآخرة من سنة ٦٨٤ هـ بالقاهرة ـ رحمه الله رحمة واسعة(٤).

---

(١) أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية، أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق د. عبد الرحمن دمشقية، ص (٢٠).

(٢) انظر: المصدر السابق، ص (٢٠).

(٣) انظر: المصدر السابق، ص (٢٠).

(٤) انظر: الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، إبراهيم بن علي بن فرحون، تحقيق د.

والشيخ عبد العزيز بن أحمد بن سعيد الدميري المعروف بالديريني المولود سنة ٦١٢ هـ في مصر والذي كان فقيهاً له العديد من الكتب منها: التيسير في علم التفسير، وطهارة القلوب في الخضوع لعلام الغيوب وغيرها؛ كان له أيضاً مشاركة في دعوة النصارى والرد عليهم، تمثل ذلك في كتابه: «إرشاد الحيارى في الرد على النصارى» وقد كانت وفاة الديريني في مصر سنة ٦٩٤ هـ[(١)].

والبوصيري محمد بن سعيد بن حماد بن محسن الصنهاجي المولود في بلدة دلاص بمصر سنة ٦٠٨ هـ ووفاته في بوصير بمصر سنة ٦٩٥ هـ[(٢)] كانت له أيضاً مشاركة في الرد على النصارى في هذه الفترة من خلال منظومته وتعليقاته عليها والتي عرض فيها لبعض عقائدهم منتقداً لها ومحذراً منها ومطالباً إياهم بالإيمان بنبوّة محمد ﷺ[(٣)].

محمد الأحمدي أبو النور (١/ ٢٣٩)، وكشف الظنون، حاجي هليفة (٢/ ١١٥٣)، وحسن المحاضرة، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، (١/ ١٢٧)، ومقدمة د. عبد الرحمن دمشقية في تحقيقه لكتاب القرافي: أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية.

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى، عبد الوهاب بن علي السبكي، تحقيق عبد الفتاح الحلو وزميله (٥/ ٧٥)، وهدية العارفين، إسماعيل باشا البغدادي،(٥/ ٥٨٠)، وحسن المحاضرة، عبد الرحمن السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (١/ ٤٢١).

(٢) انظر: حسن المحاضرة، عبد الرحمن السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (١/ ٥٧٠).

(٣) انظر: منظومة الإمام الأبوصيري في الرد على النصارى واليهود، تأليف وشرح محمد بن سعيد الأبوصيري، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا.

المطلب الثاني

أبرز العلماء في غرب الدولة الإسلامية

في الوقت الذي كان الصراع الفكري والعسكري على أشده بين المسلمين والنصارى في شرق الدولة الإسلامية، وكان لعلماء المشرق مساهمات كبيرة في مواجهة النصارى فإن أحوال المغرب الإسلامي خصوصاً الأندلس تعيش أوضاعاً مشابهة؛ إذ لا يكاد ينقطع الصراع الفكري والعسكري فيها بين الفريقين.

وكان لعلماء هذه البلاد الجهود المشكورة في مواجهة النصارى ودعوتهم إلى الإسلام.

وقد كان من علماء هذه الفترة في غرب الدولة الإسلامية الذين لهم إسهام في دعوة النصارى عبد الملك بن مسرة بن فرج بن خلف بن عزيز اليحصبي من علماء قرطبة، وكان ممن جمع الله له الحديث والفقه مع الأدب والفضل والورع والتواضع(١).

كان عبد الملك بن مسرة عالي الذكر رفيع القدر في قرطبة ولذلك اجتمع عدد من أساقفة طليطلة واتفقوا فيما بينهم على الكتابة إليه ثناءً على النصرانية وطعناً في الإسلام حيث تولى صياغة رسالتهم إليه رجل يقال له: عبد الرحمن بن غصن(٢) فأصبحت تنسب هذه الرسالة إليه.

---

(١) انظر: الصلة، خلف بن عبدالله بن بشكوال، (٢/ ٣٦٦ ـ ٣٦٧).

(٢) عبد الرحمن بن غصن، وصف في بعض المصادر بالنصراني، انظر: التكملة لكتاب

ولما تسلم ابن مسرة رسالتهم قام بالإجابة عنها «وأحسن الجواب وأظهر لهم جهلهم وتبلدهم في ذلك الكتاب»[1]. وشفع رسالته إليهم بقصيدة نظمها في معنى جوابه المذكور، وقد عرفت رسالته وقصيدته في الرد عليهم بـ«ميزان الصدق المفرق بين أهل الباطل وأهل الحق»[2].

وقد كانت وفاة عبد الملك بن مسرة في رمضان سنة ٥٥٢ هـ[3].

وممن كان له جهود في دعوة النصارى في مدينة بياسة[4] بالأندلس عبدالله بن سهل الضرير الغرناطي.

والذي كانت له عناية بالقرآن والحديث والنحو والمنطق، سكن مرسية في آخر حياته حيث توفي فيها سنة ٥٧١ هـ[5].

ومن جهوده في دعوة النصارى لقاءاته بقساوستهم ومقدميهم ومناظراته معهم

الصلة، عبدالله بن محمد بن الآبار، طبعة فرانسسكو كوديرا، مدريد، ١٨٨٧م، (٢/ ٧٢٣).

(١) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، ص (٤٩).

(٢) انظر: فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف، محمد بن خير الأموي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩م، ص (٤١٨).

(٣) انظر: الصلة، خلف بن عبدالله بن بشكوال (٢/ ٣٦٧)، والديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، إبراهيم بن علي بن فرحون، تحقيق د. محمد الأحمدي أبو النور (٢/ ١٨ ـ ١٩).

(٤) بياسة مدينة تقع حالياً في جنوب إسبانيا إلى الشرق من مدينة قرطبة (كوردويه).
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (١/ ٦١٣ ـ ٦١٤)، وأطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس، ص (١٧٢).

(٥) انظر: التكملة لكتاب الصلة، عبدالله بن أحمد بن الآبار (٢/ ٨٤٩ ـ ٨٥٠)، والإحاطة في أخبار غرناطة، محمد بن عبدالله بن الخطيب، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥م، (٣/ ٤٠٤).

ودحض حججهم والظهور عليهم خصوصاً بين سنتي ٥٤٣ ـ ٥٤٧ هـ إبان سيطرة النصارى على مدينة بياسة.

قال عن جهوده في ذلك صاحب كتاب الإحاطة: «فجرت بينه وبين قسيسهم مجالس في التناظر حاز فيها قصب السبق»[(١)].

وأبو الأصبغ عيسى بن موسى بن عمر بن زروال الشعباني المتوفّى قبل سنة ٥٧٥ هـ من أهل غرناطة وكان فقيهاً محدثاً أديباً شاعراً[(٢)]، له مساهمات في دعوة النصارى ورد شبههم.

فقد كثر في وقته تداول قصيدة نقفور الروم التي نظمها أحد النصارى العرب على لسانه وبعث بها إلى الخليفة العباسي في بغداد المطيع لله[(٣)] (٣٣٤ ـ ٣٦٣)، والتي مطلعها:

من الملك الطهر المسيحي مالكاً إلى خلف الأملاك من آل هاشم[(٤)]

وفي هذه القصيدة سب للإسلام وطعن فيه وإثارة للشبه حول تشريعاته.

فكانت هذه القصيدة يتداولها نصارى الأندلس في وقته طعناً في الإسلام، فأنشأ أبو الأصبغ قصيدة في الرد عليها لم يصل منها شيء سوى مطلعها:

---

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة، محمد بن عبدالله بن الخطيب (٣/ ٤٠٤).

(٢) انظر: صلة الصلة، أحمد بن إبراهيم بن الزبير، تحقيق ليفي بروفنسال، مكتبة خياط، بيروت، ص (٤٦ ـ ٤٧)، وفهرسة ما رواه عن شيوخه، محمد بن خير الأموي، ص (٤١٠).

(٣) هو الفضل بن جعفر بن المعتضد بالله العباسي، بويع الخلافة بعد خلع المستكفي بالله سنة ٣٣٤ هـ، كانت أيامه أيام ضعف في الدولة، ولم يكن له إلا ذكره في الخطبة، والإدارة الفعلية لبني بويه، مرض فتنازل عن الخلافة لابنه الطائع، كان مولده سنة ٣٠١ هـ ووفاته سنة ٣٦٤ هـ.

انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٧/ ١٥٩ ـ ١٦٠)، وسير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (١٥/ ١١٣).

(٤) ديوان الإمام ابن حزم الظاهري، تحقيق: صبحي رشاد عبد الكريم، دار الصحابة، طنطا، الطبعة الأولى، ١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ م، ص (٤٢).

من الملك المنصور من آل هاشم سليل السراة المنجبين الأعاظم[١]

وبطبيعة الحال فإن أبا الأصبع يقصد في رده على هذه القصيدة الرد على كل من يرمز للنصرانية وليس نقفور بذاته التي كانت القصيدة على لسانه، وحديثه على لسان الخليفة رمز للدفاع عن الإسلام ومن ينتسب له وليس شخص الخليفة بعينه.

ومن أبرز علماء الأندلس الذين لهم جهود في مواجهة النصارى ودعوتهم أحمد بن عبد الصمد بن أبي عبيدة الخزرجي المولود في قرطبة سنة ٥١٩ هـ. حيث نشأ بها ثم تنقل بين الأندلس والمغرب، وكف بصره في آخر عمره، وقد عرف ـ رحمه الله ـ منذ شبيبته بالذكاء والحفظ، وكانت له عناية بالحديث والتواريخ[٢]. وله جهود مشكورة في دعوة النصارى من خلال كتاباته في عقائدهم، ومناظراته معهم، والرد على شبههم.

ومن ذلك أنه كان أحد قساوسة طليطلة الإفرنج يثير الشبه ويلقيها بين المسلمين لزعزعة ثقتهم في دينهم، وكانوا يحارون في الإجابة عنها حتى هيأ الله لهم أبا عبيدة، فكان المسلمون يأتون إليه ليجيب على أسئلة القسيس وشبهه، فيتصدى أبو عبيد لذلك، فتزول شبهتهم ثم يحملون الإجابة إلى القسيس ليلقمونه حجراً ويفندون حججه ويبطلون ادعاءاته[٣].

وكانت لأبي عبيدة جهود مباشرة في النقاش والردود والدعوة لقساوسة النصارى في الأندلس، منها على سبيل المثال: رسالته إلى أحد قساوسة طليطلة

(١) فهرسة مما رواه عن شيوخه، محمد بن خير الأموي، ص (٤٠٩ ـ ٤١٠).
(٢) انظر: الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، إبراهيم بن علي بن فرحون، تحقيق د. محمد الأحمدي أبو النور (١/ ٢١٥ ـ ٢١٦)، وجذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، أحمد بن محمد بن القاضي، دار المنصور، الرباط ١٩٧٣م، ص (٧٠).
(٣) انظر: مقامع هامات الصلبان ومراتع رياض أهل الجنة، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، المطبوع بتحقيق محمد شامة، تحت عنوان: «بين الإسلام والمسيحية» ص (٥٣).

رداً على رسالة بعث بها هذا القسيس إليه يدعوه فيها إلى النصرانية ويثير فيها بعض الشبه حول الإسلام.

حيث أرسل له أبو عبيدة رسالة يدعوه فيها إلى الإسلام، ويظهر له مثالب النصرانية وتحريفها، ويزيل الشبه التي تعلق بها هذا القسيس للطعن في الدين الإسلامي[1].

ومما يضاف إلى جهود أبي عبيدة في هذا المجال تأليفه للكتب التي توحي عناوين بعضها بأنها مجابهة لحرب فكرية أثارها النصارى في الأندلس ضد الإسلام والمسلمين في وقته. ومن هذه الكتب: مقاطع هامات الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان[2]، وكتاب مقام المدرك في إفحام المشرك[3]، وكتاب مقصد السبيل في معرفة آيات الرسول، وكتاب آفاق الشموس وأعلاق النفوس، والأخير في أحكام النبيّ ﷺ.

وكانت لأبي عبيدة ـ رحمه الله ـ مشاركة في الجهاد العسكري ضد النصارى حتى أنه أسر في طليطلة سنة ٥٤٠ هـ، وبقي في الأسر إلى سنة ٥٤٢ هـ، وكان خلال فترة أسره يحاور النصارى ويناقشهم ويملي الحجة على المسلمين الذين في الأسر معه لمواجهة شبه النصارى وادعاءاتهم.

وبعد فكاك أبي عبيدة من الأسر ودعماً منه للجهود المبذولة في مواجهة النصارى جمع بعض ردوده ومناقشاته معهم في عدة نسخ ووضعها بأيدي المسلمين الذين لا يزالون تحت الأسر في طليطلة.

حيث قال صاحب كتاب الذيل والتكملة عن ذلك: «... وتركه في نسخ بأيدي جماعة من المسلمين المبتلين بالأسر هناك لما يسر الله في تخلصه»[4].

---

(١) انظر: المصدر السابق، ص (١٢٠) وما بعدها.

(٢) المطبوع بتحقيق د. محمد شامة تحت عنوان: بين الإسلام والمسيحية.

(٣) ذكره ابن فرحون في الديباج المذهب، ص (١/ ٢١٦).

(٤) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، محمد بن محمد بن عبد الملك المراكشي، دار الثقافة، بيروت، السفر الأول، القسم الأول، ص (٢٤٠).

وقد كانت وفاة أبي عبيدة في فاس[١] سنة ٥٨٢ هـ[٢] رحمه الله رحمة واسعة.

ومن علماء المغرب الإسلامي الذين لهم جهود في دعوة النصارى الإمام محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي، الذي نشأ في قرطبة بالأندلس وأخذ عن علمائها ثم هاجر إلى المشرق واستوطن مصر حيث كانت وفاته في منية الخصيب بصعيد مصر سنة ٦٧١ هـ[٣].

كان القرطبي محدثاً، فقيهاً، مفسراً، متبحراً في كثير من العلوم، وكان ورعاً زاهداً، متعبداً، عمر أوقاته بين العبادة والتصنيف، حيث خلف العديد من المؤلفات القيمة، من أشهرها: كتابه في التفسير: الجامع لأحكام القرآن، والأسنى في أسماء الله الحسنى، والتذكار في أفضل الأذكار، والتذكرة بأحوال الموتى وأحوال الآخرة، إلى غير ذلك.

وفيما يتعلق بدعوة النصارى فله اهتمام كبير في هذا الجانب يتمثل في حرصه على الرد عليهم وكشف ضلالهم وإزالة شبهاتهم.

ومن ذلك رده على قسيس طليطلة الذي بعث بكتاب إلى المسلمين في قرطبة أسماه: تثليث الوحدانية[٤]. حيث رد عليه القرطبي بكتاب أسماه: «الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإثبات نبوّة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام»[٥].

---

(١) فاس: مدينة تقع حالياً في شمال غرب المغرب أسسها إدريس الثاني سنة ١٩٣ هـ. انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٤/ ٢٦١)، وأطلس العالم، محمد سيد نصر وآخرون، ص (٦٣).

(٢) المصدر السابق (١/ ٢٤١).

(٣) انظر: الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، إبراهيم بن علي بن فرحون، تحقيق د. محمد الأحمدي أبو النور (٢/ ٣٠٨ ـ ٣٠٩)، ونفح الطيب من غصن الأندلس الطيب، أحمد بن محمد المقري، تحقيق: د. إحسان عباس (٢/ ٢١٠ ـ ٢١٢).

(٤) انظر: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، ص (٤٣).

(٥) نسب هذا الكتاب للقرطبي المفسر: كارل بروكلمان (انظر: تاريخ الأدب العربي (١/

حيث ناقش القرطبي في كتابه الإعلام فصلاً بين فيه أن السبب الذي دفعه إلى ذلك هو خشيته من تلبيس قسوسهم الذين يكتبون حول بعض تشريعات الإسلام وهم لا يحسنون ذلك، فقرأها إخوانهم في الديانة فيفهموا الإسلام على غير وجهه الصحيح(١).

إضافة إلى أنه وضع هذا الفصل ليطلع عليه النصارى فيفهمون الإسلام على الوجه الصحيح ليكون ذلك أدعى إلى اعتناقهم إياه(٢).

ومن العلماء المسلمين في غرب الدولة الإسلامية الذين لهم إسهام في دعوة النصارى الحسين بن عتيق بن رشيق التغلبي من أهل مرسية بالأندلس، والذي كان متبحراً في التاريخ والأدب مشاركاً في كثير من الفنون(٣).

فمن جهود هذا العالم في دعوة النصارى مناظراته مع بعض قساوستهم خصوصاً في مدينة مرسية، حيث جرت بينه وبن قسيسها مناظرة حول إعجاز القرآن، وذلك أن هذا القسيس استدعاه للمذاكرة ثم استدرجه حتى قعد إلى نفرٍ من النصارى، فبدأ القسيس يتكلم في إعجاز القرآن لينفي ذلك عنه، فتصدى له ابن رشيق وتمكن من إسكاته، والرد عليه وقطع حجته، ولم ينفصل عنهم «إلا وهم كالمسلمين في انقطاع شبهتهم»(٤).

---

٧٣٧)، وإسماعيل باشا البغدادي في كتابه: هدية العارفين (٢/ ١٢٩)، وأيد ذلك الدكتور القصبي زلط في كتابه «القرطبي ومنهجه في التفسير» ص (٤٧ ـ ٤٨)، وكذلك الباحث فايز بن سعيد عزام في تحقيقه لهذا الكتاب في جامعة أم القرى عام ١٤٠٥ هـ حيث قال: «. . . يبدو والله أعلم أن تأليف هذا الكتاب المخطوط كان في بداية حياة القرطبي العلمية أثناء مقامه في قرطبة»، ص (٥١).

(١) انظر: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ص (٤٣٨).

(٢) انظر: المصدر السابق، ص (٤٣٨ ـ ٤٣٩).

(٣) انظر: الإحاطة في أخبار غرناطة، محمد بن عبدالله بن الخطيب (١/ ٤٧٢)، والمعيار المعرب، أحمد بن يحيى الونشريسي (١١/ ١٥٥).

(٤) انظر: المعيار المعرب، أحمد بن يحيى الونشريسي (١١/ ١٥٨).

وقد كانت وفاة ابن رشيق سنة ٦٩٦ هـ[١].

وفي فترة الحروب الصليبية كثر تداول رسالة أحمد بن غرسية[٢] في بلاد الأندلس والتي ذم فيها العرب وفخر بقومه العجم، والتي أنشأها في منتصف القرن الخامس الهجري، أي قبل عصر الدراسة.

وتداول هذه الرسالة بين نصارى الأندلس في هذه الفترة كان للقدح في العرب والمسلمين مما جعل كثيراً من علماء الأندلس في عصر الدراسة يردون عليها، ومن هؤلاء العلماء مثلاً: أبو العلاء عبد الحق بن خلف بن مفرح الكناني الشاطبي المتوفّى سنة ٥٣٩ هـ، وكان شاعراً، له معرفة باللغة والطب[٣]. ومحمد ابن طيب بن فرج بن أبي الخصال الوزير الأندلسي صاحب التصانيف في المناقب والأدب، والذي تنقل بين قرطبة وغرناطة وفاس، وكانت وفاته في قرطبة سنة ٥٤٠هـ.

وكان رده على رسالة ابن غرسية بعنوان: «خطف البارق وقذف المارق في الرد على ابن غرسية المارق»[٤].

وكذلك أبو العلاء إدريس بن محمد بن محمد بن موسى الأنصارى القرطبي الذي كانت له مشاركات في النظم والنثر وعناية بالحديث وقد كان في قرطبة وبعد استيلاء النصارى عليها انتقل إلى سبتة في شمال المغرب وتوفي بها سنة

---

(١) انظر: الإحاطة في أخبار غرناطة، محمد بن عبدالله بن الخطيب (١/ ٤٧٢).

(٢) هو أبو عامر أحمد بن غرسية من أبناء البشكش، سبي وهو صغير وعاش في بلاط مجاهد العامري حاكم دانية في شرق الأندلس.

انظر: المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي، محمد بن عبدالله ابن الأبار، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧م، ص (٣١١). وكتاب ألف باء، يوسف بن محمد البلوي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م، (١/ ٣٥٠).

(٣) انظر: التكملة لكتاب الصلة، عبدالله بن محمد بن الأبار (٢/ ٦٤٧).

(٤) انظر: كشف الظنون، حاجي خليفة (١/ ٧٨).

٦٤٧هـ[1]، حيث ساهم هذا العالم بالرد على رسالة ابن غرسية وكان رده على هذه الرسالة متداولاً في الأندلس لجودته وقوة حجته.

وهكذا كان للعلماء في غرب البلاد الإسلامية دور بارز في دعوة النصارى، وجهود مشكورة في هذا الميدان سواء بالتأليف أو الكتابة أو الردود أو المناظرة، وكان لهذه الجهود الأثر الملموس ـ كما سيأتي بيانه ـ في إسلام أعداد كبيرة منهم، وقمع باطل ضلالهم، ودحض حجج قساوستهم، وتفنيد شبهاتهم حول الإسلام وتشريعاته.

---

(١) انظر: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، محمد بن محمد المراكشي، السفر الأول، القسم الأول، ص (٢٤٩).

المطلب الثالث

قيام العامة بدعوة النصارى

المقصود بالعامة: ما سوى الولاة والعلماء ممن لم يتميز بعلم أو ولايةٍ، فيدخل فيهم جميع طبقات المجتمع الأخرى كالتجار والصناع والموظفين والجند وأصحاب الحِرف المختلفة وغيرهم.

وهذه الطبقة تشكل السواد الأعظم من الأمة ويتفاوت أفرادها تفاوتاً كبيراً في المستوى الثقافي والاقتصادي والاجتماعي، إلا أنه يجمعهم الإسلام الذي يدينون به، ويخضعون لتشريعاته، وتشكل تعاليمه في الغالب منطلقاً لآرائهم ومختلف تصرفاتهم وإن اختل شيء من ذلك لنقص العلم.

لذا، فإن لهذه الطبقة قوة كبيرة في المجتمع المسلم من حيث التأثير. وكلما سيطر الولاة الصالحين والعلماء الناصحين على هذه الطبقة وتمكنوا من توجيه مناشطها التوجيه السليم انعكس ذلك بالأثر الإيجابي فيها. وأدى إلى تأثيرها في الغير تأثيراً واضحاً.

وهذه الطبقة لا يتصور منها أن تقوم بواجب الدعوة على الوجه الصحيح، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، وشرط الدعوة أن تكون على بصيرة وعلم، وهذا في الغالب محدود في طبقة العامة.

لذلك فإن المقصود بقيام العامة بالدعوة في عصر الحروب الصليبية هو أثر هذه الطبقة على النصارى سواء بإسلام البعض منهم تأثراً بها أو بنقل بعض تعاليم

الإسلام لهم؛ لكون هذه الطبقة تشكل كتلة واسعة في الأمة. وذلك من خلال استشعار كثير من أفرادها عداوة النصارى، ووجوب جهادهم ودعوتهم، ومحاولة الإسهام في ذلك ودعمه، أو من خلال ما يسمى بالضغط الاجتماعي، كأن تعيش أقلية نصرانية بين سواد عظيم من المسلمين فتتأثر بذلك، أو من خلال المجاورة أو بعض الصداقات، أو المخالطة في المعاملات المختلفة بين الفريقين.

والأمثلة كثيرة في هذه الفترة التي يتضح من خلالها دور العامة في القيام بالدعوة وأثرهم في هذا الجانب على النصارى.

فمن استشعار العامة لأهمية جهاد النصارى ودعوتهم ضغطهم على صاحب حلب سنة ٥٠٤ هـ حينما تقاعس عن قتال الفرنج وأرسل إليه صاحب القسطنطينية النصراني يخبره بقدوم الفرنج ويستحثه على قتالهم «فكان أهل حلب يقولون للسلطان: أما تتقي الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للإسلام حتى أرسل إليك في جهادهم»[(١)].

ومن دور العامة ـ غير المنضبط ـ في استنهاض الهمم للتصدي للنصارى وجهادهم أنه حينما جاء الشيخ كمال الدين الشهروزي مبعوثاً من أهل الشام إلى دار الخلافة في بغداد طلباً للنجدة ضد النصارى، وعندما وصل إلى السلطان مسعود السلجوقي وأدى إليه الرسالة ثم قام بعد ذلك يحثّ الناس في يوم الجمعة بمسجد بغداد على الخروج للجهاد ثار العامة وخرجوا من المسجد قاصدين دار السلطان يبكون ويصرخون ويستغيثون حيث خرج الأمر عن الضبط[(٢)].

ومن مواقف العامة تجاه الفرنج الدالة على الشعور العام لديهم بضرورة جهاد النصارى وعدم التعاون معهم أنه حينما استغاث رجل في مدينة قابس بشمال إفريقيا سنة ٥٤٢ هـ بالفرنج ضد المسلمين ثارت عليه العامة وقتلته[(٣)].

---

(١) الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (٨/ ٥٨٥).

(٢) انظر: المصدر السابق (٩/ ٩١ ـ ٩٢).

(٣) انظر: المصدر السابق (٩/ ١٥٢).

وبعد فتح صلاح الدين لمدينة حلب أراد صاحب حصن حارم القريب منها مكاتبة الفرنج ضد صلاح الدين فقبضت عليه عامة أهل حارم ونادوا بالبيعة لصلاح الدين[1].

وحينما اشتد حصار الفرنج لمدينة عكا وأيقن أهلها بالهلكة هموا بأن يجمعوا النساء والأطفال بمسجدها ثم يقتلوهم ويتجهوا إلى الفرنج برماحهم وسيوفهم حتى لا يبقى منهم أحد، لولا أن منعهم العلماء من ذلك وفضلوا تسليم البلد مع الأمان لأنفسهم واختيار أخف الضررين[2].

ومن خلال النماذج السابقة التي تبين شعور عامة المسلمين في ضرورة جهاد النصارى وجهد العامة في تحقيق ذلك يتضح بعض التجاوز في طريقة تحقيقهم هذا الهدف نتيجة لجهل غالبيتهم، وحينما يتدخل العلماء وأهل الرأي في التوجيه ـ كما في المثال الأخير ـ فإن الأمر يختلف، فتنضبط الأمور وفق معيار الشرع، ولا يكون هناك مجال للاضطراب والفوضى والتجاوز.

ويظهر أيضاً دور العامة في دعوة النصارى من خلال المجاورة وانتقال بعض التأثيرات الإسلامية من خلال ذلك. بل إن ذلك قد يؤدي إلى إسلام البعض منهم.

فمن نماذج ذلك ما حكاه الشيخ عبدالله بن أبي الحسن بن أبي الفرج الحبائي الطرابلسي الزاهد المتوفّى سنة ٦٠٥ هـ عن نفسه والذي كان نصرانياً فأسلم ووالده من علماء النصارى حيث قال: «كنا نصارى فمات أبي ونحن صغار فقدر الله أن وقعت حروب فخرجنا من القرية وكان فيها جماعة مسلمون يقرأون القرآن فأبكي إذا سمعتهم، قال: فأسلمت وعمري إحدى عشرة سنة»[3].

وفي الأندلس كانت المجاورة بين المسلمين والنصارى أكثر وضوحاً إذ كانوا منبثين بين المسلمين، ولم يفرض عليهم اتخاذ مساكن معزولة عن

---

(١) انظر: الروضتين في أخبار الدولتين، عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (٢/ ٤٦).

(٢) انظر: رحلة ابن جبير، محمد بن أحمد الكناني، ص (٢٧٩).

(٣) سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي (٢١/ ٤٨٨).

المسلمين[1]. «فكان النصراني يجاور في داره المسلم»[2]. ولا يخفى أثر هذه المجاورة في انتقال بعض العادات والآداب بين المتجاورين.

وللعامة دور في دعوة النصارى وانتقال بعض التأثيرات الإسلامية إليهم من حيث أن العامة تشكل السواد الأعظم من المجتمع، هذه الطبقة العريضة بممارستها لشعائر الإسلام تقوم بنوع من الضغط الاجتماعي على غيرها من التجمعات الصغيرة غير المسلمة من غير اضطهاد أو تعسف.

فإذا كانت هناك قرية نصرانية مثلاً في وسط منطقة واسعة من المدن المسلمة فإنه ولا شك سوف يكون ـ والحال هذه ـ بعض التأثيرات على هذه التجمعات الصغيرة وربما تحولها إلى الإسلام.

وقد لاحظ ذلك أحد الباحثين النصارى في تحليله لأوضاع أبناء ملته في البلاد التي انتشر فيها الإسلام كالشام وآسيا الصغرى ومصر وغيرها. حيث بين أثر هذا العامل في تحول كثير من النصارى إلى الإسلام قبل الحروب الصليبية وأثنائها حيث قال: «... كانت أوضاع غير المسلمين داخل الدولة الإسلامية في حالة لائقة، على أن هذا لم يمنع حدوث دخول شامل للمسيحيين إلى الإسلام... ولا يمكننا هنا أن نسهب في تحليل أسباب هذا التحول والتي من بينها الضغط الاجتماعي الطبيعي للأوساط المهيمنة بلا أي اضطهاد والذي كان له دور بالتأكيد في ذلك...»[3].

وبين توماس آرنولد أن هناك تحولات جماعية إلى الإسلام في هذه الفترة من غير سبب مباشر مما يؤكد دور عامل الضغط الاجتماعي في ذلك.

---

(١) انظر مقال: جوانب من تاريخ أهل الذمة في الأندلس الإسلامية، عمر بنميرة، مجلة دراسات أندلسية، عدد (١٤)، محرم: ١٤١٦ هـ.

(٢) سراج الملوك، محمد بن الوليد الطرطوشي، تحقيق: محمد فتحي أبو بكر، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤م، (٢/٥٨٩).

(٣) انظر: الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشيخ، ص (٣٥).

حيث قال: «... وكان عدد المرتدين عن المسيحية في القرن الثاني عشر الميلادي كثيراً كثرة نلاحظها في سجلات الصليبيين القانونية التي يطلق عليها مجالس قضاء بيت المقدس... وقد لا يكون من الممتع أن تعرف من هم هؤلاء المسلمون الذين توفروا على كسب هؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام»[(١)].

ولذلك فإن أحد قادة الصليبيين أرسل البابا ونوابه في فرنسا وصقلية في حوالي سنة ٦٦٤ هـ ـ ١٢٦٦م رسالة: «أن يمنعوا الفقراء والشيوخ والعاجزين عن حمل السلاح من عبور البحر إلى فلسطين، لأن أمثال هؤلاء الأشخاص كانوا يتعرضون إما للقتل أو الأسر أو لأن يفتنهم العرب عن دينهم»[(٢)].

ومن الأدلة على أثر هذا العامل ما ذكرته بعض المصادر النصرانية من وجود أعداد كبيرة من نصارى الصليبيين الذين اعتنقوا الإسلام في مدن الشام والقاهرة حتى بعد زوال الإمارات الصليبية، حيث قدرته بعض المصادر بأكثر من خمسة وعشرين ألفاً في القاهرة وحدها[(٣)].

ولا شك أن وجود هذه الأعداد الكبيرة دليل على مساهمة هذا العامل وأثره الكبير في تحويل كثير من النصارى إلى الإسلام.

وكذلك الحال في الأندلس حيث أشارت بعض المصادر إلى تحول أعداد كبيرة من النصارى المعاهدين إلى الإسلام في عهد الأمير المرابطي علي بن يوسف[(٤)]، وكذلك إسلام جماعات نصرانية في عهد الموحدين[(٥)].

---

(١) الدعوة إلى الإسلام، توماس آرنولد، ترجمة د. حسن إبراهيم حسن وآخرين، ص (١١٠).

(٢) المصدر السابق، ص (١١٢).

(٣) انظر: المصدر السابق، ص (١١٣).

(٤) انظر: المعيار المعرب، أحمد بن يحيى الونشريسي (٨/ ٢٠).

(٥) انظر: تاريخ النصارى في الأندلس، د. عبادة عبد الرحمن كحيلة، المطبعة الإسلامية الحديثة، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٣م، ص (٢٤٧).

ودخول هؤلاء الأعداد الكبيرة في الإسلام من غير إشارة إلى سبب مباشر يؤكد أثر عامل الضغط الاجتماعي في ذلك.

ويظهر دور العامة أيضاً في دعوة النصارى ونقل بعض التأثيرات الإسلامية إليهم من خلال المعاملات التجارية بين الطرفين.

فمما لا شك فيه أنه كانت هناك حركة نشطة في هذا المجال بين المسلمين والنصارى في هذه الفترة، وكانت القوافل التجارية لكل طرف تجتاز في مناطق نفوذ الطرف الآخر، وكان لذلك تنظيماته ومعاهداته.

قال ابن جبير الذي زار الشام في هذه الفترة ودوّن ملاحظاته ومشاهداته عن الحركة التجارية بين الطرفين: «... واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين إلى عكا - والتي كانت من أهم مناطق الفرنج في الشام - كذلك، وتجار النصارى لا يمنع أحد ولا يعترض، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم وهي من الأمنة على غاية، وتجار النصارى أيضاً يؤدون في بلاد المسلمين، والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال، وأهل الحرب مشتغلون في حربهم، ... ولا تُعترض الرعايا ولا التجار، فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلماً وحرباً»[(١)].

ولأهمية العلاقات التجارية بين الطرفين وكثرتها فلقد صار لبعض تجار المسلمين شأن عند بعض قائدة الفرنج ومكانة خاصة أفادوا منها في تحقيق بعض المصالح للمسلمين كفكاك الأسرى وما شابه ذلك[(٢)].

بل إن بعض الممالك النصرانية في أوربا والأندلس اهتمت كثيراً بالتجارة مع المسلمين، فقامت بعض هذه الممالك بعقد اتفاقيات مع الحكام المسلمين في الشام ومصر.

ومن ذلك مثلاً المعاهدة التي عقدت بين مملكة أرجونة النصرانية في

---

(١) رحلة ابن جبير، محمد بن أحمد الكناني، ص (٢٥٩ - ٢٦٠).

(٢) انظر: المصدر السابق، ص (٢٨١).

الأندلس، وبين السلطان قلاوون سنة ٦٨٩ هـ.

حيث تتعلق هذه المعاهدة بأمور التجارة وتنظيمها، واتفاقيات سياسية وعسكرية وغيرها[١].

ومن أجل عقد هذه الاتفاقية التجارية مع المسلمين جاءت سفارة من المملكة النصرانية ومعها بعض الهدايا من بينها سبعين من أسرى المسلمين[٢].

وقد تضمنت هذه الاتفاقية التي في أصلها لتنظيم أمور التجارة بين الطرفين مواداً أخرى في صالح المسلمين: مثل عدم مساعدة مملكة أرجونة النصارى ضد المسلمين، «وإن قصد الباب برومة أو ملك من ملوك الفرنج... قصد مولانا السلطان بمحاربة أو أذية يمنعهم الملك الريد راغون ويردهم...»[٣].

وتضمنت كذلك النَّصَّ على فكاك الأسرى المسلمين. «وعلى أنه متى أسر أحد من المسلمين في البر أو في البحر من مبدأ تأريخ هذه المهادنة من سائر البلاد شرقها وغربها، أقصاها وأدناها، ووصلوا به إلى بلاد الملك الريد راغون أو بلاد إخوته ومعاهديه ليبيعوه فيلزم الملك راغون فك أسرهم وحملهم إلى بلاد مولانا السلطان»[٤].

ومعاهدة أخرى مع تجار جنوه الإيطالية نصت على احترام المسلمين وتقديرهم وإكرامهم[٥].

وفي غرب الدولة الإسلامية وفي الأندلس خاصة كانت المعاملات التجارية بين المسلمين والنصارى أكثر وضوحاً وأوسع انتشاراً كما أشارت إلى ذلك بعض المصادر المعاصرة لفترة الدراسة.

---

(١) انظر نص المعاهدة في: تشريف الأيام والعصور في سيرة المنصور، محي الدين ابن عبد الظاهر، القاهرة، ١٩٦١م، ص (١٥٦).

(٢) انظر: المصدر السابق، ص (١٥٦).

(٣) المصدر السابق، ص (١٥٦).

(٤) المصدر السابق، ص (١٥٦).

(٥) انظر: المصدر السابق، ص (١٦٦).

فقد تعود تجار النصارى من الممالك الإسبانية القدوم بتجاراتهم إلى الأندلس المسلمة في أوقات الهدنة، فكان المسلمون يتعاملون معهم ويبايعونهم[١].

وكانت أسواق الأندلس تعج بالنصارى المعاهدين، فكان عموم المسلمين يبيعون عليهم ويبتاعون منهم الألبسة والأطعمة وغيرها[٢].

ولا شك أن المعاملات واللقاءات المتكررة من أجل التجارة سوف يكون لها أثر في تعرف بعض النصارى على شيء من تعاليم الإسلام بل والتأثر بها.

وهكذا كانت العلاقات التجارية بين الطرفين، واحتكاك التجار المسلمين بالنصارى من أسباب التأثير عليهم في تحقيق بعض المصالح للمسلمين من كف الأذى، واحترام المسلمين، وإكرامهم، مع ما ينتقل عبر هذه المعاملات من بعض التأثيرات الإسلامية إلى النصارى والتي قد تصل إلى إسلام البعض منهم.

ومن دور العامة في دعوة النصارى اكتساب بعض النصارى شيئاً من عادات المسلمين وتأثرهم بها من خلال بعض الصداقات بين الأفراد من الطرفين، حيث يوضح موقف أسامة بن منقذ مع صديقه الفارس الصليبي ذلك.

فعندما زار أسامة صديقاً له من الفرنج في منزله، وقدم الفرنجي لأسامة طعاماً، فتورع أسامة عن مد يده إليه، فلاحظ ذلك الفرنجي فأخبره بأن الطعام خال من الخنزير[٣].

والمخالطة في الحياة العامة كذلك لها أثرها الكبير في انتقال بعض عادات المسلمين إلى النصارى.

---

(١) انظر: فتاوى ابن رشد الجد، محمد بن أحمد بن رشد «الجد»، تحقيق: المختار بن الطاهر التليلي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م، (٣/ ١٦١٩ - ١٦٢٠).

(٢) انظر: المصدر السابق (٢/ ٩٧٣)، و(٣/ ١٢٨١ - ١٢٨٢)، والمعيار المعرب (٦/ ٦٩).

(٣) انظر: الاعتبار، أسامة بن مرشد بن علي بن منقذ، حرره فيليب حتي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ص (١٤٠).

ففي حاضرة صقلية شاهد ابن جبير أثر هذه المخالطة في اكتساب النساء النصرانيات للحجاب تشبهاً بنساء المسلمين.

«وزي النصرانيات في هذه المدينة زي نساء المسلمين، فصيحات الألسن، ملتحفات منتقبات»[١].

ويؤكد ذلك أحد المؤرخين الأوربيين حيث وضح تشبه النصرانيات بنساء المسلمين في الشام، «... وكانت النساء الصليبيات يقلدن المسلمات في لبس الحجاب الذي يضفي على المرأة الحشمة والوقار»[٢].

كذلك تقليد نصارى الصليبيين للمسلمين في النظافة والطهارة والاستحمام وكانوا لا يلقون إلى ذلك بالاً[٣].

وهكذا فإن المخالطة في الحياة العامة هي من أهم مجالات تأثير عامة المسلمين على النصارى، إلا أن هذه المخالطة المطلقة للعامة بالنصارى غير محمودة العواقب في بعض الأحيان، وذلك أن هؤلاء العامة أقل حظاً من العلم مما يؤدي إلى تقبلهم بعض شبه النصارى وتأثرهم ببعض عاداتهم وتقاليدهم، وهذا ما حدث فعلاً لبعض المسلمين.

ولذلك فإن بعض قادة المسلمين وعلمائهم في هذه الفترة حذروا من هذا الاختلاط غير المنضبط للمحاذير المترتبة من جرائه.

ففي مفاوضات الصلح بين صلاح الدين والصليبيين في عكا فكان أهل الرأي في جيش صلاح الدين يحذرونه من المصافاة المطلقة مع النصارى، وأن يكون التعامل معهم بحذر دون المبالغة في ذلك. وكان من قولهم: «فإن مصافاة الفرنج للمسلمين بحيث يخالطوهم بعيدة صحته، غير مأمون الغائلة»[٤].

---

(١) رحلة ابن جبير، محمد بن أحمد الكناني، ص (٣٠٧).

(٢) تاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رانسيمان، ترجمة د. السيد الباز العريني (٢/ ٥٠٩).

(٣) انظر: الاعتبار، أسامة بن مرشد بن منقذ، ص (١٣٦ ـ ١٣٧).

(٤) النوادر السلطانية، يوسف بن رافع بن شداد، تحقيق: د. جمال الدين الشيال، ص (٣٠٣).

وابن جبير الذي تنقل في الشام ومصر وصقلية في هذه الفترة، وزار مناطق المسلمين ومناطق النصارى وشاهد بعض آثار هذه الخلطة المطلقة بين الجانبين في بعض المناطق حذر أشد التحذير ممن يخالط النصارى وهو يجد بدلاً في بلاد المسلمين. «. . . وليست له عند الله معذرة في حلول بلدة من بلاد الكفر إلا مجتازاً وهو يجد مندوحة في بلاد المسلمين لمشقات وأهوال يعانيها في بلادهم من الذلة والمسكنة الذمية، ومنها سماع ما يفجع الأفئدة من ذكر من قدس الله ذكره، وأعلى خطره، ولا سيما من أراذلهم وأسافلهم، ومنها عدم الطهارة والتصرف بين الخنازير وجميع المحرمات. . . فالحذر الحذر من دخول بلادهم، والله تعالى المسؤول حسن الإقالة والمغفرة من هذه الخطيئة التي زلت فيها القدم»[1].

ودور مهم آخر للعامة في دعوة النصارى من خلال اشتراكهم في الجهاد الفعلي للنصارى.

ذلك أن غالبية جيوش المسلمين من عامة الناس، ولذلك فاشتراكهم في هذه الجيوش يعد مساهمة فعالة لهم في دعوة النصارى في هذه الفترة، ولا شك أن الجهاد من أهم وسائل الدعوة، ومن أهم عوامل قوة الدولة المسلمة بشكل عام، والتمكين للوسائل الدعوية الأخرى لأن تحقق أهدافها بشكل خاص.

ومما يلحق بدور العامة غير المباشرة في دعوة النصارى حفاظ هذه الطبقة العريضة من المجتمع على السمة العامة للمجمع المسلم الملتزم بأحكام الإسلام بحيث تثور وتظهر الغضب إذا ظهر ما يخالف الدين فتقوم بردة فعل للاستنكار، وربما يكون ذلك بشكل غير منضبط.

ولا شك أن استنكار عامة المجتمع لكل ما يخالف الدين ظاهرة صحية تدل على سلامة بنائه، إذا كانت بضوابطها الشرعية حيث تؤدي إلى قوته وصموده ووحدته أمام الغزو الفكري والعسكري، وهذا ما يعد من أهم أسباب نجاح الجهود الدعوية الموجهة إلى النصارى.

---

(١) رحلة ابن جبير، محمد بن أحمد الكناني، ص (٢٧٩ ـ ٢٨٠).

فمن احتساب العامة على بعض المظاهر المخالفة في المجتمع المسلم عداؤهم الشديد للفرق الهدامة ومحاربتها وملاحقة من يتهم بها.

فمثلاً حينما قام أحد الباطنية بقتل أحد الفقهاء اجتمعت عليه عامة الناس وقبضت عليه وسلمته للسلطة[١].

وفي سنة ٦٠٠ هـ ثارت العامة بواسط ضد الباطنية وصارت تقتل كل من يتهم بذلك[٢].

وفي حوادث سنة ٥٧٤ هـ عندما قُبض على أحد أئمة الرافضة في بغداد لسبه الصحابة من أجل تأديبه ثارت عليه العامة فرجمته بالحجارة حتى مات[٣].

وحينما تكلم أحد المبتدعة في جامع بغداد في بعض عقائد الخوارج ثارت عليه العامة ورجمته بالحجارة حتى منعته من درسه، ولما همَّ بالعودة إلى ذلك «... اجتمع الناس في الصحراء متأهبين لرجمه وجاؤوا بقوارير النفط فلم يحضر ومُزق فرشه قطعاً، وتُقدم إليه ألا يجلس ولا يخرج من رباطه، وما زال أهل البلد على حنق عليه»[٤].

هكذا تمثل دور العامة في دعوة النصارى في هذه الفترة بتأثيرهم على كثير من النصارى سواء بإسلام بعضهم أو بتأثرهم ببعض تعاليم الإسلام، أو من خلال دعم هذه الطبقة لجهاد النصارى بل والمشاركة فيه، أو عن طريق المجاورة أو الصداقة في بعض الأحيان، أو التجارة، أو من خلال المخالطة في المعاملات المختلفة.

---

(١) انظر: الذيل على الروضتين، عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، ص (٥٠).

(٢) انظر: الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (١٠/ ٢٠٢).

(٣) انظر: المنتظم، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق محمد عبد القادر عطا وزميله (١٨/ ٢٥١)، والبداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين (١٢/ ٣٢١).

(٤) المنتظم، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق محمد عبد القادر عطا وزميله (١٨/ ٢٠٢).

وهذا الدور للعامة على الرغم من أهميته إلا أنه لا يستغني عن توجيه العلماء ومراقبة الولاة والقادة ليضبط بالضوابط الشرعية حتى يتحقق الهدف منه على الوجه المطلوب، وإلا فإن قيام العامة بهذا الدور سوف يظهر فيه الخلل الواضح وما يترتب على هذا الخلل من نتائج عكسية.